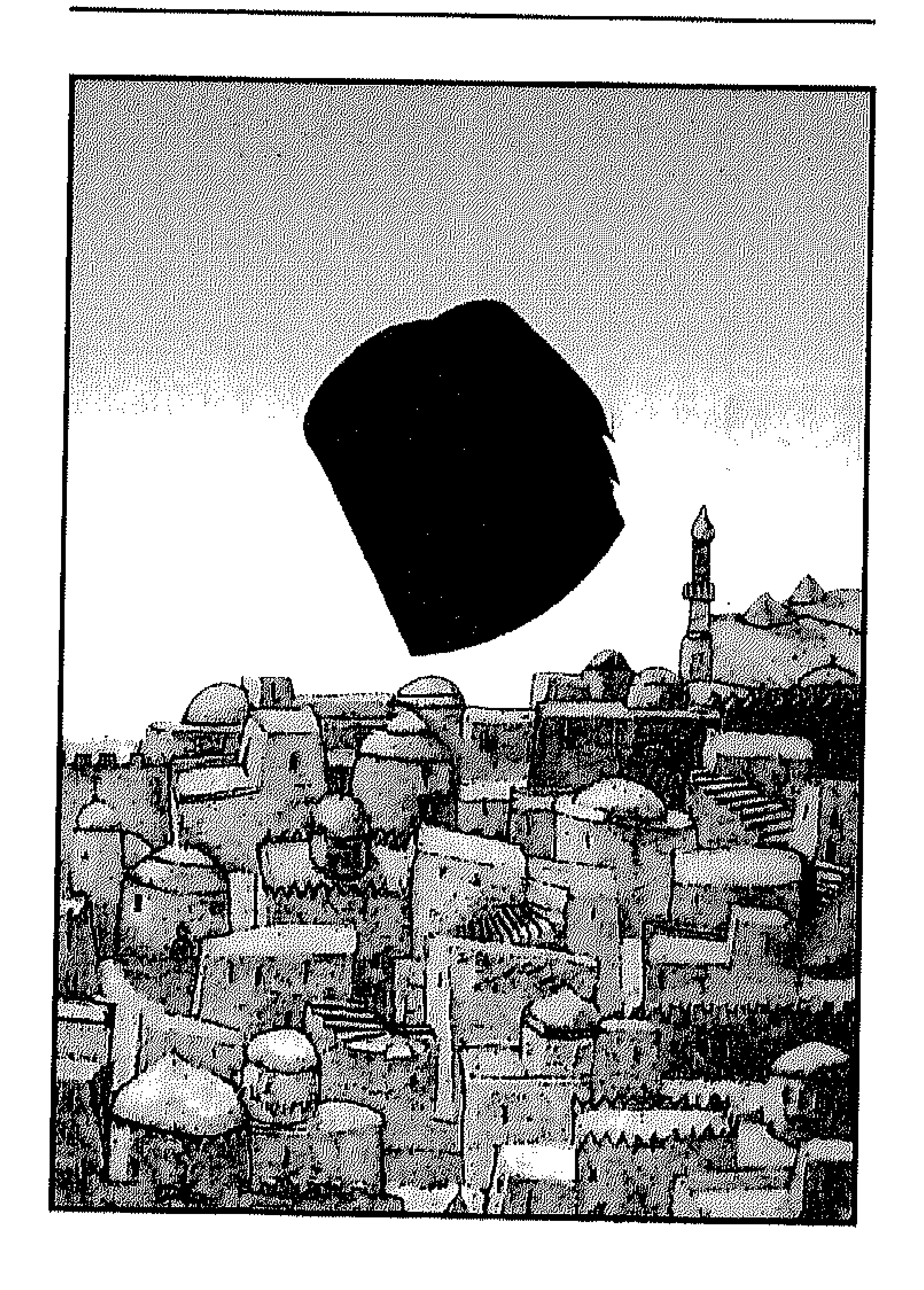
روبير سولي

الطربوش

رواية



ترجمة: رندة بعث



الطربوش

* روبير سولي

* الطربوش

* ترجمة رندة بعث

* مراجعة رشا الصباغ

* الطبعة الأولى 2000

* موافقة وزارة الإعلام رقم 49341 تاريخ 2000/10/2

* الناشـــــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع

سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053

* الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر

* الإشـــــراف الفني : د. مجد حيدر

* الإخــــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع

* التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053

روبير سولي

الطربوش

رواية

ترجمة: رندة بعث

العنوان الأصلي للكتاب:
LE TARBOUCHE

مقدمة

في ربيع عام 1916، زار سلطان مصر، مصحوباً بكامل حاشيته، ثانوية اليسوعيين في القاهرة، وسرد أمامه فتىً سوري إحدى حكايات لافونتين وهو يرتجف من الانفعال؛ وبقيت الذكرى المبهرة لذلك اليوم ترافق الفتى طيلة حياته. ينتمي ميشيل بطركاني إلى عائلةٍ شاميةٍ مسيحيةٍ مشبعة بحب الثقافة الفرنسية؛ وفي مصر الرائعة المتعددة الثقافات والخاضعة للانتداب البريطاني في ذلك الحين، كان هؤلاء المسيحيون المشرقيون أقليةً تتأرجح بين عالمين.

لماذا غامر جورج بطركاني، والد ميشيل، بصنع الطرابيش؟ إن هذه العمرة الذكرية التي يشبّهها أعداؤها بأصيص الزهور كانت آنذاك شعاراً وطنياً، كما كانت رمزاً لمجتمع سعيد سوف تؤدّي الاضطرابات التي ستحصل خلال ذلك العصر إلى اختفائه.

إنها ساغا(*) عائلية، روايةٌ عن الزمن الماضي في شرقٍ قريب جداً. تستعيد لنا «الطربوش» عالماً من العذوبة والرقّة وهو يتنقّل ما بين سطيحات فندق هليوبوليس، وشواطئ الإسكندرية، ومروج نادي الخديوي الرياضي، عالماً تعبره شخصياتٌ غريبة الأطوار، مثل ناندو المرابي الشبيه بالفيل، وماغي المثيرة بزمرة عشاقها، ومكرم القبطي الذي أقسم أن يرتدي ثياب الحداد حتى رحيل آخر جنديٍ إنكليزي...

(*) الساغا: نوع من السرد النثري الممتد على فترةٍ زمنية طويلة.

بعد فترةٍ قصيرةٍ، سوف يستولي ضباطٌ يرتدون القبعة العسكرية على السلطة، وترحل موضة الطربوش؛ سيكون هذا إيذاناً بنهاية عالَمٍ، وبداية منافٍ أخرى بالنسبة لسوريي مصر.

ولد روبير سولي في القاهرة وعاش في مصر سبعة عشر عاماً. وهو الآن (عام 1992 حين نُشرت الرواية لأول مرة في فرنسا) رئيس تحرير في جريدة اللوموند Le Monde بعد أن كان مراسلاً لها في روما وواشنطن، و«الطربوش» هي روايته الأولى.

إلى اليزابيث

توطئة

وصل جورج بيه بطركاني بكامل أبهته إلى المشفى الفرنسي في حي العباسية بعد أقل من ساعتين على ولادتي. كان أكثر أناقةً منه في أي وقت مضى، بلحيته الحليقة وعطره، وبالبدانة المحببة لرجلٍ في السادسة والستين يقضم الحياة بأسنانه القوية. كان طربوشه الخمري القاتم والمائل قليلاً إلى الجانب يضفي عليه مظهراً مهيباً.

لدى وصوله إلى الطابق الأول، حثّ جورج بيه خطاه متجهاً نحو الغرفة رقم 14. رددت الممرات المطلية بالشمع صدى خطواته الواثقة، في حين تبعه السائق لاهثاً وهو يحمل بين يديه سلّةً ضخمة من الورود.

ـ «*مبروك، ألف مبروك!*»(*)، هتف الرجل ذو الطربوش بمرحٍ وهو يدخل حجرة ابنته.

ثم انحنى نحوها يقبّلها، ووضع في يدها هديةً صغيرة كان قد أوصى عليها قبل ثلاثة أشهر إيلياكيم، الصائغ المشهور في شارع الملكة فريدة.

جلست فيفيان بارتخاءٍ في سريرٍ كبيرٍ أبيض اللون وهي تشعّ

(*) آثرتُ الإبقاء على الكلمات التي كتبت باللغة العربية في النص الفرنسي بخطٍ مائل. م.

بالسعادة، فقد وضعت لتوّها مولوداً وبدأت ترى العالم بعينين مختلفتين؛ كان المولود بِكرها، وكان ذكَراً.

ألقى جدي على الوليد الأسمر الذي أروه إياه ملفوفاً بقماطٍ أزرق نظرةً ساهية. إذ أنّه لم يكن قد حضر ليراني، بل ليرى النفساء، وكأنه يريد اللحاق بموعدٍ كان قد تخلّف عنه قبل ثلاثة وعشرين عاماً. كان قد عاهد نفسه على الوصول قبل كافة أفراد الأسرة الآخرين، بحيث لا يسبقه سوى صهره الذي كان يبدو ـ رغم شيءٍ من الحيرة ـ وكأنه يطير فرحاً بذلك المخلوق الصغير الذي كانت إحدى الراهبات قد وضعته بالقوة بين ذراعيه...

كانت غرفة فيفيان المتجهة نحو الشرق تستقبل مباشرةً الشمس التي أشرقت لتوها. ومن خلال الباب ـ النافذة الذي توجبت مواربته كيلا يختنق مَن في الغرفة من الحر، كان يُسمع النداء المنغّم الرتيب لبائع فولٍ يردد: «*فول مدمّس، فول مدمّس...*» داعياً إليه أوعية الفطور. في تلك الفترة من نهاية أيلول عام 1945، كان الصيف القاهري يتمطّى ويجرجر قدميه دون أن يقرر بعدُ قلب الصفحة.

كانت عائلاتنا السورية تخرج من حربٍ عالميةٍ ثانية لطيفةٍ نوعاً ما، لم تلحظ منها سوى أصوات انفجاراتٍ بعيدة. وغدت القاهرة خلال أربعة أو خمسة أعوامٍ باحة تسليةٍ ولهوٍ لآلافٍ من جنود الحلفاء المحاربين في الصحراء الغربية. وقد مرح العديد منّا كثيراً خلال هذه الاستراحة الخاكية، بل إنهم استفادوا منها. لكن المستقبل بدا لهم مقلقاً: ألم تكن مصر المحمومة هذه تصرّ بعنادٍ على أنها تريد أن تصبح مصرية؟

مع اقتراب الغيوم، كان السوريون الأكثر تشاؤماً يحاولون الاندماج بمحيطهم بشكلٍ أكبر؛ وهو منعكسٌ حَربائيٌّ قديم، فقد أكسبتهم عدّة قرونٍ من التنغيص في ظلّ الإمبراطورية العثمانية نوعاً من المناعة. وهكذا، أخذ الكثير من أفراد عائلاتنا يضفون سماتٍ عربية على أولادهم في المهد، من أجل المظهر على الأقل.

فكانت أسماء: عادل ونبيل ورفيق تحلّ رويداً رويداً محل: أندريه وبيير وبول. أما البنات فكانت أسماؤهن تسبب مقداراً أقل من الهموم، وظلّت تؤخذ بشكلٍ واسع من أسماء القديسات الغربيات.

- تريدون أن تطلقوا عليه اسم رفيق؟ قال جورج بطركاني باستغراب. يا لها من فكرة! لِمَ لا تدعونه شارل، باسم ابني المسكين الراحل؟ سيسرني هذا كثيراً!

لم يكن من الممكن مقاومة مثل هذا النداء، خاصّة حين يأتي من جورج بيه. كانت فيفيان تبتسم شاردة، الأمر الذي كان من الممكن أن يفسّر على أنه موافقة. أما والدي الذي ارتبك، فلم يجد ما يردّ به على الفور... وهكذا، أُطلق عليَّ اسمُ شارل.

انسحب الرجل ذو الطربوش بعد أن أنجز مهمته ليذهب إلى إفطار عملٍ في فندق شيبرد، وسائقه في أثَره. وفي ممر دار التوليد، انحنى احتراماً للبروفيسور مارتان بيرار الذي أبهر أمي منذ معاينته الأولى لها، فلم تكفّ عن مدحه طيلة أربعة عقود...

بالمناسبة، إني أحيّيك يا سيد مارتان بيرار؛ ودون أن أبخس مواهبك في التوليد حقّها، فأنا أعتقد بأن لجنسيتك الفرنسية صلةً وثيقةً بهذا الركام من المدائح التي انهالت عليك من سوريةٍ فتيّةٍ وجميلة، وكذلك من صديقاتها كافة. أترى، لقد كنّ جميعاً يعشقن فرنسا دون أن تسري في عروقهنّ قطرة دم فرنسيةٌ واحدة. كنّ يعرفن باريس عن ظهر قلب، حتّى قبل أن تطأها أقدامهنّ. ولا بدّ أنّك قد خمّنت ذلك وأنتَ تجسّ تلك البطون المكوّرة الرشيقة.

وماذا عنّا نحن، داخلها: رفيق، نبيل، بيير أو شارل؟ فكّر ياسيدي في أنك كنت اتصالنا المادي الأول بالعالم الخارجي. ومنذ ظهور أنفٍ أو مؤخّرةٍ لواحدٍ منّا، كانت أيدٍ فرنسية هي التي تشدّه إلى الخارج. كانت فرنسا في استقبالنا! الأحرى بنا أن نقول بأن مفهوم *الوطن الأم* لم يكن يوماً شديد الوضوح في أذهاننا.

كنا نُدعى بالسوريين، وهي تسميةٌ ملتبسة تتجاهل لبنان،

علاوةً على أنها توحي بأننا ننتمي إلى بلدٍ آخر. كما لو أن عائلاتنا المستقرة في مصر منذ أعوام لم تكن قد قطعت بعدُ جسورها بشكلٍ نهائي مع دمشق أو حلب أو صيدا!

لكن، ألم نكن نحن نحافظ على هذا الالتباس ونغذيه بهدف الحصول على سمةٍ مميزة وبسبب الحاجة إلى اختلافٍ ما؟ في مصر، كان هناك الإنكليز واليونانيون والإيطاليون والأرمن واليهود... أما نحن، فكنّا السوريين، لأننا لم نكن لا مصريين بالكامل، ولا أوروبيين نوعاً ما.

والحقيقة أننا لم نكن نعلم الكثير عن أسلافنا، فأشجار العائلة لم تكن تنمو عندنا أبداً. ونادراً ما تكبّد أحد السوريين أو اللبنانيين في مصر مشقة الاطلاع على الأرشيف الضئيل المتوافّر.

خلال كل مراحل طفولتي، سمعت الكبار يناقشون أصولنا بالكثير من عدم الدقّة، إذ لم يكن للوقائع بحدّ ذاتها كبير أهميةٍ لدينا. فالمهم هو الطريقة التي يتم بها سرد هذه الوقائع والتعليق عليها، وما يُروى يُعتبر حقيقةً، شريطة أن يكون باهراً. وكانت فترات الغداء من أيام الأحد توقيتاً مفضّلاً لتلك المناظرات الكلاميّة.

ـ نحن من منطقة لومباردي Lombardie ، يقرر جورج بطركاني. لديّ كرّاس صغير دَوّن عليه حبيب، عمّ أبي، مصاريف زواجه كافّة، وكلّه مكتوبٌ باللغة الإيطالية.

ـ لكنّ هذا لا يعني شيئاً، يردّ عليه ابن العم الصائغ. ففي تلك الحقبة، كان الجميع يتكلّمون الإيطالية. كلاّ، إن اسم بطركاني منحدر من الكلمة العربية: بطرك. لقد كان بين أسلافنا ولا شكّ مطرانٌ رفيع، وأظنّ بأنّه قد اختير في كرسي إنطاكية.

ـ مطران؟ بشرفي، إنه مجنون! منذ متى كان للمطارنة ذرية؟

ـ أنتم تهذرون! تصرخ العمة نيني من طرف المائدة قائلةً: نحن ننحدر من الصليبيين، وهذا مُثبت.

ـ ومن الذي أثبت ذلك، من فضلك؟

ـ وهل تعتبرني كاذبة؟

ـ لا، لستِ كاذبة، *ياستي*. كل الناس يعلمون بأن سجلاّت البطركية في دمشق...

ـ هل رأيت بنفسك تلك السجلاّت؟

ـ لا، لكنني أعلم ـ وهذا مثبت ـ بأن آل البطركاني قد تركوا مقدونيا في القرن السادس عشر أو ربما في القرن السابع عشر، واستقروا في سوريا. إن اسم بطركاني هو اسمٌ يوناني، مثل سكاكيني، زنانيري...

ـ ربما لهذا السبب يدعوننا بالروم الكاثوليك، تستنتج ربّة المنزل وهي تمزج بمرحٍ بين الكنيسة والجغرافيا. هيّا، حضّروا أطباقكم، *الملوخية* لا تنتظِر!

ضمن هذا الإطار، كان ميشيل بطركاني، الحائز على شهادةٍ في التاريخ، حالةً مميزةً. ولو أن السماء وهبت خالي ذاك طبعاً أقل شروداً وطموحاً أكبر، لأمكنه الوصول حتّى إلى شهادة الدكتوراه... لكنني أدين له بفضلٍ كبير، فلولا أوراقه ومذكراته لما أمكن البدء بهذه القصة أبداً؛ ولو كان عليَّ الاكتفاء بذكريات بقية أفراد العائلة المرتبة بشكلٍ أو بآخر، والمنمّقة بشكلٍ أو بآخر...

حين زار ميشيل دار التوليد بعد الظهر، كانت حجرة أمي قد تحولت إلى حديقة حقيقية، وتوجّب فتح الباب ـ النافذة بالكامل كيلا يختنق الحاضرون بالروائح العطرة لكل تلك الزهور التي ازدحمت بها الطاولة والكراسي وقسمٌ من الحمّام.

شعر خالي بشيءٍ من الخجل بدزينته الصغيرة من الزنبق المغلّف بالسلّوفان، لكن فيفيان لم تترك له الفرصة ليفكّر بذلك:

ـ ميشيل، أنت العرّاب المثالي لابني. سيكون لديك على الأقل قصّة جميلة تحكيها له. فكِّر في أنه وُلِد بعد ثلاثين عاماً من لقائك بالسلطان. نعم، احسب...

وهكذا، مربكاً، وجد ميشيل نفسه حاملاً بين ذراعيه ابناً بالمعمودية، وهو الأعزب الأربعيني الذي يشعر مع الكتب والذكريات

براحةٍ أكبر من التي يشعر بها مع الأحياء. كان يتمنى لو يستغني عن هذا الشرف، لكن كيف يقول لا لأختٍ بهذه الفتوة، وهذا المقدار من السحر، أختٍ كانت تستعيد ذكرى يوم 13 أيار 1916؟ إنها بالفعل ثلاثون عاماً تقريباً، ثلاثون عاماً.

ـ هل تدري أن اسم ابني قد تغير في الصباح؟ كنا نريد أن نسميه رفيقاً، لكن بابا أصر على تسميته شارل... لاحِظ بأن البروفيسور مارتان بيرار يجد اسم شارل رائعاً.

ـ بشرفي، لقد أصبح هؤلاء الفرنسيون جميعاً من محبّي ديغول!

ـ أتعلم؟ إنّه مولِدٌ ليس له نظير.

لم يكن لدى ميشيل ما يجعله يشك في ذلك. هزّ رأسه قليلاً ـ كان قد عاد إلى شروده.

ـ إذن، اتفقنا *يا ميشو*؟ هل تقبل أن تكون عرّابه؟

قَبِل بابتسامة، ونظرته ضائعة بين الزهور؛ فبذكرها للسلطان، أعادته أخته إلى الوراء ثلاثين عاماً. وكل هذه الورود، كل تلك الزنابق المبعثرة في الحجرة ذكّرته بدَرَج الثانوية الخارجي الذي غطّته الزهور بشكلٍ استثنائي، في أحد صباحات أيار، حيث كان الربيع على موعدٍ مع التاريخ...

القسم الأول

كان السلطان يحبّ لافونتين

1

13 أيار 1916

«في هذا الصباح، وفي الساعة العاشرة والنصف وخمس دقائق، جاء السلطان إلى الثانوية، وقد تلوت أمامه «الفلاّح وأولاده»؛ هنّأني السلطان».

لم يكن في النص أية صفة، أية زركشة. فقد خطّت ريشة ميشيل بطركاني على الورق ما هو لازمٌ فقط، وبحيث لا يتفشّى الحبر البنفسجي المائع نوعاً ما على حواف الحروف الثخينة والدقيقة، كما لو كان كل انفعالٍ في الكتابة محظوراً ذلك المساء، كما لو أنّ أهمية الحدث كانت تفرض دقة عالِم حشرات، وأسلوب كاتب محكمة.

لحسن الحظ، فإن لدى اليسوعيين أرشيفاً جيداً. كما أننا نعرف جميعاً كم سيُظهر عرّابي من الإسهاب فيما بعد، إذ لم يكن يهمل أي تفصيلٍ عن ذلك اليوم المشهود الذي بدأ بكارثة.

فقد ادّعت المربّية الفرنسية، الآنسة غيومار، بأنها أيقظته في تمام الساعة السادسة والنصف. كاذبة. فالذي سحبه من أحلامه هو سائس عربة الخيول العائدة للثانوية الذي نفخ بالبوق عدّة مرات أسفل المنزل، قبل أن ينصرف خائباً.

بعد عشر دقائق، كان ميشيل الذي اغتسل بالكاد، مهمِلاً حتى تمشيط شعره، يطوي شارع شبرا طيّاً، ومحفظته تتأرجح في الهواء. قفز داخل عربة ترام على وشك السير، فوجدها مخصصة للنساء،

فأطلق ساقيه للريح في المحطة التالية ورباط حذائه مفكوكٌ بشكلٍ يعرّضه لخطر التعثّر، ثمّ أخذ يقفز بخطواتٍ كبيرة كي يتجنّب كتلاً من الرَوْث على قارعة الطريق. ركض حتى كاد نَفَسه ينقطع، لاعناً غيومار المزعجة وكلّ قدّيسي التقويم: غيومار، هومار(*)، *حمارة*... لكن لعناته، سواءً بالفرنسية أم بالعربية كانت ناشزةً نوعاً ما. فأيّ غضبٍ كان بوسعه حقاً أن يقاوم العذوبة المُسْكِرة لذلك الصباح القاهريّ الذي تنيره أشجار الأكاسيا المُزهرة؟

كانت ثانوية العائلة المقدّسة - تلك الثانوية التي سأعرفها بدوري بعد أربعين عاماً بدون أي تغييرٍ يُذكر - في أوج ازدهارها منذ ذلك الحين. في باحة الدخول، أسفلَ تمثال العذراء، أخذ ثلاثة ضباطٍ من الحرس السلطاني، قدموا لاختبار الإعدادات الأخيرة للزيارة، يتحرّكون على صهوة خيولهم ويتكلمون بصوتٍ مرتفع. أما موسيقيّو القصر، بزيّهم الأزرق والأبيض، فكانوا يفكّون أدواتهم النحاسية أو يضبطون كمنجاتهم. أخرج الأخ البوّاب كرشه من الكوّة وهو ينظر إليهم بذهول، مما سمح لميشيل بالمرور مندفعاً دون إعطاء أية تبريراتٍ لتأخره.

علّقت أعلام مصر وفرنسا والفاتيكان على النوافذ على شرف تلك الزيارة التاريخية، بينما غطّت الممراتِ الباردة سجاداتٌ تم استئجارها للمناسبة. أما درج المدخل، فقد كان مزهراً بالكامل، إذ أنّ ذا الفقار باشا، كبير أمناء القصر، أوضح لليسوعيين بأن سموّه يعشق الزهور.

في حدود العاشرة والنصف، ظهرت سيارة السلطان من شارع بستان المكسي، يسبقها عددٌ من رجال الشرطة على دراجاتهم النارية. كان الأب المدير، محاطاً بمساعديه الرئيسيين، ينتظر أسفل درج المدخل، يصحبه ألبير دوفرانس، وزير فرنسا المفوّض في مصر. وحين خرج حسين كامل من السيارة، انحنى الآباء واحداً تلو الآخر ليلثموا يده، لكنه حال دون ذلك بلطفٍ شديد.

(*) homard أي الكركند. م.

بدأت الزيارة بصفّ الفلسفة، حيث كان الأب بريمون يعالج موضوع الضمير. واستشهد طالبٌ سُئِل بحضور السلطان بكلمةٍ لأوغوست. كان الاستشهاد في محلّه، فهز أعضاء الموكب رؤوسهم علامة الاستحسان.

لدى خروجه، قال السلطان وهو يتبادل مع الأب المدير حديثاً سيجوب فيما بعد كافة أرجاء الثانوية:

ـ هناك حالاتٌ يكون فيها الضمير في نزاعٍ مع الواجب.

ـ هذا صحيح، أجاب اليسوعي، لكن ينبغي أن تبقى الكلمة الأخيرة دوماً للضمير.

كانت الإجابة واضحةً وقاطعةً، ومميِّزة لأولئك الجنود بأثوابهم الكهنوتية، ونظراتهم اللامعة، ولِحاهم المروحية الشكل، الذين قدِموا ليناضلوا في أقاليمنا الرخوة نوعاً ما.

ثم دخل الموكب إلى الصف السابع، فاندفع الطلاب للوقوف وهم بالكاد يجرؤون على النظر إلى هذا الرجل النحيل، المحزّم بسترةٍ *اسطنبوليةٍ* سوداء، والذي يعلو رأسه طربوش مرتفع رمانيّ اللون. كان السلطان في السابعة والستين من العمر، ذا نظرةٍ فائقة العذوبة تطفو فوق شاربٍ بالغ الضخامة.

نزل الأب كورنر ـ والذي يدعوه لاعبو كرة القدم في الثانوية الأب بينالتي ـ عن منبره ليستقبل الملك ويعلمه بأن درس اللغة الفرنسية، في صبيحة ذلك السبت، هو حول حكايات لافونتين.

ـ لافونتين؟ قال السلطان باستغراب. كنت أنوي التحدث عنه بعد قليل.

تبادل السيد دوفرانس وكبير أمناء القصر الابتسامات تحيةً لتلك المصادفة السعيدة. أما الأستاذ، فقد انحنى قليلاً، ثم التفت نحو الطلاب وقال وهو يميّز كلماته:

ـ ميشيل بطركاني، هل يمكنك أن تتلو على سموه حكاية: «الفلاح وأولاده»؟

نهض ميشيل، كما لو كان في حلم، وألقى بصوتٍ غنائيٍ قويٍّ وهو يركّز على لفظ الأحرف جيّداً، وعيناه مزروعتان على اللوح الأسود:

اعملوا، ابذلوا جهودكم

الأراضي هي أقل ما ينقصنا...

وحين أنهى السرد، صفق له السلطان وقال:

ـ مرحى يا بني.

ثم انسحب بلطف، تتبعه كل الشخصيات الأخرى.

خلال ربع ساعة، أخذ ميشيل يهضم نجاحه راجفاً وممتلئاً بالغبطة، دون أن يلقي بالاً إلى تتمة الدرس. تراءى له بأن أربعة وعشرين زوجاً من العيون تخترقه، فأحس بلذّة خاصّة. وحتّى رنين الجرس، لم يكفّ عن ترديد «الفلاّح» بين أسنانه كما يسبّح الإنسان خالقه...

في غرفة الأب مدير الدروس، وُضع على مكتبٍ جميل من خشب الزيتون كتابٌ ذهبيٌ يحمل شعار السلطان، مصنوع من القضيم المصقول ومزخرف بأيدي رئيسات الدير، وعلى غلافه الخلفي رُسم علَما فرنسا ومصر متّحديْن بصليب الحرب.

ـ إنني أبجل كلا العلميْن، قال السلطان وبيده ريشة مدوا بها إليه ليضع توقيعه بجانب ختم رهبانيّة اليسوعيين.

انحنى على الكتاب ثم استدرك قائلاً:

ـ في أي يوم نحن حسب تقويمكم؟

ـ نحن في الثالث عشر من أيار، يا صاحب السمو.

ـ الثالث عشر! هذا الرقم يجلب النحس، ولا أريد أن أدونه.

طافت بضع ابتسامات مرتبكة.

اعتقد الأب المدير بأن من واجبه أن يقول:

ـ ليس لدينا مثل هذه المخاوف، يا صاحب السمو.

أما السلطان، فقد كانت لديه بعض الأسباب الوجيهة التي تجعله يرتاب بضربات القدَر. ألم تكن محكمة عسكرية بريطانية تحاكم الرجلين اللذين حاولا اغتياله الصيف الماضي في الإسكندرية، في نفس الوقت الذي كان يتودد فيه للعائلة المقدّسة؟ ففي ذلك اليوم، كان حسين كامل في طريقه إلى مسجد سيدي عبد الرحمن ليصلي الجمعة. قُذفت وقتها من إحدى الشرفات كرةٌ معدنية تحتوي على النتروغليسيرين وعلى مئة وثمانين مسماراً، فأصابت رأس أحد أحصنة الموكب، ثم تدحرجت على الأرض دون أن تنفجر لانطفاء فتيلها.

كانت تلك المرة الثانية التي تتم فيها محاولةٌ لاغتيال حسين كامل منذ أن سلّمه الإنكليز السلطة في كانون الأول 1914، إذ لم يغفر له الوطنيون المصريون حلوله مكان ابن أخيه، الخديوي عباس، الذي عُزل في بداية الحرب بسب مشاعره المؤيدة للألمان. اعتلى حسين نصف العرش هذا بلقب سلطان، ليؤكّد تماماً بأن مصر التي أصبحت محميةً بريطانية لم تعد تشكل جزءاً من الإمبراطورية العثمانية...

كان السلطان متطيراً إذن، لكنه مع ذلك انتهى بأن اقترب بريشته من الكتاب الذهبي ليكتب عليه ببساطة: «حسين كامل، أيار 1916». فتبادل السيد دوفرانس وكبير أمناء القصر نظرات الفرج...

في باحة طلاب المرحلة المتوسطة، نُصبت منصةٌ كبيرةٌ حُولت إلى صالون دمشقي، بعرشٍ وستائر ملونة، وفي الجهة المقابلة لها، اصطف كافة طلاب الثانويةً بانتظامٍ لا غبار عليه. بحث ميشيل بنظره عن أخويه وهو واقفٌ على رؤوسِ أصابع قدميه، وكأنه يريد أن يذيع خبر الزلزال الذي حدث لتوه. وهكذا أضاع القسم الأول كلّه من كلمة الأب المدير الذي كان يبالغ في تملّقه:

- سموكم تعطون على الفور لفجر عهدكم بريق أجمل فترات حكم الخلفاء. كم هو كبيرٌ ارتياحنا، نحن الرهبان الكاثوليكيين والفرنسيين، لأن يتم حثنا على أداء مهامنا اليومية بهذه الطريقة!

نرجو من الله أن نستطيع متابعة عملنا هذا طويلاً في كنفكم! إذ سيكون ذلك بالنسبة لنا ضماناً مطمئناً للقيام به من أجل مصر وفرنسا والله في نفس الوقت.

دوى التصفيق، ثم تكلم السلطان، يحيط به صمتٌ دينيٌّ، قائلاً:

ـ ليس التعليم وحده هو ما يعطي القيمة للإنسان، بل هي التنشئة الأخلاقية بشكل خاص. قبل قليل، وفي أحد الصفوف، كان يتم شرح لافونتين...

غاص قلب ميشيل بين ضلوعه حين سمع الجملة الأخيرة.

ـ لقد حفظتُ أنا أربعين من حكاياته، تابع السلطان، وكان أستاذي هو السيد جاكوليه. أترون كيف يعطي لافونتين العظة الأخلاقية؟ انظروا إلى: شجرة البلوط وشجرة الورد، تأملوا الزيز والنملة...

وعندئذٍ، شهد الجمع ذاك الشيء المدهش، الخارق: ملك مصر، ابن إسماعيل العظيم، ابن حفيد محمد علي الكبير، يسرد بصوت خفيض:

ـ كنت أغني ليل نهار لكل عابرٍ

سواءٌ أرضاك ذاك أم لم يرضك.

ـ كنت تغني؟ يا لسروري!

حسنٌ، ارقص الآن.

أعطى الأب المدير الإيعاز بالتصفيق؛ فصفّق ميشيل بحماسٍ دون أي شعور بالغيرة من ذلك الزميل غير المتوقع.

ثمّ قال السلطان أخيراً، منهياً كلمته بخاتمةٍ أشبعت رضى اليسوعيين:

ـ إن الذي ما زلت أحبه لديكم هو احترام العقيدة: فلديكم طلابٌ من جميع الطوائف، وأنتم تحترمونهم. أنا مؤمن، ونحن في النهاية نبجّل الإله نفسه. آمل من الله أن يدوم عملكم الرائع الذي تقومون به بمنتهى الإخلاص، مئات ومئات السنين.

ثم وجّه كلامه إلى الهيئة التعليمية قائلاً وهو يشير إلى اثنتين من الشخصيات المرافقة له:

ـ انظروا، هذه بعض ثمار عملكم! هاأنتم ترون جيداً أنّ جهودكم لم تضع سدىً.

صفق المدرسون، وهتف الطلاب ثلاث مرات: «*يعيش السلطان*»! قبل أن تعزف موسيقى الحرس النشيد الوطني المصري *والمارسيلليز*(*). نزل حسين كامل عن المنصة ببطءٍ وهو يوزع الابتسامات والمصافحات. ركض ميشيل إلى أخيه الأكبر، مغتنماً الفوضى التي دبّت في الأرتال، وصاح دون أن يسترد أنفاسه:

ـ لقد سردت *الفلاح وأولاده* أمام السلطان.

فنظر إليه أندريه نظرةً مرحةً وقال:

ـ كان بإمكانك أيضاً أن ترتدي جوربين متماثلين.

كانت ساق أحد الجوربين سوداء، والأخرى كحلية اللون؛ فاصطبغ جبين الفتى باللون الأحمر.

ـ لا عليك، ليس الأمر خطيراً، استدرك أندريه بلطفه المعهود. احكِ لي عن موضوع الفلاح والسلطان.

(*) هو النشيد الوطني الفرنسي. م.

2

كم ترددت على مسامعي قصة زيارة السلطان إلى الثانوية! لقد أضاء هذا الحدث طفولتي كلها وقسماً من مراهقتي، ويحدث أن أتناقش اليوم أيضاً حوله مع هذا أو ذاك من أفراد العائلة.

يبقى عام 1916 بالنسبة لي نصباً مضيئاً، معْلَماً، المعْلَم الزمني بامتياز. فهو منتصف الحرب العالمية الأولى، وفردان، ودوومون؛ ميشيل في الحادية عشرة من عمره، وأندريه في الثانية عشرة. إنه العام الذي ولدت فيه فكرة الطربوش في رأس جدّي، والذي جاء فيه إدوار ديلليم إلى المنزل. 1916 ، عشر سنوات قبل ولادة أمي، وتسعة وعشرون عاماً قبل ولادتي أنا...

يوم عثرت أخيراً على مجموعة قديمة من جريدة *القاهرة*، هرعت إلى عدد الأحد 14 أيار 1916 بانفعال طفل الأمس الذي سرد حكايةً أمام السلطان في اليوم السابق. كان العنوان الرئيسي يعلن فشل هجوم ألماني جديد في دوومون، ولم يكن هناك كلمةٌ واحدة عن زيارة الثانوية. وحين قلبتُ الصفحات الثلاث الأخرى، انتهى بي الأمر إلى اكتشاف مقالةٍ بسيطةٍ حول الموضوع لا تتضمّن أية إشارة إلى لافونتين. لكن الجريدة وعدت بالعودة إلى هذا الأمر بالتفصيل في اليوم التالي.

أنا أعلم أن ميشيل قد بحث في الأيام التالية دون جدوى عن المقالة الموعودة، لقد أخلفت جريدة *القاهرة* وعدها، لكنها كسبت

قارئاً يندفع كل يوم إلى مكتب أبيه لدى عودته من المدرسة محاولاً قراءة هذه الورقة ذات الطباعة الرديئة. وحين لم يكن يجد شيئاً حول الزيارة، كان يمعن التفكير في الجملة الشهيرة للخديوي إسماعيل، والد السلطان، التي كانت تُطبع كل يوم بشكل بارز: «لم يعد بلدي في أفريقيا. نحن ننتمي إلى أوروبا».

مصر أوروبية... بعد عدة أشهر، حصل ميشيل على علامة الصفر الوحيدة في مسيرته المدرسية لدى اليسوعيين، عندما استوحى تلك المسلّمة الجريئة في وظيفة جغرافيا!

إنّ إدوار ديلليم هو الذي احتفظ بالذكرى الأكثر دقة عن يوم الأحد 14 أيار 1916. وبعد نصف قرنٍ من ذلك التاريخ، كان مايزال يتحدث عنه بكم هائلٍ من التفاصيل، مكذّباً روايات ماغي أو هنري توتة الأكثر طرافة. وبغضّ النظر عن ذهن ديلليم المنظم وذاكرته القوية، فإنه ينبغي القول بأن غداء الأحد ذاك كان أول احتكاكٍ له مع العائلة، وفي النهاية، مع مصر.

لم يجد الفرنسي صعوبةً في العثور على حنطورٍ عند خروجه من الموسكي: فمنذ بداية الحرب، أخذ سائسو القاهرة يتكبرون على الزبائن المصريين، مفضّلين عليهم الجنود الإنكليز أو الأستراليين، حيث يأخذون منهم بمرحٍ ضعفي أو ثلاثة أضعاف التسعيرة المعتادة. ظنّه السائس بريطانياً، الأمر الذي لم يعجبه كثيراً.

ترك الحنطور شارع شبرا وانعطف إلى اليسار، إلى شارعٍ تحيط به أشجار الجمّيز والأكاسيا.

ـ هير، مستر، هتف السائس متوقفاً بحصانه أمام منزلٍ إيطالي الطراز.

نزل إدوار من الحنطور وناول السائس ورقة نقود، فوضعها ذلك الأخير فوراً في جيبه دون أن يعيد له الباقي، ثم فرقع سوطه. هز الفرنسي برأسه، متضايقاً بعض الشيء، قبل أن يشد جرس باب آل البطركاني.

فتح له الباب *سفرجيّ* حسن الهندام يرتدي ينطالاً منفوخاً أسود وصدارياً مذهباً، وبابوجاً متناسباً معه، وعلى خده الأيسر ندبةٌ طويلة؛ ثمّ أخذ منه قبعته الخوصية، وأدخله إلى صالونٍ بيضاوي جميل يطلّ على الحديقة.

كان المستشار التجاري للوكالة الفرنسية هو الذي طلب من جدي أن يوافق على استقبال إدوار ديلليم:

ـ سوف تقدم له النصيحة المناسبة بالتأكيد. إنه ابنٌ لأحد الصناعيين في مدينة ليل، وقد سُرّح من الخدمة العسكرية لأسباب صحية؛ إنّه مهتم بالسوق المصرية، ونحن نشجع بشدة مبادراتٍ كهذه في مثل هذه الظروف، إذ سيكون من الإجرام أن نتخلى للإنكليز وللإيطاليين عن المجال الذي تركته الشركات النمساوية ـ الألمانية خاوياً، أليس كذلك؟...

حين دخلت يولاند بطركاني إلى الحجرة، انحنى أدوار ديلليم برشاقةٍ ليقبلّ يدها. سُرّت جدتي كثيراً لتصرفه، قائلة لنفسها مرةً أخرى بأن لهؤلاء الشبان الفرنسيين سحراً لا يقاوم. أما زوجها الذي كان يتبعها، فقد قال بصوتٍ قويٍّ ورخيم:

ـ أنا شديد السرور بمعرفتك يا مسيو ديلليم. لدينا دوماً هنا يوم الأحد غداءٌ عائليّ. والأصدقاء الفرنسيون جزءٌ من العائلة!

بدا جورج بطركاني أنيقاً بقامته المتوسطة وسنيه الست والثلاثين. كانت بشرته السمراء وطابعه الشرقي يتناقضان مع لون عينيه العسلي، الآتي من مكان آخر، كما تزيد الابتسامة الخفية التي تطوف فوق شفتيه النهمتين من نوسانه بين عالمين.

ـ بما أنه وكيلٌ لعددٍ من الماركات الأجنبية، فهو يعرف السوق عن ظهر قلب، قال المستشار التجاري لإدوار ديلليم، قسّم على اثنين ما سوف يقوله لك، لكن اتبع خطواته بدقة. هؤلاء المشرقيون يبالغون في الكلام بقدر ما هم معتدلون في تصرفاتهم.

بين رنتي جرس، كان الخادم يقدّم *العرق* وشراب الليمون.

شعر ديلليم، الذي كان يتوقع غداءً حميماً، بشيءٍ من الاستغراب، وهو يرى تتالي وصول أختٍ ليولاند، وشقيقٍ لجورج، وأولاد عم... إلا أن كل هؤلاء الأشخاص تعاملوا معه على الفور وكأنهم يعرفونه منذ زمن، فسألوه عن صحته، وعن رحلته، وعمّا إذا كان راضياً عن مكان إقامته.

سرعان ما شعر إدوار بالارتياح، وامّحت في هذا الإطار اللطيف كافة أنواع التعب والتوجس التي عانى منها خلال سفره. ففي فرنسا، رسم له البعض صورةً مريعة لمصر: القيظ، القذارة، الماء الملوث، الكوليرا... وهاهو الآن في منزلٍ برجوازي لا يقل شأناً عن أي منزلٍ في جادة فوبان التي يسكنها، يحيط به أناسٌ استقبلوه بحرارة، ويتكلمون الفرنسية بطلاقة، بسجعٍ أخاذ، رغم بعض العبارات الغريبة.

حكى ديلليم عن عبوره للبحر. فمنذ انطلق من مرسيليا، كان طاقم مركب *اللوتس* مسكوناً بالخوف من هجوم تشنه إحدى الغواصات، وقد أمضوا اثني عشر يوماً من الترقّب والإنذارات الخاطئة، فكان الركاب يهرعون إلى قوارب النجاة فور رنين جرس المركب؛ ولم يكن ينبغي ترك العوامة حتى أثناء الوجبات.

أخذ *العرق* الغادر نوعاً ما يصعد إلى رأس إدوار ديلليم. ثرثر، وهو يحمل كأسه، مع السيدات اللواتي يتبع معظمهن على ما يبدو آخر موضة في باريس: تايورات من الجورسيه كرزية اللون أو خضراء تفاحية، عقود طويلة، ومباسم سوداء. تحدثن عن الأسعار التي لا تني ترتفع منذ بداية الحرب، وعن تنزيلات نهاية الموسم في مخزن اوروزدي باك، وأبدين احتجاجهن على التوقيت السيئ الذي عينته المنظمات لليانصيب الخيري الذي سيُجرى بعد يومين في فندق الغراند كونتيننتال:

ـ الثالثة بعد الظهر، في شهر أيار! إنهن مجنونات، بشرفي! سوف نحترق يا عزيزتي. سأقول ذلك لـِ بيبا...

أُجلس إدوار على المائدة بين يولاند بطركاني وأختها ماغي

التي بدا نهداها وكأنهما على وشك الانفلات من ياقةٍ جريئةٍ في اتساعها.

ـ هل تعرف *الملوخية*، يا مسيو ديلليم؟

بينما كان الطعام يُسكب له، أخذ الفرنسي يختلس النظر إلى فردينان بطركاني المدعو ناندو، الأخ الكبير لجدّي، بوزنه الذي يقارب المئة كيلو غرام والذي كان يجلس في طرف الطاولة. كان لناندو طقسٌ خاص بأكل *الملوخية*، حيث يضع الرز أولاً في طبقه على شكل كومة بعد أن يعقد الفوطة حول رقبته، ثم يحفر قمة الكومة لتصبح مثل فوهة بركان، ويسكب عليها كميةً وافرة من الخل الذي يسبح فيه البصل المفروم ناعماً. وبأصابعه السمينة المكتنزة، يضيف ناندو قطع اللحم والدجاج والخبز المحمّص، ثم يُغرق أخيراً كل ما سبق بمغرفتين من ذلك الحساء الأخضر الغامق، المشبع بطعم الثوم، ريثما يعاود الكرّة في المرّة التالية...

ـ *ملوخيتك* ناجحة جداً، يا عزيزتي، قالت ماغي لأختها. ذكريني بأن أهنئ *الأسطة* سامي قبل أن أنصرف. أتعلمين؟ إن لديك جوهرة.

كان الحديث يجري بحيوية شديدة، وأخذ الفرنسي يتابع ببعض الصعوبة هذا الدفق من العبارات المطعّمة بالعربية. لكن الآخرين كانوا يتذكرون وجوده بشكلٍ دائم فيترجمون له ويفسرون، مستبقين أحياناً أسئلته.

دار الحديث حول كيريللوس الثامن الذي جرى تشييعه في القاهرة قبل فترة وجيزة باحتفالٍ كبير.

ـ كانت الأعلام السوداء تغطّي كاتدرائية الفجّالة، همست له ماغي بصوتها المثير، وقد أُجلس الجسد المعطّر لبطركنا على عرشٍ ذهبي تضيئه الشموع الطويلة، تاجه على رأسه وعصاه في يده. حتّى أنّ الأشخاص الذين اقتربوا منه كانوا يعتقدون بأنهم أمام رجلٍ حيّ. بل إن إحدى السيدات قد تحدثت إليه، بشرفي! وكان بين الحضور

حاكم الإسكندرية ووزير فرنسا المفوّض وقناصل وقضاة كبار، كل النخبة...

سأل إدوار:

ـ اشرحوا لي لماذا أنتم الأورثوذوكس...

فصاحوا بصوتٍ واحد: لكننا لسنا من الأورثوذوكس!

ـ كنت أعتقد بأن البطرك...

قال جورج بطركاني لنفسه وهو يتنهّد بأن شرح دقائق المسيحية الشرقية لهذا الفرنسي اللطيف سوف يستغرق مئة عام.

ـ لا، يا سيدي العزيز، نحن روم كاثوليك. روم، لكننا لسنا من الأورثوذوكس. كاثوليك، لكننا لسنا لاتيناً...

ـ وهل أنتم مصريون؟ سأل إدوار ديلليم وقد بدأ يضيع.

ـ طبعاً! أجابت يولاند.

أثارت الإجابة استغراب زوجها:

ـ صحيح؟ *ومن وين لوين* نحن مصريون؟

نظر إدوار إليهم بحيرةٍ واحداً تلو الآخر.

ـ هذا الموضوع يصعب شرحه، قال جورج أخيراً. فعائلاتنا من أصلٍ سوري، وكما تعلم، فإن مصر وسوريا مازالتا حتّى الآن جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. لدينا جميعاً إذن جنسيةٌ عثمانية، أضيفت إليها مع الزمن جنسيةٌ مصرية. نحن عثمانيون، «رعايا محليون» كما يقال هنا. لكن هل نحن مصريون حقاً؟ إن نصوص القانون تتناقض في هذه النقطة. وعلى كل حال، ماذا يعني أن يكون المرء عثمانياً منذ عام 1914، ما دامت مصر قد أصبحت محمية بريطانية؟ ربما يتضح الوضع بعد الحرب.

ـ أنا متأكدٌ من ذلك، رد إدوار بأدبٍ، وكان قد أضاع خيط الحديث منذ فترة وهو ينظر بإعجابٍ ودون ملل إلى يدي ماغي السمراوين الطويلتين.

دعت يولاند بطركاني *السفرجي* لتقديم الحلويات بتقطيبةٍ من حاجبيها قبل أن تقول:

ـ وهذه الحرب، مسيو ديلليم، متى ستنهونها لنا؟

ـ إنها مسألة بضعة أشهرٍ يا سيدتي! فنحن الآن نكيل أقسى الضربات للألمان ناحية دوومون.

ـ أوه لا، لا تنهوا هذه الحرب بسرعة، صاح فردينان بطركاني من طرف الطاولة وهو ينفجر بضحكةٍ مجلجلة لانهائية.

كان الجميع يعلمون مدى استفادة الشقيق الأكبر لجورج من الوضع، فقد مارس ناندو البدين مواهبه في المضاربة والمراباة في أرياف الدلتا، واشترى أراضي بسعرٍ بخسٍ في بداية الحرب من مُلاّكٍ صغارٍ ذعروا من الإغلاق المفاجئ للأسواق الأجنبية. إلاّ أن الحرب أصبحت منذ ذلك الحين نعمةً حقيقية بالنسبة للمستثمرين الزراعيين، فالحلفاء كانوا يستهلكون الكثير من القطن لكساء جنودهم ولصنع الإطارات. وهكذا، لم يصرّف محصول عام 1914 بكامله فحسب، بل إن الأسعار، وبعد انخفاضٍ كبير، بدأت تتجاوز أسعار ما قبل الحرب. وبدأ حساب ناندو المصرفي ووجهه يتضخمان بشكلٍ متزامن.

أخذ جدّي، الذي عرف هو أيضاً كيف يخزّن البضائع ليستفيد من نقصها، يشرح لإدوار ديلليم قائلاً:

ـ سيدي العزيز، هؤلاء الجنود الأجانب يجعلون عجلة التجارة تدور، فقد أنفق الإنكليز هنا في العام الماضي حوالى خمسة ملايين جنيهاً أكثر من المعتاد ليعيلوا جيشهم. أليس هذا رائعاً؟

لم تكن حرارة الجو تسمح بتقديم القهوة على الشرفة، فأمرت سيدة المنزل بفتح الأبواب ـ النوافذ على مصاريعها لكي يشعروا أنهم أكثر قرباً من أشجار المندارين الرائعة، المعروفة باسم *يوسف أفندي*.

ثم حضر أطفال آل البطركاني وأولاد عمهم لإلقاء التحية على الضيف الفرنسي.

- أخبرني يا ميشو، هل صحيحٌ أنك قد ألقيت قصيدةً أمام السلطان؟ قالت ماغي.

فسرد ميشيل مرة أخرى: «الفلاح وأولاده»، تلبيةً لطلبٍ جماعي. دوّى تصفيقٌ تلته قبلاتٌ رنّانةٌ عطرة. ثمّ سئل عرّابي عنْ الظروف التي أحاطت بإنجازه، وعن الملابس التي كان السلطان يرتديها، وتعليقات الرهبان اليسوعيين... ثم توارى الأطفال لينغمسوا في لعبتهم المفضلة: أنساب ملوك فرنسا.

- سنذهب غداً مساءً لمشاهدة مسرحية *La Très Moutarde* لماكس ليندر في سينما كوزموغراف الأمريكية، قالت يولاند لإدوار ديلليم. هل تودّ الذهاب معنا؟

وافق ديلليم بسرور، سيّما وأنّ ماغي المثيرة سوف تكون بين الحاضرين.

- وقبل السينما، قال له جورج، قد يكون باستطاعتك المرور عليّ في مكتبي، في ساحة الأوبرا، لنتحدث عن مشاريعك.

وفي حوالى الرابعة بعد الظهر، في عز الحر، أعاد السائس الضيف إلى فندق شيبرد، في حين كان شخير ناندو البدين يعلو وهو نائمٌ في مقعده.

3

كان الشيبرد في ذلك الحين أجمل فنادق الشرق الأوسط، أسسه رجل إنكليزي عام 1841 في القصر القديم الذي جعله نابليون مقراً لقيادة جيشه، ثم تمّ توسيعه وإنارته بالكهرباء بعد ذلك بنصف قرن. وفي حديقته الرائعة، حيث يتقافز حوالى عشرين ظبياً بين أشجار النخيل والموز، كان يتم الحفاظ بورعٍ على شجرة الجمّيز التي اختبأ خلفها قاتل الجنرال كليبر.

أمّا سطيحة الفندق الشهيرة التي تطل على الشارع، والمحروسة بتمثالين حجريين لأبي الهول استعيرا من معبد في ممفيس، فقد شكّلت على الدوام مركزاً خارقاً للمراقبة؛ وهناك، أمضى إدوار ديلليم صبيحة يوم الاثنين كلها، وأمامه كؤوس البيرة المثلجة، يشاهد مرور القاهرة بأكملها أمام عينيه.

أسفل السطيحة، كانت جمهرةٌ صغيرةٌ من الناس تعسكر هناك بشكلٍ دائم: سائسون، تراجمة، قرّادون، متسولون من كافة الأصناف، وسقّاءون يجرجرون أنفسهم بظهورهم المحنية وهم يحملون قِرَب الماء المصنوعة من جلد الماعز، يمرّ بهم *الأفندية* على حميرهم، بستراتهم الأنيقة ومظهرهم اللائق وظهورهم الشديدة الاستقامة، ثمّ يتجاوزونهم بسرعة. وبين حينٍ وآخر، كانت تصل سيارة ليموزين لمّاعة منزلقةً على طول الرصيف، فيندفع بوّابو الفندق بتملقٍ بالغٍ لفتح الباب لأحد الباشوات...

لم تكن نزيلات الفندق الإنكليزيات يفوّتن شيئاً من تفاصيل المشهد، فحين يرين تابوتاً محمولاً على الأكف ومحاطاً بالندّابات المتّشحات بالسواد، ينهضن ويرسمن إشارة الصليب على صدورهن؛ ولا يلبثن أن يقفن ثانيةً بعد قليل، والإثارة تملؤهنّ، لدى مرور عربة لاندو فخمة: فقد كان بعض *السائسين* يركضون في منتصف الشارع حفاةً، معتمرين طواقٍ، وهم يلوّحون بالعصي ويصرخون ليبعدوا المارّة...

أُطلِقت ضربة مدفع من القلعة لتعلن بأن النهار قد انتصف. طلب إدوار ديلليم كأساً أخيرة من البيرة قبل أن يذهب لتناول الطعام ثم للقيلولة، فقد أنهكه ذلك المشهد المتواصل.

في الخامسة من بعد الظهر، ترك ديلليم الفندق نشيطاً ومنتعشاً ليذهب إلى موعده. كان مكتب جورج بطركاني الذي يبعد عن الشيبرد مسيرة بضع دقائق يقع في الطابق الثالث من عمارةٍ أنيقة جميلة تطل على ساحة الأوبرا. شاهد ديلليم لدى وصوله موظَفَيْن بأكمام من قماش الأطلس يعملان في المكتب برخاوة، وفوق رأسيهما تدور مروحةٌ ضخمة. أما غرفة جدي، فكانت ملاصقةً للمكتب، وتعبق برائحة السيجار وماء الكولونيا.

انفجر جدي ضاحكاً حين سأله الفرنسي عن سر وجود عددٍ كبير من الأوروبيات في سطيحة الشيبرد، واللواتي يظهر أنهن لا يجدن عملاً، وقال:

ـ لا، يا سيدي العزيز. ليس الأمر كما يبدو عليه. أولئك السيدات هن زوجات ضباطٍ بريطانيين سُمح لهن بالمجيء إلى مصر ليمضين بضعة أيام مع أزواجهن. إلا أن العديد من هؤلاء الضباط حوصر في قناة السويس أو في الصحراء الغربية. وهكذا، وجدت السيدات أنفسهن وحيداتٍ في مصيف إجباري، وهاهن يملأن الفنادق. وقد اضطر المسؤولون البريطانيون لمنع أية نساءٍ أخريات غير مقيماتٍ في مصر من القدوم. بالمناسبة، لقد لاحظت بأنك قد حصلت على سمة دخول...

ـ بالفعل، فقد استفدت من «وساطة» صغيرة، أجاب إدوار باسماً.

كان نشاط معمل الغزل في ليلّ، والذي يملكه آل ديلليم، ضعيفاً منذ بداية الحرب؛ ولم يكن إدوار، الذي ورث بعض الأسهم عن أبيه، يحتل فيه إلاّ مكانة هامشية. وقد دُعي لخدمة العلم عام 1915، إلاّ أنّه شرّح بعد بضعة أسابيع لإصابته بذات رئة حادة، فجاء إلى القاهرة ليدرس السوق المصرية، بنصحٍ ودعمٍ من ابن عمٍّ له دبلوماسي.

ـ لو كنتُ مكانك، قال جورج بطركاني ببطءٍ وهو يمصّ سيجاره، لاهتممت بالطرابيش.

نظر إليه محادثه بحيرة.

ـ نعم، الطرابيش. فحتى بداية الحرب، سيطر على هذا القطّاع حوالى خمس عشرة شركةً نمساوية يتجاوز حجم أعمالها الثلاثين ألف جنيه. رقمٌ ضخمٌ، أليس كذلك؟ والواقع أنه لم يعد للنمساويين الحق ببيع أي شيءٍ هنا، كما أنه قد تم الطلب مؤخراً من برودر ستروس، ممثل اتحاد شركاتهم، أن يقوم بتصفية أعماله. هناك إذن مكان شاغر، وقد يتعدى مصر ليشمل المغرب وتونس وشمال غرب ليبيا، حيث يستوردون أيضاً قبعات تركية، ولو أنها ذات شكلٍ مختلف.

استأذن جورج من الفرنسي، وذهب إلى الحجرة الأخرى، حيث فتح خزانةً تناول منها أربع علبٍ كبيرة، فاندفع أحد الموظفين يساعده على حملها.

أخرج جورج من إحدى العلب طاساً من اللباد الأحمر تتدلى منه نحو الخلف عفرةٌ من الخيوط السوداء وأخذ يشرح لضيفه قائلاً:

ـ هذا هو «*الوطني*»، النوعية العادية، وسعره يعادل فرنكين فرنسيين وخمسة وعشرين سنتيماً. لديك بعد ذلك «*العباسي*»، ويبلغ سعره ثلاثة فرنكات ونصف؛ ثم ننتقل إلى «*الإكسلسيور Excelsior*» المسعّر بخمسة فرنكات... لاحظ الفرق! لكن ملك الطرابيش النمساوية وأكثرها أناقة هو «*النسر*» بدون منازع. هاهو ذا؛

المسه، المس هذا القماش ولاحظ كم هو مرنٌ وحريري. هل تشعر بذلك؟ إن «النسر» يستحق فعلاً سعره البالغ ثلاثة عشر فرنكاً!

تولّد لدى إدوار الشعور بأنه أمام بائع متجوّل، وبأن ذلك المشرقي الذي يتمتع بحسٍّ تجاري رفيعٍ قادرٌ على بيع أي شيءٍ، حتى لو كانت بضائع يملكها آخرون. إنّ صوته المخملي يكاد يدفعك لأكل هذه الطرابيش ذات الملمس الحريري.

ـ أترى، مسيو ديلليم، لقد التهبت الأسعار فور توقف الاستيراد. فينبغي الآن أن تضاعف مرتين أو ثلاثاً الأرقام التي ذكرتها لك قبل قليل. وقد استبدل نتيجةً لذلك بعض اليهود وبعض السوريين الذين يعيشون في القاهرة بالطربوش القبّعة الغربية، فهي أرخص بكثير.

ـ إذن، فقد يختفي الطربوش...

ـ أنت تمزح! هذا الوضع مؤقتٌ بالطبع. فالمصريون يرتدون الطرابيش منذ أكثر من مئة عام ولن يكون بإمكانهم التخلص منها أبداً. لقد أصبح غطاء الرأس هذا خاصيّة وطنية.

ثم عاد جدي للحديث عن النمساويين الذين راقبهم عن كثب، هو الذي لم يكن يُخفي إعجابه بهم.

ـ كان مندوبون تجاريون يأتون من فيينا في كل عام ليقابلوا الزبائن ويسجلوا التغييرات التي يطلبونها، وليدرسوا الموضة المتغيرة، بل وليحدِثوها، فهناك موضاتٌ في أشكال وألوان الطرابيش، وطرقٌ مختلفة لارتدائها...

ثم اندفع جدي بعرضٍ بارعٍ حول تطور الطربوش في مصر، وعاد إلى خزانته ليأخذ منها صوراً مختلفة وضعها جنباً إلى جنب على الطاولة:

ـ هذا هو محمد علي، مؤسس السلالة الحاكمة. انظر إلى عمرته الغريبة: نستطيع بالكاد أن نسميها طربوشاً. وهنا، مع عباس وسعيد، يبدأ الطربوش بالارتفاع ويأخذ شكلاً مميزاً، لكنه لم يكن بعد مبطناً. راقب الآن السلطان حسين، الملك الحالي. للإنكليز يعود الفضل في إدخال الطربوش الكبير الصلب المبطن بالقش، الذي

يمتاز بمحافظته على شكله، فلم يعد من الضروري كيّه كل يوم كما كان الأمر بالنسبة للطربوش القديم. صار يكفي أن يكوى مرةً واحدةً في الأسبوع.

ـ وهل يكوى الطربوش؟

ـ طبعاً! ستجد في أي مكان من المدينة طرابيشياً يعيد إلى العمرة شكلها.

أخذ اهتمام إدوار ديلليم يتزايد، فضاعف من أسئلته، وقال أخيراً:

ـ لكن ما الذي يمنعك أنت، يا سيد بطركاني، من صنع الطرابيش، خاصّةً وأنك على هذه الدرجة من المعرفة بالسوق المصرية؟

نظر جورج إليه باندهاشٍ وقال:

ـ صنع طرابيش كهذه هنا؟ أنت لست جاداً في ما تقول! إذ لأتمكن من ذلك، لا بدّ من أن يكون لدي قماشٌ ممتاز، وآلات، ويدٌ عاملة مؤهلة، كما أحتاج بصورةٍ خاصة إلى امتلاك طريقة العمل، والتنظيم... أين تريدني أن أجد كلّ هذه الأمور في القاهرة؟ إن كلّ من تسأله سيقول لك بأنه لا يوجد في مصر لا الإمكانيات ولا الاستعداد لأن تصبح بلداً صناعياً. قم أنت بصنع الطرابيش في فرنسا، وأنا سأبيعها لك هنا.

استمر الحديث ساعةً أخرى، ثم تواعد الرجلان على اللقاء بعد قليل على مدخل سينما الأمريكان كوزموغراف، بصحبة يولاند وماغي.

حين وصل إدوار إلى ساحة الأوبرا، كانت سطولٌ كبيرة من الماء قد برّدتها، بينما تطرد نسائم لطيفةٌ بقايا حرّ الظهيرة. ذهب الفرنسي مرحاً إلى الطرف الآخر من الساحة لشراء التبغ *الاسطنبولي*. كان ارتياحه يتزايد في هذه المدينة النابضة بالحياة والبالغة العذوبة. ومغامراً بأن يتسمم، مدّ يده بقطعة نقودٍ إلى بائع متجول يحمل على وركه إبريقاً زجاجياً كبيراً ويترنم بفضائل ما

يبيعه من تمر هندي وخروب، وهو يقعقع بكؤيساته النحاسية بين أصابعه.

ابتلع إدوار الشراب دفعةً واحدة، ثم ذهب إلى شارعٍ مجاور أخبره جورج قبل قليل بوجود دكان طرابيشي فيه. كان الدكّان بالغ الصِغَر، ويحتوي على منضدة عليها العديد من الطاسات النحاسية المتنوعة الأحجام، حيث يدخل الزبون وينزع الطربوش عن رأسه، ثم يمد يده به دون أن ينبس بكلمةٍ واحدة، فيرفع الطرابيشي الغطاء عن إحدى الطاساتِ ذات القاع المزدوج، ثم يضع العمرة بين قسمي القالب ويدير ذراعاً، فترتفع غمامةٌ من البخار. وبعد بضع دقائق، ينزع الطربوش من القالب صلباً كالخشب، والبخار يتصاعد منه.

اتجه إدوار بعد ذلك وهو ممتلئ بالغبطة إلى حديقة الأزبكية، فقد سمع الكثير عن جمال أشجار تين البنغال العملاقة الموجودة فيها. وأمام المدخل، كان مشهدٌ غير عادي ينتظره: فعلى شرفات منازل عدة، وقفت نساءٌ نصف عارياتٍ يصرخن أو يغنين وهنّ يقمن بحركاتٍ خلاعية، ساعياتٍ بصورةٍ سافرة لِلَفتِ أنظار الجنود الأجانب.

تابع الفرنسي طريقه، فإذا كان لابدّ من امرأة، فإنه يفضّل الإنكليزيات الوحيدات في سطيحة الشيبرد... وجعلته فكرة لقاء ماغي الجميلة ذات اليدين السمراوين الطويلتين أكثر غبطة.

4

ـ إذن، فقد حللت في الشيبرد...

خيّل إلى إدوار ديلليم أنه اكتشف في نظرة جدي مزيجاً من الاستحسان والحسد.

ـ حين كنت طفلاً، كنا نذهب إليه يوم الأحد، تابع جورج بنظرة ساهمة.

في ذلك الحين، كان أبوه، الياس بطركاني، يعمل عند تاجرٍ سوريٍّ في الموسكي. لم يكن الياس موهوباً في مجال الأعمال، لذلك فقد كان يرى الآخرين من حوله يغتنون. إلاّ أنّه لم يكن رجل مال، فقد كان يحب فقط أن يراقب الثروة عن كثب، ويداعبها، ويتحدث عنها.

وهكذا، ففي كلّ يوم أحد، وبعد أن يتناول أفراد العائلة *الملوخية* بالبصل، كانوا يذهبون للتنزه أمام فندق شيبرد، ثم في شارع شبرا. كانت تلك النزهة تمثل وسيلةً للاقتراب من الترف، وللتمتع المجاني، ولكي يتكوّن الذوق المطلوب لدى الأولاد كذلك.

كان آل البطركاني يتمركزون مقابل الفندق في ظل شجرة ميموزا، ويتفحصون السطيحة ذات التمثالين محاولين التعرّف على وجه أميرٍ نمساوي عابر، أو مغنّية سوبرانو إيطالية تقوم بجولة، ويتخيلون كل الروائع التي تخفيها تلك الجدران المشمشية اللون: من الزخارف العربية والسجاد الفارسي إلى المغاطس الذهبية التي

تتخبّط فيها نساءٌ إنكليزيات ثريات وهن يستمعن إلى صوت المؤذن...

ـ لقد شارفت الشمس على المغيب، كانت ليندا بطركاني تقول بعد بعض الوقت، وإذا كنا نريد أيضاً الذهاب إلى شبرا...

فينادي الياس حنطوراً، ويفرض عليه السعر الذي يريده. وبعد أن يرفعوا ناندو الضخم إلى جانب الحوذي، يسير الحنطور خبَبَاً حتى بداية الشارع الشهير الذي تتواعد فيه النخبة في نهاية النهار.

على جانبي الشارع العريض المحاذي للنيل، تصطف أشجار جمّيز بالغة القدم، تتلاقى أغصانها لتشكّل قبّةً فوق رؤوس المتنزهين؛ وفي السهل، يتسابق أمراءٌ على أحصنتهم، وعلى رؤوسهم *كوفياتٌ* من الحرير الأبيض الموشّى بالذهب. كما تشاهد عرباتٌ مغلقة تجرها أفراس استعراض، وداخلها مجموعةٌ من نساء الحريم ذوات العيون الغزلانية التي تغطيها النُقُب الأنيقة الشفافة، تحرسهن مجموعةٌ من الخصيان بالزي الرسمي...

وطوال الطريق، يحكي الياس بطركاني قصصاً بصوته الجهير الجميل، مازجاً بين الفرنسية والعربية، مع بعض صيحات التعجب باللغة الإيطالية. كانت القصص رائعةً، شديدة الإثارة، تقطر ذهباً ودموعاً، يتقرر فيها مصير الأبطال ـ أمراء أو أميراتٍ أو عبيداً ـ داخل زوارق ضخمة أو خلف *مشربياتٍ* لا يمكن اختراقها. لم يكن الياس يمتلك طلاقة القصّاصين العاديين، فتلك القصص التي ماتزال دافئةً، والتي عايشها قبل بضع سنواتٍ، كانت تجعله يرتجف من الفرح أو الانفعال. وإن كان يضيف إليها أحياناً بعض التفاصيل، فربما كان ذلك فقط بسبب حرصه على الحقيقة، ولكي يظل أميناً لأحلام اليقظة التي يعيشها.

لم يكن جورج يملّ من سماع قصة *عين الحياة*، تلك اليتيمة الصغيرة التي التقطها الخديوي إسماعيل والتي ستتزوج ابنه حسين، سلطان المستقبل؛ وقد حفظ عن ظهر قلبٍ قصة الزواج تلك بأدقّ تفاصيلها.

الملك، حيث أن إسماعيل اشترى ذلك اللقب من سلطان القسطنطينية في تلك الأثناء؛ نعم، إنّ كلّ شيءٍ يُشترى يا أحبائي...

عقد إسماعيل العزم على تطبيق وصفات هاوسمان في القاهرة، وعلى إنجاز العمل بسرعة، بأقصى سرعة، ليقدّم للأجانب الذين سيأتون لحضور تدشين قناة السويس بعد عامين صورة مدينةٍ غنيّةٍ وحديثةٍ. وهكذا، تحولت العاصمة إلى ورشة عملٍ هائلة الضخامة، فشُقّت الجادات ورُسمت الساحات؛ بل واستُقدم من فرنسا فرانس بارييه ديشامب، وهو نفسه الذي أبدع غابة بولونيا، ليحوّل الأزبكية إلى حديقةٍ على الطراز الإنكليزي، بمغاراتٍ وجسورٍ وبحيراتٍ صغيرة. بعد عامين، ملأت المدينة واجهاتٌ غنية هجينةٌ الطراز، تخفي وراءها أبنيةً غير منجزة وشوارع وسخة وما لا يُحصى من الأكواخ القذرة.

ـ ذلك أنّ التاريخ لم يكن ينتظر، يا أحبّتي. لقد أصبحت خرائط العالم كلها باطلةً بعد أن نجح فردينان دو ليسيبس في أن يرسم عليها خطاً أزرق بين البحر الأحمر والبحر المتوسّط.

ويقصّ الياس على أسرته للمرّة المئة تفاصيل افتتاح القناة الشديد البذخ، بوجود الإمبراطورة أوجيني، والإمبراطور فرانسوا ـ جوزيف، بالإضافة إلى تسعمئة من المدعوّين المميَّزين الآخرين: حفلات الرقص والموسيقى، الألعاب الناريّة، ألعاب السيرك، سباق الجِمال، المنازل المضاءة، النساء اللواتي يغنّين خلف الشرفات...

ـ ألم يكن فيردي موجوداً؟ يسأل جورج، ليعيد تحفيز الراوي.

ـ لا! إذ أنّ *«عايدة»* التي كان يُفترض أن تدشّن أوبرا القاهرة الجديدة لم تكن جاهزة، ولم تُعرض هذه التحفة الفنّية إلاّ في كانون الأول من عام 1871. لكن أيّ افتتاحٍ رائع! أُجّرت المقاعد في السوق السوداء بمبلغٍ يوازي وزنها ذهباً، وكانت سيدات البلاط معزولاتٍ عن الأنظار في مقصوراتهن، لا يُرى منهن سوى بريق مجوهراتهن. حضر إسماعيل العرض من أوله إلى آخره رغم أنه استمر ـ انتبهوا جيداً لما سأقوله ـ من السابعة مساءً وحتّى الثالثة والنصف صباحاً!

وحين أسدلت الستارة أخيراً، أخذ الحضور يهتفون وهم واقفون: «يعيش الخديوي! يحيا الخديوي»!

ـ وفيردي؟

ـ فيردي لم يعبر المتوسط! لقد كان يكره المراكب. وحين انتهى التصفيق، سارع البعض لينبئوه برقياً بالمجد الذي حققه عمله...

كان الياس يحفظ مقاطع كاملة من *«عايدة»* عن ظهر قلب، ويغني بصوته الجهير بمجرّد أن يطلبوا منه ذلك، أيام الأحد، بعد تناول *الموخية*.

يبدو بأن موضوع القناة قد أدار رأس والد جدي بشكلٍ أو بآخر؛ فبعد أن سمّى ابنه الأكبر فردينان وابنته أوجيني، أراد أن يسمي الطفل الثالث: فرانسوا ـ جوزيف، فذهبت زوجته تشتكيه إلى خوري كنيسة درب الجنينة الذي استدعاه، ولفت نظره إلى أنه يبتعد بصورةٍ خطيرة عن التقليد المتّبع:

ـ هذان الاسمان، فرانسوا وجوزيف، يناسبان توأمين، حبيبي. فعندنا، لا يسمّى الأطفال بهذه الطريقة. كان عليك أصلاً أن تسمي ابنك البكر باسم والدك المسكين. إنّ اسمه جرجس، أليس كذلك؟

وتحول الاسم إلى جورج. ألم تكن مصر قد أصبحت «جزءاً من أوروبا»؟

ـ بشرفي، لقد كدت أصنع ثروة خلال فترة شق القناة؛ هذا ما كان يؤكده الياس بطركاني لمن يريد الاستماع إليه.

حملت الثروة وجه حبيب سكاكيني، المنتمي إلى عائلة دمشقية متواضعة من الروم الكاثوليك، هاجرت إلى مصر. لم يكن لدى حبيب مالٌ أو شهادة، مثله في ذلك مثل الياس. وفي أحد الأيام، حين كان في العشرين من عمره، قرأ في الجريدة استغاثةً من فردينان دو ليسيبس، فالجرذان السمينة تأكل طعام عمال القناة وتخرّب المعدّات وتنشر الأمراض. استُخدمت كل الوسائل لإبادة تلك الحيوانات التي

تعرقل سير العمل، لكن دون جدوى، فغُرضت جائزةٌ قيّمة على من يجد الحل.

تطوع الشاب سكاكيني، وقال مقترحاً:

ـ لماذا لا نحضر قططاً تجد متعة في أكل الجرذان؟

نظر إليه المعنيون بدهشة؛ لكن لم يكن لدى رؤساء الورش ما يخسرونه. وهكذا، أحضرت مئات القطط إلى الموقع داخل أقفاص بعد تجويعها؛ فنظّفت، حين أُفلتت، منطقة القناة بلمحة عين...

بعد فترةٍ وجيزة، عيِّن مخترع تلك الطريقة العلمية في إبادة الجرذان مسؤولاً عن تجفيف مستنقع القاهرة، فأظهر أيضاً براعةً كبيرة في إنجاز تلك المهمة. وبعد عام، فكّر المسؤولون به أيضاً للتصدّي لتحدٍ آخر: بناء أوبرا القاهرة خلال ستة أشهر.

غمره الخديوي بالهدايا ومنحه لقب باشا، وبلغت شهرة حبيب سكاكيني القسطنطينية، فأهداه السلطان عبد الحميد قصراً في الفجّالة، في حيٍّ مايزال يحمل اسمه حتى الآن.

ـ لقد فكرت أنا أيضاً بالقطط، شرح الياس، لكنني كنت في ذلك اليوم مشغولاً لدرجة أنني لم أتمكن من الرد على الإعلان.

ـ يا خسارة! كان المستمعون إليه يهتفون في كل مرة، وهم يتساءلون لماذا لم ينتحر سيئ الحظ هذا برصاصةٍ في الرأس.

أما جورج الصغير، فكان يستمع إلى الكبار ويفكر بصمت، محاولاً فهم الأسباب الحقيقية الكامنة وراء نجاح حبيب سكاكيني. كيف ينتقل المرء من القطط إلى مرتبة باشا؟ كيف يشق لنفسه مكاناً تحت الشمس المشرقة؟

5

من بين دفاتر ميشيل الأحد عشر، فإن الدفتر الأول ليس ذاك الذي أفضّله، ففيه لا نجد إلاّ صبياً مثابراً، متحفّظاً، عاجزاً على ترك العنان لريشته؛ لم تظهر بعدُ في هذه الصفحات المحررة كأنها وظائف ليلية ملامحُ المراهق الحسّاس والشاعري الذي سيصير إليه في السنوات القادمة. هل كان اليسوعيون يعلّمون طلاّبهم حجب مشاعرهم بهذه الطريقة، أم أنه ينبغي أن نعزو تحفظ ميشيل ذاك إلى خوفه من أن يقع يوماً دفتره السري المخبّأ تحت الفراش بين أيدي الآنسة غيومار الفضولية؟

15 أيار 1916

ذهب الأب المدير والآباء مديرو الدروس أمس إلى القصر لردّ الزيارة. لم يتمكن السلطان من استقبالهم، فقد كان مجتمعاً بوزير المالية؛ لكن كبير أمناء القصر، ذا الفقار باشا، استقبلهم بلطفٍ شديد وقال لهم: «صاحب السمو راضٍ للغاية عن زيارته للثانوية، وقد كرر مراراً مساء أمس أثناء العشاء: إذا كان المرء يريد لابنه أن يكون حسن التربية، فعليه أن يختار له ثانوية العائلة المقدسة، لا أيّ مكانٍ آخر».

لم يجد اليسوعيون أية صعوبةٍ في توصيل تقدير السلطان لثانوية العائلة المقدسة إلى الطبقة البرجوازية القاهرية عن طريق تلاميذهم، فقد تعلّموا كيف يشغّلون الهاتف العربي!

حين أوصل ميشيل الأمر لوالده، تصنّع جورج بطركاني الامتعاض وقال:

ـ هذه العبارات تسيء إلى الأخوة في المدارس المسيحية (الفرير) الذين درستُ عندهم...

لقد شكل تسجيل الأولاد في مدارس اليسوعيين دلالةً على الصعود الاجتماعي بالنسبة لجدّي، فكل الصبيان في عائلة زوجته درسوا في هذه الثانوية التي كانت أعلى المدارس كلفةً في القاهرة، كما أن الانتساب إليها كان أصعب منه إلى أية مدرسةٍ أخرى، وكانت تؤمّن أفضل تأهيل ـ كان السلطان محقّاً من هذه الناحية.

عاد اليسوعيون إلى مصر في العام 1879 بعد قرنٍ من الغياب، وكلّفهم البابا ليون الثامن بأن يستعيدوا الأقباطَ المنشقّين، الذين تجرءوا على التباهي باسم الأورثوذوكس، إلى حضن الكنيسة. ولهذا الغرض، أنشئت مدرسةٌ إكليركية مجانية في القاهرة وإرساليةٌ في الصعيد. لم تكن ثانوية العائلة المقدسة مدرجةً ضمن البرنامج، إذ أنشأها اليسوعيون بمبادرتهم الذاتية، مثيرين بذلك غضب الأخوة في المدارس المسيحية الأخرى الذين كانوا يحتكرون التعليم في ذلك الحين... إلاّ أنّ عمال الرب كافةً قد وجدوا لهم في نهاية المطاف مكاناً على ضفاف النيل، وحصل تقسيمٌ غير معلن للمهام: فإذا كان الأخوة يستقبلون السواد الأعظم من الطلاب، فإن اليسوعيين، وهم أكثر انتقائية، كانوا الوحيدين الذين يعلّمون اليونانية واللاتينية.

18 أيار 1916

«فكتور ليفي يمقتني؛ فمنذ زيارة السلطان إلى الثانوية، لم يعد يوجه لي الكلام؛ وهو يقول للجميع بأنني «مدلّل الأب بينالتي». أنا متأكد من أنه هو الذي رمى دودة القز التي تخصّني».

لم يستطع الطالب اليهودي الوحيد في الصفّ أن يهضم قضية *«الفلاح وأولاده»*، فقد اعتبر بأنه غُبن. أوَ ليس هو الأحقّ بإلقاء القصيدة أمام السلطان مادام صاحب أفضل علامةٍ في الاستظهار؟

في هذه السطور، يعترف ميشيل بينه وبين نفسه وببعض الاضطراب بأن علامة 17 من عشرين التي حصل عليها في الفصل الثاني لم تكن بمستوى علامة فكتور ليفي البالغة 19. أصبح الأمر يؤرقه أكثر فأكثر لدرجة أنه تساءل إن كان ينبغي عليه الاعتراف. لكن ما هي خطيئته على وجه التحديد؟ لم يكن هذا البند وارداً في الفظائع المثبّتة والمسعّرة، وإن كان هناك أصلاً خطأ ما، فالأب كورنر قد شارك فيه على الأقل. وبما أن طلاّب الصف السابع يعترفون أمام الأب كورنر... باختصار، كان كل شيءٍ يدعو إلى عدم إعطاء بُعدٍ وَرَعيٍّ لذلك الموضوع.

اقتربت العطلة الصيفية، ولم يبق سوى تحضير الحفل السنوي الذي يقيمه الأب المدير، وتقديم العطايا العينية للفقراء. قدّم ميشيل وشقيقه أندريه السكر والعدس، لكن بعض التلاميذ جعلوا دخولهم إلى المدرسة ملحوظاً، حيث تبعهم خادمٌ يحمل بين ذراعيه إوزة حيّة أو يسحب خروفاً.

كانت صفوة سكان القاهرة، وعلى رأسها السلطان، تذهب إلى الإسكندرية منذ منتصف حزيران ولمدةٍ لا تقل عن ثلاثة أشهر. بدأ ميشيل يحلم بشاطئ كازينو سان ستيفانو حيث يسبح عادةً، كما في الصيف الماضي، بصحبة أخوته وأولاد عمومته؛ فيحيط الأولاد الأصغر سناً خصرهم بطوقٍ ضخمٍ من المطاط ليساعدهم على العوم. وتحضر في الصباح نساءٌ مسلمات غنيات بعرباتهنّ المثقلة بالأطفال، وقرب السائس يجلس خصيٌّ شديد الدمامة ذو صوت غريب يشير إليه الآخرون بأعينهم بشيءٍ من الخوف...

كانت العطلة الصيفية مناسبةً للاجتماعات العائلية الكبيرة في فيلاّ أولاد العم في الإسكندرية، حيث تثير ماغي الجميع بأزياء صيفية جريئة، ويجلسناندو البدين لساعاتٍ وساعات، أمامه أكوام الجمبري وسمك المرجان الذهبي اللون والسردين المشوي يملأ بها بطنه. أمّا النجم الحقيقي لتلك الوجبات المديدة، فكان دوماً العجوز الياس بطركاني، والد جدي، الذي يعيد الحاضرين إلى الخلف

ثلاثين عاماً وهو يحكي دون ملل، بصوته ذي البحّة الخفيفة، عن بدايات الاحتلال الإنكليزي:

ـ في العام 1882، زرعت انتفاضة عرابي الذعر في صفوف السكّان الأجانب، فأخذوا يهربون جماعاتٍ، بالقطار أو بالمركب. أما نحن، *يا حرام*! فلم نكن نتمتع بوضعٍ مماثل لوضع الفرنسيين المحميين يسمح لنا بالانضمام إلى قافلةٍ خاصة اتجهت نحو فلسطين...

ظلّ آل بطركاني، يقتلهم الذعر، مختبئين في منازلهم طيلة أحداث عام 1882، وأثار قصف الإنكليز للإسكندرية أكثر الشائعات جنوناً:

ـ «لقد دُمّر الأسطول البحري البريطاني، وأُسِر الأميرال سيمور»، أكّد لنا جارنا الأرمني المخبول. في كلّ يوم، كانت جمهرةٌ شديدة الهياج تنتظر الوصول المزعوم للأميرال في محطّة باب الحديد، وفي كلّ يوم، كانوا يقبضون على سيمور غير حقيقيّ أمام المحطة، ثم يجوبون به المدينة تحت وابلٍ من عبارات السخرية...

تغلّب الإنكليز على جيش عرابي بسهولة، لكنّ آل بطركاني لم يتنفّسوا الصعداء إلاّ في الرابع عشر من أيلول، حين نزل فرسان الجنرال دروري لوي في الغسق إلى شارع شبرا، بعد مسيرة مئة كيلومتر في الصحراء.

ـ كنّا على الشرفة نتفرّج، تابع الياس بطركاني، حين توقف فجأة الرماة البنغاليون الراكضون في المقدّمة وهم يرون مئذنةً أمامهم، وأخذوا يصيحون: *الله أكبر*! لقد كانوا مسلمين! ... لكن ما لبث الاطمئنان أن عاودنا لحسن الحظ، فأخذتُ ناندو معي بعد أيام إلى ساحة الأوبرا لحضور العرض الأول لقوات الاحتلال. هل تذكرُ، يا ناندو؟

فهزّ آكل السمك ذاك رأسَه مؤكّداً وفمُه مليءٌ بالطعام. كانت ذكريات ذلك اليوم دقيقةً جداً في ذهنه، فقد كان واقفاً بجانب أبيه، بحذائه الذي يغطّيه الغبار، حين شمّ رائحة الخيول وملأ أذنيه ضجيج حوافرها.

ـ يا له من مشهدٍ، يا أولادي! تابع الياس. افتتح عَلَمان مثقّبان بالرصاص موكب المنتصرين في التل الكبير. ثم تبعهما عشرون ألف رجل، دون طبول ولا أبواق. كان مسيرهم الصامت ذاك أشدّ تأثيراً. أي مهرجان من البدلات والألوان! فبين السترات القرمزية لرماة المدافع، والسراويل الرمادية للمشاة، والتنانير المكسّرة للكتائب السكوتلندية، والبدلات النيلية، وعمائم الخيالة الهنود، يمكن للمرء أن يظنّ بأن خمسةً أو ستةً من الجيوش الأجنبية قد غزت مصر في وقتٍ واحد!

في ذلك اليوم المشهود من العام 1882، حضر الياس بطركاني باكراً كي يجهّز معدات التصوير التي يملكها، والتي نقلها على ظهر حمار، بمساعدة الخادم الصغير: المنصب ثلاثي القوائم، والمسند المزلاق، والعدسات، والحجرة السوداء، وحوالى خمسة عشر هيكلاً تحتوي على اللوحات الحساسة. وكما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات، فقد تجمّع المتسكعون وأحاطوا به. كان الفنان يختفي لفترةٍ تبدو لا نهائية تحت الغطاء الأسود الذي تغطيه قطعة قماش قطنية بيضاء لتخفيف الحرارة، حيث يعمل على ضبط العدسة ثمّ، فجأةً، يصدر عن الجهاز وميضٌ يثير الهتافات.

في تلك الفترة، كان ناندو مايزال أصغر من أن يفهم بأن والده لم يكن شديد الحماس للتصوير، بل إن رغبته بأن يلاحظه الآخرون تعادل رغبته بالنظر في عدسته؛ لم يكن لدى صائد الصور الزائف ذاك إمكانية اقتناء دارةٍ أو تلبرية(*) أو حتّى سفرجي بزيٍ رسمي، لذلك كان يتبختر بعلبته السوداء ليثير المخيلات. أما شقتهُ في حي الفجّالة، فامتلأت بصورٍ عاديةٍ وضعت في إطاراتٍ سيئة، وأهملت حتى أخذت تصفرّ؛ هذا إذا تناسينا اللوحات التي لم تظهّر والمكوّمة في علب القبّعات...

ـ هل تذكر اليسوعي يا ناندو؟

على الرصيف المقابل، وقف يسوعيٌّ، يصحبه طلاّب إكليركيون

(*) التلبرية: مركبة خفيفة ذات عجلتين. م.

أقباط كاثوليك، يتجادل مع جندي بريطاني ليسمح له بالعبور؛ وقد حصل في النهاية على بغيته، فاندفع عبر الشارع بين مرور سريّتين، يتبعه الطلاب الإكليركيون بأثوابهم الكهنوتية السوداء وستراتهم الصغيرة وطرابيشهم الرمّانيّة اللون. لقد مثّل ذلك الاستعراض بالنسبة لأولئك الأطفال الفقراء أول نزهةٍ لهم في المدينة منذ أن انتهت الأحداث. لكن جهاز تصوير الياس هو أكثر ما كان يشدّهم.

أجبر اليسوعي الفرنسي ناندو على التقدّم خطوةً ووقف قرب الفنّان رغماً عنه.

ـ مسكينةٌ فرنسا! قال بصوتٍ خفيض. حين أفكّر بأنّ سفننا التي كانت هي أيضاً قبالة الإسكندرية قد تلقّت الأمر بعدم المشاركة في المعركة وبالإبحار بعيداً! مسكينةٌ فرنسا! كان من المفروض أن تقوم هي بزرع الصليب على هذه الأرض. ربما أراد الله معاقبتها على جرائمها حين عَهِد لغيرها بالقيام بهذه المهمة.

ثم استدار نحو الياس قائلاً:

ـ أنا لا أعرف أيها السيّد ما إذا كانت مصر سوف تغدو أكثر مسيحيّةً من السابق، لكنني أخشى أن تصبح إنكليزية.

6

قبل بضعة أيام من رحيل إدوار ديلليم بالمركب إلى فرنسا المحدّد في الخامس عشر من حزيران 1915، اصطحبه جدّاي وماغي إلى المشفى الفرنسي في العبّاسية لحضور حفلٍ موسيقيّ تحييه مجموعةٌ من السوريين في القاهرة للترفيه عن الجنود المصابين في الدردنيل.

وجدوا إدوار ينتظرهم أسفل سطيحة الشيبرد، لكنّه هذه المرّة لم يكن يرتدي قبّعةً من القشّ، بل طربوشاً رائعاً.

ـ *مبروك*، هتف جورج بطركاني يهنئه على ذلك التجديد.

وبصورةٍ آليّة، همّ إدوار بنزع الطربوش عن رأسه تحيّةً ليولاند وماغي الجالستين في العربة، فوقع من يده على الأرض، وسارع متسوّلٌ بساقٍ واحدة إلى التقاطه.

ـ يا صديقي العزيز، قال جورج مبتسماً، حين يرتدي المرء طربوشاً، فإنّه لا ينزعه أمام السيدات ولا حتّى أمام السلطان. كما أنّك تخطئ حين تحمله بهذه الطريقة، فالطربوش ليس قبّعة؛ ينبغي عليك حمله بكلتا يديك.

ثم قَرَن جورج القول بالفعل، فأخذ الطربوش من المتسوّل ووضعه بخفّةٍ بكلتا يديه على رأس الفرنسي.

ـ هكذا؛ إنه يناسبك تماماً. ينبغي إمالة الطربوش قليلاً إلى

الجانب، فذلك أكثر أناقةً... لكنني لو كنت مكانك لاخترت لوناً أفتح. فمع لون بشرتك...

احمرّ وجه ديلليم وشعر بوخزٍ في فروة رأسه، فوجدته يولاند ساحراً، وكانت ماغي مستعدّةً لقضمه.

أُجلس الناجون من الدردنيل في أكبر صالاّت المشفى المزينة بالورود وبالأعلام الفرنسية؛ ومقابلهم، أحاط مشرقيون بالغو الأناقة بوزير فرنسا المفوض الذي شكرهم على مبادرتهم الموفقة.

ترنّم محامي سوري، تصحبه الجوقة، *بالمارسيلليز* بصوتٍ مرتفع. ومالت ماغي نحو إدوار لتهمس في أذنه:

ـ إنه نقيب المحامين في المحاكم المختلطة. صوته جميل، أليس كذلك؟ أعتقد أنّه سوف يغنّي أيضاً *لامادولون La madelon*... وبعد قليل، سوف تستمع إلى إحدى قريباتي، زوزو، وهي رائعة بالفعل. إنها تسرد قصائد من تأليفها...

كانت ماغي تتحدّث بيديها السمراوين الجميلتين، فترنّ أساورها، ويُسكِر عطرها المثير إدوار الذي أخذ يتعرّق تحت طربوشه، حتّى أنّه نسي أن يصفّق حين دخلت زوزو الصغيرة، وهي ترتدي ثوباً بألوان العلم الفرنسي وقبّعة فريجينية...

في العربة، أثناء عودتهم ، أسرّ لهم الفرنسي مستغرباً:

ـ لم أكن أتوقّع كلّ ذلك الحب لفرنسا!

فابتسم جورج وقال وهو يستنشق سيجاره:

ـ ماذا أقول لك أيّها الصديق العزيز؟ إنّ البعض فرنسيون بالدم، والبعض الآخر فرنسيون بسبب إقامتهم في فرنسا؛ أمّا نحن، فإننا فرنسيون بالقلب.

قد لا يكون إدوار أولَ شخص يتغنّى أمامه جدّي بهذه العبارة، لكنّ وقعها كان حسناً وقد استُقبلَت بحفاوة.

ـ لم أكن أتوقع، تابع الفرنسي، بأن ذلك ممكنٌ في بلدٍ يخضع للاحتلال الإنكليزي منذ خمسةٍ وثلاثين عاماً.

ـ وماذا في ذلك؟ لدى الإنكليز السلطة السياسية والاقتصادية. نحن نحترمهم، لكننا لا نحبّهم.

تدخلت يولاند:

ـ جورج! لو سمعك أبوك!

فمضغ جورج سيجاره المنطفئ وهو شارد:

ـ هذا صحيح، لقد أحبّ والدي الإنكليز دوماً...

7

أظنُّ بأنّ محبة الياس بطركاني للإنكليز كانت تنبع بشكلٍ أساسي من مزاجه كموظف، لقد خُلق جدّي هكذا: يحبّ رؤساءه. فلو كانت روسيا هي التي تحتل مصر لأصبح محباً للروس، ولو غزتها الصين لصار مناصراً للصينيين.

أما ابناه، ناندو وجورج، فلم يكونا مجبولينْ من نفس الطينة، وكثيراً ما رددا بأن التجارة تسري مع الدم في عروقهما.

وعلى ذكر الدم، فإنه ينبغي الاعتقاد بأنه تخطّى جيلاً كاملاً، لأن الياس بطركاني لم يكن مولعاً بالأعمال التجارية، على العكس من ابنيه الموهوبينْ ومن والده الذي برع بتجارة التفتا في حلب. لذلك، فقد ترك متجره في الموسكي منذ العام 1883 ليلتحق بحماسٍ بوظيفةٍ حكومية.

في ذلك الحين، ألحق الإنكليز بعضَ الناس بالوظائف لحاجتهم إلى وسطاء موثوقين نوعاً ما، يعرفون العربية بالإضافة إلى لغاتٍ أخرى ولديهم حدٌّ أدنى من التعليم، وذلك لرغبتهم في السيطرة على الإدارة المحلية وإصلاحِها. قلائلُ هم المسلمون والأقباط الذين كانوا يتمتعون بتلك الصفات.

ـ نحن السوريون نشكّل بالنسبة لإنكلترا هبةً من السماء، قال الياس وقتها، لأننا نملك التأهيل اللازم، كما تعلمون.

كان جدُّ أمي يحمل ـ بالفعل ـ شهادة الدراسة الابتدائية... لكنّه كان يعرف العربية والفرنسية، كما أنه كان يتدبّر أموره بالإيطالية،

ويرطن قليلاً بالإنكليزية، وله صوتٌ يوحي بالاحترام، كما أنه كان أنيقاً ويعرف كيف يرتدي ملابسَ تفوق قدراته المادية. تمّ توظيفه بالمرتبة الرابعة في وزارة الأشغال العامّة بلقب *وكيل إدارة*.

لم يكن الياس يحلف سوى باسم الكابتن سمبسون، رئيسه المباشر: سمبسون راح، سمبسون جاء... وضمن أيِّ نقاش، سواءً كان سياسياً أم دينياً أم اقتصادياً أم خاصّاً بعلم النبات، يورد *وكيل الإدارة* بوقارٍ ذكرَ صوت الوحي الإلهي ذاك، الأشقر، المتورد الوجه، ذي الشاربين الشبيهين بالفرشاة، والذي خدم في جيش الهند.

ـ لقد قمنا باحتلال مصر لحماية الأوروبيين الذين يسكنون فيها ولتوطيد نظام الخديوي، كان الكابتن سمبسون يقول. نحن هنا بصفةٍ مؤقّتة، وسوف نرحل في اليوم الذي يصبح فيه هذا البلد قادراً على إدارة شؤونه بنفسه بعد أن يتمّ شفاؤه وإصلاحه... إن بعض النباتات الغضّة تحتاج إلى دعامةٍ كي تنمو مستقيمة.

لكن السنوات أخذت تمضي، وصار للدعامة جذورٌ ممتدة. الجلاء عن مصر؟ لم يعد الأمر وارداً في كلام الكابتن سمبسون الذي كان يلعب البولو ثلاث مرات أسبوعياً في نادي الخديوي الرياضي. أخذ موقع هذا البلد الغض يبدو لبريطانيا العظمى أكثر فأكثر أهميّةً من الناحية الاستراتيجية على طريق الهند؛ وبعد أن قلّلث كثيراً من أهمية قناة السويس حين إنشائها، أصبحت بعد ذلك المستخدمَ الأساسي لتلك القناة والمستفيد الأوّل منها.

ـ لقد أصبح الإنكليز قناليّين؛ أكّد الياس بطركاني بلهجة المنتصر حوالى عام 1890، كما لو كان هو صانع هذا التحول.

لكن وزارة الأشغال العامة قامت بعد ذلك بمشروعٍ آخر للمياه، مأثرةٍ بطوليةٍ أخرى: ترويض نهر النيل على يد مهندسين بريطانيين. وحول هذا الموضوع، أصبح الكابتن سمبسون يتلفظ بعباراتٍ حاسمة، ينقلها الياس بوقار إنجيليٍّ خلال وجبات الغداء في المنزل أيام الأحد، مقتنعاً بأن عليه تقديم وجهة النظر كاملةً لابن عمه الصحافي رزق الله:

ـ يقول الكابتن سمبسون أن مصر دون النيل ليست سوى صحراء قاحلة؛ لكنّ النيل قد وضع هذه البلاد دوماً بين فكّي كمّاشة: يعطيها من الماء أكثر مما ينبغي في الشتاء، وأقل مما يكفيها في الصيف. ينبغي إجادة استخدام هذا الماء وتوزيعه بطريقةٍ منهجيةٍ عادلة؛ وهذا الأمر مرتبطٌ بالأخلاق بقدر ما هو مرتبطٌ بالعلم، وكلاهما كانا شديديْ النقص قبل مجيئنا في العام 1882.

ثم يشدّد الياس على تلك الكلمات القوية وهو شبه مستغرب من أنّ الصحافي لم يدوّن أية ملاحظات. أما الصغير جورج، فيفتح أذنيه مصغياً باهتمام؛ ذلك أنه في المدرسة، عند الأخوة، لم يكن يدرس سوى أنهار الرون والسون وجبال البيرينيه والمرتفعات الوسطى والمقاطعات الفرنسية... أما مصر، فلم تكن مدرجةً أبداً في المنهاج.

ـ كما يقول سمبسون، فإن مسار وانحدار واستطاعة قنوات الري حُسبت في الماضي خلافاً لأيّ منطقٍ سليم. ولتنظيف هذه القنوات، كان ينبغي باستمرار تجنيد آلاف الفلاّحين، تحت أنظار المهندسين الفرنسيين العاجزة. كانوا يخلطون بين الري والتصريف، كما لو كان يمكن الخلط بين أوردة الجسم وشرايينه! إذ كانت القنوات التي تسير فيها المياه على مستوى الأرض تُستخدم في الريّ عوضاً عن استخدامها في التصريف، فتنسكب المياه المشبعة بالملح على الأراضي، وتلك هي الكارثة...

تقاطع ليندا، جدة أمي، المتحدثَ لتسكب *الملوخية* أو *الكبيبة اللبنية*، فيغتنم ابن العم رزق الله الفرصة ليوجّه دعابةً تطال الإنكليز، إذ أنّ جريدة *الأهرام* التي يعمل فيها تساندها فرنسا. إلاّ أن الياس سرعان ما يسترد سيطرته على المستمعين بصوته الجهوري الجميل، الذي تخنقه قليلاً قطع اللحم، فيذكر بكل احترامٍ أسماء أبطال النيل الجدد: مستر ريد، الميجر براون، الكولونيل روس... فلم يكتفِ أولئك الفرسان بتنظيم التصريف والري، بل إنّهم باشروا في إنشاء سدٍّ في رأس الدلتا.

ويعترض الصحافي:

ـ منذ أن بدأ السدّ يعمل، أصبح فرعا النيل جافّيْن تماماً خلال شهريْ أيار وحزيران.

ـ هذا صحيح، يجيب الياس بامتعاض، فالشيء الوحيد الذي يمكن أن يؤخذ على السد هو أنّه يعمل أفضل مما ينبغي! سوف يعمل مهندسونا الإنكليز والهنود على أن يصبّ جزءٌ من الماء في البحر.

ويرمق رزق الله بنظرةٍ ناريّة:

ـ إلاّ أنني لا أحتمل هزء الفرنسيين الذين يتضرعون للسماء، علناً، كي يلحق بالسد ضررٌ ما!

ثم يتابع بلهجة من يفشي سراً، وكأنّه يأسف لاضطراره للكلام أمام الصحافة:

ـ لقد تقدّم مهندسونا كثيراً في مشروع الخزّان الذي بإمكانه استيعاب ـ احبسوا أنفاسكم للرقم الذي سأذكره ـ أربعة ملياراتٍ من الأمتار المكعّبة من المياه! وأين ينبغي بناء ذلك الخزّان الضخم؟ في أسوان، في وادي حلفة أم في الفيوم؟ إن سمبسون يميل إلى اختيار الفيوم...

أصبح جورج الصغير متحرّقاً لمشاهدة تلك الشخصية الكلّيّة القدرة التي كثيراً ما سمع عنها، بشحمها ولحمها، وجاءت إليه الفرصة أخيراً في آذار عام 1891.

ـ لن نذهب للنزهة في شبرا بعد ظهر الغد، أعلن الياس لعائلته والفخر يملؤه، فقد دعانا الكابتن سمبسون إلى الجزيرة لحضور مهرجانٍ عسكري للفروسية.

طيلة صباح يوم الأحد ذاك، لم تتوقّف المياه عن السيلان من الصنبور الوحيد في الطابق العلوي، فقد استحمّ الجميع بحماسٍ وتزوّقوا. صممت ليندا على أن تزيّن فستانها البنفسجي بالكشاكش، وتوسلت إلى جارتها الأرمنيّة أن تأتي لمساعدتها؛ فانهمكت المرأتان بالتطريز طيلة سهرة يوم السبت على ضوء شمعة. حتى الياس كان يشعر باضطرابٍ شديد، رغم كافة المحاولات التي بذلها لإخفاء ذلك عن الآخرين.

بالكاد نظرت السيدة سمبسون، التي تشبه بمنخريها المتعاليين حصانَ احتفالاتٍ، إلى أولئك المشرقيين الذين لبسوا أجمل ثيابهم، ثم تابعت حديثها مع سيداتٍ إنكليزياتٍ على شاكلتها. أما الكابتن الفائق الأناقة، والذي كان يرتدي سترة بيضاء وسروالاً أسود وطربوشاً رمّانيّ اللون، فكان يقبّل دون توقف أيدي السيدات؛ وقد أثار شارباه الأصهبان، القاسيان كمكنسة، القشعريرةَ في جسد ليندا كله.

نُسّقت المنصّات بذوقٍ رفيع، كما لو أن سباق الخيل ذاك يجري في أسكوت؛ استعرض الخديوي الفرسان وبجانبه السير إيفلين بيرنغ، القنصل العام لبريطانيا العظمى. مسكين توفيق! فلا طقمه اللمّاع ولا لحيته السوداء أكسباه ولو قدراً بسيطاً من الحضور الشخصيّ. على يساره، جلس الشخص الذي سيصبح فيما بعد اللورد كرومر، ساحقاً إياه بجسده العريض وحيويته وذكائه وثقافته وسلطته...

تناوبت العزف فرقتان موسيقيتان عسكريتان، ومرّت على التوالي فرق المشاة ثم الفرسان ثم سلاح المدفعية. أمّا أبرز ما في الاحتفال فكان إعادة تمثيل هجوم على معسكرٍ إنكليزيٍّ في السودان. ألم تكن جيوش السردار غُرنفل والكولونيل كيتشنر قد ألحقت لتوّها خسارةً فادحة بأولئك المهديين الملاعين بعد سنواتٍ من الفشل في تلك المستعمرة الإنكليزية؟

أمام المنصات، اندفع سودانيون بلونٍ أسود كالفحم مهاجمين المعسكر الإنكليزي، وهم يمسكون بحرابهم ويطلقون صرخاتهم المتوحشة. ثم قاموا ببعض ألعاب الفروسية الساذجة نوعاً ما للاحتفال بنصرهم. لكن فجأةً، سُمع صوت طلقات بندقية ومدفع، وظهر المشاة الإنكليز، يتبعهم الخيالة، من كل جانب؛ وبلمح البصر قطّعوا السودانيين إرباً وأعادوا زرع علمهم. صفق الحضور، واقفين، حتّى كلّت أيديهم، في حين عزفت الفرقتان الموسيقيتان السلام الملكي البريطاني: *God save the Queen*(*).

(*) أي: يا ربّ احمِ الملكة. م.

ـ كلّ شيءٍ كان كاملاً، لم ينقص شيءٌ على الإطلاق، علّق الياس وهم في طريق العودة.

ـ لم ينقص سوى الجنود المصريين في السودان، أولئك الذين أرسلهم الضباط الإنكليز إلى القتال هناك، قالت زوجته بوعيٍ سياسيٍ لم يكن متوقّعاً لديها.

لقد شعرت ليندا، الفخورة بثوبها الليلكي المطرّز، بالإهانة الشديدة بسبب النظرة المزدرية التي وجّهتها إليها السيدة سمبسون...

8

رتّب اليسوعيون زيارة السلطان إلى الثانوية بكلّ تفاصيلها، بمساعدة ذي الفقار باشا، كبير أمناء القصر، الذي كان سابقاً من طلاّبهم؛ إلاّ أنّ ميشيل لم يعلم بذلك إلاّ بعد سبعة أشهر من الزيارة، حين أفشى الأب كورنر السرّ.

2 كانون الأول 1916

فهمت اليوم لماذا لم يقم فكتور ليفي بالسرد أمام السلطان! إذ أنّه حصل على علامة 19 من 20 على إلقائه لقصيدة «البحيرة» للامارتين Lamartine ؛ ولمّا كان ينبغي تكريس ذلك الدرس للافونتين La Fontaine إرضاءً للسلطان، فقد اختار الأب كورنر الطالب الذي حصل على أعلى علامة بقصيدة «الفلاّح».

لقد حاولت شرح الأمر لفكتور ليفي، إلاّ أنّه أشاح بوجهه عني؛ وهو لم يعد يوجّه لي الكلام، كما أنّه مصرّ على أن يدعوني بِ «مدلل الأب بينالتي». إنني أكرهه!

الحقيقة أن فكتور ليفي كان على خطأ، فلو كان لدى اليسوعيين مدلّلٌ من آل البطركاني لما كان ميشيل بل أندريه، شقيقه الأكبر، فذلك الصبي ذو الخُلُق الكريم كان أحد الذين يقدّمون لهم «أكبر عزاء».

تم اختيار أندريه مع خمسة طلاّبٍ آخرين من الصفّ التاسع للقيام برحلةٍ إلى الصعيد لمدّة أسبوعٍ بمناسبة عطلة عيد الميلاد

لعام 1916، بهدف إطلاعهم على إرساليّة المنيا، إحدى مفاخر رهبانيّة اليسوعيين.

شكّلت رحلة خالي استكشافاً بالنسبة للعائلة، فحتّى ذلك الحين لم تخطر ببال أحدٍ من أفرادها الفكرة السخيفة المتمثلة في المجازفة بالذهاب إلى الجنوب من القاهرة، فتلك المناطق الهمجية تناسب برأيهم السياح الأوروبيين ـ النادرين في ذلك الحين، إلاّ أنها لا تناسب مشرقيين من أمثالنا، يميلون بطبيعتهم نحو الشمال، والبحر المتوسط، والحداثة...

تواعد الطلاّب الستّة في محطّة باب الحديد التي احتلّ بهوَها الكبير، رغم الوقت المبكّر، جمهورٌ صاخبٌ غير منظّم؛ كان الحمّالون المتشابهون نوعاً ما والذين يرتدون *جلاّبيّاتٍ* متّسخة يشدّون المسافرين من أكمامهم وهم يتنازعون أمتعتهم، بينما ترسل قاطرةٌ متوقفةٌ أمام الرصيف بخارَها إلى وجوههم بانتظام.

كانت تلك أول رحلة يقوم بها أندريه دون عائلته، مما ملأه بالغبطة؛ فلن تكون الآنسة غيومار موجودة لتضايقه بإلحاحها في كلّ لحظة، رغم أنها أصرّت على أن تحضّر حقيبتّه بنفسها.

غصّ بهو المحطّة بالباعة المتجوّلين الذين يرددون دون ملل كلامهم الخادع لاجتذاب الزبائن، وأفلت مدرّب قرودٍ حيوانه على الحاضرين فأوقع فلاّحاً على ظهره، مما دفع الآخرين للضحك؛ وتصاعدت من تلك الجمهرة اللاغطة رائحةٌ نفّاذة، هي مزيجٌ من رائحة الحيوانات والكمّون.

بين حينٍ وآخر، يتصاعد صوت نهيق حمارٍ تائهٍ قرب كوى التذاكر، بحيث يطغى على بقية أصوات المحطّة؛ ولم يبدُ على أحدٍ الاهتمام بالأمر، اللهم إلا شرطياً إنكليزياً بيده سوط، وقف يراقب الناس والحيوانات داخل ذلك الدخان المتصاعد من القاطرة.

دفع طواشيّ أسود اللون متجهّم الوجه أندريه قليلاً، ليفتح الطريق أمام موكب من السيدات المحجبات. اتجهت النسوة نحو

الرصيف رقم 1 ليركبن في قطار الإسكندرية، وصعدن بصمتٍ إلى المقطورة المحجوزة لهن، ثمّ أُغلق الباب عليهنّ بالمفتاح.

إلى أين ستذهب أولئك النسوة المحفوفات بالأسرار؟ إلى الإسكندرية فقط أم إلى أوروبا؟ يقال بأنّ هؤلاء السيدات اللواتي ينتمين إلى صفوة المجتمع التركي ما إن يتمّ إيصالهن إلى المركب حتّى يندفعن كلٌّ إلى قمرتها ليرتدين أحدث أزياء باريس...

بعد نصف ساعة، كان أندريه يفكّر بالمقطورة المغلقة بالمفتاح، يهدهده تمايل القطار الذاهب إلى المنيا. تخيّل نفسه وسط أولئك السيدات، منتزعاً منهنّ ضحكةً أو سراً. وجوهٌ حليبية اللون تحت النُقُب، سجائرُ معطّرة بماء الورد، وأيدٍ طويلة بالغة النعومة والجرأة... ما لبث أن طرد تلك الأفكار السيئة، ثم نظر عبر النافذة إلى حقول *البرسيم* والقطن وهي تمرّ أمامه.

كان عددٌ كبيرٌ من القنوات الصغيرة الفضّية يعبر هذا السهل الواسع الشديد الانبساط، ولم يكن يقطع رتابة المنظر سوى بعض المنازل الرمادية التي تستند إلى جزَمٍ من أشجار النخيل. ومن حينٍ لآخر، يظهر فلاّحٌ عارٍ تماماً وهوَ يبول على السكّة الحديدية، وعضوه الأسود يلمع تحت الشمس...

في محطّة المنيا، كان الأب شوكيه، أحد أعضاء الإرسالية، بانتظار الطلاّب الستة واليسوعي المرافق لهم؛ ركبوا عربةً مكشوفةً يجرها حصانٌ يتضوّر جوعاً، ما لبث أن اضطر للتوقّف بعد مئة متر ليسمح بمرور موكبٍ صاخب.

ـ إنّهم أولئك الشياطين البروتستانت مرّةً أخرى! زمجر المبشّر قائلاً، إنهم يحاولون بصندوقهم الكبير وطبولهم أن يجتذبوا الأطفال، والطوائف تفتتح المدارس بفضل الكثير الكثير من الدعاية...

حين استقرّ أول يسوعي فرنسي في المنيا عام 1887 بصحبة أخٍ سوري، لم تكن المدينة تعدّ سوى حفنةٍ من الأقباط الكاثوليكيين،

وتوجّب عليهما النضال بضراوة لزيادة عدد أفراد ذلك القطيع الصغير. تمثّلت أفضل وسيلةٍ لهداية الأقباط الأورثوذوكس في إحداث مدارس مجانيّة، إلاّ أنّ البروتستانت تبنّوا نفس الخطة...

في اليوم التالي، أخذ الأب شوكيه أندريه ورفاقه في جولة «تعرّف رسوليّة». أوقظ الطلاّب فجراً، ثمّ امتطوا حميراً صغيرةً رماديّة اللون كانت واقفةً بانتظارهم أمام منزل الأخوات. خبّت بهم الحمير حتّى خرجوا من المدينة وصدورهم مشدودة إلى الخلف، وأرجلهم تكاد تكنس الأرض.

تباطأت الحمير غريزياً حين وصل الموكب بمحاذاة قناة، وكأنها تريد مجاراة إيقاع ذلك الريف الخامل، المتراخي منذ قرون. صادفوا جِمالاً ذات مظهر متعالٍ، محمّلةً بقصب السكر، تثير خطواتُها الثقيلة زوابعَ صغيرة من الغبار؛ وعند اقترابهم، رأوا نساءً بملابس سوداء، مقوسّات الظهور، يحملن جراراً على رؤوسهن ويغطّين وجوههن بمناديل يمسكنها بأسنانهنّ، وأُخرياتٍ يثرثرن وهنّ جالسات القرفصاء يغسلن الملابس والأواني، ومن كلّ مكانٍ تنبع جموعٌ من الأطفال بأقدامٍ عارية ووجوهٍ يغطّيها الذباب...

في الثامنة صباحاً، أوقف الأب شوكيه الموكب للاستراحة أمام منزلِ عائلة قبطية تمّت هدايتها مؤخراً للكاثوليكية. عاد الفلاّح الملطّخ بالوحل مسرعاً من الحقول ليحيّي *«أبونا شوقي»*. كان بالغ الهزال، إلاّ أنّ بطن زوجته المكوّر كان يعِد بعمادةٍ قريبة. سيكون هذا طفلَهما الثاني عشر.

كان المنزل المبني من الطوب المطلي بطمي النيل مغطّىً بسقفٍ بائسٍ من القش، تراكمت فوقه أقراص الطين المجفف المعجونة يدوياً التي تقوم مقام الوقود. أخذت الدواجن تتحرّك جيئةً وذهاباً وسط الزوار. أما المفروشات فلم تكن تتعدّى خزانةً كبيرة دون أبواب وبعض المرتبات الموضوعة مباشرةً على الأرض الصلبة.

ـ إن الكثير من الفلاّحين المنشقّين لا يعرفون حتّى أن يرسموا الصليب على صدورهم، قال اليسوعي بالفرنسيّة، وحين يوجّه إليهم

سؤالٌ حول دينهم، فإنّهم يكتفون بالإشارة إلى الصليب الموشوم على معاصمهم. وليس هذا بمستغرب، فالخوارنة المنشقّون لايزورون الفلاّحين إلاّ مرّةً في السنة، في موسم جني المحصول، ليطالبوهم بالزكاة. وهؤلاء الخوارنة أنفسهم جاهلون بشكلٍ فاضح؛ فحين سألت أحدهم مرّةً عن التوقيت الدقيق للقدّاس، حين يهبط الربّ على المذبح، قال: إنّه كلّيّ القدرة، يهبط حين يشاء!

تعرّض أندريه ورفاقه لانفعالٍ كبير خلال خروجهم من القرية؛ فبينما كان الأب شوكيه يسير على رأس الموكب مستقيم الظهر على حماره، أخذ بعض الأطفال المسلمين المختبئين خلف جدارٍ من الطين المجفف يرمون المجموعة فجأةً بالحجارة. أصيب الحمار الذي يسبق أندريه في بطنه، فشبّ مطلقاً صرخة ألم ومهدداً راكبه بالوقوع. وركض حمارٌ آخر بعد أن أصيب بضربةٍ قبقاب، بينما استمرت الحجارة بالتطاير. وبأعجوبةٍ، عاد الموكب إلى اصطفافه بعد حوالى خمسين متراً، وكأنّ شيئاً لم يكن. عندها، استدار الأب شوكيه نحو المجموعة وقال بصوتٍ جذل:

ـ على المرء أن يتوقّع كلّ شيء حين يقوم بالتبشير!

أفعم عبير المغامرة هذا قلب أندريه بالسعادة.

قبل الظهر بقليل، توقفوا في ظلّ شجرة أوكاليبتوس ليأكلوا خبز السمسم.

ـ هنا، لا يمكن الرهان على شيءٍ أبداً، شرح اليسوعي، إذ لايكفي أن تحصد بعد أن تزرع. إننا نرى أحياناً عائلاتٍ بأكملها تميل إلى الانشقاق مرةً أخرى بعد أن تمت هدايتها، فالثبات ليس أهم مزايا الشرقيين!

التبشير، الحصاد... أخذت هذه المعاني تتزاحم في رأس أندريه، بينما كانت المجموعة الصغيرة تتجه نحو مستوصفٍ تديره الأخوات، وتستقبل فيه أختٌ سوريّة موكباً لا ينتهي من المرضى الذين يعاني كثيرٌ منهم من إنتاناتٍ عينية؛ بدا العديد من الرضّع نصف نائمين، وهم متعلّقون بأثداء أمهاتهم.

ـ إنه عملٌ شديد الأهمية، قال اليسوعيّ، فهنا لا يكتفون بالعناية بالجسد، بل إنّ للروح نصيباً من الفائدة أيضاً. هذا المستوصف يسمح بقطاف العديد من الزهور المكرّسة للربّ، وفي العام الماضي، منحت الراهبة التي ترونها هنا لمئةٍ وثلاثة وعشرين طفلاً جواز مرورهم إلى السماء!

9

بعد عودته، روى أندريه قصصاً مليئةً بالحماس عن إقامته في المنيا، فكان يصف البعثة، ويحكي عن أعداد المهتدين، ويعيد سرد أقوال اليسوعيين كلمةً كلمة...

استمع جورج بطركاني لابنه البكر بشيءٍ من الاستغراب، فلم يسبق له هو أن اختلط برجال الدين عن قربٍ لهذه الدرجة، ومع ذلك، وباختصار، فقد كان على أحسن ما يرام؛ ومنذ أن أنهى دراسته في ثانوية الأخوة، اقتصرت علاقته مع الدين على قدّاسات الآحاد التي كانت أشبه باجتماعٍ عائليّ موسّع، أو نوعٍ من المقبّلات التي تسبق *الملوخية* المقدّسة؛ وفي بعض الأحيان يحصل خلالها ما ليس في الحسبان...

حدث ذلك في شباط 1902، في كنيسة درب الجنينة، وكان جدّي لأمّي حينذاك في الثانية والعشرين من عمره. شعر بمللٍ شديد في قدّاس الحادية عشرة، فقداسات الروم الكاثوليك تلك كانت تبدو له لانهائية! أخذ مقيم القدّاس، يتبعه أطفال الجوقة وهم يحملون شموعاً ضخمة، يدخل ويخرج من أحد الأبواب الثلاثة لحاجز الأيقونات، فيبخّر المذبح والمؤمنين، بينما يصدح المنشد الواقف جانباً بثياب الأحد بهديله بصوتٍ أخنٍّ:

Aghios O Theos، Aghios Athanatos(*).

(*) أي: أيها الرب المقدّس، أيها الرب الخالد. م.

أخذت السيدات الجالسات على المقاعد المخصصة لهنّ على الطرف الأيسر يلوّحن بمراوحهن على الإيقاع الرتيب لتلك الطَلْبة(*)، وهنّ ينظرن بين الحين والآخر إلى السماء الزرقاء الشاحبة المرسومة فوق رؤوسهن في قعر القبّة، تملؤها الملائكة الصغار والحمائم. في تلك الأثناء، كان بعض ذوي الكروش يتبادلون بضع ملاحظاتٍ ورعة في مؤخرة الكنيسة حول آخر أسعار القطن في مينة البصل.

قبل المناولة مباشرةً، تقاطعت نظرات جورج مع نظرات شابّةٍ صغيرة التفتت ناحيته التفافةً طفيفة، وكانت تضع برقعاً أسود شفافاً. فتنه على الفور الوجه اللعوب لتلك المجهولة. تابعها بنظره عندما اقتربت من الخوري وقت المناولة لتتقبّل الخبز المقدّس المغموس بالنبيذ من يديه. ولم يكن ممكناً مقاومة إغراء سيمائها وهي عائدةٌ إلى مكانها منحنيةً، متظاهرةً بالخشوع.

كان الخروج من قدّاس الأحد في درب الجنينة يستحق عناء قضاء ساعةٍ ونصف الساعة بأداء الواجب الديني، فقد كان عبارةً عن صالونٍ حقيقي في الهواء الطلق، تملؤه الضحكات والصرخات والغنج.

شاهد جورج المجهولةَ واقفةً إلى جانب رجلٍ خمسيني، عرف فيه على الفور ألكسندر توتة، تاجر الخشب، عضو مجلس إدارة جمعيّة الروم الكاثوليك للإحسان ذات النفوذ.

وبعد العديد من التحيّات والقبلات والتصنّع، صعدت عائلة توتة إلى عربة يجرّها حصانان أبيضان، فنظر جورج إليهم وهم يبتعدون باتجاه شبرا، شاعراً بانقباضٍ في صدره.

في ذلك الحين، لم يكن جورج يعرف عن النساء إلاّ القليل،

(*) الطَلْبة: أصلاً في القداس المسيحي: صلاةٌ جماعية مؤلفة من سلسلة دعوات إلى الله يرتّلها الكاهن، ويرددها جمهور المصلين، مع ذكر عبارةٍ تُكرّر باستمرارٍ مثل عبارة «خلّصنا يا رب» أو «ارحمنا يا رب». م.

استقى معظمه مما سمعه من القيل والقال بصحبة أصدقائه في قهوة شيشة قرب الأوبرا، حيث تقوم نساءٌ قليلات الاحتشام بالخدمة على أنغام فرقةٍ موسيقيّةٍ نمساوية. فعلى الطاولة المجاورة لطاولتهم، كان بعض الشبّان لا يكفون عن الحديث عن مآثرهم الجنسيّة مع أجنبيّاتٍ عابراتٍ يلتقطونهن من مقاهي الفنادق الكبرى. وإذا صدّقهم المرء، فإنّ أولئك الأجنبيات لم يكنّ يرتوين أبداً. شكّلَ أولئك الماراثونيّون «جمعيّة روّاد أرصفة المقاهي» التي طالما هدّدت بحلّ نفسها بسبب الإنهاك. وكان الآخرون يحسدونهم قليلاً، دون أن يصدّقوهم في كلّ ما يقولون.

حكى هؤلاء الروّاد أن بعض الإنكليزيات الشابّات ابتكرن في عصر أحد الأيّام في فندق الجزيرة، بسبب اشتياقهنّ للثلج، لعبةً جديدة هي لعبة الزلّاجة المصرية، حيث تجلس هؤلاء الفتيات الرائعات الجمال على صوانٍ كبيرة من الفضّة في أعلى درج التشريفات ثم ينزلقن، أمام الأنظار المضطرمة *للسفرجية*، حتّى آخر درجةٍ وهنّ يطلقن صرخاتٍ صغيرة.

كما حكوا كذلك بأنّه يوجد في ملهى في الموسكي شابّاتٌ نوبيّات يرقصن شبه عارياتٍ على بعد خطواتٍ فقط من الزبائن الجالسين على الطاولات، فيتظاهرن بأن نحلةً قد قرصتهنّ ويصرخن قائلاتٍ: *نحلة*! *نحلة*! ثم يتلمّسن أجسادهنّ بحثاً عن الحشرة المراوغة؛ وحين يفشلن في ذلك، يأخذن بنزع ملابسهنّ قطعةً بعد أخرى، ثم يتقاربن ويتلامسن ويضاعفن الأوضاع الشهوانيّة المثيرة وهنّ يُصدِرن لهاثاً يتصاعد ويزداد عمقاً. بعد ذلك، تذهب الراقصات للجلوس في حضن الزبائن الذين يلصقون قطع النقود على نهودهنّ الرطبة.

كانت كلّ تلك القصص تثير حواسّ جورج؛ وفي أحد الأيّام، وكان في العشرين من عمره، سمح لأصدقاء له بأن يقودوه إلى الحيّ المخصّص للبغاء في القاهرة، حيث تركوه لعاهرةٍ يونانيّة شديدة البدانة والقذارة، تحمل أثر جرحٍ بشعٍ في ساقها. انتابه حينذاك

شعورٌ بأنّه اغتُصِب، وتركت هذه التجربة في نفسه صورةً مخيفةً للجسد الأنثوي دامت عدّة أشهر.

في يوم الأحد التالي، وفي قدّاس الحادية عشرة، جلست الفتاة في المكان ذاته، وتعمّد جورج الجلوس في الصفّ نفسه، على طرف الممر الموجود بين المقاعد، وترقّب نظرتها، لكن دون جدوى. وحين وصل القدّاس إلى *Kyrie* ، أرسلت له ابنة ألكسندر توتة نظرةً متمعّنة، إلاّ أنّها أصرّت على النظر إلى الملائكة الصغار في القبّة طيلة ما تبقّى من القدّاس.

في المساء ذاته، ذهب جورج ليقابل خوري درب الجنينة ويبلغه بمشروع زواجه، فانفجر ذاك ضاحكاً:

ـ فتاة من آل توتة! أنت تمزح، *يا* حبيبي! إنّها عائلةٌ كبيرة تصبو إلى أصهرةٍ مميّزين. يمكنني أن أقترح عليك فتاةً أخرى...

ـ لا، *أبونا*، بل أريدها هي بالذات.

أظهر الإكليروسي امتعاضه لإلحاح جورج، إلاّ أنّه، وبسبب ذكرى ليندا بطركاني التي كانت إحدى أفضل أبناء رعيّته، انتهى بأن دمدم قائلاً:

ـ أنت حر! سأدبّر لك موعداً مع ألكسندر توتة، وسيشرح لك بنفسه وبطريقته ما لا تريد فهمه.

وبالفعل، تمّ تحديد موعدٍ ليوم السبت التالي. وريثما يحين الموعد، أحاط جورج والده علماً بما ينتويه. كاد الأب يقع على قفاه وقال:

ـ أنت، كاتب المحكمة بمرتّب أربعة جنيهات في الشهر، تريد أن تتزوج فتاةً من آل توتة! هل جننت؟ سوف يطردونك ويهينوننا. لو كانت أمّك على قيد الحياة...

يدين آل توتة بمكانتهم لاسمهم ولتاريخهم أكثر مما يدينون بها لثروتهم المبعثرة بين عددٍ كبيرٍ من الورثة، فقد كانوا، مع آل

كحيل وآل بحري وبعض العائلات الأخرى، يعتبرون من العائلات الروم الكاثوليك الأقدم وجوداً والأكثر رسوخاً في مصر، ولم يكن من الممكن مقارنتهم بكل محدثي النعمة أولئك الذين سارعوا إلى القاهرة خلال حكم إسماعيل والذين راكموا الملايين بطرفة عين.

«أنت، كاتب المحكمة بمرتّب أربعة جنيهات في الشهر... لكن، من الذي دفعه لأن يصبح كاتب محكمة؟ لقد حلم جورج، بعد أن حصل على شهادته الثانوية، بالانتساب إلى مدرسة الحقوق الفرنسية التي افتُتحت لتوّها في القاهرة، ليصبح محامياً في المحاكم المختلطة. إلاّ أنّ المشكلة تمثّلت في مصاريف الدراسة ونفقات السفر إلى باريس لتأدية الامتحانات.

ـ أنا لست سمبسون ولا روتشيلد! قال الياس بطركاني حينذاك. إنك أول من ينال الشهادة الثانويّة في العائلة. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ إن كانت المحاكم المختلطة تثير اهتمامك لهذه الدرجة، فاذهب للسؤال في قلم المحكمة. يبدو بأنّهم يوظّفون الناس هناك.

بعد ظهر يوم السبت، قام سفرجيّ حافي القدمين بإدخال جورج إلى صالون آل توتة، حيث استقبل التاجر زائره واقفاً، كما لو أنّه لا ينوي حتّى دراسة طلب الزواج، وسأله دون مقدّمات:

ـ ما هو وضعك؟

ـ سوف أجني ثروة. أجاب جورج بصوتٍ هادئ.

مرّت بضع ثوانٍ من الصمت، قبل أن يدعو ألكسندر توتة، الذي ظهر عليه أثر المباغتة، ضيفه للجلوس.

بعد بضع لحظات، أخذ جورج يشرح لمضيفه وهو جالسٌ في كرسي من طراز لويس السادس عشر مسنداً مرفقيه إلى المتكأ بثبات ومادّاً جذعه إلى الأمام:

ـ أنا حالياً كاتب محكمة في المحاكم المختلطة، لكنني أخطط لدخول عالم التجارة؛ والواقع أنني قد باشرت بذلك نوعاً ما...

قبل بضعة أسابيع، فوجئ جورج أثناء تصفّحه جريدة *البوسفور المصري* بعدد الإعلانات المكرّسة لمستحضراتٍ صيدلانيّة، واسترعى انتباهه إعلانٌ عن بذور زهر البرتقال التي يحضّرها الدكتور ماك برايد. «هذا الدواء الذي اعتُرف في مصر وسوريا بفعاليته المدهشة ضد العقم يُباع عند زوجة حبيب صالحاني، في شارع الفجّالة، عمارة عبد الملك صايغ، بسعر ثمانين قرشاً للعلبة التي تحوي ستة بذور، وكلّ علبة لا تحمل ختم السيّدة صالحاني تُعتبر مغشوشة».

ذهب جورج إلى شارع الفجّالة وهو ينوي طلب المشورة من تلك السيّدة التي كانت بارعةً على ما يبدو. لم يكن هناك أيّ دكانٍ في العنوان المذكور، فالسيدة صالحاني كانت تعمل في منزلها. استقبلته بثوبٍ بيتيٍّ ورائحة الباذنجان المقلي تفوح منها. كانت في حوالى الخمسين من العمر، ذات لحم مترهّل، إلاّ أنّ عينيها كانتا مفعمتين بالحيوية، وقد أرضى غرورَها مجيءُ شابٍ إليها طالباً نصيحتها. وبعد أن قدّمت له القهوة، حكت له قصّة حياتها، ثم أسرّت له بعد ساعة أنها تنوي الانسحاب قريباً؛ كما دلّته على درب مستحلب براون ذي المفعول المتعدد، والذي يسمح لأسنان الرضّع بالبزوغ دون ألم، وللبالغين بالمحافظة على لمعان أعينهم...

ـ لقد استأجرتُ غرفةً في عمارةٍ تطلّ على ساحة الأوبرا مقابل جنيه في الشهر، وضّح جورج لألكسندر توتة، صحيحٌ أنّ المكان صغيرٌ جداً، ألاّ أنّ الموقع جيّد. لقد كتبت لخمسة عشر مختبراً فرنسياً وألمانياً ونمساوياً ـ هنغارياً، عارضاً عليها أن أكون وكيلها في مصر؛ عشرةٌ منها لم ترسل حتّى الآن ردودها. أمّا الخمسة الأخرى، فقد أجابتني بالرفض؛ لكنني لم أفقد الأمل... وعلى كلّ حال، فإنّ مبيعات مستحلب براون لا بأس بها، فقد وجد فيه مستخدِموه خواصّ مضادّة للسلّ.

وكرجلٍ خبيرٍ بالتجارة، نظر توتة الأب إلى ذلك الشابّ بشيءٍ من الحيرة، وأخذ يلعب بخاتمه وهو شارد، ثمّ قال له أخيراً:

ـ مارغريت هي الصغرى، وينبغي أولاً أن أزوّج يولاند، أختها الكبرى؛ إنها فتاةٌ عذبةٌ وساحرة. ربما تريد أن تلتقي بها.

وجد جورج المرتبك صعوبةً في إخفاء اضطرابه.

ـ هذا اللقاء لا يُلزمك بشيءٍ، تابع ألكسندر توتة. لدينا استقبال صغير يوم الأحد القادم، وأنا أدعوك لحضوره.

حين خرج جورج من المنزل، كان غاضباً بشدّة ومجروحاً؛ سار طويلاً في شبرا، دون أن يعرف جيّداً إلى أين يذهب، ومشاعر متناقضة تتنازعه.

إنّه، بمعنىً ما، قد انتصر. «ربّما تريد أن تقابل يولاند...» تلك العبارة كانت دعوةً، تشجيعاً، بل ما يقارب الالتماس. لكن أيّة صفعةٍ أيضاً! ألا يعني طلب يولاند هذه للزواج بينما كان يرغب في الأخرى، مارغريت، أنّ العائلة وحدها هي التي تهمّه؟

ثمّ، وقبل كلّ شيء، كيف تبدو يولاند هذه؟ هل لها من الفتنة ما لأختها الصغرى؟ ربما أكثر؛ والفضول وحده هو ما حثّ جورج على الذهاب إلى الاستقبال، كما أنّ فكرة الزواج من فتاةٍ من آل توتة قد استحوذت عليه في الأسابيع الثلاثة السابقة لدرجة أنه لم يعد بوسعه التخلّي عنها بتلك البساطة. إذ كيف سيكون موقفه بنظر والده وأخيه ناندو وأصدقاء مقهى شيشة؟ وبالمقابل، أيّة متعةٍ في أن يتمكّن من إعلان نبأٍ كهذا للآخرين، واحداً تلو الآخر!

في الساعة السادسة من بعد ظهر يوم الأحد التالي، رنّ جورج جرس باب آل توتة، ففتح له *السفرجي* الذي كان هذه المرة يرتدي سترةً وبابوجاً مذهّباً. كان العديد من المدعوّين موزّعين في الصالونات الأربعة المضاءة بنورٍ كالنهار في سطوعه.

بثوبٍ أخضر ودون برقع، بدت مارغريت مبهرةً؛ وعندما أقبلت يولاند نحو جورجٍ في مهمةٍ مفروضة وهي تحمل طبقاً من الحلوى، بدت له أقلّ جمالاً وأكثر تحفّظاً من أختها. أمّا هي، فقد فتنها على الفور ذلك الشاب ذو العينين العسليّتين والذي يتدفق بحب الحياة. تبادل الاثنان بعض العبارات المألوفة، تحت الأنظار المتفحّصة للسيدة توتة الأنيقة.

كان الناس يقولون بأن ابنة الجواهري تلك كانت تأخذ بصورةٍ منتظمة حمّاماتٍ رمليّة قرب الهرم الأكبر، حيث يدفنها خدمها في الرمال حتّى العنق ويتركونها على هذه الحالة ساعاتٍ بأكملها ورأسها مغطّى بقبعةٍ مرصّعةٍ بالأحجار الكريمة. وفي أحد الأيّام، سمع الخدم من بعيد صراخ سيّدتهم، فوجدوا رأسها مكشوفاً، إذ سرق أطفالٌ من البدو قبّعتها التي لم يعثر لها أحد على أثرٍ بعد ذلك أبداً...

اقترب ألكسندر توتة من جورج، يحفّ به شابّان:

ـ أقدّم لك ابنيّ: هنري وإدمون.

قال الأوّل، وكان شديد الأناقة، بلهجةٍ مجاملة:

ـ قال لي بابا بأنّك تعمل في مجال الصيدلة.

فتدخّل أخوه إدمون ذو المظهر الغريب بعض الشيء قائلاً بصوتٍ محموم:

ـ في الصيدلة؟ لا بدّ أنّك تعرف إذن... لقد حدّثوني عن دواءٍ يسمح للإنسان بتحمّل الزحام.

ـ لعلّه مستحلب براون، أجاب جورج بنصف ابتسامة.

ـ صحيح؟ أتعتقد ذلك؟

تزوج جورج بطركاني ويولاند توتة في الثامن من كانون الثاني عام 1903 في كنيسة درب الجنينة، واختارت العروسُ أختَها ماغي لتكون شاهدتها. كانت رَحْبة الكنيسة مغطّاة بالزهور، وأرسل الكابتن السابق سمبسون الذي أصبح كولونيلاً سلّةً جميلةً من الزهور، مصحوبةً بكلمة اعتذار، فقد كان مشغولاً برحلةٍ لصيد النسور في مقالع المقطّم، على شرف أمير هوهنتسولّرن. أخذ الياس يكرر على مسامع آل توتة الذين لم يسمعوا عن سمبسون هذا قائلاً:

ـ يا للكياسة! لقد فكّر الكولونيل بإرسال سلّة زهور في الوقت

الذي تشغله فيه رحلة الصيد هذه. إنّ هؤلاء الإنكليز سادةٌ حقاً، لا جدال في ذلك!

خلال حفلة العشاء التي أقيمت في فندق أنطون يوسف في شبرا بمناسبة الزواج، استحوذ جدّ أمي على انتباه الحضور بحديثه عن تنقية مياه مجاري القاهرة، هذا العمل الذي استنفر له كلّ القسم الذي يرأسه الكولونيل سمبسون.

ـ كما تعلمون، قال شارحاً، فإنه ليس للشوارع أيّ تصريف، والمياه تتجمّع في النقاط المنخفضة من الأقسام المبلّطة أو المعبّدة من الشوارع، ولا يعود بالإمكان عبورها إلاّ بالعربة أو على ظهر عربي. وينتهي الأمر بأن يرفع التراب والنفايات سوية الشارع في الأماكن التي ليس فيها تبليطٌ ولا تعبيد إلى ما يزيد عن المتر فوق مستوى أرضية البيوت.

وخلال تناول الحلوى، أخرج الياس من جيب صدّاره بضع أوراقٍ صغيرةٍ مليئة بالأرقام لم تعد تفارقه وقال:

ـ إن عدد سكّان القاهرة لا يقلّ عن أربعمئة ألف نسمة؛ وإذا حسبنا كميةً تعادل 1.25 لتراً من نواتج التصريف لكلّ شخص يومياً، يصبح الحجم 500.000 متراً مكعّباً سنوياً، ولا يتجاوز حجم المواد المصرّفة التي تُحمل إلى مستودعات تجميع المدينة 30.000 متراً مكعّباً، بشرفي...

ثم تحدّث الياس بالتفصيل عن الزيارة التاريخية التي قام بها إلى بور سعيد بصحبة الكولونيل سمبسون لتدشين تمثال فردينان دو ليسيبس، وتابع روايته المفضّلة:

ـ على ذكر القناة، هل تعلمون بأنني كدت أجني ثروةً في الستينات، في قضيّةٍ تتعلّق بالجرذان...

10

في نهاية المطاف، لم تحمل يولاند معها إلى منزل الزوجية في جهازها شيئاً يُذكر، فقد اعتبر ألكسندر توتة أنه بمجرد تزويجه ابنته الكبرى، قد قدّم هديّةً قيّمةً لشابٍ لا مركز لديه. وهكذا، لم يحصل جورج سوى على مئة جنيه مصري كبائنة، مضافاً إليها بعض عبارات التشجيع. فاستخدم الجزء الأساسي من المبلغ للاستقرار مع زوجته في شقةٍ مفروشةٍ بالكاد في شبرا ، واقتصر الخدم على خادمةٍ صعيدية ذات عقلٍ محدودٍ جداً، كانت تصر على الخلط بين الملاعق والشوك.

لم يتمكن الزوجان الشابان من استخدام *سفرجيٍّ* إلاّ بعد ذلك بثلاث سنوات، أي بعد مولد أندريه وميشيل، وكان ذلك *السفرجي* هو رشيد أبو الفتح. تمّ هذا الأمر على نحوٍ غريبٍ نوعاً ما، وقُرر على غفلةٍ في مساء يومٍ من شهر تشرين الثاني 1906.

في ذلك اليوم، وفي منتصف طريق عودته إلى شبرا، انطفأ مصباح الحنطور الذي كان يستقلّه جدي، وكعادة أمثاله، لم يحتط السائس بأية شمعةٍ في صندوق حنطوره، فنادى بائعاً يافعاً يرتدي جلابية ويلوّح بالشموع في إحدى تقاطعات الطرق وهو ينادي: *شمعة! شمعة!*

تدحرجت قطعة النقود التي رمى بها السائس على الأرض وضاعت في الظلام.

ـ أين قطعة النقود؟ سأل الصبيّ.

ـ ما عليك سوى أن تبحث عنها، همهم السائس.

احتج الآخر.

ـ قلت لك ابحث عنها يا ابن الكلب!

فأمسك بائع الشموع بلجام الحصان، كما لو كان يريد منعه من التقدم إلى الأمام؛ فرقع السوط، وصرخ الصبي ووجهه مدمّى.

اقترب الصبيّ من الحنطور ليُشهد جورج وهو يمسح جرحه بطرف جلابيته.

ـ ما اسمك؟ سأله جدي بعد أن أمر السائس بالانتظار.

ـ رشيد.

أحب جورج نبرة صوته، ووجه إليه سؤالين أو ثلاثة ثم قال له:

ـ إذا كنت تريد عملاً حقيقياً يا رشيد، فقد تجد لدي بغيتك.

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، حضر إلى منزل آل بطركاني في شبرا شابٌ يافعٌ ذو بشرةٍ شديدة السمرة، سوداء تقريباً، يشطب خده جرحٌ ضاربٌ إلى البنفسجي، وتم استخدامه مقابل عشرين قرشاً في الشهر مع المسكن والطعام.

إذن، فقد أصبح لدى جورج *سفرجي*، مما رفعه قليلاً في أعين عائلة حميه. وبعد بضع سنوات، خطا خطوةً إضافية حين استخدم مربيةً فرنسية. وكان يعرض هذا الاستخدام بطريقةٍ ضبابية توحي بأن هنرييت غيومار قد حضرت خصيصاً من باريس لتعتني بأولاده. لكن الحقيقة هي أنها كانت تقيم منذ بعض الوقت عند راهبات الراعي الصالح في شبرا. وقد قيل إنها تعاني من عذاب عاطفي، دون أن يعرف أحدٌ على وجه الدقة ما الذي أتى بهذه الآنسة المضطربة إلى القاهرة عام 1905 ولماذا بقيت فيها.

لكن جورج كان بحاجةٍ لأكثر من ذلك كي يجاري آل توتة. فبمجرد زواجه، استخدم هنري، أحد أخوي يولاند، رئيس سفرة وسائساً. وكان الآخر، إدمون، يتمتّع بخدمات فرّاش.

كان جورج بطركاني يقول:

ـ لدى زوجتي أخوان: أحدهما خامل والآخر مخبول.

لم يكن المخبول يضايقه كثيراً، فقد كان إدمون توتة الذي

يرتدي ربطة عنقٍ عريضة خبازية اللون صيفاً شتاءً عنصراً أقرب للظُرف ضمن الديكور. وكان ذلك الشاب الذي يعاني من بعض الاختلال في العقل يسلّي الجميع بحملاته على عدد سكان مصر الذي أصبح بالنسبة له هاجساً حقيقياً. سوف يُدخل إدمون المخبول بعاداته الغريبة الفرحَ إلى طفولة أخوالي ثم إلى طفولة أمي، بانتظار إدخال البهجة والسرور إلى طفولتنا.

أما الخامل هنري توتة فكان يقوم ببعض المضاربات في البورصة ويدير إيراداته. كان متزوجاً من قريبةٍ لسكاكيني باشا ويسكن منزلاً في حي القاهرة الراقي، قصر الدبارة. درس هنري عند اليسوعيين في الوقت الذي كانت فيه ثانوية العائلة المقدسة لاتضمّ سوى عددٍ ضئيلٍ من السوريين، ولم يكن يترك مناسبةً دون أن يذكّر الآخرين بذلك باستخدام استشهاداتٍ باللغة اللاتينية كانت تغيظ جورج بطركاني الذي لم يكن يفهم كلمةً واحدة من كل تلك الرطانة.

اعتباراً من العام 1910، ازدادت حالة الخامل تفاقماً في عين أبي حين أعلن على الملأ حصوله على لقب كونت من إمارة لشتنشتاين التي أصبح ممثّلَها القنصلي في القاهرة. لم تكن هذه المهمة الدبلوماسية تبدو مرهِقة، وعلاوةً على ذلك فإن القنصلية كانت تحمل العنوان الشخصي للكونت هنري توتة في قصر الدبارة.

- كونت مؤخّرتي! كان جورج يقول مزمجراً.

إلاّ أن شقيق زوجته لم يكن السوريَّ الوحيد في القاهرة الذي يتمتع بلقبٍ نبيل. فالكونت زغيب كان يمثّل الدانمارك، وقد حصل على جنسية ذلك البلد؛ وهناك الأمير لطف الله؛ وكان آل عُبيد بلجيكيين، وآل زنانيري بريطانيين. لقد كان هناك دوماً في عائلاتنا الروم - الكاثوليكية بعضٌ ممن تدبّروا أمورهم بحيث يقدّمون خدماتهم لدولةٍ أجنبية، ويحصلون بالتالي على لقبٍ ما أو وضعية شخص يتمتع بحماية هذه الدولة، أو حتى على جنسيةٍ.

11

ـ هذا محال، محال! أخذت الآنسة غيومار تردد. لا يمكن أن نترك طفلاً وسط جمهورٍ وسخٍ وهستيري! سوف يضيع. سوف يُجرَح أو الله يعلم أيّ مرضٍ سيلتقط...

تركها ميشيل تتكلّم، فرأي تلك المزعجة لم يعد ذا قيمةٍ طالما أن والده قد سمح له بالذهاب؛ فقد هتف جورج بطركاني قائلاً:

ـ على كلٍّ، إذا كان ميشو يريد الذهاب إلى الشارع، فليذهب! وليرافقه زكي.

قفز زكي من الفرح حين طُلب منه أن يجهّز نفسه، فحضور جنازة السلطان لم يكن عقوبةً بالتأكيد. بل إن حماسه أثار قلق يولاند، فعملت على أن يكون رشيد، الأكثر اتزاناً، ضمن الذاهبين هو أيضاً. وهكذا ذهب عرّابي إلى ساحة الأوبرا وهو بقمّة الانفعال، يحيط به السائس *والسفرجي* ذو الوجه المشطوب، ليشاهد مرور جثمان حسين كامل.

ـ إن لم تتمكن من الرؤية بصورةٍ جيدة، قال له أبوه، بإمكانك أن تلتحق بنا في المكتب.

كان موقع مكتب جورج استثنائياً، لذا دعا إليه العديدُ من الأقارب والأصدقاء أنفسَهم للمناسبة، فالموكب الجنائزي الذي انطلق من قصر عابدين في الثالثة من بعد الظهر سوف يمرّ من ساحة الأوبرا قبل التوجّه إلى مسجد الرفاعي. وقيل بأنه قد تم تأجير بعض

الشرفات ذات الموقع الجيد والمطلة على القصر باثني عشر جنيهاً لمدة نصف نهارٍ فقط.

توفي حسين كامل في التاسع من تشرين الأول 1917، بعد أقل من ثلاثة أعوام على اعتلائه عرش السلطنة. وقد نال هاوي القصص والزهور ذاك تعاطف المصريين شيئاً فشيئاً، بعد أن استقبلوه بشكلٍ بالغ السوء في البداية. بل إنه اتخذ تدابير للعفو عن الرجلين اللذين رميا بقنبلة على موكبه في الإسكندرية.

حفظ ميشيل عن ظهر قلب الرسالة القوية التعبير التي وجهها رشدي باشا رئيس المجلس، والتي تعلن «اختفاء الملك المحبوب» وتذكر «الدموع التي سوف تنسكب في القصور كما في أبسط الأكواخ». أخذ ميشيل يحدّث نفسه قائلاً: «هنالك شخص لن يبكي وهو ذاك الحسود فكتور ليفي!». فاليهودي كان مايزال يكرهه بنفس الدرجة، خلافاً لبقية طلاب الصف الذين نسوا تلك الحكاية كلها.

أخذت جمهرةٌ ضخمةٌ جداً تتجمّع على مسار الموكب، فلم يتمكن ميشيل ودليلاه من الوصول إلى الصف الأول، كما لم يكن بمقدورهم أن يجرّبوا حظّهم في الطرف الآخر من الساحة، فقد تمركز جنودٌ إنكليز على طول الأرصفة ليمنعوا أي شخص من العبور. تسلّق بعض الماكرين تمثال إبراهيم باشا الذي يمثّله فارساً، بينما تعلّق آخرون بأعمدة المصابيح زمراً زمراً.

أثارت طلقة مدفع صادرة من ثكنة عابدين اضطرابَ الجمهور، تلتها طلقةٌ ثانية ثم ثالثة. حسب ميشيل الوقت بين دويٍّ وآخر، فوجده إحدى وعشرين ثانيةً، لكن كانت هناك أيضاً طلقاتٌ أخرى أكثر بعداً وتباعداً آتية من القلعة.

«مئة وواحد»، قال لزكي الذي كان بالكاد يعرف العد على أصابع يدٍ واحدة؛ حاول ميشيل الاقتراب مجدداً من الصف الأول، لكنه دُفع إلى الخلف بقوة، فقرر على مضض، يائساً، أن ينكفئ إلى مكتب أبيه بعد أن أعلم بذلك حارسيه الشخصيين، وقام *السفرجي* بشقّ طريقٍ له بمنكبيه حتّى العمارة.

على شرفة المكتب، تجمّع أكثر من عشرين شخصاً، بينما تمركز آخرون قرب النوافذ أو انتظروا في الداخل وهم يحملون كؤوساً من البيرة ويعلّقون على الإشاعات التي كانت تجوب المدينة. كان نآندو مسترخياً في أريكةٍ كبيرةٍ من الجلد، مطلقاً بين الحين والآخر ضحكةً مجلجلة بصوتٍ يشبه طرّادة ماء؛ لقد كانت لديه أسبابٌ وجيهة تدفعه إلى المرح، فتلك الحرب التي لا تنتهي كانت لاتني تزوده بالمال.

لم يشأ العجوز الياس بطركاني أن يفوته المأتم رغم ساقيه شبه المشلولتين، فحمله بواب العمارة حتى الطابق الثالث على كرسي، يساعده *بوابان* آخران. أخذ الياس، وهو جالسٌ في منتصف الشرفة، يعلّق على الأحداث بثقة موظف الأشغال العامة المتقاعد.

ـ كان السلطان يشتكي من أمعائه، فقد كان يخضع قبل الحرب لجلساتٍ علاجية في شاتيل غويون.

ـ كانت زوجته الأولى تدعى عين الحياة، أليس كذلك؟

ـ نعم، تلك قصة جميلة! تخيّلوا، لقد كانت عين الحياة يتيمةً صغيرة آواها الخديوي إسماعيل...

قال محامٍ في المحاكم المختلطة وهو يستند بمرفقيه على حافّة الشرفة ويرمي بنظرةٍ ساهمة إلى الجمهور:

ـ كم من الناس! من كان يخمّن في بداية حكم حسين كامل أن تأتي القاهرة كلها لتبكي على جثمانه؟

ـ بالفعل، كم من الناس! قال إدمون توتة وهو يجفف جبينه بطرف ربطة عنقه العريضة الخبازية اللون؛ هناك دون شك عشرات الألوف من الناس. هذا مخيف، أليس كذلك؟

استرعت بداية شجارٍ في أسفل العمارة انتباه الأشخاص على الشرفة، حيث كان جندي بريطاني يمنع متسكعاً من عبور الساحة، يدعمه عددٌ من زملائه؛ لكن ذلك المراوغ قاوم بشراسة، فانهالت عليه ضربات العصي قبل أن يعاود الظهور مدمّى الوجه.

ـ لكن، هذا زكي! قال جورج بطركاني.

ثم استدار تلقائياً ليتأكد من وجود ميشيل على الشرفة. كان يتّقد غضباً من ذلك السائس الوغد الذي قرر أن يطرده على الفور. واسترسل في التفكير: إن لم يعد هناك سائس فلن يعود هناك عربة. نعم، سوف يشتري سيارةً ترفع من قدره أمام زبائنه ومنافسيه. سيارة كحلية اللون مثلاً، فاللون الأحمر مخصص لسيارات السلطان...

اقتربت الموسيقى، وكان الناس يتحرّقون لرؤية تعابير وجه فؤاد، الأخ غير الشقيق للمرحوم، والذي تم اختياره ليحلّ مكانه.

ـ لماذا فؤاد وليس كامل الدين، وليّ العهد؟ سألت ماغي، التي بدت شديدة الأناقة بفستانٍ من الساتان الأسود.

ـ الإنكليز لا يريدون كامل الدين، شرح لها المحامي في المحاكم المختلطة. فكري في الأمر: رجلٌ عُرف عنه حبه للأتراك، ومعاداته للبريطانيين! ثم إنه هو نفسه رفض أن يخلف والده قائلاً: «أنا لا أريد أن أكون سلطاناً صورياً».

تصاعد صوت همهمةٍ من الحشد فصمت المحامي؛ كان الموكب يقترب. ظهر أولاً فرسان الحرس السلطاني بزيّهم الأحمر، تلاهم رماة البحرية يحملون النعش.

أطلق الكونت هنري توتة بصوتٍ رخيم جملةً باللاتينية: *Sic transit gloria mundi!*(*)

سار فؤاد خلف التابوت منتصب القامة، يحيط بطنه الكبير بمشد. كم كان مظهره متناقضاً مع مظهر حسين كامل النحيل!

ـ لقد تغيّر النظام! قال جورج بطركاني مازحاً وهو يمضغ سيكاره، ويداه مستندتان إلى الحافة الحجرية للشرفة.

ـ حين أفكر بأنه قبل ثلاث سنواتٍ فقط، كان فؤاد يطالب بعرش ألبانيا...

(*) أي: هكذا يمر مجد الدنيا. م.

- إنه غارقٌ في الديون، وهذه السلطنة بالنسبة إليه هديةٌ من السماء.

كان خَلَف حسين كامل، بشاربه المجعد، يتقدّم محاطاً بالأمراء *وعلماء* الدين، يتبعهم المفوّض السامي والقائد العام البريطاني، كما لو كان على البروتوكول أن يناقض تماماً حقيقة السلطة.

- لقد كان حسين نزيهاً مع الإنكليز وبذل كل جهده كي يستتب الهدوء في مصر، قال أحد الموجودين على الشرفة.

- هذا صحيح، علّق المحامي. أعتقد بأنّه كان يتمنى بصدق انتصار الحلفاء، وهو يستحق أسمى التقدير على هذا الأمر، إذ أنَّ جزءاً من عائلته ظلّ شديد الارتباط بتركيا.

- يقال إنّ ابنته قد أغمي عليها حين علمت باستيلاء الروس على أرضروم.

- صحيحٌ أنّ حسيناً كان وفياً، لكنه لم يكافأ على ذلك. لم يكن المفوض السامي يطلعه على شيء. وفي الصيف، عندما كان يستقبله في قصر رأس التين، لم يكن يتحدث معه سوى عن رحلاته البحرية... وعن الريح التي دفعت أشرعته أو لم تدفعها. وكان حسين يتماسك كيلا ينفجر.

- خلال الأشهر الماضية، رآه بعض الناس على وشك البكاء وهو يعترف بأنه لا يعلم شيئاً عن نوايا الإنكليز تجاه مصر بعد الحرب.

- بل إنه كان يهدد بالتنحي إذا أُهين علناً، بشرفي.

كان ميشيل يستمع، ونظراته مثبتة عل الموكب الذي ابتلعه شارع البريد ببطء.

وفي ذلك المساء، تساءل إن كان عليه أن يكره الإنكليز.

القسم الثاني

ولادات ما بعد الحرب

1

في أواخر حياتها، كانت ماغي توتة تستقبلني من حينٍ إلى آخر في فندقها في حلوان قرب القاهرة، وهو منتجعٌ للمياه الحارة، وادعٌ، وارف الخضرة، وكان حينذاك مايزال يعيش على إيقاع عمال الحدائق والنجارين وقشاشي الكراسي، والعربات التي تجرها الخيول.

كان ضوء النهار يتراجع شيئاً فشيئاً وأنوار الغرفة ما تزال مطفأةً، بينما نسمع أصوات الجنادب وهي تغني في الحديقة.

وتحدثني خالة أمي التي ماتزال جميلةً رغم تجاعيدها عن غراميات شبابها بصوتٍ مثير، دون أدنى قدرٍ من الحياء. وكنت، مراهقاً، أشرب كلماتها الممنوعة وأنا أحاول قدر المستطاع إخفاء انفعالي.

أعتقد بأنها كانت تجد متعةً ما في ذلك؛ ألم أكن معلّقاً بسردها، واقعاً تحت رحمتها كما لو كنت أسير ملامسةٍ لطيفة؟ كانت تلك المغوية المتقاعدة تعيش مجدداً من خلالي، وبعينين نصف مغمضتين، أفضل لحظات حياتها. كانت تتوقف أحياناً في منتصف جملة لترفع ببطءٍ إلى شفتيها مبسماً طويلاً أسود اللون، فيخيل للمرء عندئذٍ أنّ أصوات الزيزان قد اجتاحت الحجرة:

ـ في العام 1919، كنت أتبع الموضة الدارجة في باريس بحذافيرها بفضل مقالات جريدة *القاهرة* *Journal du Caire* ، ومنذ

نهاية الحرب ارتديت موضة «فتحة النصر». فكانت فساتيني ذات فتحاتٍ تنحدر كثيراً في الظهر. وحين نكون وحدنا، يمدّ جورج يده بشكلٍ غريزي في حرف V العميق ذاك، باعثاً القشعريرة في جسدي كلّه...

كانت ماغي تقرّب شفتيها من وجه زوج أختها الذي يهمس بذهولٍ، مفتوناً: «إنّك عاريةٌ تحت فستانك!» ثم تنزلق الفتحة عن أحد الكتفين، ثم عن الكتف الأخرى، محرّرةً بذلك نهدين كفيلين بإهلاك كل رهبان سوريا...

كان جورج يتحسس تينك التحفتين ويداعبهما، ويدفن وجهه فيهما، ثم، بحركةٍ مفاجئة، يحمل ماغي نصف العارية إلى السرير المسقوف ذي الأعمدة. كان لعناقهما عنف الاقتحامات التي طال لجمها، وكانت المرأة الشابة مرتجفةً، لاهثةً، تنسحق تحت جسد عشيقها، تطوقه بساقيها، تعض كتفيه وتحرث ظهره حرثاً، ثم تصدر فجأةً تأوهاً طويلاً يجرّد جورج من آخر دفاعاته.

ـ بعد ذلك بقليل، تقول ماغي، كنت أتجول في الغرفة باحثةً عن فستاني وأنا عاريةٌ إلاّ من العقود التي تحيط برقبتي، فكان جورج يقول لي بأنني جميلةٌ مثل حورية. هل تعرف ما هي الحورية، حبيبي؟ فأعود عندها للمرور قرب السرير، ويمد هو ذراعه ليأخذني إليه ثانية.

وتصمت ماغي، مما يسمح لغناء الزيزان بأن يصدح من جديد، وتتوهج لفافتها في العتمة الخفيفة وتنعكس بريقاً على أحد خواتمها. أما أنا، فأحبس أنفاسي، بقلبٍ صاخب الضربات، ورأسٍ ملتهب.

كنا منسجمين معاً.

حين تزوج جورج ويولاند عام 1903، لم تكن ماغي قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها بعد، لكنها كانت شديدة التفتح إلى حدٍ بعث القلق في نفس أبويها، فبدأا يبحثان لها عن زوج. ورغم كثرة

المتقدمين، إلاّ أنّ أياً منهم لم يلق حظوةً في نفسها، وكانت تتدبر أمرها بحيث تفسد في كلّ مرة اللقاءات المرتبة في البيت، وتتمادى في سوء نيتها لدرجة قلب كؤوس الشراب على ملابس الحماة المرتقبة.

وفي إحدى الحفلات الراقصة، وقع اسكتلنديٌّ يعمل في وزارة الصحة يدعى جون ماك بوروت صريع هواها، وكانت حينذاك في الثامنة عشرة من عمرها، فطلب يدها. وافقت الفتاة التي لم تعد تحتمل المزيد من الضغوط العائلية دون تفكير، وتزوّجا في العام ذاته.

لم يكن الاسكتلنديّ يعرف كلمةً واحدة من الفرنسية أو العربية، وكان له حين يتكلم بلغته لكنةٌ قوية. لذلك لم يكن آل توتة يفهمون شيئاً من حديثه.

ـ ما الذي يقوله زوجك؟ يسأل ألكسندر ابنته حين يأتي الزوجان للغداء عند أهل العروس.

ـ وما أدراني أنا؟ تجيب ماغي وهي تقهقه.

ويسيطر على أبويها الذهول.

في كلّ أسبوع، كان جون ماك بوروت يمارس ركوب الخيل قرب الأهرامات. وذات أحدٍ من شهر شباط 1906، رمته فرسه أرضاً دون سببٍ واضح، فتكسّر جسده الضخم على الحصى، ولم يُعثر عليه إلاّ وهو نصف ميت.

ارتدت ماغي ثياب الحداد دون كبير حزنٍ، لكنها رفضت العودة إلى منزل أبويها، بحجة أنّ ارتباطها الكبير بذكرى المرحوم يمنعها من أن تترك شقة شارع قصر النيل التي سكن فيها الزوجان قبل ذلك بثمانية عشر شهراً. وفي تلك الشقة الأنيقة ذات الحجرات الثلاث الواقعة في مركز المدينة تماماً، ستجرّب ماغي فيما بعد عدداً كبيراً من العشاق ذوي الأحجام والأشكال والجنسيات المختلفة.

في العام 1903، حصل جدي بُعَيد زواجه على امتيازٍ لمخبرين

أوروبيين صغيرين بفضل مساعيه الحثيثة والعنوان المميز لمكتبه في ساحة الأوبرا. كان مكتباً بالغ الصغر، بالكاد فيه كوة، ويطل على باحة... في المساء، وبعد انصرافه من المحكمة، يحمل جورج حقيبةً كبيرة ويقوم بنفسه بتسليم الأدوية لباعة المفرّق، ويقوم أيضاً بالوساطة التجارية مع الصيادلة. وكان ذلك العمل يُذكّره نوعاً ما بطفولته: فحوالى العام 1890، كان كلّ شيءٍ ما يزال قابلاً للمساومة، حتى التركيبات الدوائية. وحين يمرض أحد أفراد الأسرة، كان الياس بطركاني يرسل ابنه إلى صيدلية مدوّر مرتين أو ثلاثاً في اليوم الواحد قائلاً له:

ـ اذهب واسأل هذا اللص عن سعره الأخير.

كان جورج يؤمن بجدوى الدعاية؛ وعلى الرغم من أنّ يولاند رأت بأنه يبالغ كثيراً في قلة حذره، فقد استدان عشرين جنيهاً مصرياً من أخيه ناندو واشترى مساحاتٍ في صحيفة *الأهرام* اليومية الناطقة بالفرنسية، وأخذ يضع فيها بضع إعلاناتٍ صغيرة، مادحاً أقراص براون التي «أدت إلى شفاء عددٍ لا يحصى من الحالات في كافة الأوساط الاجتماعية» أو أقراص الدكتور مارشار التي «تعيد الفحولة دون أن تؤذي أيّ جزءٍ آخر من الجسم».

انطلقت المبيعات ببطء، واقترض جورج عشرين جنيهاً إضافياً من ناندو بغرض توسيع الدعاية إلى جريدتين أخريين، وليتغنى بفضائل ماء فرانسوا جوزيف المسهل «الذي لا يقف في وجهه أي عائق». وفي العام التالي، حين قدّر بأنّ مبيعاته أصبحت تسمح له بالعيش بشكلٍ لائق، ترك قلم المحاكم المختلطة واستأجر غرفةً صغيرة ملاصقة لمكتبه، مما ضاعف مساحته. إلاّ أنّ شهيته للنجاح بدأت تشده نحو مغامراتٍ أخرى.

لقد طمأنت الاتفاقية الفرنسية ـ الإنكليزية التي أبرمت في ذلك الوقت الممولين الأوروبيين على مستقبل مصر، فأخذت رؤوس الأموال تتقاطر، وصدرت مئات الملايين من السندات في القاهرة، في حين أفلتت المضاربة العقارية من عقالها؛ ولم يعد هذا التسابق على المال حكراً على الأثرياء. شملت المضاربة كل شيء، حتى

سندات قسائم مصرف التسليف العقاري المصري الخاضعة للسحب الدوري والتي أصبح باعة اليانصيب يبيعونها في الشوارع...

لم يكن جورج حينذاك قد ادّخر أيّ مبلغٍ من المال، إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من أن يشتري بالتقسيط قطعةً صغيرةً من الأرض في مدخل بولاق، ليبيعها ثانيةً بعد أربعة أشهر بربحٍ بلغ ثلاثين بالمئة. فاشترى على الفور أرضاً أخرى بضعف مساحة الأولى، وبالشروط نفسها. وفي بداية العام التالي، اندفع جورج في مغامرته إلى مدى أبعد، حيث باع في المساء قطعة أرضٍ اشتراها في صباح اليوم ذاته...

أخذ جورج يكسب المال، وبدأت عائلة زوجته تلاحظ ذلك. وفي أحد الأيام، جاء هنري توتة، شقيق يولاند الذي كان حينذاك في الرابعة والعشرين من العمر وله من الدخل ما يغنيه عن العمل طالباً النصح، ولم يندم على ذلك؛ فخلال ستة أشهر، عادت عليه استثماراته بربحٍ بلغ مئة بالمئة.

بل إنّ الكسندر توتة نفسه كان يحضر إلى مكتب صهره في ساحة الأوبرا على حين غرة، ويقول وهو يتظاهر بإسداء النصائح له:

ـ انتبه، حبيبي، حذارِ من ارتكاب الحماقات! أريد أن أعرف أين تضع أموالك. إنها أموال ابنتي...

وحين يذهب توتة الأب، كان يحمل في جعبته بضعة أسرارٍ يجهد فيما بعد باستثمارها. كان الأمر يتعلق تارةً بنجاحٍ باهرٍ في تجارة الخشب، وتارةً أخرى بالتألق في المضاربة... لكنه كثيراً ماكان يفشل في العملية التي يقوم بها لافتقاره إلى الحنكة التي يتمتع بها جورج.

انقضّت أزمة عام 1907 على القاهرة كالصاعقة. وخلال بضعة أيام، رفضت المصارف منح أيّ قرض، وانهارت أسعار الأسهم في البورصة؛ وامتد تأثير الأزمة ليطال سعر الأراضي في المدن الذي

أخذ في الانخفاض. أقبل توتة الأب بسرعة إلى مكتب صهره مذعوراً وقال:

- انتبه، حبيبي، لا أريد أية حماقات...

لكن جورج نفسه لم يكن يعرف كيف سيخرج من ذلك المأزق، فقد كان مثقلاً بالكثير من السندات والأراضي التي اشتراها بفضل سلفٍ مصرفيةٍ ضخمة الفوائد. كان الأمر بالنسبة له كارثة حقيقية.

ثلاث سنواتٍ طويلة مرّت عليه حتّى استطاع سداد ديونه. وكان يسهر إلى ساعةٍ متأخرة من الليل في مكتبه الذي ينيره مصباحٌ وحيد يتأرجح في نهاية سلك، بعد أن ركّز جهوده من جديد على المستحضرات الصيدلانية.

وفي إحدى أماسي تشرين الثاني من العام 1908، دُقّ الباب، وخلفه وقفت امرأةٌ شابة غطت وجهها بنقابٍ أسود. كانت ماغي! قالت بأنها قد حضرت لتطلب منه نصيحةً تتعلّق بتوظيف مبلغٍ صغيرٍ من المال.

منذ خمس سنوات، وكلٌ منهما يترقب الآخر، يحدّق إليه ويعرّيه من ملابسه بنظراته خلال اللقاءات العائلية. كانا يوجّهان الكلام لبعضهما بالألفة الزائفة بين صهرٍ وأخت زوجته.

ما إن وضعت ماغي حقيبتها على صندوقٍ هناك حتى تلاقت شفاههما، وكانت هي عاريةً تحت فستانها.

عناقهما كان عنيفاً وقصيراً، ومدهشاً لكليهما. وضعت المرأة الشابة نقابها من جديد وانصرفت دون أن تنبس ببنت شفة.

لم يعد أيٌّ منهما للحديث عن ذلك اللقاء الخاطف، وتجنبت نظراتهما الالتقاء في الاجتماعات العائلية على مائدة الغداء. أصبحت فكرة خيانته ليولاند تقضّ مضجع جورج، كما أخذت ماغي تؤاخذ نفسها بشكلٍ مريع، فقد كانت شديدة التعلق بأختها الكبرى. وسرعان ما اتخذت عشيقاً عابراً، كما لو أنها تريد أن تمحي أيّ أثرٍ لتلك الزلّة.

في العام 1912، اشترى جورج منزلاً جميلاً في شبرا، بعد أن تمكن من تسديد ديونه ومضاعفة عوائده الصيدلانية. في ذلك الحين، كانت يولاند قد أنجبت له أربعة صبيان. إلاّ أنّ ذكرى ماغي العارية تحت فستانها ظلّت تؤرّقه، وأصبحت النظرات المتبادلة بينه وبين شقيقة زوجته أكثر إلحاحاً خلال وجبات الغداء أيام الأحد.

بعد بضعة أيامٍ من إعلان الحرب، طرق جورج باب المرأة الشابة في شارع قصر النيل وقال:

ـ كنت ماراً من هنا، فصعدت...

دامت علاقتهما هذه المرة عدة أسابيع، ثم اتخذت ماغي عشيقاً جديداً، بانتظار استعادة جورج... تضاعف اهتمام كلٍ منهما بيولاند. كانت مشاعر جدي تجاه زوجته مزيجاً من المودة والاحترام، فقد كانت زوجةً مثالية تقوم بواجباتها الزوجية بعينين مغمضتين ودون أية شكوى. كان يحترس بشدة كيلا تعرف شيئاً عن علاقته المتقطعة بماغي.

وكان جورج يقول لنفسه بأن الحياة غريبة رغم كل شيء؛ فقبل اثني عشر عاماً، أراد فتاةً من آل توتة، فوهبته السماء اثنتين!

2

ـ الأمر غريب، قال جورج لماغي، فقد تمتعنا طوال الحرب بسلم مطلق. وما أن انتهى دوي المدافع في أوروبا حتى بدأ رصاص البنادق يلعلع هنا.

في مساء أحد أيام شهر آذار من عام 1919، كاد جورج، الذي فاجأه حظر التجول، ألاّ يتمكن من العودة إلى شبرا، فلم يقبل أيّ سائسٍ بالمرور من باب الحديد، حيث هاجمت مجموعات من المتظاهرين المسلحين بالهراوات واجهات بعض المحلات، وأطلقت الشرطة النار على الجمع، مما تسبّب في مجزرةٍ حقيقية.

لم يعد جورج إلى بيته في ذلك المساء إلاّ بعد منتصف الليل بعد أن قام بالانعطاف عن طريق بولاق، ووجد يولاند مذعورةً تبكي. كانت قد أرسلت *السفرجي* رشيد ثلاث مرات للاستطلاع في الشوارع الخالية، لكنه كان يعود في كل مرة خالي الوفاض...

كان رشيد يعلم بأنّ أخاه صبري يساهم بشكلٍ فعال في التمرد الشعبي، وقد التقى به مرتين منذ بداية الأحداث محاولاً أن يفهم دوافعه، إذ أصبح لكلٍ من الأخوين عالم مختلفٌ تماماً عن الآخر. وبعد ذلك بعدة سنوات، كتب ابن صبري في كتابه *مسار ضابط* بعد أن جمع شهاداتٍ مختلفة: «ما من شيءٍ كان يؤهّب أبي لأن يصبح

ثائراً. لا شيء سوى الفقر والظلم اللذين سادا البلاد، وغطرسة الإنكليز».

جاب صبري أبو الفتح القاهرة كلها منذ بداية الاضطرابات، من بولاق إلى العتبة، وشارك في كلّ المظاهرات وكل أحداث الشَغَب. فكان يذهب يوماً إلى محطة الترامواي في الجيزة ليمنع مركباتها من التجول، ويوماً إلى باب الخلق ليوقف العربات ويفك خيولها... وفي المساء، كان يعود إلى غرفته الصغيرة في السيدة زينب، مستثاراً ومنهكاً، ويرمي بجسده على فراشٍ من الأسمال.

لم يكن لدى صبري من الوقت ما يكفي ليفكر بزوجته أو بأبنائه الستة الذين بقوا معها في القرية. وبالكاد كان يعرف شكل ابنه الصغير حسن ذي الأشهر الثلاثة، والذي رتبت ولادته على أبيه المزيد من الديون. الديون؟ حدّث عنها ولا حرج. هل يكفي لسدادها عمر صبري بأكمله؟ فقد بلغ سعر *أوقية* لحم البقر ستة عشر قرشاً، في حين لم يكن يتجاوز ثمانية قروشٍ قبل الحرب. كما تضاعف أيضاً سعر لحم الغنم والكحول الأزرق... وعَجِز راتبه الضئيل كعاملٍ عن سدّ التزامات كل تلك الزيادات المريعة في الأسعار؛ بل إنه لم يكن سيحصل على ذلك الراتب الضئيل بسبب الإضراب. لكن شقيق رشيد ورفاقه كانوا يكتفون في تلك الأيام الملتهبة بالنزر اليسير مما يقدّم لهم: بعض الفول في الصباح، *وفول* كذلك عند الظهر، مع حبةٍ من البندورة في رغيف خبز...

ترك صبري قريته في الدلتا في بداية الحرب ليشتغل في معمل علما للسجائر؛ وقد كان ذلك من حسن حظه، فبعد بضعة أسابيع فقط، حاصر الجنود الإنكليز المنطقة وأعلنوا تجنيد كافة الفلاحين كمتطوعين، وأخذوهم عنوةً كالأسرى ليجنَّدوا في قسم العمل *Labours Corps* . حيث مات العديد منهم من التيفوس بعد إدخالهم إلى مستشفياتٍ بالغة السوء.

وشارك عمدة القرية بشكلٍ فعّالٍ في التجنيد؛ فقد أعان الأثرياء الذين قدّموا له المال على التهرب من التعبئة، ثمّ تطوّع بتسجيل الآخرين بحكم وظيفته. وإليه اتجه الإنكليز في منتصف الحرب

لمصادرة الحيوانات المنزلية ولتنظيم التبرعات الإجبارية لصالح الصليب الأحمر البريطاني. الصليب في بلد الهلال... كان للعمدة بيتٌ واسعٌ مطليٌ باللون الوردي، وثلاث زوجات. وقد أقسم عدة فلاّحين مجنّدين على سلخ جلده. وفي صباح أحد الأيام، عُثر عليه في قاع القنال، مهشّم الرأس.

منذ الثالث والعشرين من تشرين الثاني 1919، أخذ صبري ورفاقه ينظرون إلى الدنيا بمنظارٍ مختلف. ففي ذلك اليوم، ذهب سعد زغلول باشا على رأس وفدٍ إلى المندوب السامي البريطاني للمطالبة باستقلال مصر. الاستقلال! لقد رأى العمال فيه الحلّ لكلّ مآسيهم: ينبغي إذن طرد الإنكليز.

تجنّب سعد زغلول باشا، وهو الوزير السابق، طرح الأمور بتلك الطريقة المزعجة أمام السير ريجينالد وينغيت، فلم يكن التحضّر ينقص المصريين. وشرح الوفديون قائلين بصورةٍ دبلوماسية: «إنّ إنكلترا هي أكبر القوى العظمى وأكثرها ليبرالية؛ وباسم مبادئ الحرية التي تسير على هديها، فإننا نطلب أن نكون أصدقاءها». إلاّ أنّ الجميع أدركوا ما المقصود.

وجاء رد حكومة صاحب الجلالة في آذار من العام التالي: فقد نُفي سعد زغلول وثلاثةٌ من رفاقه إلى مالطا، واشتعلت مصر في اليوم التالي.

نزل صبري إلى الشارع منضماً إلى عدة آلافٍ من الطلاّب الذي أتوا للتظاهر في حيه. كان لقاءٌ مدهشاً بين أولئك المثقفين الصائحين وذلك الأميّ الذي أخرسه الانفعال! وعلى إثر لعلعة رصاص الرشاشات، سقط خمسةٌ من الطلاّب قتلى في ساحة السيدة زينب؛ حمل صبري واحداً منهم أصيب بجروحٍ بالغة في معدته، وأودعه مكانٍ أمينٍ داخل دكانٍ كُسرت واجهته. وقبل أن يسلم الروح، تناول الشاب منديلاً، ثم أشبعه بدمه وهمس قائلاً لصبري بصوتٍ مخنوق:

ـ اذهب وأعطِ هذا المنديل لسعد زغلول!

ويقول مؤلف كتاب *مسار ضابط*: «سيبقى المنديل الذي تيبس في قاع جيب والدي».

بعد أسبوعٍ من تلك الأحداث، ذهب صبري إلى ساحة الأوبرا مع عددٍ من رفاقه، محاولين إقناع السائسين بالإضراب، لكنهم لم يفلحوا في ذلك. فالسائسون الذين لم يشاءوا أن يفوتهم زبائن نزهات يوم الأحد إلى الجزيرة ردّوا عليهم بالشتائم؛ وكادت المجموعتان تتشابكان بالأيدي حين وصل إلى الساحة موكبٌ مدهشٌ من العربات والسيارات يحمل سيداتٍ مصريات تغطّي النُقُب وجوه معظمهن؛ كان بينهن زوجات باشوات، وكنّ يتظاهرن في الشوارع للمطالبة بالاستقلال، فاستقبلهن العمال بالتهليل.

لم تكن أحداث القاهرة تشكل شيئاً يذكر بالمقارنة مع ما حدث في الأرياف. ففي بني سويف، اقتحمت الجموع المحكمة وقبضت على القاضي البريطاني، ثم قلبت مكاتب المحافظة رأساً على عقب. وفي مدينة الفيوم، هجم البدو على الحامية الإنكليزية، مخلفين وراءهم حوالى أربعمئة قتيل حسبما قيل...

وفي الثامن عشر من آذار، وفيما أعلن السائقون والسائسون في القاهرة أخيراً انضمامهم للإضراب، توجّه صبري إلى شبرا مع وفدٍ كبيرٍ ليشجعوا عمالاً آخرين على الإضراب؛ فذهبوا أولاً إلى معمل سجائر علما، ثم إلى مشاغل صيدناوي للمفروشات، وأخيراً إلى معمل بطركاني للطرابيش. في تلك المحطة الأخيرة، صعد صبري على كرسي ليلقي خطبةً على العمال بلهجةٍ تميزت بالعنف الشديد وقال لهم: «أنا أعرف آل بطركاني، فأخي رشيد يعمل عندهم منذ سنوات. ألا ترون أنّ هؤلاء المستغِلين يمتصون دماءنا؟»

رأت طرابيش بطركاني النور أخيراً في بداية العام 1919. فبعد أن عرقلته الحرب، اصطدم مشروع جدي وإدوار ديلليم بالتكاليف المرتفعة للتصنيع في مدينة ليل الفرنسية، مما اضطرهما للانكفاء نحو القاهرة. كان هناك مكانٌ واسعٌ جاهزٌ في أقصى شبرا، إلاّ أنه

توجب تجهيزه والعثور على المواد الأولية والأشخاص القادرين على التأقلم مع متطلبات الإنتاج الصناعي.

لم يبدُ تصنيع الطرابيش معقداً بشكلٍ خاص. فلتلبيس القماش الصوفي باللباد، كان يُضرب في مرجلٍ يحتوي على الماء الساخن والصابونِ المسحوق، ثم يُقولَب وتمشّط أوباره بوساطة أشواكٍ نباتية وتُحلق، ولا يتبقى سوى صباغته وإعطائه الشكل المطلوب. إلاّ أن التجارب الأولية أظهرت صعوبة حلاقة اللباد وصبغه بشكلٍ متجانس. أما بالنسبة لمتانة المُنتَج، فأمرٌ لا يمكن معرفته إلاّ بالاستعمال.

قال جورج لشريكه الفرنسي:

ـ لقد تأخرنا بما فيه الكفاية، فالإيطاليون والتشيكوسلوفاكيون أخذوا يحتلون المواقع التي تركتها الشركات النمساوية ـ الهنغارية شاغرةً. كما ينبغي أن نحذر المعمل المحلي في قها الذي أخذ يحسّن إنتاجه مع حفاظه على أسعار منخفضة.

وهكذا، أُنزلت طرابيش بطركاني إلى الأسواق دون تأخير. واعتقد جدي، الذي كان يتصرف كتاجرٍ أكثر منه كصناعي، أنه يستطيع جمع ميزات مختلف منافسيه، وذلك بصنع طربوشٍ رخيصٍ ـ بسبب رخص اليد العاملة المحلية ـ لكن مع إعطائه صبغةً أجنبية بفضل عبارةٍ ملتبسة تقول: «صنع على الطريقة الفرنسية».

كانت الدزينة الواحدة من طرابيش *فيرساي* تباع بأربعمئة قرش، مع حسم يمكن أن يصل إلى عشرين بالمئة؛ أما النوع المسمى *مارسيليا*، فكان سعر الدزينة منه ثلاثمئة وخمسين قرشاً، و*الكليمنصو* كان يباع بثلاثمئة وعشرين قرشاً للدزينة.

حين انفجرت أعمال الشغب في القاهرة، كان مصنع الطرابيش في شبرا قد بدأ بالعمل لتوه. كان بعض المحرضين يقتحمون المصنع، فيتوقف العمل ويخرج بعض العمال، ولا يعودون طوال اليوم. وفي الغداة، يزعمون بأنه قد تم توقيفهم في الطريق. أما جورج، فيستشيط غضباً.

لم يكن جورج الغاضبَ الوحيد.

ـ هذا الحريق، سوف أخمده ببصقةٍ من فمي! أعلن مسؤولٌ بريطاني من القاهرة.

إلاّ أنّ النار اضطرمت، وبدأت حكومة صاحب الجلالة في لندن تفقد صبرها. وفي النهاية، في الرابع والعشرين من آذار 1919، سمّي الجنرال ألّنبي، أحد أبطال الحرب، مندوباً سامياً على مصر والسودان، وأنيطت به مهمة إعادة النظام. بعد أسبوعين، أعلن ألّنبي الإفراج عن سعد زغلول.

علم صبري بالخبر بفضل جلبةٍ ضخمة هزّت حيّ السيدة زينب هزّاً؛ فنزل على عجل الدرج المتهاوي للعمارة التي يسكن فيها، وركض إلى الشارع جذلاً، منفعلاً، موزعاً القبلات على المارة. رأى بائع *الفول* يرقص حول عربته، وسيارات الأجرة تمر بسرعةٍ كبيرة وهي تقلّ *الشاويشية*، بألبستهم الرسمية، يلوحون بالأعلام ... كان اسم سعد زغلول يدوّي دون كللٍ أو مللٍ على شكل هتافٍ عبارات تمجيدٍ أو غناء.

في اليوم التالي، انطلق موكبٌ ضخم من باب الحديد وعلى رأسه التلاميذ الضباط في المدرسة الحربية والقائد الأعلى للشرطة. خرجت مصر كلها في الاستعراض: من قضاة المحاكم المحلية إلى علماء الدين، مروراً بالقساوسة الأقباط وفناني المسرح وموظفي شركة الري... مرّ الموكب أمام قصر عابدين وهو يهلل للسلطان فؤاد. لكن هل كان السلطان يستحق فعلاً ذلك التهليل؟ ففي صباح ذلك اليوم، لبس قفطانَ جده محمد علي الذي بدا فضفاضاً عليه، وأعلن متشدقاً: «في كلّ مرة أشعر بدماء جدي العبقري تسري في عروقي، أشعر بحبٍ جارف لوطني الحبيب». وبالمناسبة، طلب من ذلك الوطن الحبيب بإلحاح «ألاّ يستمر في المظاهرات التي أدّت إلى عواقب وخيمة في بعض المناطق».

انتظرت جمهرةٌ غفيرة وصول سعد زغلول في محطة باب الحديد للقطارات. كان الانفعال عارماً. انتظر صبري ورفاقه عدة ساعات، تخللها غناءٌ وصراخٌ وحوادث إغماء، وكثيرٌ من الإنذارات الكاذبة. ثم اضطر الجمع للإذعان للواقع، فالبطل لن يحضر في ذلك

المساء؛ وتفرق المتظاهرون الخائبون جماعاتٍ جماعات في الشوارع المجاورة.

لم يكن شقيق رشيد بعيداً عن حديقة الأزبكية حين تدافع الناس من حوله وأخذوا يتراكضون، فتبعهم عفوياً، ثم سمع صوت انفجارين...

أخذ صبري ينظر إلى بقعة الدم التي تكبر قربه وهو ممدد على الأرض، ووجهه ملتصقٌ بالإسفلت الرطب. لم يعِ كيف سقط، لكنه الآن يرى نفسه وهو يموت. وخلال الدقيقة الطويلَة التالية، وفي خضمّ الصور التي عبرت ذهنه، انبثقت صورة ابنه حسن ذي الأشهر الثلاثة والذي كان بالكاد يعرف شكله...

3

ـ أنت بالطبع تساند أولئك الجفاة! قال جورج بطركاني لمحدثه بحدة. أنت تجد من الطبيعي أن يزرعوا الفوضى ويكسروا واجهات المحلات ويمنعونا من العمل...

كان الموظفون قد غادروا المكتب منذ أكثر من ساعة، وبقي جورج وحيداً مع مكرم، جالساً قبالته، دون أية إنارة. وكما هي العادة، سوف يدور نقاشهما في العتمة، على ضوء سيجار جورج، في حين يلفّ مكرم بين أصابعه باستمرارٍ سيجارةً لن يدخنها. هكذا كان الأمر على الدوام بينهما منذ أول لقاءٍ بينهما في الثانوية: لم يكن لديهما في النهار ما يتحدثان عنه، ويتشاجران عند هبوط الليل.

ـ من الطبيعي برأيك أن يمنعونا من العمل ويشلّوا اقتصاد البلد...

لم يجبِ القبطي على الفور، فقد كان يعرف بالتجربة أنّ جدي بحاجةٍ أولاً لأن يتخلّص مما يُثقل عليه، وأنّ أي شيءٍ سيقوله قبل ذلك لن يكون له أي تأثير، بل إنه لن يُسمع.

كان مكرم خبير المحاسبة في المكتب، فكان بالتالي يأتي إليه مرةً كل أسبوع، مما يجعل متوسط عدد المشاجرات بينهما أربعاً شهرياً.

منذ أن فُرضت الحماية البريطانية على مصر، لم يعد مكرم يرتدي سوى ربطات العنق والأطقم السوداء، فقد أقسم أن يظلّ في

ثياب الحداد حتى رحيل آخر جنديٍّ بريطانيٍّ من مصر. كان ذلك أمراً مسلياً بالنسبة لجورج في بداية الأمر، إذ اعتبر ذلك تصرفاً ناتجاً عن الغضب. إلاّ أن السنين مرت وظلّ القبطي يلبس السواد صيفاً شتاءً، لدرجة أنّ زميل دراسته السابق لم يعد يلقي بالاً إلى ذلك الشذوذ في الملابس.

ـ أنتم السوريون لا يمكنكم أن تفهموا، همس مكرم بعد دقيقتين أو ثلاث من الصمت، وهو يدفن أنفه في علبة تبغه الماتوسيان.

ـ آه! لأنكم أنتم الأقباط...

ـ من يتحدث عن الأقباط؟ نحن مصريون، وليس هناك من هو أكثر مصريّةً منا...

ـ نعم، أنا أعرف، سوف تعود ثانيةً إلى الفراعنة.

ـ جورج، التاريخ هام!

ـ لكنه أقل أهميةً من الجغرافيا، يا مكرم أفندي! أنتم لستم سوى جزيرةٍ صغيرة في بحرٍ من المسلمين.

هزّ القبطي رأسه بحركة إنكارٍ وقال:

ـ لقد ولدت حركة وطنية ليس فيها مسلمون ولا مسيحيون؛ فيها مصريون وحسب. ألم ترَ في الشوارع منذ بضعة أسابيع تلك الأعلام المزينة بالصليب والهلال؟ ويوم الجمعة الماضي، ذهب قسّ من الحي الذي أسكنه ليعظ ثانيةً في أحد المساجد...

في العام 1919 ذاك، تصادف عيد الفصح لدى الطائفتين الأورثوذوكسية والكاثوليكية في اليوم نفسه، مما أضفى مزيداً من الألق على زيارات الإخاء التي قامت بها وفودٌ إسلامية إلى مختلف البطركيات، وبعث ذلك غبطةً كبيرة في قلب مكرم:

ـ النائب الأسقفي الأرمني لا يعرف سوى اللغة التركية، لذلك تطلّب الأمر أن يترجَم خطابه. أما عند الروم الأورثوذوكس، فقد تحدّث المونسينيور ميليتيوس بلغةٍ عربيةٍ ممتازة. وكان الوضع

عندكم، أنتم الروم الكاثوليك أفضل، ويقال بأنّ خليل مطران قد ألهب حماس الزوار حين ألقى قصيدةً من نظمه.

ـ كل هذا لا يعدو كونه حركاتٍ صبيانية، قال جورج بين دائرتي دخان، صبيانية خطيرة!

في مطلع شهر نيسان، كان معمل شبرا قد استعاد فعاليته تقريباً، وصُفّت الطرابيش على الرفوف بانتظار تسليمها إلى المخازن الكبرى أو إلى تجار نصف الجملة. إلاّ أنّ جواً من التمرد كان مايزال يهيمن، وهو ما لم يكن جورج يرتاح له كثيراً، فقد كان يحبّ جو الالتباس، لا الفوضى. وإذا كان لا يتعاطف كثيراً مع النظام القائم، إلاّ أنه يرتاب بشدة بأولئك الذين يحاولون تقويضه. وكمواطنٍ من الدرجة الثانية، شعر بأنه في الواجهة وبأنه سيكون مهدداً بشكلٍ مباشر بمجرد تبدّل الديكور، وبمجرد انهيال الضربات...

ـ الويل لمن هم خارج الحركة الشعبية! هتف مكرم بصوتٍ أجش، إنهم يجازفون بالبقاء على الهامش.

هزّ جورج كتفيه ثم قال:

ـ أنت تمزح أم ماذا؟ هل تعتقد بأنني سوف أركض خلف أولئك الرعاع؟ ثمّ لماذا أفعل؟ لرفع الأجور؟ لا، شكراً! أم «لطرد الإنكليز» كما تقولون؟ لا تنس أنّ مصر ستكون عاجزةً في هذه الحالة على أن تحكم نفسها بنفسها! في جميع الأحوال، كل هذا لا يعدو كونه ثرثرة، مجرد كلام. لقد بدأت الأمور تعود إلى نصابها. انتهت العطلة يامكرم أفندي!

تم أول لقاءٍ بين جورج ومكرم قبل تسعةٍ وعشرين عاماً، في فجر يوم من أيام تشرين الأول عام 1890، وكان ذلك أول صدامٍ بينهما. في ذلك الوقت، كانت أزقة خرنفش خاليةً من الإنارة، وعلى كل طالب أن يحمل بيده قنديله الخاص.

سار جورج بخطٍ متعرج في العتمة متحسساً موطئ قدميه، وحقيبته البالغة الثقل تنزلق عن ردفيه باستمرار، فيرفعها بضربةٍ قوية بين حينٍ وآخر.

كان الظلام دامساً لغياب القمر، وبالكاد يمكن تبيّن الواجهة الضخمة لثانوية الأخوة على بعد خمسين متراً، وهي المحطة النهائية الإلزامية لتلك المسيرة العمياء.

ـ انظر أمامك، أيها الأحمق

تسمّر جورج في مكانه، فقد كاد أن يصطدم بشبحٍ يماثله طولاً ظهر من طريقٍ جانبية، ثم صرخ بنفس اللهجة، مدارياً رعبه:

ـ أنت الأحمق، *يا فلاّح*!

تقابل الطفلان وجهاً لوجه، ورفع كلٌّ منهما على الفور قنديله ليتفحص وجه الآخر.

ـ ابتعد عن طريقي وإلاّ سحقتك مثلما سحق الإنكليز عُرابي! هتف جورج بالفرنسية وقد تمالك نفسه.

ـ الإنكليز، أنا أبصق عليهم! أجاب المجهول بالعربية وهو يرسل بصقةً أمام قدمي ذلك المستفزّ.

كادت أيديهما تتشابك لولا ظهور أطفال آخرين من آخر الزقاق، بأضوائهم المهتزة وأصواتهم المرتفعة. مثل تلك المبارزة لا يمكن أن تجرى أمام شهود.

عدّل كلٌّ من مكرم وجورج وضع حقيبته، وتابعا طريقهما بصمت، لكنهما سارا هذه المرة جنباً إلى جنب. سوف يصفيان حسابهما فيما بعد، وفي العتمة أيضاً، فالمدرسة التي تفتح أبوابها في السادسة صباحاً لا تغلقها إلاّ في السابعة والنصف مساءً.

كان اسمه إذن مكرماً.

ـ هل أنت قبطيّ؟ سأله جورج حين التقيا في المساء وكلٌّ منهما يحمل قنديله.

ـ وماذا في ذلك؟ هل هذا ممنوع؟

ـ قبطي منشق؟ سأل جورج بإلحاح.

ـ أنتم المنشقون! نحن أورثوذوكس.

ـ هل تجرؤ على تكرار ما قلت أمام الأخ أونيسيم أو أمام الأخ فيلوتيه ـ جان؟ قال جورج بلهجةٍ ساخرة.

في واقع الأمر، لم يكن لدى جورج أية رغبة في متابعة تلك المناظرة اللاهوتية؛ فهداية الأقباط من مهام الأخوة الأعزاء جداً، لامن مهامه هو. كان الطلاّب يحاطون علماً بين حينٍ وآخر بأن أحد المنشقين قام بإنكارٍ علنيٍ لانتمائه وتحوّل إلى الكنيسة القبطية الكاثوليكية الصغيرة التي يحتضنها رجال الدين الأوروبيون. لكنه يظل قبطياً، سواءٌ كان كاثوليكياً أم لا، وتلك الصفة بنظر عائلاتنا شائبةٌ لا تمحى.

توغّل الطفلانِ في أزقة خرنفش المعتمة. كان حوارهما قد بدأ، وسوف يستمر ستةً وستين عاماً...

4

أخذت مصر تتعافى شيئاً فشيئاً من اضطرابات عام 1919. وكموظفٍ ملتزم، انتظر الياس بطركاني، جد أمي، أن يعود كلّ شيءٍ إلى نصابه قبل أن يطفئ الأنوار ويرحل، فقد لفظ أنفاسه الأخيرة في اليوم الذي حصل فيه الملك فؤاد أخيراً على وريثٍ ذكرٍ لطالما طالب السماء به. ولم يفت ميشيل أن يربط بين الحدثين في مذكراته.

12 شباط 1920

مات جدي الياس البارحة، بعد بضع ساعات من ولادة الأمير فاروق. وقالت الآنسة غيومار التي لم يطلب أحدٌ رأيها: «إنه جيلٌ يطرد آخر».

ذهبنا إلى المقبرة بالسيارة، وأغمضت ماما عينيها طوال الطريق، رغم أن السائق أمسى الآن يقود السيارة بصورةٍ أفضل قليلاً.

في العام الماضي، كان جدّي قد أمر جدي ببناء شاهدةٍ كبيرة من الرخام الإيطالي. المدفن أجمل بكثير من مدفن آل توتة، وهو لايحمل سوى عبارتين:«ليندا بطركاني (1847-1894)»، و«الياس بطركاني (1841 - 1920)».

سُرّ السلطان فؤاد كثيراً لأنه رزق أخيراً بصبي، لدرجة أنه سوف يوزع اللحم على الفقراء في المساجد. وبعد أن سمّى ابنته في الماضي فوقية، فإنه قد أعطى الوليد الجديد اسم فاروق، إذ أنّ حرف الفاء يجلب له السعد.

يقولون أنّ عيني فاروق زرقاوان، وهذا ليس غريباً كما يقول بابا، فالسلطانة نازلي هي سليلة سليمان باشا، الذي لم يكن سوى الكولونيل الفرنسي جوزيف سيف.

أما غيومار، فإنّها لا تريد الإقرار بأنّ عيني فاروق زرقاوان.

بهذه السطور، يترك ميشيل انطباعاً بأنّ وفاة جده لم تؤثر فيه مثلما أثرت وفاة السلطان حسين قبل ذلك بثلاث سنوات. كما أنّ صحة الياس بطركاني كانت تتراجع منذ بعض الوقت، بل إنه بدأ يخرّف.

ففي الإسكندرية، كان موظف الأشغال العامة السابق يمضي صباحاتٍ بأكملها في الصيف مستلقياً على كرسيّ طويلٍ في كازينو سان ستيفانو وعيناه مثبتتان على خط الأفق ويقول:

ـ حين لا يعود للبحر وجود، سوف ينشئ مهندسونا خط سككٍ حديدية يربط مصر بأوروبا. هل سيتطلب الأمر عدة محطات؟ سمبسون يميل إلى إقامة خطٍ سريع دون أيّ توقف...

ترك جدّ أمي ذكرى رجلٍ لطيفٍ ومسالم، فلم يخرج عن طوره إلاّ مرةً واحدة، عام 1890، حين أراد رياض باشا، رئيس مجلس الوزراء في ذلك الحين، أن يحصر المراكز الإدارية *بالمصريين الحقيقيين*. كان ذلك الإجراء موجهاً بشكلٍ مباشر ضدنا نحن السوريين، واضطر اللورد كرومر إلى التدخل لإلغائه.

ـ حين أفكر بأنّ رياضاً تركي! قال الياس بطركاني وهو يستشيط غضباً، وبأنه خَلَف نوبار الذي كان أرمنياً! بشرفي، ليس من المستبعد أن يعينوا غداً لرئاسة الحكومة شخصاً فارسياً أو هنغارياً ـ نمساوياً، وسيأتي ليعطينا دروساً في الانتماء لمصر!

في جميع الأحوال، فإنّه لم يتمكن حتى وفاته عام 1920، أي بعد تسعةٍ وخمسين عاماً من وصوله إلى ضفاف النيل، من الانتفاع بشكلٍ رسمي من لقب مواطن، فنحن لم نكن سوى «رعايا محليين». كانت القوى العظمى، «اللاقوى» كما كان الياس يسميها في نوبات

غضبه القليلة، ما تزال تدرس بعناية معاهدة سيفر Sevre التي تنظّم وضع أنصاف المواطنين من أمثالنا.

وفي يوم سبتٍ من تشرين الأول عام 1920، وضع جورج بطركاني فرنسا أمام مسؤولياتها في مداخلةٍ شهيرة. فمعاهدة سيفر التي وُقّعت دون أن يصدَّق عليها بعدُ كانت تسبب أشد القلق للسوريين الوافدين حديثاً إلى القاهرة. لم تكن تلك حال جدي الذي وُلد في مصر ولم يشعر بأنه معني بالجدال الدائر حول المعاهدة إلاّ جزئياً. إلاّ أنّ ميله الطبيعي للّعب على أكثر من حبل وللاستفادة من كل الفرص جعله يتساءل إن كان بإمكان المتمصرين من أمثاله أن يحصلوا على وضعية أجنبي بمناسبة التسويات الدولية الجارية.

في ذلك المساء، كانت الوكالة الفرنسية تتلألأ بالأنوار على شرف فرقةٍ مسرحية باريسية تلعب *أندروماك* على مسرح دار الأوبرا في القاهرة. وقام *القواسون* بزيهم الموحد ذي الشرائط المذهبة بالتنظيم بدءاً من المدخل، كما تمت مواربة النوافذ الثقيلة للاستفادة من طراوة المساء، واهتزت ذوائب الثريات فوق رؤوس المدعوين الذين أخذوا يتجولون ضمن مزيجٍ لطيف: لوحات فسيفساء من المرمر، أبواب من الخشب المحفور، ألواح زجاجية ملونة، *مشربيات*... لقد حافظ هذا المنزل الذي أعدّ في الماضي ليسكن فيه الكونت سان موريس، أحد فرسان الخديوي إسماعيل، على مظهر ثراءٍ يفتقر إلى التنظيم، ولم يكن مناسباً لسفارة، إلاّ أنّ الجو العام فيه كان ساحراً.

دخل جدّي إلى الصالون الأول، فرأى عدداً من الممثلين يحيطون بجورج أبيض الذي يُعتبر الأب الروحي للمسرح المصري الجديد. قريب آل توتة هذا، والرئيس السابق لمحطة قطارات الإسكندرية، كان قد صعد إلى خشبة المسرح بفضل فرقةٍ من الهواة قبل أن يلفت نظر الخديوي عباس.

- هل صحيحٌ يا سيدي أنك قد عرضت مسرحية *عطيل* باللغة العربية؟ سألته ممثلةٌ شقراء.

ـ ليس *عطيل* فقط، يا آنستي! لقد قمنا أيضاً بإعداد *أوديب* لسوفوكليس *ولويس الحادي عشر* لكازيمير دولافيني...

لمح هنري غايار، السفير الفرنسي الجديد، جدّي في زاوية الواجهة الزجاجية فتقدم نحوه، وهو يقول لنفسه ربما الحديث مع ذلك السوري الماهر لا يخلو من الفائدة. فبصفته تاجراً ناجحاً، كان لدى جورج على الدوام ما يقدمه: معلومة جديدة، أو تعليقٌ طريف، أو اقتراحٌ، أو تحذير، أو مجرد نكتة من تلك *النكات* المحلية التي تقدم من الإيضاحات ما يفوق أي تقريرٍ قنصلي، والتي يجد المرء متعةً في إعادة روايتها بنفسه خلال جلسة عشاء.

خَلَف هنري غايار السفير السابق ألبير دو فرانس، قادماً من المغرب. وبفضل معرفته بالشرق وباللغة العربية، فقد حفظ مصر عن ظهر قلب، وعُزيت إليه بعض الطرق الملتوية في استقصاء المعلومات. ففي أحد الأيام، فاجأه جدي على سطيحة مقهى في الموسكي يتحدث مع رواد آخرين وهو يعتمر طربوشاً ويدخّن النارجيلة. وبدا أنّ محادثيه اعتقدوا بأنه بائعٌ عادي يوناني أو تونسي، فمظهره، بقامته القصيرة وكرشه، لم يكن يوحي بحقيقته كدبلوماسي. تظاهر جورج بأنه لم يره، إلاّ أنه لم يكن متأكداً من أنّ نظر الآخر لم يلتق بنظره.

بعد بضع مجاملاتٍ شرقية وبعض الخواطر الفنية المتعلقة بصلابة الواجهة الزجاجية، وجّه جورج المحادثة بمهارة نحو معاهدة سيفر:

ـ لا أستطيع أن أصدّق، سيدي السفير، بأنّ فرنسا سوف تصادق على نصٍ بهذه الخطورة.

ـ صـ...صـ...صحيح؟ أجاب هنري غايار الذي كثيراً ما اتُهم بأنه يتصنّع زيادة اللجلجة ليتسنى له المزيد من الوقت للتفكير.

لقد عرف تماماً ما يلمّح إليه محادثه. فسوريو مصر أصبحوا في مأزق بعد أن توجّب عليهم الاختيار بين جنسيتين: إما جنسية بلدهم الأصلي الخاضع للانتداب الفرنسي أو جنسية بلدهم المختار

الذي أصبح محميةً بريطانية. وفي الوقت الراهن، لم يكونوا واثقين من الحصول على أيٍّ منهما، إذ أنّ وضعهم أصبح أكثر غموضاً منه في أي وقتٍ مضى بعد الاحتلال البريطاني وتفكك الإمبراطورية العثمانية.

ـ وفقاً لمعاهدة سيفر، أوضح جورج، فإن كافة السوريين الذين استقروا في مصر قبل كانون الأول من العام 1914 سوف يعتبرون مصريين إذا لم يختاروا الجنسية السورية خلال اثني عشر شهراً. ولكن عليهم في الحالة الأخيرة أن يعودوا إلى بلدهم الأصلي ويحولوا إليه ممتلكاتهم.

ـ تـ... تـ... تماماً.

ـ أتدرك الأمر، سيدي السفير؟ يتم اعتبارنا مصريين بالقوة لمجرد أننا نعيش في مصر. أما أولئك الذين قد يختارون أن يكونوا سوريين، فالمهلة الممنوحة لهم قصيرةٌ بشكلٍ يثير السخرية. الخيار هنا واضح، فإما الرحيل مع ما يصاحبه من إفلاسٍ، أو البقاء مع التنكر للأصل.

ـ التنكر للأصل؟ قال غايار وقد توقّف فجأةً عن اللجلجة، ولماذا يا صاحِ؟ لقد كنتم حتى اليوم رعايا عثمانيين، منصهرين بشكلٍ ما مع المصريين. والآن نقترح عليكم أن تصبحوا مصريين حسب الأصول. أين المشكلة إذن؟

ـ المشكلة يا سيدي السفير أننا قد حافظنا على تقاليدنا وديننا، وعلى طابعٍ يتوافق مع تربيتنا وتاريخنا. لكنكم سوف تفرضون علينا جنسيةَ عرقٍ مغايرٍ لنا. ما الذي يضمن لنا أنّ يتوافق الدستور القادم لمصر المستقلة مع عاداتنا وأفكارنا؟

ـ بالمحصلة، أنتم تريدون جنسيةً سوريةً أو لبنانية...

ـ بلى، لكن مع البقاء في مصر.

ـ وأية مصلحة لكم، يا سيد بطركاني، في العيش في مصر بجنسيةٍ سوريةٍ أو لبنانية؟

فأجاب جدي دون مواربة بأنّ العديد من السوريين يرغبون في

التمتع بنظام الامتيازات الأجنبية الذي يتمتع به الأوروبيون، أي أن يعفوا من الضرائب، وأن يكون لهم قضاءٌ خاصٌ بهم.

ـ هذا مستحيل، يا سيد بطركاني، فالسلطات المصرية لن تقبل بهذا الأمر، لأنّ عددكم لا يتجاوز بضعة عشراتٍ من الآلاف. وعلى كلٍ، فإنّ مبدأ نظام الامتيازات أصبح موضع انتقادٍ متزايد. كما أنّ الإنكليز لا يطالبون بنظامٍ مماثل بالنسبة للفلسطينيين والعراقيين الذين هم في وضعٍ مشابهٍ لوضعكم.

ـ ولكن الإنكليز حمير، سيدي السفير! اعذرني على هذا التعبير. فقبل الحرب، كان من مصلحتهم أن يحولوا دون وضع السوريين في مصر تحت الحماية الفرنسية، وذلك كي يحافظوا على نفوذهم. أما اليوم، فالوضع مختلف، إذ أنهم أصبحوا مكلفين بحماية كافة رعايا الدول الأجنبية. بل على العكس، أليس من مصلحة بريطانيا العظمى زيادة عدد الأجانب كي تجد ذريعةً أقوى للتدخل في الإدارة المصرية؟

اضطر الديبلوماسي أن يعترف في سرّه بأنّ منطق محادثه متماسك؛ لكنه ربما تخيله ذاهباً مباشرةً إلى المندوب السامي البريطاني ليؤكد له، ويده على صدره، أنّ إنكلترا تستطيع الاعتماد على سوريي مصر، وأنهم سيحافظون دائماً على ولائهم التامّ لها... ألم يكونوا من أنصار إنكلترا بدافع المصلحة والضرورة رغم انجذابهم الطبيعي إلى فرنسا؟

ـ إذا طُبّقت معاهدة سيفر كما هي، لا سمح الله، تابع جدّي وهو يشدّد استنكاره، فستكون عواقبها وخيمة؛ والسوريون لن يغفروا أبداً لفرنسا، نصيرهم الطبيعي...

بدت نظرة غايار نظرةَ مريضٍ متألم عاجزٍ عن النطق، فقد صدمته بعض حجج محادثه. وبلعثمةٍ أخيرة، وعد جورج بطركاني أن يوصل ملاحظاته إلى وزارة الخارجية الفرنسية.

لم يكن ذاك الوعد كاذباً. فقد وجدتُ في أرشيف تلك الوزارة برقيةً بتاريخ الأول من تشرين الثاني لعام 1920 موجّهة من هنري

غايار إلى وزير خارجيته تتضمن عدداً من حجج جدي، وانتهت هذه البرقية بالملاحظة التالية: «السوريون هم أفضل مناصرينا في مصر».

في الواقع، فإنّ اتفاقية سيفر لم تطبّق أبداً لأسبابٍ تتجاوز شخوصنا المتواضعة. وسوف يتواصل الجدال حول الجنسية المصرية طوال سنوات.

5

نعم، كثيراً ما كان جورج يستشهد بأسلافه، لكن ما الذي عرفه بالضبط عنهم؟ لقد كان تاريخ آل بطركاني غائماً على الدوام، ولم يذهب أيٌّ منا إلى حلب أو دمشق ليبحث في وثائقها، رغم أنه لابد من وجود بعض الآثار لإقامتهم الطويلة في سوريا.

لا أقول الشيء نفسه عن آل توتة الذين استوطنوا في مصر منذ القرن الثامن عشر والذين نعرف عنهم الكثير بفضل كتابات ميشيل. فقد نشر عرّابي ثلاث مقالات قيّمة في مجلة *دفاتر التاريخ المصري*. ظهرت المقالة الأولى عام 1948، وكانت بعنوان: «أنطون توتة، موظف الجمارك في الرشيد». أما المقالتان الأخريان، فهما: «حنّا توتة، مملوك نابوليون»، و«بطرس توتة، طبيبٌ في عهد محمد علي»، وقد ظهرتا في ملزمةٍ واحدة في العام التالي؛ وسحبت من هذه المقالات نسخٌ عديدة. وقد كنا، صغاراً، نشعر ونحن نقرأ هذه المقالات بالمتعة ذاتها التي نشعر بها عندما نقرأ روايات الكونتيس دو سيغور، على الرغم من أن معنى بعض العبارات كان يغيب عنا تماماً.

كان آل توتة في القرن السابع عشر من كبار التجار في حلب، يستوردون الحرير من فارس ويصدرونه لتجارٍ أوروبيين. وشاءت مصادفات القدر ـ ومثابرة اليسوعيين أو الفرنسيسكان ـ أن يتحول أولئك المسيحيون الروم إلى المذهب الكاثوليكي. وقد أكسبتهم إجادتهم للّغة الفرنسية، وأحياناً للغةٍ أجنبيةٍ أخرى، وضع الوسطاء

المفضلين. وإذا كانت فرنسا قد أنعمت عليهم بنوعٍ من الحماية، فإنّ الحكام المحليين المستبدين، الذين لم يكن لديهم ما يخشونه من أولئك المواطنين من الدرجة الثانية، قد أسندوا إليهم مناصب هامة عن طيب خاطر.

في حوالى العام 1760، حزم قسمٌ من آل توتة أمتعتهم ورحلوا ليستقروا في صيدا، شمالي فلسطين. كان هذا الانتقال الذي قام به أولئك البرجوازيون المترسخون بشدة في مدينتهم مستغرباً، لكنه في الواقع لم يكن سوى تماشٍ مع انتقال مراكز التجارة، حيث تحوّل في ذلك الحين إنتاج وتصدير القطن والحرير إلى الساحل، واجتذبت أرض النعيم الجديدة تلك الحلبيين والدمشقيين بمقدار ما اجتذبت فلاّحي جبل لبنان.

هل كان سلفنا أنطون توتة يعيش في صيدا، أم أنه جزءٌ من فرع العائلة الذي بقي في حلب؟ معرفة ذلك مستحيلة. وعلى كل حال، فإنّ ذلك التاجر ذا القدم المشوهة كان أول شخصٍ من العائلة ترك سوريا عام 1740 ليستقر في دمياط بمصر.

لم يكن ذلك اغتراباً بمعنى الكلمة، كما يقول ميشيل، فمصر وسوريا كانتا حينذاك، كلتاهما، جزءاً من الإمبراطورية العثمانية؛ وبسهولةٍ كان يمكن الذهاب من صيدا وبيروت وصور وعكا إلى دمياط التي كانت في تلك الحقبة تقيم علاقاتٍ تجارية وثيقة للغاية مع الساحل السوري.

في ذلك الوقت، كانت دمياط مرفأً مزدهراً، المرفأ الأهم في مصر، وحلّ فيها مئاتٌ من الروم الكاثوليك بحثاً عن الثروة، وربما أيضاً عن السلام. لقد أصبحت حياتهم في سوريا لا تطاق، بعد أن أخذ الروم الأورثوذوكس يلاحقونهم بأسوأ ما تكون الملاحقة منذ أن انضمت كنيستهم رسمياً إلى الكرسي البابوي.

بدت دمياط بالمقارنة جنةً، تعيش فيها جاليةٌ مارونيةٌ صغيرة منذ بعض الوقت، ويمارس فيها الفرنسيسكان نشاطهم التبشيري تحت رعاية القوى الأوروبية. ولأنّ الروم الكاثوليك السوريين كانوا

يأتون دون رجال دين، فقد شاركوهم الكنيسةَ الوحيدة في دمياط، وأوكلوا لهم سجلاتهم الخاصة بالتعميد والزواج والوفيات.

أقام أنطون توتة بعض العلاقات مع البحارة الفرنسيين الذين كانوا يأتون إلى مصر لشراء الرز، وتمتلئ عنابر سفنهم بالأقمشة والملابس التي يريدون تصريفها خفيةً لحسابهم الخاص؛ فيشتري أنطون وتجارٌ آخرون من الروم الكاثوليك هذه البضائع دون ضرائب، ويبيعونها بسعرٍ جيد في الأسواق المصرية. وقد تدبّر أولئك التجار أمورهم بمهارة لإبعاد التجار الفرنسيين المحلّفين عن دمياط، كما أقاموا مع جدة تجارةً عبر البحر الأحمر، وكذلك مع ليفورنة بإيطاليا حيث كان بعض أقاربهم يعيشون...

حين وصل أنطون الأعرج إلى دمياط، كانت مراكز الجمارك المصرية ما تزال بيد اليهود. وبعد ثلاثين عاماً، أصبحت كافة الوظائف بيد الروم الكاثوليك، بعد معركةٍ حامية على النفوذ في المنطقة بأسرها بين اليهود والروم الكاثوليك والروم الأورثوذوكس.

في مصر، كان المركز الرئيسي هو منصب كبير موظفي الجمارك. فلم يكن حامله يسيطر على مرفأ القاهرة القديمة وحسب، بل إنّه كان أيضاً يسيطر عبره على كل مراكز الجمارك في مصر، ويؤمّن هذا المركز له حوالى ثلاثمئة ألف فرنك ذهباً في العام. وفي العام 1771، استحوذ الرومي الكاثوليكي يوسف بيطار على ذلك المنصب الذي يصبو إليه الجميع.

ينبغي الظنّ بأنّ علاقة سَلَفِنا أنطون بالرئيس الجديد للجمارك المصرية كانت جيدة. فإن كان لم يتمكن أبداً من الحصول على منصب دمياط، إلاّ أنّه حصل في مدينة الرشيد على منصب آخر أقل أهميةً، لكنه مربحٌ جداً مع ذلك: ثلاثون ألف فرنكٍ ذهباً في السنة، دون حساب الامتيازات الملحقة. كان الأمر يستحق رحيلاً جديداً...

6

الغريب أنّ دفتر مذكرات ميشيل لم يذكر شيئاً عن الكارثة التي حلّت بالعائلة في نهاية شهر كانون الثاني من العام 1921، ولا نجد فيه أية إشارةٍ لها إلاّ بعد بضعة أسابيع، بعد أن انتهى كل شيء. وأغلب الظن بأنه ما من أحدٍ سمع بالأمر عند حدوثه عدا جدي وجدتي.

فذات صباح، في حوالى العاشرة، دخل أندريه جذلاً إلى غرفة النوم المفروشة بالحرير الوردي والتي تشرف على الحديقة وقال:

ـ ماما، لديّ خبرٌ هام لك!

أجابت يولاند بهمهمةٍ غير مفهومة وهي جالسةٌ إلى طاولة زينتها، ونظرتها ضائعةٌ في المرآة، فالجيوب والتجاعيد التي بدأت تظهر تحت عينيها تشغل بالها، وكانت حينذاك تحاول إخفاءها بوساطة مسحوقٍ جديد من مستحضرات باتو.

ـ ماما، لقد قررت أن أصبح يسوعياً.

لم تحرك يولاند ساكناً.

ابتسم أندريه. كان منتشياً منذ أن قابل نائب رئيس رهبانية الإقليم.

ثم رآها تستدير ببطءٍ وهي متصلبةٌ مثل دمية عرض الملابس التي تدار على قاعدتها في محلاّت شيكوريل. انسابت دموعٌ سخية

على وجه يولاند، مغرقةً المسحوق البرتقالي الذي وضعته للتو، قبل أن تسأله بصوتٍ متهدج تخنقه العبرات:

ـ لكن لماذا *يا* حبيبي؟ لماذا؟ ألم تعد تحبنا؟

ذهل أندريه.

ـ اذهب حالاً وتحدث في الأمر مع والدك، تابعت أمه قائلةً وهي تبتلع دموعها. أسرع، فهو سوف يَسافر بعد قليل إلى الإسكندرية.

نزل أندريه إلى الطابق الأرضي وهو يتحرك كالآلة؛ لم يضطر حتّى إلى طرق الباب، فقد كان مفتوحاً على مصراعيه. كان جورج بطركاني يضع بعض الملفات في حقيبةٍ صغيرة وهو يصفّر.

ـ ادخل، *يا ابني*. وجهك لا يعجبني. ماذا بك؟

كانت المحادثة تنذر بأن تكون كارثية. ساورت أندريه الرغبة في أن يختلق عذراً ما وينسحب، لكنه تراجع عن ذلك بعد أن فكّر بأمه.

ـ على العكس، أموري ممتازة، قال بصوتٍ متماسك. لقد قررت الدخول في درب يسوع.

رفع جورج رأسه:

ـ هل تمزح؟

ـ كلا، يا بابا. كلّ شيء مرتب مع الأب...

انفجر جورج:

ـ أنا من يرتب الأمور هنا! لا يمكن لك أن تتخيل أنني سأترك ابني ـ ابني البكر! يتنكر بزي الكهنوت!

ـ الأمر يتعلق بتكريس الذات لخدمة الرب، يا أبي...

ـ اترك هذا الأمر لغيرك! لم تُخلق عائلتنا لتقدم قساوسةً للكنيسة، بل خلقت لإدارة الكنيسة. ويمكنك، إن نجحت في حياتك العملية، أن تدخل يوماً ما في إدارة جمعية الإحسان للروم الكاثوليك. وبانتظار ذلك، سوف تدرس الحقوق.

ـ ولكن يا بابا...

ـ انتهينا. انس هذه الفكرة السخيفة. وقل لسليمان أن يشغّل محرك السيارة، فقطاري ينطلق في الحادية عشرة والنصف وخمس دقائق.

أخبر أندريه السائق بالأمر، ثم صعد ليرى أمه التي بلبلته ردة فعلها. كانت يولاند جالسةً من جديد أمام طاولة زينتها تصلح الأضرار التي تسببت بها أزمة الدموع قبل قليل، ففضّل عدم إثارة اضطرابها ثانيةً، وخرج من الغرفة بعد أن وجّه لها عبر المرآة إشارةً بيده.

لطالما خشي أندريه والده، لكنه كان يشعر منذ بضعة أيام بأنه قادرٌ على مجابهة أيٍّ كان. سوف يصبح يسوعياً، كان الأمر مبرماً. لكن عليه مع ذلك أن يقنع به أمه وأن ينتزع موافقة أبيه، فالنائب الكهنوتي قد طلبها.

لا بد إذن من وسيط، لكن من يكون؟ ناندو؟ ماغي؟ هنري توتة؟ إنّ أياً من هؤلاء لن يفهم حججه. خوري الرعية؟ كان جورج بطركاني يزدري تماماً أولئك القساوسة الروم الكاثوليك، ويتهمهم بالجهل والكسل، لا بل بالسرقة؛ وبالتالي، فإن نتائج تدخلٍ من هذا النوع قد تكون وخيمة.

ولم لا يكون الوسيط هو البطرك ذاته؟ فهو صديقٌ للعائلة، كما أنه بنظر جورج يجسد السلطة.

انحنى أندريه ليلثم الخاتم البطريركي.

ـ أنا سعيد برؤيتك *يا* حبيبي، كيف حال بابا؟ وكيف حال ماما؟

كان خالي يمقت تلك الطريقة الشائعة في السلك الكهنوتي الشرقي، والمتمثلة في التكلم مع الشبان وكأنهم أطفال. لكنه أخفى مشاعره، وغمغم ببعض عبارات المجاملة، ثم جلس على الكرسي ذي الحواف المذهّبة الذي أشار له المونسينيور قاضي بالجلوس عليه. وقفت ذبابةٌ كبيرة على ركبته.

ـ يا صاحب الغبطة، لقد قررت أن أصبح قساً.

ـ يا له من خبرٍ سعيد! *ألف مبروك*! لا بد أنّ سرور بابا وماما كبير!

أخطأ أندريه حين لم يغتنم الفرصة، فقد كان مأخوذاً بذلك الصوت الشجيّ. تابع البطرك قائلاً:

ـ سأكتب اليوم بالذات إلى مسؤول المدرسة الإكليريكية في القدس، وسيستقبلونك فيها كملك.

ـ لكن، يا صاحب الغبطة، الموضوع هو أنني... أريد أن أكون يسوعياً.

ـ يسوعياً! أنت مجنون! من أوحى لك بهذه الفكرة السخيفة؟ يجب أن تبقى في كنف كنيستك!

لم يكن أندريه قد فكّر بهذا الجانب من المسألة إطلاقاً، وأجاب بعفويةٍ قائلاً:

ـ لكنني لا أنوي أن أترك كنيستنا. أريد أن أصبح يسوعياً وقساً روم كاثوليك.

ـ هذا لا وجود له! سوف يجعلونك تصبح من اللاتين.

تلعثم أندريه قليلاً، ثم أوضح بأنّ اليسوعيين لم يعودوا يريدون الظهور كجسم أجنبي في الشرق، وبأنه سوف يطلب البقاء في مذهبه وسينجح في ذلك، وإلاّ فإنه سوف يطلب أن يعود إليه بعد ترسيمه...

هزّ البطرك رأسه مبدياً تشككه، ثم قال:

ـ ألا تفهم أنّ كنيستنا مهددة بالزوال بسبب التحول إلى الطقس اللاتيني؟ لقد لاحقنا الروم الأورثوذوكس بشدة، غفر الله لهم، في سوريا في بداية القرن الماضي؛ ثم ذبحَنا المسلمون. أما اليوم، فقد جاء دور الكاثوليك الغربيين الذين يبذلون قصارى جهدهم للإقلال من شأننا. أنتم الشبان ترتادون المدارس الدينية الفرنسية؛ أنا أعترف بأنها مدارس جيدة، إلاّ أنّ كل القداسات التي تحضرونها فيها هي قداسات لاتينية، وقد أخذتم تنسون طقوسنا الجميلة. أصبحتم غرباء عن كنيستكم.

لم يجرؤ أندريه على مقاطعة البطرك الذي تزايد انفعاله مع استرساله في الحديث.

- ألا ترى بأنّ المبشرين الأوروبيين يحتقروننا؟ إنهم ينتقدون طقوسنا ويسخرون من ملابسنا، يعاملوننا كأننا نكرات. والمنشقون يلاحظون ذلك ويقولون في سرّهم: هذا ما ينتظرنا إن رضينا يوماً ما بالتوحد مع روما!

بحركةٍ خاطفة، طرد المونسينيور قاضي الذبابة التي أخذت تطنّ حول الصليب الذي يحمله على صدره، ثم تابع مونولوجه.

- في بداية القرن، كان على رأس الكنيسة الكاثوليكية البابا ليون الثالث عشر، السلام على روحه، وهو على الأقل فهِمنا. لكن لسوء الحظ، سمح خليفته بيوس العاشر للشرقيين بالعمادة حسب الطقس اللاتيني. يا لها من غلطة! أي نصرٍ كان للمبشرين الأوروبيين! ثم تأتي أنت، سليل آل بطركاني، واحدٌ منا، وتريد الانتقال إلى المعسكر الآخر، تريد أن تصبح يسوعياً!

أجاب أندريه بمشقة، وبحنجرةٍ جافة:

- أنا أفهم ما يشغلك جيداً، يا صاحب الغبطة. لكنني متأكد من أنني سأكون قادراً على خدمة كنيستنا وأنا يسوعي. سترى، أعدك بذلك...

وقفت الذبابة على كم البطريرك الذي أغلق عينيه هنيهةً ثم قال بصوتٍ متعَب:

- افعل ما أنت مقتنعٌ به، *يا ابني*. باركك الله!

بعد خروجه من البطركية، شعر أندريه بأنه تخفف من همومه؛ لكنه أدرك بعد بضع خطواتٍ بأنّه لم يتطرّق إلى الهدف من زيارته.

21 شباط، 1921

أصبح لفظ اسم أندريه ممنوعاً أثناء الطعام، فبابا ينفجر ما إن

يسمع أية إشارةٍ لابنه البكر، مهما كانت هذه الإشارة بسيطة. ومنذ بضعة أيام، قال بطريقةٍ تعمّد أن تكون استفزازية: «إنه ليس ابني. لقد شطبت عليه» فأخذت ماما تبكي.

أصبح جو البيت خانقاً. وزاد في الطنبور نغماً اتصال الأب المدير، فقد اتهمه بابا بإغواء قاصر؛ وأحسست في المدرسة بأنّ العديد من الطلاّب ينظرون إليّ بطريقةٍ غريبة.

26 شباط، 1921

على الأقل، يمكن القول بأنّ غيومار قد قامت بعملٍ ذكيٍّ واحدٍ في حياتها: فقد انتزعت من البريد البارحة رسالةً من أندريه وأعطتها مباشرةً لماما، إذ كانت تعلم بأنّ بابا سيرميها في سلة المهملات دون أن يفتحها. في الرسالة، يطلب الأخ الصغير من والديه أن يسامحاه على الألم الذي تسبب به لهما؛ إلاّ أنّه لا يرجع إطلاقاً عن قراره.

15 آذار، 1921

بدأت تتكشّف شيئاً فشيئاً الطريقة التي خرج بها أندريه من مصر. إذ يبدو بأنّ الآباء قد وفروا له ثوباً كهنوتياً وجواز سفر. وبعد أربع ساعاتٍ فقط من مغادرته للقاهرة، أصبح على ظهر مركب. وحتى لو أننا أخبرنا الشرطة، لما استطاعت منعه من الصعود إلى المركب في الوقت المناسب.

كان ميشيل أكثر حساسيةً من أن يبقى لا مبالياً بالمأساة التي هزت كيان الأسرة. لم يعد يعرف أين يضع نفسه بين أمه الباكية وأبيه الذي أخرسه الغضب. وحفلت لياليه بالكوابيس الغريبة، التي يرى فيها أندريه خائناً تارة، وضحيةً تارةً أخرى.

ذات ليلة، حلم بأنّ السلطان حسين طالب به على سرير الموت، وقال بصوتٍ هدّه المرض:

ـ اسألوا اليسوعيين أو من تريدون عنه، لكن اعثروا لي على

هذا الصبي. إنّ أحداً لم يقرأ أبداً حكايات لافونتين أمامي بالطريقة التي قرأها هو بها. لا، ولا حتى أستاذي، مسيو جاكوليه، الذي علّمني مع ذلك أربعين من حكاياته.

فيذهب كبير أمناء القصر، ذو الفقار باشا، بنفسه إلى الثانوية ليسأل عن اسم وعنوان النابغة الصغير، ثم يدقّ باب آل بطركاني بعنف فيصطدم بأندريه، في حين تطلق الآنسة غيومار صراخاً هستريا...

7

في مطلع خريف عام 1922، أي بعد حوالى عامين من هروب أندريه، رافقت فرانسواز ديلليم زوجها إلى القاهرة. كانت تلك أول مرة تطأ فيها تلك الفلاماندية، الشاحبة البشرة وذات الوجه المكفهر، أرضاً أفريقية، فوجدت الطقس معتدلاً زيادةً عن اللزوم، والشارع في غاية الاكتظاظ، والنيل بالغ العرض؛ وحتّى الطعام في الشيبرد وجدته مبهّراً أكثر مما ينبغي...

- إنّ الروائح في الموسكي، حيث أصرّ إدوار على اصطحابي هذا الصباح، لا تطاق، قالت لجدتي التي وضعت لاستقبالها الأطباق الصغيرة داخل الأطباق الكبيرة.

هزت الآنسة غيومار رأسها للدلالة على موافقتها، فهي من جهتها ليست مجنونة لتختلط بالعرب في الموسكي...

كانت فرانسواز ديلليم تعطي انطباعاً بأنها تهزأ باستمرار، وتعبّر عن استياءٍ ظاهر، وتجهَد لتكذيب أية عبارةٍ ينطق بها زوجها.

أما إدوار ديلليم الذي كانت تلك زيارته الثالثة لمصر، فقد استمر في النظر إليها بعينين مبهورتين. زيارته الأولى في أيار 1916 كانت استطلاعية؛ وهدفت الثانية، في كانون الثاني من العام 1919، إلى إنشاء معمل الطرابيش. أما زيارته الثالثة هذه، فكانت للسياحة بشكلٍ خاص، لكن وجود زوجته عكّرها كثيراً.

فالذهاب خارج القاهرة لم يكن وارداً بالنسبة لفرانسواز ديلليم التي بالكاد رضيت أن تذهب إلى الهرم الأكبر لتلقي عليه مجرّد نظرةٍ خاطفة، ولم تقبل بزيارة أراضي جدي في منطقة الدلتا لأن طرقاتها لم تكن معبدة جيداً.

ـ سنذهب في المرة القادمة، حين تكون وحدك، همس جورج لإدوار. احرص على المجيء خلال موسم قطاف القطن.

وليزداد الطين بلّة، كانت القاهرة تزيل منذ اليوم السابق ماخلّفته *الخماسين*. فرياح الصحراء الجافة والحارة تلك محمّلةٌ بغبارٍ ناعمٍ يدخل من أصغر الشقوق ويعكر صفاء السماء ويعيق التنفس.

قالت يولاند بفصاحة العارف، في محاولةٍ لبدء حديثٍ مع الفرنسية:

ـ *الخماسين* تعني بالعربية خمسين.

ـ لماذا خمسين؟

فأجابت جدتي التي لم يسبق لها أن طرحت على نفسها ذلك السؤال أبداً قائلةً دون تفكير:

ـ لأنّ هذه الرياح تدوم خمسين يوماً.

ـ لا، أبداً، قال جورج، إنها لا تدوم أكثر من ثلاثة أو أربعة أيامٍ متتالية، لكنها تدعى *بالخماسين* لأنها تهبّ بسرعة خمسين كيلومتراً في الساعة.

ـ على الإطلاق! اعترض هنري توتة، *Errare humanum est!*(*) فاسم *خماسين* يعود إلى أنّ هذه الريح تحتوي على ما نسبته خمسون بالمئة من الرمال.

ـ خمسون بالمئة؟ لكن هذه نسبةٌ ربوية، *يا كونت*، قال ناندو وهو ينفجر بضحكةٍ لا نهائية.

(*) أي: الخطأ من صفات البشر. م.

رمقت فرانسواز ديلليم مذعورةً بطرف عينها ذلك العملاق الذي يزن مئة وعشرة كيلوغرامات والذي تهتزّ لصوته كؤوس الكريستال.

بنفس القدر من الثقة، قُدّم تفسيران آخران لأصل *الخماسين*، وحمي النقاش، وتعالى الصياح. تساءل إدوار ديلليم كيف يمكن لأشخاصٍ شديدي الدقة في مجال الأعمال أن يفتقروا إلى الدقة لهذا الحد فيما يتعلق ببيئتهم اليومية. أما هو، فقد قرأ تعريفاً *للخماسين* في توراته الخاصة، دليل بيدكير: فتلك الرياح كثيراً ما تهبّ خلال الأيام الخمسين التي تحيط بالاعتدال. ألم يبق للاعتدال الخريفي ثلاثة أسابيع؟ وآخذ الفرنسي نفسه لأنه لم يحدد لرحلته موعداً آخر.

وقف رشيد *السفرجي* بصبرٍ خلف فرانسواز ديلليم وهو يحمل وعاء الحساء. وسألتها يولاند:

ـ هل تودين تناول المزيد من *الكبيبة*؟

ـ لا، شكراً، أجابت الفرنسية ببرود؛ كانت منزعجةً لأنّ زوجها سكب ثانيةً في صحنه، وأخذ يشرُق بنهمٍ تلك الصلصة البيضاء التي تميل للحموضة، والتي تسبح فيها كراتٌ صغيرةٌ من اللحم المحشو بشيءٍ لم تعرف تماماً ما هو.

على طرف الطاولة الضخمة، جلس ثلاثةٌ من أخوالي: ميشيل وبول وألكس، مع أبناء عمهم. وكانت لولا الصغيرة نائمةً بصحبة دميتيها: ألزاس ولورين. أما فيفيان التي لم يكن عمرها حينذاك قد تجاوز اثني عشر يوماً، فلم تظهر إلاّ في نهاية وجبة الغداء.

ـ ألكس، اجلس جيداً! كان جورج يهتف بين حينٍ وآخر، وهو يقطّب جبينه. فتهمس يولاند شيئاً في أذن ابنها الرابع البالغ من العمر أحد عشر عاماً والذي أجلسته على يسارها، وكانوا جميعاً يعتبرونه ابنها المفضل. لكنه كان يتراخى من جديد بعد دقيقةٍ واحدة، كأن شيئاً لم يكن. اليسوعيون أنفسهم لم يتمكنوا من أن يعقّلوه، رغم أنّهم فرضوا عليه عقوباتٍ من كافة الأصناف.

بين حينٍ وآخر، كانت نظرات فرانسواز ديلليم تتوقف على إدمون توتة الذي أجلسوه مقابلها؛ وجدته شخصيةً غريبةً، بشعره

الأشعث وربطة عنقه العريضة ذات اللون الخبازي. كان إدمون يلوك اللحم بصمتٍ، شارداً تماماً. وعلى غير توقعٍ منها، توجه إليها قائلاً بصوتٍ محموم:

ـ هل تعلمين يا سيدتي بأن مصر تعدّ اليوم ثلاثة عشر مليوناً من السكان؟ هذا يعني أربعة أضعاف عدد سكانها أيام بونابرت! هذا مخيف، أليس كذلك؟

جفف إدمون توتة جبينه بفوطته، وكأن تلك الكتلة البشرية تخنقه شخصياً. ثم عاد للارتحال بأفكاره، عاد إلى شروده، فاستنتجت الفرنسية بأنّ أولئك الشرقيين كلّهم مجانين...

بين *الكبيبة والكنافة*، انزلق الحديث نحو الطرابيش، فالمعمل كان مايزال خاسراً بعد مضيّ ثلاث سنوات على انطلاقه، ولم يتمكن من انتزاع مكانٍ له في السوق بين المصانع الإيطالية والتشيكية التي حصلت على سبقٍ حاسم غداة الحرب. كان جورج بالكاد يبيع سبعة آلاف طربوشٍ في السنة. وقد أدرك أنّ خفض الأسعار واستمالة مسؤولي المبيعات في المخازن الكبرى مثل شيكوريل وأوروزدي باك وصيدناوي لا يكفيان، إذ أنّ نوعية البضاعة نفسها كانت مثار جدل: فصباغ طرابيش بطركاني كان قليل الثبات، كما أنّ اللباد يميل للانسلال؛ وقد اشتكى العديد من تجار المفرق في القاهرة والإسكندرية من ذلك الأمر، مما اضطر المعمل لاستبدال الكميات المعيبة مجاناً.

ـ قلت لك بأنّ مصر ليست مناسِبة للصناعة. كان جدي يقول لإدوار ديلليم في لحظات قنوطه.

إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من النضال في سبيل إقرار إجراءاتٍ للحماية ضمن اتحادٍ صغيرٍ للصناعيين أنشئ في القاهرة مؤخراً.

حين قُدّمت *الكنافة*، انسلّت غيومار خلسةً من غرفة الطعام وعادت بعد دقائق وبين ذراعيها دميةٌ سمراء استقبلت بهتافٍ جماعي؛ بل إنّ فرانسواز ديلليم نفسها خرجت عن صمتها وأصدرت سلسلةً من المواءات للمناسبة. كانت عينا فيفيان خضراوين...

قبل اثني عشر يوماً، استدعت ماغي السيدة رَطْل على وجه السرعة بعد أن بدأت آلام الولادة عند أختها. كانت الساعة الثامنة مساءً، و*الداية* تحضر نفسها للخروج، فوصلت بلباس السهرة. نزعت قفازاتها ووضعت عليها مئزراً، وطلبت ماءاً ساخناً، ثمّ باشرت عملها فوراً.

منذ سنوات والسيدة رطل تولّد كل نساء شبرا. كانت أشبه بجريدةٍ متنقلة، تروي أخبار الولادات في العائلات الأخرى، وحوادث الحمل، وإدرار الحليب، وتشيع في تلك الأثناء بعض النمائم خارج إطار الأمراض النسائية. لم يكن أحدٌ يجادل بأمر جدارتها كمولّدة التي اكتسبتها من عمتها الشهيرة أم يوسف والتي أخذت مكانها عام 1912.

كان الطفل يتقدّم متوضّعاً بشكلٍ جيد، ولم تكفّ *الداية* عن الحديث مع يولاند بالعربية وهي تقوم بتخليص الرأس قائلةً:

- هيا، يا حبيبتي... كمان، يا قلبي... أيوه، أيوه!

وأخيراً، خلّصت السيدة رطل الطفل بالكامل، ورأت ماغي وجهها يكمد فجأةً، إذ كان المولود بنتاً. هنّأت أختها بلهجةٍ أرادتها مرحة، إلاّ أنها بدت مصطنعة.

- *مبروك* يا حبيبتي. إنّها أميرةٌ حقيقية!

نزعت السيدة رطل مئزرها وغسلت يديها بوجهٍ عابس. فأجرها يكون عادياً حين تولد أنثى، بينما تغمرها الهدايا لولادة الذكر.

- مسكين جورج! قالت يولاند أخيراً وعيناها مليئتان بالدموع.

لقد سبق لها أن أنجبت لزوجها ثلاثة صبيان دون أن تلتقط أنفاسها، ثم صبياً رابعاً هو شارل الذي توفّي صغيراً جداً بسبب إصابته بذات الجنب. وجاء ألكس بعد فاصلٍ طويل. وحين أتت لولا بعد عدة سنوات، اعتبرها جورج حادثاً لطيفاً من حوادث الطبيعة. أما أن تأتي له زوجته ببنتٍ ثانية بعد أن سلبه اليسوعيون ابنه البكر...

بشجاعة، خرجت ماغي من الغرفة لتبلغ صهرها بالخبر السيئ. كانت تعرفه جيداً، حتى إنها لم تحاول أن تقوم بأية مواربات غير مجدية.

ـ إنها بنت يا جورج، ويولا بصحةٍ جيدة.

شحب وجه جورج، واستدار على عقبيه دون أن ينبس ببنت شفة.

لم يذهب جدي لرؤية جدتي إلاّ بعد ساعةٍ كاملة، حيث قدّم لها علبةً صغيرةً تحتوي على خاتم ذي حجرٍ كريم منقوش اشتراه قبل يومين من صائغ ساحة الأوبرا. وبابتسامةٍ متشنّجة ألقى على الطفلة نظرةً عابرة، ثم اعتكف في غرفة المكتب حتى موعد العشاء.

لم يطأ جورج بطركاني أرض المكتب أو المعمل لثلاثة أيامٍ متتالية. وحين أبدت ماغي دهشتها لذلك، قال لها وهو معتكرٌ المزاج:

ـ بنتٌ أخرى! كيف سأبدو أمام الموظفين؟

ضاعفت فرانسواز ديلليم مواءها، فقد كانت الآنسة غيومار تقوم بدورتها الثالثة حول المائدة وهي تحمل فيفيان بين ذراعيها.

ـ حسناً، حسناً، هذا يكفي، يمكنك أن تعيديها إلى السرير، قال جورج مغتاظاً. لن نقوم بعرضها!

في دفتر مذكراته، كتب ميشيل بالتفصيل عن غداء يوم الأحد ذاك، ذاكراً فيه، ضمن أشياء أخرى، أنّ ماغي توتة كانت تقهقه لكلّ دعابةٍ من دعابات إدوار، ولا بد أنّ ذلك قد زاد من غيظ الفلاماندية اللطيفة...

في ذلك العام، بدأ ميشيل دراسته الجامعية في الآداب والتاريخ. وكان شاباً نحيلاً، نباتياً تقريباً، ومنغمساً في الكتب، مما أثار أسف عمه ناندو. وبين حينٍ وآخر، كان يذهب إلى مكتب أبيه في ساحة الأوبرا، إلاّ أنّ تلك الزيارات كانت ودّية ولا علاقة لها بالنشاط الذي

يُمارَس فيه. كان عرّابي يمضي هناك معظم أوقاته على الشرفة، سابحاً في الخيال. وحين يعود إلى البيت، كان يحاول التقرب من ربّات الشعر أو يسوّد صفحةً في دفتر مذكراته.

هاأنا أنقل من دفتره الثاني هذه السطور المؤرخة في الأول من آذار 1922:

أصبحت مصر مستقلّةً اعتباراً من هذا اليوم. اتخذ السلطان فؤاد لقب ملك، وضَمِن له الإنكليز بصورةٍ رسمية خلافة ابنه فاروق له حين يؤون الأوان. يقال بأنّ العلم الأحمر سوف يستبدل بعلمٍ أخضر تنقش عليه هو الآخر ثلاث نجماتٍ بيضاء وهلالٌ أبيض.

أبي، الذي يتمتع بمزاجٍ أفضل قليلاً منذ بعض الوقت، يسخر من التبدلات الحاصلة؛ فالبارحةَ قال ونحن على مائدة الطعام: «خلال قرنٍ من الزمان، كان لمصر أولاً نواب ملك، ثم خديويون، ثم سلطان، ثم سلطانٌ أصبح ملكاً. لم يبقَ سوى أن يحكمها إمبراطور، وذلك بانتظار مجيء فرعون. وكل تلك التغيرات لم تبدّل من الواقع شيئاً: فالإنكليز هم الذين يديرون البلاد».

القسم الثالث

الكاتدرائية الكاثوليكية في هليوبوليس

1

لم أقل شيئاً حتى الآن عن عائلة أبي؛ ربما لأنّه ليس هناك الكثير مما يمكن قوله عنها... فمن جهة آل يارد، لم يوجد أي مثيلٍ لميشيل يمتلك مزاج مؤرّخ ليهتمّ بشجرة عائلتنا. وحتى لو وجد، فهل كان سيجمع شيئاً ذا قيمة؟

حين تيتّمت ميما، جدتي لأبي، في الثامنة من عمرها، آوتها راهبات الراعي الصالح في شبرا، وبذلن كل جهدٍ ممكن كي يغرسن فيها السلوك الحسن والورَع. إلاّ أنّ الفتاة الصغيرة الحلوة - فهي كانت توصف منذ ذلك العمر المبكر بأنها «جميلةٌ كالقمر» - وذات الطباع الوحشية بدت عصيةً على الترويض. كان صوت ركضها المجنون في ممرات الدير ورنين ضحكتها البلورية يدوّيان في عالم الشمع والنواصات والوشوشات ذاك.

لكنّها على الأقل تعلمت الفرنسية كما يجب. وحين بلغت السادسة عشرة من عمرها، أخذت بتكوينها البديع وحيويتها وسرعة بديهتها تدير رؤوس الرجال القلائل الذين سنحت لهم فرصة الالتقاء بها في شبرا.

وفي أحد الشعانين عام 1914، وقعت ميما تماماً بين ذراعيّ خليل يارد. فقد تعثرت قدمها بإحدى الدرجات على مدخل كنيسة سان مارك، وتلقاها بين ذراعيه شابٌ رياضيّ الجسم يرتدي بزّةً بيضاء وهو يبتسم. اعتذرت ميما بارتباكٍ وقد تضرّج وجهها

بالحمرة. وحسبما تقول الرواية العائلية، فإنّ خليلاً قد احتفظ بها بين ذراعيه لثلاث ثوانٍ طويلة قبل أن يسألها:

ـ ما رأيكِ أن نتزوج في السادس من أيلول القادم؟ سيكون يوم أحد.

بعد عشر سنوات، كانت ميما ما تزال مغرمةً بجنون بذلك الرجل الشبيه بالإعصار الذي كان يبادلها المشاعر بمثلها، فكانا يلتهمان بعضهما بالنظرات علناً، ويمسك أحدهما بيد الآخر خلسةً، ويتلامسان وهما يطلقان ضحكاتٍ خافتةً خفية... وكلما عاد خليل من إحدى سفراته إلى الريف، كان الزوجان يُرتِجان على نفسيهما باب غرفة النوم بقفلٍ مزدوج، ولا يخرجان منها إلاّ بعد يومين وقد أنهكهما الغرام، والبِشر يطفح منهما، في حين تهتم الخادمتان بالأطفال.

كان جدّي لأبي الذي تزوج في السادسة والعشرين من عمره ابن تاجر قماشٍ متواضع يحمل بقجته على كتفه ويتجول من بيتٍ إلى بيت. وهكذا، وجد جدّي نفسه في خضمّ هذا العالم دون تعليمٍ ولا مال، وليس بحوزته سوى شهيةٍ جارفة للحياة.

أوشك خليل يارد، وكان مقاولاً صغيراً في مجال البناء، على بيع ملابسه خلال أزمة 1907 الكبيرة، لكنه يدين بخلاصه للعناية الإلهية، أو ربما لمرونة طبعه، أو لقدرته المدهشة على التواصل مع أيٍّ كان وأَسْره على الفور بمرحه وصحته المتدفقة.

وهكذا، اكتسب خليل تعاطف حبيب عيروط، وهو مهندسٌ ينتمي إلى طائفة الروم الكاثوليك كان المتعهد المفضل لدى المهندس إدوار أمبان. وبفضله، تمكن خليل في العام 1912 من انتزاع عقدٍ لبناء ثماني شقق صغيرة في هليوبوليس. وتتابعت العروض، فقد أخذت المدينة الجديدة تنبثق من الرمال تباعاً.

في بداية القرن، طلب البارون إدوار أمبان من مهندسٍ معماريٍّ شهير أن يرافقه على ظهر حصان إلى الصحراء، قرب طريق

السويس القديم. ولدى وصولهما، صعد الاثنان إلى أعلى هضبةٍ صغيرة يعصف بها هواءٌ جافٌ.

- سأنشئ مدينةً هنا، قال الصناعيّ البلجيكيّ بتصميم أدهش محادثه. سأسميها هليوبوليس، أي مدينة الشمس. لكنني قبل كلّ شيءٍ سوف أبني فيها فندقاً، فندقاً هائلاً...

وفي العام 1905، اشترى البارون أمبان من الحكومة ستة آلاف فدانٍ من الصحراء في تلك الهضبة القاحلة، فوُصف بالمجنون. فمن سيُقدم على نفي نفسه على بُعد عشرة كيلومترات إلى الشمال الشرقي من القاهرة، حتى لو كان ذلك بحجة الهواء النقي والإيجارات المنخفضة؟ هل سيكفي وجود قطارٍ كهربائي يصل بين هليوبوليس والعاصمة لاجتذاب الناس؟

تجاهل أمبان الاستخفاف والتهكم، واستثمر مبالغ طائلة؛ فنُقلت المعدات والتربة الزراعية على ظهر الحمير أو الجِمال، وأخذ جيشٌ من المهندسين المدنيين والمعماريين ومن المفتشين الأوروبيين يذرع الصحراء لإنشاء مدينةٍ - حديقة، مدينةٍ نموذجية، فريدةٍ من نوعها في العالم، تزاوِج بين الشرق والغرب.

قامت شركة واحات هليوبوليس بعملها وكأنها بلدية، فتولّت شؤون الأمن العام وكنس الشوارع أيضاً، وأنشأت مصانع خاصة بها لصنع الطوب، وأمّنت المواد بنفسها للمقاولين الذين التزموا بصرامةٍ بالمخططات المدروسة بأدق التفاصيل. والويل للمتأخرين! فالغرامات كانت تنهمر عليهم كالمطر.

تأقلم خليل بشكلٍ كامل مع تلك المعوقات، فبالعصا قاد عماله الذين كان يشغّلهم مقابل قروشٍ معدودات ويستطيع طردهم في أية لحظة. وعاماً بعد عام، صار حسابه في المصرف يتحسّن.

- سوف ترين، يا يمامتي، كان يقول لميما وهو يضمها بقوةٍ بين ذراعيه. سأبني لك دارةً رائعة، على بعد خطوتين من الكاتدرائية.

حين وصل خليل يارد إلى هليوبوليس عام 1912، كانت تعدّ حوالى ألف نسمة، وكانت التشطيبات النهائية تُجرى للكاتدرائية

البيضاء، النسخة المصغّرة عن كنيسة القديسة صوفي في القسطنطينية. كاتدرائية في وسط مدينةٍ مسلمة! لم يبدُ أن أحداً يستغرب ذلك.

أصبح فندق هليوبوليس بالاس حديث الناس، بما يحتويه من مصاعد عملاقة وطاولات بلياردو وحمامات، وبسطيحته البانورامية التي تبدو منها الأهرامات عن بعد. كان مضمار سباق الخيل يجتذب المراهنين القاهريين كلّ يوم أحد، في حين كان بإمكان مدينة الملاهي *لونا بارك* أن تتباهى بأنها الأضخم في الشرق الأوسط.

الحقيقة أن كل شيءٍ هناك كان كبيراً، بدءاً من الشوارع. فجادة عباس مثلاً التي تحف بها القناطر يبلغ عرضها أكثر من ثلاثين متراً. أما جادة القصور فضعف ذلك على الأقل، ويشرف عليها بناءٌ مذهلٌ هندوسي الطراز؛ وتصب سبعة شوارع في ساحة الكاتدرائية؛ وفي كل مكان كانت الخضرة الوارفة تستخف بالصحراء، وتتنوع بين الخطمية والجاراكونداس والكازاريناس المزروعة على طول الشوارع، وبين شجيرات زهر العسل والعصيفرة والجهنمية المتسلقة على الجدران الواطئة.

استهوت خليلاً تلك المدينة ذات اللون الأصفر الفاتح - وهو اللون الذي حددته الشركة - التي لم تكن تتبع أي دليلٍ معماري، أو أيّ أسلوبٍ متجانس. كانت الأبنية على الطراز الأوروبي، لكنها مزينة بكلِّ أنواع الديكورات الشرقية: مآذن، قبب، *مشربيات* موضوعة بشكلٍ غير مألوف على الشرفات... كان المتزمّتون يحتجون صارخين بأعلى أصواتهم، أما خليل، فكان مترعاً بالحماس.

كل أسبوع، كان يستقل القطار الجديد في جسر ليمون ثلاث أو أربع مرات، ليتفقد عمال ورشته. كان يتركهم بعد ساعة تحت إشراف مراقب، ويبتعد وحيداً باتجاه الشمس الغاربة، فيصعد بحذاءٍ مغبرّ، وقلبٍ مفعمٍ بألف مشروعٍ ومشروع، على تلٍ صغير يستخدمه كمرصد، مرسلاً نظرات عاشقٍ إلى تلك الواحة الفتية التي سيزرع يوماً ما منزله فيها.

ولم يكن وارداً لديه أن يتبنى أحد نماذج الشركة، فقد كان ينوي بناء دارةٍ بمقاييسه، أفضل تصميماً بكثير، وكانت المخططات جاهزةً تقريباً.

ـ سترين، يا جميلتي، كان يقول لميما. ستكون لنا غرفة نومٍ ملكية، يصفرّ حسداً لرؤيتها آل سكاكيني وآل تقلا مجتمعين.

في كل عام، كان خليل يصحب عائلته إلى رأس البر، حيث كان لديه ورشةٌ هناك أيضاً. وكانت فكرة قيامه بأعمالٍ أثناء العطلة تبعث الفرح في نفسه: فالعمل والتسلية بالنسبة له متوازيان، تماماً مثل الزواج والمتعة. وكان يفسّر الأمر لميما بقوله:

ـ إن ما أحبه في رأس البر هو أننا في كل عام نمحو كل شيء ونبدأ من جديد.

هناك قسمٌ من شبه الجزيرة محصور بين النيل والبحر المتوسط تغمره الأمواج لعدة أشهرٍ سنوياً. يفكك الموقع في شهرِ تشرين الأول ويعاد بناؤه في أيار التالي. كانت الأكواخ بيوتاً حقيقية مشيدة على أعمدة، لها سقف ودرج وشرفة وكابينة على الشاطئ، وتقام وفقاً لرغبات المستأجر. ومقابل عشرين جنيهاً في الموسم كله، كان يتاح للمرء التمتع بسكنٍ مريح، لا ينقصه شيءٌ سوى البياضات والفضيات التي عليه أن يحضرها معه.

كانت الأكواخ ترتّب على ستة أنساق، تفصل بينها شوارع عريضة منارةٌ ليلاً. تطلّ الفنادق والكازينو والنادي والصيدلية الحكومية على شارع النيل. وفي الصف الثاني، توجد المقاهي ومكاتب البريد والبرق؛ وخلفها السوق، ثمّ الأحياء السكنية. كانت بعض القوارب ـ الصهاريج تجلب ماء الشرب. لكن اعتباراً من شهر آب، ومع فتح سد فاراسكور، كان البحر يتراجع ويستعيد النيل عذوبة مائه. حينذاك، كان الماء يستخرج من الموقع نفسه، حيث يصفّى في زيرٍ ويُغلى لمزيدٍ من الحيطة.

في رأس البر، كان الأطفال يتقافزون طوال النهار بين

الصخور والرمل والحصى. أما خليل، فيذهب للتنزه في جلابيةٍ مقلمة حافي القدمين، وعلى رأسه قبعةٌ من القش عريضة الحواف. كان ذلك يسلّي ميما، لكنها كانت تفضله بلباس البحر الأسود الذي يبرز شكل صدره الرياضي.

وفي المساء، يرتدي خليل طقماً أبيض ويصطحب زوجته ومجموعةً كاملة من الأصدقاء إلى فندق مارين، حيث تعزف الفرقة الموسيقية رباعياتٍ شديدة الحيوية، ويتبع عشراتٌ من الأزواج بانتظامٍ سلسلة الحركات التي يعلن عنها خليل بصوته الغنائي:

- إلى الأمام، أربعة... انحنوا للتحية... بدّلوا مراقِصتكم...

وينتقل الراقصون من الرباعيات إلى رقصة البوستون، ومنها إلى البوستون المزدوج...

في الخامس عشر من تشرين الثاني لعام 1924، كانت ميما تنتظر في القاهرة عودة زوجها الذي ذهب لاستكمال مشروعٍ جديدٍ في رأس البر مع أحد أخوته. قاربت الساعة منتصف الليل وخليل لم يعد. أوشكت الشابة أن تفقد صبرها، وكانت قد أوكلت أمر الأولاد إلى الخادمات منذ المغرب تقريباً، واتفقت معهن على وجبات ونزهات اليومين التاليين. سيكونان يومين من الحب والضحكات المجنونة.

سوف تقدّم لهما فتحية الإفطار في السرير بعد أن تشتري الحليب من راعٍ على بُعد خطوتين من البيت كان يظهر من خفايا الفجّالة، حاملاً تحت إبطه عجلاً صغيراً محنطاً محشواً بالقش لم يكن يفارقه أبداً، متبوعاً بعنزاته التي تملأ الشارع بثغائها. كان الراعي يحلبهنّ في عرض الطريق، فتمد له الخادمة القِدْر بغنجٍ، وتصعد إلى الشقة لتغلي الحليب على موقدٍ من الكاز «بريموس» يصمّ الآذان، ثم تجمع منه القشدة بعناية مقدّمةً نصفها للأولاد، والنصف الآخر *للخواجة* الذي تكاد فتحية لا تجرؤ على النظر إلى صدره العاري عندما تدخل إلى غرفة النوم...

تجاوزِ الوقت منتصف الليل بنصف ساعة، وقررت ميما أن تنتظر خليلاً في سريرها. عرفت أنها سوف تغفو؛ فليكن. على أي حال، فإنّ أحد مباهجها يتمثل في أن توقظها مداعبات ذلك العقريت الذي بدأ شوقها له يفوق الوصف منذ أن غادر قبل ثلاثة أيام...

أيقظها فجأةً صراخ فتحية التي أخذت تدق الباب بعنف. كانت الشمس تغمر الحجرة... لا بدّ أنّ الساعة بلغت الثامنة صباحاً.

بتكشيرة ألم وعينين جاحظتين، كانت الخادمتان تشدّان شعرهما، وقد وقفَ في الباب خلفهما شقيق خليل؛ ففهمت ميما بأنّ مصيبةً ما قد حلّت.

كان عائداً إلى القاهرة بصحبة شقيقه عندما تباطأ سير القطارِ فجأةً في *وسطة* وسُمع صرير كوابحه قبل أن يصدم بشدةٍ قافلةً ضلّت طريقها. نجا الشقيق ببعض الرضوض، أما خليل فقد انقذف بقوة وارتطم بالمقعد المقابل له...

ـ مات على الفور، همس الشقيق قائلاً وهو يكاد لا يجرؤ على النظر إلى ميما.

بوجهٍ غارقٍ بالدموع، ثبّتت نظراتها من خلال النافذة على حدأة، وهي جالسة في السرير وإحدى كتفيها عارية، في حين واصلت الخادمتان النواح والصراخ. انسلّ سليم الصغير ذو الأعوام الأربعة إلى الحجرة بعد أن أيقظه الضجيج، راكضاً بصورةٍ غريزيةٍ نحو أمه، لكنه تسمّر فجأةً حين رآها تنتحب.

2

عاد إدوار ديلليم إلى القاهرة في تشرين الثاني من العام 1924، وحيداً هذه المرة، ومصمماً على زيارة كافة الأماكن التي أعاقته زوجته عن الذهاب إليها قبل عامين. وبما أنه كان يتحرق لمعرفة الريف المصري، فقد اصطحبه جورج بطركاني إلى الدلتا ليريه جني القطن في أراضيه.

أخذت سيارة الشفروليه السوداء، المرتفعة على عجلاتها، تتقافز في كل تحدب، تاركةً خلفها غمامةً من الغبار. وعلى جانبي الطريق، بدت على مد النظر حقولٌ منبسطة مبقعة بنقاطٍ صغيرة بيضاء ومحاطة بقنواتٍ ضيقة، تتناثر في أنحائها بضع أشجارٍ من النخيل وصفوفٌ رقيقة من الحور، لكن حتى خطّ الأفق لم يكن يُرى أدنى مرتفع أو تلّة. وفيما بعد، كتب إدوار لزوجته الباردة التي لا بد أنها لا تبالي بالأمر أبداً يقول: «لقد وجدت تلك الأرض أكثر انبساطاً من البلد المسطح»(*).

ـ أتعلم، يا صديقي العزيز، قال جورج وهو يمضغ سيجاره، الجميع هنا لا يحلفون إلا بالقطن، ولا أحد يقيّم إلاّ بوساطته. إنه معيار الثروة والقوة. يمكن للأسعار أن تنخفض، بل أن تنهار، إلاّ أنّ ذلك لا يبدل من الأمر شيئاً، فالجميع يريدون زراعة القطن، من أكبر ملاّكٍ وحتى أصغر فلاّح. لم يعد الناس يعرفون ما يفعلونه بكل هذه

(*) البلد المسطح: هي منطقة الفلاندر شمال فرنسا. م.

الكمية من القطن. هذا العام أيضاً، ستضطرّ الدولة لشراء مئات الآلاف من *القناطير* لتحافظ على الأسعار، وهذا أمرٌ ينافي العقل.

ارتجّت السيارة بفعل حدبةٍ مفاجئة، فوقع السيجار من يد جدي. طلب من السائق بجفاءٍ أن يخفف من سرعته وهو ينفض الرماد عن كمه، فالسيارة كانت جديدةً وما من سببٍ يدعو لسقوطها في القنال.

ـ أما أنا، تابع قائلاً، فلم أنتظر نداءاتٍ من أحد لأزرع بعض الحبوب، وأنا أهنئ نفسي كل يومٍ على هذه الخطوة. هل تعرف كم ارتفعت أسعار القمح منذ عشرين عاماً؟ اذكر رقماً... ثلاثمئة بالمئة! رائعٌ، أليس كذلك؟

أصبح الفرنسي يحضر إلى القاهرة كل عامين أو ثلاثة ليتبين الوضع مع شريكه، فيتفحصان معاً سوق الطرابيش وكذلك سوق البياضات، إذ غدا جورج بطركاني وكيلاً لمصانع ديلليم في الشرق الأوسط.

ـ بالمحصلة، كان إدوار يقول له ضاحكاً، أنت إذن مزارعٌ وصناعيٌّ وتاجر. ليس باستطاعة أحدٍ أن يفوقك.

ـ أنت تنسى البورصة، يا صديقي العزيز!

وبالفعل، فقد كان جورج يشارك العديد من السوريين الميسورين ولعهم بالمضاربة والقمار. بل إنه عاد مرتين من الإسكندرية بحقيبةٍ ملأى بقطع النقود التي كسبها خلال ذلك اليوم من شراء وبيع عدة مئاتٍ من الأسهم، مخالفاً في ذلك رأي زوجته التي كانت تجده شديد التهور.

أوقف السائق السيارة على جانب الطريق ليسمح للعمدة الذي أتى من الجهة المقابلة بالمرور على ظهر حماره، متبوعاً بحارسٍ راجل. صاح جورج بصوتٍ جهوريٍّ:

ـ *سلامات يا حاج!*

فأجاب الوجيه البدين من على سرجه المخملي الأزرق بعبارة مجاملة وهو يميّل مظلته قليلاً، وظهرت على شفتي الحارس الحافي

القدمين، والنحيل كغصن الجمّيز الذي يحمله بيده ابتسامةٌ عريضة.

ـ هذا هو العمدة، قال جورج شارحاً، إنه خاملٌ تماماً، فوظيفته تسمح له بشكلٍ خاص أن يتهرب من الضرائب ومن الخدمة العسكرية، وأن يستفيد من كل أنواع المكاسب الصغيرة. وهو يُدعى *بالحاج* لأنه ذهب إلى مكة عام 1912 أو 1913. لقد كانت تلك الزيارة أكبر استثماراته. ومنذئذٍ، دهن واجهة بيته باللون الأبيض وزينها برسومٍ سخيفة: مركب، قطار، إبل...

لم يمل إدوار يوماً من الاستماع بحماسٍ إلى شريكه وهو يحكي له عن مصر ذات ملامح مصطنعة، حيث كل شيءٍ يبدو مأساوياً، وكل شيء يبعث على الضحك. صحيحٌ أن جورج كان يحكي عنها بخبرة ابن البلد، لكن بحياد مراقبٍ خارجي أيضاً. قدمٌ في الداخل وقدمٌ في الخارج... لقد تعرّف إدوار به قبل ثماني سنوات، لكنه لم يتمكن حتى ذلك الحين من أن يحدد تماماً موقع ذلك المشرقي المتأرجح بين ثقافتين، والمتنقل بين ثلاث لغات، والذي ليس له وضعٌ واضح المعالم تماماً.

في ذلك الحين، كانت مصر ما تزال تنتظر قانونها الشهير المتعلق بالجنسية، وبدا وكأنّ جدي قد تأقلم مع ذلك الوضع الملتبس، فلم تعد الجنسية السورية أو اللبنانية تهمه منذ أن أصبحت لا تكسبه أية امتيازات. كان يقول:

ـ أفضّل أن أكون نصف مواطن على أن أكون نصف أجنبيّ.

فيجيب إدوار باستغراب:

ـ لماذا نصف مواطن؟

ـ لأننا لن نُعتبر مصريين مئة بالمئة أبداً.

ـ لا عدل في هذا. فحين نتذكر كل ما قدّمه السوريون لمصر، كالصحافة والمسرح...

ـ لكن لا، يا صديقي العزيز، إنها وسيلتنا الوحيدة للبقاء على قيد الحياة.

فينظر إليه الفرنسي ثانيةً بحيرة، ويشرح له جورج وهو يمضغ سيجاره:

ـ نحن يا صديقي شعبٌ من التجار والوسطاء. لقد جلسنا دوماً بين كرسيين، وذلك غير مريح أحياناً. لكنني أظنّ أن إليتينا لم تصنعا عبثاً على هيئتهما التي نعرفها. وكل من يدّعي بأنه يميل صوب اتجاهٍ أو آخر سيؤلم نفسه بشدة في نهاية المطاف.

وأخيراً، وصلا إلى وجهتهما، وهو حقلٌ شاسع يعمل فيه فلاحون اصطفوا تحت أنظار المراقبين المتيقظة، يضعون ندف القطن التي يقطفونها في *جلابياتهم* المرفوعة حتى الحزام، مشكلةً بذلك ما يشبه الكيس، ثم يفرغون بانتظامٍ ذلك الذهب الأبيض فوق كومةٍ كبيرة وهم يرددون بصوتٍ رخوٍ غناء فلاّحةٍ ترتدي ثوباً أسود.

حين وصلت سيارة الشفروليه بمحاذاتهم، صمت الجميع وتسمروا في أماكنهم والابتسامات تعلو وجوههم. لكن سرعان ماعادت المغنية إلى موالها والفلاحون إلى عملهم بأمرٍ من *الريس*. جاء مراقبو العمال واحداً تلو الآخر ليقدموا التحية *للخواجة* بطركاني. وحين طرح هذا الأخير أول سؤال، أجاب الجميع في وقتٍ واحد وهم يشيرون بأيديهم.

همس إدوار قائلاً:

ـ إنهم يثيرون الشفقة.

ـ إنهم يكرهوننا، دمدم جورج مجيباً باختصار. واستطرد جدي في السيارة أثناء العودة موضحاً فكرته: نعم، يا صديقي العزيز. إنهم لا يحبوننا. إنهم يخشوننا فقط لأننا أقوياء. كما أنني أظنّ بأنّ مشاعرهم تجاه أرباب عملهم من المسلمين مشابهة. هم أمامك مبتسمون ونشيطون؛ لكن ما أن تدير ظهرك لهم حتى يكفّوا عن احترام أيّ شيء؛ وهم كسولون، بليدون، وليس لديهم أي حس مبادرة. إنه نوعٌ من الخبل موجودٌ منذ قرونٍ عديدة، وكل شيءٍ لديهم هو تُكره.

ـ ماذا قلت؟

ـ عزيزي إدوار، لكي تفهم هذه البلاد، هناك كلمتان لا بد لك من معرفتهما: الكلمة الأولى هي بُكره التي تعني غداً. إذا طالبك أحدٌ بشيءٍ ما، عليك دائماً أن تجيب بُكره. أما الكلمة الثانية، فقد سمعتها مئة مرة؛ إنها كلمة *معليش* التي تعني: ليس الأمر خطيراً، لا بأس.

ـ لكنني لا أستطيع أن ألفظهما جيداً.

ـ *معليش*، هذا ليس خطيراً.

ـ إنك مع ذلك سوف تعلمني كلماتٍ أخرى ، أليس كذلك؟

ـ بُكره، غداً.

3

ليون، الثامن من حزيران 1924

أحد الشعانين

والديّ الحبيبين.

صعدت إلى غرفتي بسرعة لكي أكتب لكم هذه السطور القليلة وقلبي يرتجف فرحاً. نعم، لقد تمّ الأمر، فقد تفوّهتُ منذ قليل بنذر الفقر والعفة والطاعة. هاأنا أصبحت مجنداً إلى الأبد في جيش يسوع المسيح. صلّيا لأجلي يا والديّ الحبيبين لكي أقترب من القداسة!

كان الاحتفال رائع الحماس تحت الأنظار البالغة العذوبة للسيدة العذراء. وقد قُدّمت لي القلنسوة والقبعة المربعة التي تقدّم لطلاب اللاهوت. وبعد القداس، تعانق الجميع وتذكرتكما، يا أبي ويا أمي، فأنتما رافقتماني بالتأكيد بصلواتكما.

سوف تبدأ الآن حياةٌ جديدة بالنسبة لي في مدرسة اللاهوت حيث كل شيءٍ سوف يتم باللغة اللاتينية. أنتما تعلمان بأنّ لغة فيرجيل لم تكن يوماً نقطة قوةٍ لديّ، لكن يجب أن يكون بحوزتي الوسائل الكفيلة بمساعدتي على أن أكون في خدمة الصديق الأكبر!

آمل، يا والديّ المبجّلين، أن يتجلى الرب يسوع لكما بكلّ جماله

وطيبته. فلتكونا مباركين وسعيدين، وليشعر الفقراء من حولكما بإحسانكما.

ابنكما

أندريه س.ج

ملاحظة: هل استلم ألكس بطاقتي المؤرخة في 25 آذار؟ لم تصلني أخباره.

حتى ذلك الحين، لم يتمكن جورج بطركاني من التعود على لهجة ابنه البكر؛ وتلك الرسائل الطافحة بالحب كانت تهزه بمقدار ماتغيظه؛ حتى إنه لم يشأ أن يفتحها لوقتٍ طويل.

ـ خذي، لقد كتب أندريه... كان يقول ليولاند، وهو يعطيها المغلفات مغلقة.

كما لو كانت تلك الرسائل موجهةً لها وحدها! كما لو أنّ أندريه لم يكن يكتب، بالدرجة الأولى، كي يقرأ أبوه رسائله...

بعد عدة أشهرٍ من الحرد الكامل، وافق جورج أخيراً أن يلفظ اسم ابنه، دون أن يصل مع ذلك إلى حدّ التواصل معه، فكانت يولاند هي التي تقوم بهذه المهمة.

قبل ذلك بعامين ونصف، سمح جدّي لأندريه مرغماً أن يلوي له ذراعه، الأمر الذي نادراً ما كان يحصل له في مجال الأعمال، وقرر بالواقعية التي تميزه أن ينحني للعاصفة مؤقتاً وهو يحدث نفسه بأنّه سيكون هناك دائماً وقتٌ لإعادة ذلك الغافل إلى رشده. لكن تلك الرسالة المؤرخة في الثامن من حزيران 1924 جعلته يخشى نقطة اللاعودة. ربما ينبغي عليه أن يذعن لرؤية هذا الصبي ـ الذكي رغم كل شيء ـ يتراكض بين المدرسة التدريبية والمدرسة اللاهوتية وتلك

الترهات الأخرى. عليه أن يسلّم بفكرة أنه لن يستطيع الاعتماد عليه بعد الآن.

خلال العامين اللذين تليا رحيل أندريه، ركّز جورج بطركاني غضبه على ألكس. فأصغر أبنائه مراوغٌ وجريء، ويبدي استعداداً ممتازاً للتجارة. لكن عليه أولاً أن يتعلم الحساب الصحيح! بعد عدة إنذارات، طُرد ألكس من مدرسة اليسوعيين بسبب «عدم الطاعة وقلة الدين والاعتياد على الكسل».

ـ يطردون أحد أبنائي بعد أن خطفوا الآخر! صرخ جدي بغضب.

أصبح ألكس الآن يجمع الأصفار عند الأخوة في مدارس الضاهر المسيحية.

ـ لقد أفسدتِه، كان جورج يكرر على مسامع أمه.

في رسائله، كان أندريه يسأل باستمرار عن أخبار ألكس الذي يشغله وضعه الروحي.

ـ عليك أن تكتب لأخيك الأكبر، تقول له يولاند ضارعةً.

ـ هل تظنين حقاً أنّه بحاجةٍ لنصائحي؟ يجيب ألكس بمرح وهو يطبع قبلةً على جبين أمه.

كان من الممكن أن يجد جورج بطركاني عزاءه في ميشيل، ابنه الثاني، الذي انتسب إلى مدرسة الحقوق الفرنسية في القاهرة عام 1923. إلاّ أنّ ذلك الأخير انسحب منها بعد ستة أشهر، فقد أصابه صداعٌ شديد صحبته حمى ألزمته الفراش. وقرر الدكتور دباس الذي استدعي للاستشارة أنّ تلك الدراسة لا تناسبه. بل إنّ جورج نفسه أدرك بأنّ ذلك الصبي الحساس الذي يميل للشعر لن يكون محامياً أبداً، ولن يبيع مطلقاً علبة دواءٍ واحدة، فلم يصرّ، وتمكن عرّابي بعد شفائه من الانتساب في العام التالي إلى كلية الآداب.

من حسن الحظ أنّ بول كان موجوداً، فبعد نجاحه اللامع في البكالوريا، انتسب بدوره بحماس إلى مدرسة الحقوق الفرنسية التي كانت في ذلك الحين الدرب الملكي إلى مجال الأعمال، تلك المدرسة التي طالما حلم والده أن ينتسب إليها قبل ربع قرن.

ـ أيها السادة، أنتم تعيشون في بابلٍ قضائية.

هذا ما قاله للطلاب منذ الدرس الأول أستاذ القانون المدني، وهو أستاذٌ مسنٌ من تولوز ذو لحيةٍ صغيرة ونظارة.

كان بول يدوّن الملاحظات بعناية على دفتره، وقرر أن يعيد هذه العبارة على مسامع والده. تابع الأستاذ قائلاً:

ـ ليس لمصر قضاءٌ واحد، بل أربعة. فهناك المحاكم الدينية... والمحاكم المحلية... والمحاكم القنصلية...

واصل بول التدوين بعصبية. ذلك الفتى النحيف، والأنيق، والشديد الطموح كان يتصور نفسه محامياً كبيراً في الجنايات. إلاّ أنّ القضايا الجرمية، وهي وحدها التي تجتذب الأضواء، تابعةٌ للمحاكم القنصلية المغلقة في وجهه، أو للمحاكم المحلية التي لم يكن يريد أن يضع فيها قدمه.

ـ أما الصنف الرابع، فأنتم جميعاً تعرفونه أيها السادة: إنه القضاء المختلط...

كان بول ينذر نفسه للقضاء المختلط، مثله في ذلك مثل معظم رفاقه، حيث تتم كافة المرافعات باللغة الفرنسية. فتلك المؤسسة المرموقة التي أسست عام 1875 كانت مؤهلةً لفضّ أي نزاعٍ مدنيّ أو تجاري بين الأجانب بمختلف جنسياتهم أو بين الأجانب والمصريين. إلاّ أنّ المصريين كانوا يتسابقون إليها لحلّ نزاعاتهم وهم مقتنعون بأنّ الدفاع عن حقوقهم يتمّ فيها بشكلٍ أفضل من المحاكم المحلية.

ـ سوف تلاحظون، أيها السادة، بأنه يمكن للمرء بسهولةٍ أن يخترع لنفسه «مصلحةً مختلطة»، فكل الشركات المغفلة تخضع حسب

تعريفها لتلك العدالة الرفيعة، فقد يكون أحد المساهمين فيها أجنبياً. أما الدائنون الذين يمتلكون كمبيالاتٍ وقّع عليها مواطنون، فإنهم يتدبرون أمورهم بحيث يجيّرونها لصالح شخصٍ أوروبيّ متطوع، ويفلتون بالتالي من المحاكم المحلية.

لم يكن جورج بطركاني يتورع عن استخدام تلك الحيلة.

ـ مصر هي بالفعل بابل حقوقية، قال لابنه، لكنني أتمنى أن يكون أستاذك قد فهم الميزات الكبيرة للنظام الحالي. وعندما يأتي اليوم الذي يعنّ فيه لأحد الأغبياء أن يمسّ هذا الترتيب، فعلينا حينذاك السلام.

4

دخل جدي المحاكم المختلطة من الباب الخلفي قبل ذلك بزمنٍ طويل. ورغم أنّ وظيفته ككاتب محكمة لم تكن وظيفةً مرموقة، إلاّ أنّها سمحت له على الأقل بأن يراقب عن كثب عمل تلك المؤسسة المدهشة التي يسيطر عليها الأوروبيون، والتي لم يكن أرفع القضاة المصريين يلعبون فيها إلاّ أدواراً صورية.

في تلك الحقبة، كانت المحكمة العليا في القاهرة ما تزال تشغل قصراً قديماً للعائلة الخديوية في ميدان العتبة الخضراء، وكان بحالةٍ مزريةٍ تماماً؛ فإذا كانت الأسقف ما تزال تحافظ على بعض التزيينات المذهبة، إلاّ أنّ أعشاش الهوام كانت تحتل الستائر المهلهلة؛ أما طلاء الجدران في غرف المحامين فكان يسقط على شكل صفائح كاملة؛ كما أنّ مكتب كتّاب العدل كان من الضيق بحيث اضطر موظفوه لأن يُلحقوا به إحدى قاعات الحضور.

في ذلك الحين، كان جورج وزملاؤه الشبان العازبون مثله يذهبون للتنزه بشكلٍ منتظم في الأزبكية، تلك الجنة الممتدة على مساحة ثلاثة عشر هكتاراً والمحاطة بأسوار عالية والصعبة المنال بالنسبة للعامة، فقد كان رسم الدخول إليها قرشاً. سرعان ما حفظ كتّاب المحكمة أولئك عن ظهر قلب الطرقات التي تحفّ بها أشجار الحميرة ودبّاء الهند وتين البنغال. وكثيراً ما كانوا يقومون بجولةٍ في القارب أو بالدراجة المائية وسط البجع وقت الغروب، وهم ينظرون إلى جميلةٍ ما في مقهى سانتي...

أكاد لا أجرؤ على الحديث عن الأزبكية؛ فعندما نعرف ما الذي بقي منها اليوم... أيام طفولتي، في الخمسينات، كان هناك للحديقة بعض بقايا جمال، لكن أين منها تلك الأوصاف المدهشة التي كان جدي يصفها بها.

وفي الأزبكية كان جدي يلتقي بصديقه القبطي مكرم لتبادل قوارص الكلام، فدروب الحديقة نصف المضاءة كانت تناسب تماماً مشادّاتهما التي كانت الصحافة موضوعها الأساسي في تلك الفترة. يقول جورج:

ـ لولا السوريون، لما كان لمصر صحفٌ جديرةٌ بهذه التسمية.

الواقع أنّ معظم الصحف اليومية البارزة، *كالأهرام والمقطم والمقتطف*... كان يملكها سوريون. وقد غيّرت هذه الصحافة وجه اللغة العربية في مصر، بحيث انتهى عهد البلاغة والكتابة المنمّقة المتفائلة ذات النسق الواحد. وأدخل المثقفون المسيحيون القادمون من بيروت أو دمشق أسلوباً حديثاً حيوياً سحر جمهور القراء.

في مساء أحد أيام شهر آب 1901، وبينما كانا يتوغلان في دربٍ مظلمٍ من الحديقة، طلب جورج من مكرم أن يشرح له ما الذي دفعهُ مع مُناضلين وطنيين آخرين لتحطيم زجاج *المقطم*.

أخذ القبطي، النحيل كعود قصب، وكأنه لا يقتات إلا على التبغ، نفَساً عميقاً من سيجارته بعصبيةٍ وقال:

ـ *المقطم* صحيفة خَوَنة تموّلها إنكلترا. أردنا أن نُظهر أنّ الشعب المصري ضد الخونة، وخاصةً حين يكونون دخلاء.

ـ دخلاء؟ هل عدت لهذه النغمة؟ أريد أن ألفت نظرك إلى أنّ مصطفى كامل كتب في *الأهرام*.

ـ أنا لم أقل أنّ جميع السوريين خونة. لكننا لم نعد نحتمل أولئك الذين يبصقون على مصر بعد أن جمعوا فيها ثرواتهم.

إلاّ أنّ الاتهام الذي وجّهه مكرم كان ملتبساً. فإذا لم يكن جميع السوريين خونة، ألم يكونوا كلهم دخلاء؟

قاطعت أنوار البلفيدير مبارزتهما الكلامية، فاستندا بمرفقيهما إلى الحافة لينظرا إلى شلاّل الماء المتساقط وسط أشجار البردي تحت أقدامهما. كان يحيط ببركة الماء ألفان وخمسمئة مصباحٍ غازيٍّ شكلت حزاماً من الأضواء. صرعةٌ أخرى من صرعاتُ الخديوي إسماعيل...

امتنع جورج عن أن ينقل لمكرم ما قاله سمبسون لوالده قبل بضعة أسابيع: «في نهاية المطاف، إذا كانت شعبية إنكلترا قليلةً لهذه الدرجة في بعض الأوساط المصرية، فإنّ ذلك بسببكم أنتم أيها السوريون. لقد عيّناكم في مراكز هامة، وهذا أمرٌ لم يغفره لنا المصريون. فإذا كان الأقباط والمسلمون يقبلون بأن يكون رؤساؤهم من الإنكليز، إلاّ أنّهم لا يتحملون أن يحلّ محلّهم مشرقيون...»

خلف أشجار البردي، وفي كشك الموسيقى، كانت فرقةٌ عسكرية تعزف آخر أنغامها لذلك المساء.

ـ حتى الموسيقى إنكليزية! دمدم مكرم قائلاً وهما يتوغلان في الدرب المعتم الذي يؤدي إلى جناح التصوير.

الواقع أنّ مستقبل العديد من أفراد أسرته أصبح مهدداً بسبب الاحتلال البريطاني. فقد تناقل هؤلاء المحاسبون الأقباط من جيلٍ إلى جيل وعلى مدىً طويل جداً، طرقاً سرّية في الحساب أمّنت لهم مسك دفاتر حسابات الدولة. إلاّ أنّ الإنكليز، بإدخالهم أنظمةً أكثر حداثة، بدّلوا قواعد اللعبة، وصار لزاماً على شابٍ مثل مكرم أن يحوز على شهادةٍ في المحاسبة، رغم أنه كان سيستفيد، في أوقاتٍ أخرى، من علم أبيه وأعمامه.

ـ معك حق، قال جورج، فهذه الموسيقى الإنكليزية لا تحتمل. شتّان ما بينها وبين الموسيقى الفرنسية.

ـ هذا لا يضحكني، همهم القبطي.

ـ عليك مع ذلك أن تعترف بأنّ الإنكليز قد أدخلوا النظام إلى البلاد.

ـ لكن بأيّ ثمن! إن مصر تفقد روحها، وأبناءها في الوقت ذاته. هل تعلم أنّ ثلاثةً من خمسة من أبناء الفلاّحين يموتون قبل أن يصلوا إلى سن البلوغ؟

ـ أنا لا أرى صلة...

ـ أنت لا ترى أبداً أية صلة!

قاطعتهما أصوات انفجاراتٍ صماء، تبعتها على الفور سحاباتٌ مضيئة في السماء. إنها الألعاب النارية التي تعلن عن عيد النيل صباح اليوم التالي.

ـ لنعد أدراجنا، قال مكرم، عليّ أن أستيقظ باكراً غداً لأحضر الحفل.

في يومٍ محدد من شهر آب كلّ عام، كان جمهورٌ ضخمٌ يتجمع مقابل جزيرة الروضة بحضور الخديوي. وقبل إطلاق الماء، يتم إلقاء كتلةٍ من الصلصال تمثّل شكلاً بشرياً في النهر. إنها «عروس النيل» التي حلّت محلّ العذراء الفتية التي كانت تقدّم له في الماضي ليتعطّف ويغمر الأراضي بمياهه.

وبإشارةٍ من الخديوي، يتم هدم العَرَمة بالمعاول. حينذاك، يغطس عشراتٌ من الرجال والأطفال في النهر، وسط التيار، في حين تفرقع المدفعية ويعلن مدفع القلعة لكلّ المدينة أنّ النيل قد وصل إلى مستواه المعتاد.

في كلّ عام، كان المسلمون أو الأقباط أو اليهود يكسرون العرمة، كلٌّ بدوره. عام 1901، كان الدور للأقباط، لكن ذلك لم يكن السبب الذي جعل مكرم يرغب في الذهاب إلى الروضة، بل إنه وبكل بساطة كان يحبّ أن يرى الخديوي الشاب عباس وسط شعبه، فذلك الخديوي يكره الإنكليز مثله.

ـ ليتني كنت موجوداً منذ أيام، قال القبطي، حين فكّ شبانٌ متحمسون أعنّة خيول عربة عباس ليقودوها بأنفسهم حتى مسجد سيدنا الحسين.

ذهل جورج:

ـ أنت، المسيحيّ، كنت ستقود الخديوي إلى المسجد؟
فأجاب القبطي بصوتٍ منخفض:
ـ حين يتعلّق الأمر بمصر، يمكن لي أن أكون مسلماً.

5

12 أيار، 1925

رغماً عني، وإرضاءً لأندريه الذي طلب تقريراً مفصلاً، اضطررت لحضور ذلك «المؤتمر الكاثوليكي عن العائلة» من أوله إلى آخره. يا لها من فوضى!

اجتمع أكثر من اثني عشر ألف شخصٍ في إعدادية الأخوة في الضاهر. يقال بأنه أكبر تجمعٍ من نوعه تمّ تنظيمه في مصر، لا بل في الشرق كله. وإذا كنت قد فهمت جيداً، فإنّ الهدف من اللقاء كان حماية العائلة، بالإضافة إلى البرهان على وحدة المذاهب المختلفة وعلى قوة الكنيسة الكاثوليكية في مصر.

حضر المؤتمر أكثر من خمسة آلاف تلميذٍ من الإعداديات والمدارس الداخلية المختلفة، تحت قيادة أساتذتهم والرهبان والراهبات. هذه المرة، امّحى كلّ تنافسٍ بين اليسوعيين والأخوة، والقلب الأقدس، وأم الله، والمخلّصة، والراعي الصالح... وكُتبت مقاطع من الكتابات المقدسة تتعلّق بالتربية الصالحة للأبناء على تروسٍ كبيرة، ثُبتت على لوحاتٍ خشبية أو على جذوع الأشجار. تصاعدت الدموع إلى عيني وأنا أستمع إلى هذا الحشد الكبير وهو ينشد: «نريد الرب»، تصاحبه جوقة الأخوة. لكن المؤتمر نفسه الذي دام أسبوعاً تضمّن ما هو كفيلٌ بأن يثني خالي إدمون نهائياً عن الزواج وأن يجعله يقع فيما يشبه السكتة الدماغية بشعاره: أنجبوا أولاداً، أنجبوا أولاداً...

أرسل ميشيل لأندريه بعض المقتطفات من إحدى أهم المداخلات، وهي المداخلة التي قام بها مستشارٌ يدعى *ميدان* (وكان على الأغلب حقوقياً رفيعاً في المحاكم المختلطة)، فقد قال ذلك الخطيب المفوه:

«ينبغي عدم تأمين استمرار النوع البشري بأعداد قليلة، بل بكرم ووفرة؛ فقد ينقضّ الموت فجأةً على أفضل المهود حراسةً. حينذاك، وأمام المهد الوحيد الذي أفرغه ذلك الزائر الرهيب، قد تكون الإرادة الحسنة المتجددة متأخرةً، ولا تجد العضوية التي استهلكها الامتناع الإرادي عن الإنجاب والمتع العقيمة ما يُصلح من شأنها...» ثمّ أدان المستشار *ميدان* الغَزَل و«الزواج المبني على العشق» والأزياء النسائية الجديدة والرقصات الحديثة وإلغاء مرافقة الفتيات وأموراً أخرى؛ واختتم قائلاً: «تحت الشعار الشيطاني للخلاعة المعظّمة، وفي كلّ الإثارات والانحلالات التي تؤدّي إليها، فإنّ العالم الحالي يشبه، ويا للأسف! ماخوراً كبيراً».

لست أعلم إن كان المستشار *ميدان* يعرف ماغي توتة، إلاّ أنه كان سيعارض حتماً الرحلة التي قامت بها أخت جدتي إلى أوروبا في العام التالي، تلك الرحلة التي ستحتفظ عنها بذكرى لا تنسى...

أغرقت ماغي بالضحك وهي مستلقيةٌ على ظهرها مكشوفة الصدر، بينما دندن جورج بأغنيةٍ اجتاحت فرنسا حينذاك، قارناً القول بالفعل:

كان لها نهدان صغيران للغاية

وكنت أتلمسهما بحذر

فالنتين، فالنتين...

من النافذة المفتوحة، بدت الشمس برتقالية اللون، هائلة الحجم، فقد كانت على وشك المغيب في خليج كانّ Cannes ، وكانت سطيحة الفندق تفيض بالزهور.

منذ سنواتٍ وماغي تحلم بهذه الرحلة مع زوج أختها دون أن

تجرؤ على اقتراح القيام بها بسبب حرص جورج البالغ على إخفاء أمر علاقتهما... ألم يكد ذات يوم يلتقي وجهاً لوجه مع ميشيل، أسفل عمارة شارع قصر النيل حيث يقع بيتها، رغم كل احتياطاته؟

إلاّ أنّ المصادفة رتّبت الأمور بشكلٍ جيّد في ذلك الربيع من العام 1926. فقد دعا آل ديلليم ماغي إلى ليلّ في ذات الوقت الذي كان فيه جورج يقوم برحلة عمل في باريس. وما لبثت ماغي أن اخترعت عذراً، فتركت مضيفيها قبل بضعة أيامٍ من موعد عودتها لتلتقي به في الكوت دازور.

لامس جورج بشفتيه أحد نهدي ماغي. لا، لم يكن نهداها صغيرين، بل على العكس، وتنْتَصب حلمتاهما اللتان بلون القطيفة لأدنى مداعبة. في التاسعة والثلاثين، ظلّت ماغي توتة رائعة، وكأنها خُلقت للحب.

كانت قَصّة شعرها تبدي نقرتها، وتترك على جبينها غرة. أما شفتاها، فكانتا تارةً حمراوين، وتارة بنفسجيتين، بل خضراوين. لم يكن ذلك بدافع اتباع الموضة فقط؛ فمنذ أن قرأت بحماس رواية *اللعوب* لفيكتور مارغريت وهي تحاول التشبه ببطلتها...

ـ مسكينٌ إدوار ديلليم، فزوجته تذيقه الأمرّين! قالت لجورج، بينما هي تهمّ بارتداء فستانٍ جريء يرتفع إلى ما فوق ركبتيها.

ـ أعرف ذلك. تلك المرأة مستودع جليدٍ حقيقي...

ـ لقد تشاجرتْ معه شجاراً حامياً بعد زيارته الأخيرة للقاهرة، كما لو أنه يخونها مع مصر...

ذات مساءٍ من شهر أيار عام 1916، وفي شقتها بقصر النيل، قدّمت ماغي لنفسها ذلك الفرنسي الذي كان حينذاك في الخامسة والعشرين من عمره. كان الأمر عابراً، فقد جعلها ارتباك الشاب تتوقف عند ذلك الحد. بل إنّ إدوار نفسه تجنّب الوقوع مرةً أخرى في براثن تلك اللبوة التي لا ترتوي؛ لكنه كان يجدها لطيفة، وقد استقبلها بسرورٍ في ليلّ، في منزله الرمادي الواقع في شارع فوبان.

ـ ألن تستغل هذه الرحلة لكي تذهب إلى ليون لرؤية أندريه؟سألت ماغي وهي تعيد طلاء شفتيها البنفسجيتين أمام المرآة.

ـ لا.

ـ أنا متأكدة من أنّ ذلك سيسعده.

ـ لا.

ـ أنت مخطئٌ، يا جورج.

ـ أتعلمين بأنّ الساعة قد بلغت الثامنة؟ لن يقدموا لنا العشاء إذا تأخرنا كثيراً؛ هؤلاء الفرنسيون يعيشون وكأنّ في رؤوسهم ساعة.

لم يكن جورج يفكر بأندريه وهو ينزل إلى السطيحة، حيث يضيء مصباحٌ صغيرٌ كل طاولة، بل بزوجته يولاند. سوف يختار لها قطعة مجوهرات من ساحة الفاندوم، وربما عطراً أيضاً، ومناديل حريرية...

سوف يذهب لشراء تلك الهدايا بصحبة ماغي التي تعرف جيداً ذوق أختها، كما أنّه على ماغي نفسها شراء بعض الحاجيات من باريس، وخاصةً عداد الوقت الدقيق المزود بجرسٍ منبه يعمل بوساطة زر الذي أوصاها عليه شقيقها إدمون...

كان إدمون توتة يرتاب بالإحصائيات المتعلقة بالسكان؛ وبما أنّه لم يكن يستطيع مراجعة الجداول الرسمية، فقد كان يقوم بتجارب صغيرة موازية. وهكذا، وفي الموعد نفسه من كل عام، كان ذلك الشخص الغريب الأطوار يتخذ موقعاً له أمام جسر قصر النيل ويمضي فيه ست ساعاتٍ متواصلة محصياً عدد المارة في كلا الاتجاهين. وكانت الحسابات المختلفة التي سيقوم بها في التجربة القادمة تتطلب منه مقياساً للوقت خاصاً جداً لا يتوافر على ما يبدو إلا في مخزنٍ متخصص في شارع المادلين بباريس...

أما ميشيل، فقد طلب من خالته أن تشتري له كتاباً مصوراً عن سنوات ما قبل الحرب في شاتيل غويون، ذلك المنتجع الحراري

المائي الذي أصبح يأخذ حيزاً كبيراً من اهتمامه منذ أن علم بأن السلطان حسين كان يجري فيه دورةً علاجية كل عام.

ذات يوم، قالت لي ماغي وهي تحدثني عن ميشيل تلك الفترة:

ـ لقد كان عكس أبيه تماماً، فلم تكن الحياة تشده، وأعتقد بأنه لم يكن يحب النساء...

يستحق هذا التأكيد الأخير بعض التوضيح، رغم صدوره عن أخصائيةٍ في هذا المجال. فباستطاعتنا فقط أن نلاحظ بأنّ دفتر مذكراته الثالث الذي ينتهي في صيف العام 1926 ليس فيه أي حضورٍ للجنس اللطيف. كان عمر ميشيل حينذاك واحداً وعشرين عاماً، وهو فيه ينظر إلى الماضي بتصميم.

10 تموز 1926

إنني أرتّب في سجلاّتٍ خاصة كافة المعلومات التي أقوم بجمعها عن حسين كامل، وربما أكتب يوماً ما السيرة الذاتية لذلك السلطان الذي عبر كالنيزك والذي يبدو وكأن الجميع قد نسوه.

قبل وفاته ببضعة أشهر، شعر السلطان بأنّ ابنه كامل الدين لن يخلفه على العرش، وخشي أن يؤدي ذلك إلى انقراض سلالة محمد علي. وزاد من سيطرة هذه الفكرة عليه أنّ الآغا خان حاول قبل ذلك، في العام 1914، اعتلاء عرش مصر.

يؤكد الدكتور كومانوس باشا في مذكراته أنّ السلطان استدعاه سراً قبل وفاته بستة أشهر وطلب منه أن يفحصه، وقال له: «احلف لي على إنجيلك بأن تقول لي الحقيقة كاملةً». فأقسم كومانوس، واضطر بعد ذلك أن يعترف لحسين بأنّ مرضه غير قابلٍ للشفاء.

بعد يومين، استدعى اللورد وينغيت، المفوض السامي البريطاني، الطبيب كومانوس وطلب منه معلوماتٍ عن صحة السلطان، فتظاهر الطبيب الطبيب بالفزع؛ لكن المفوض بدّد تصنّعه بحركةٍ من ظاهر كفّه قائلاً: «أنت تعلم جيداً أنه لا وجود في هذه

البلاد للسر الطبي»، فأفشى كومانوس كل ما يعرفه. ولو أردنا أن نصدّقه، فإنّ المفوض السامي وضع رأسه بين يديه «وانخرط في البكاء» وهو يقول: «يا للمصيبة! يا للمصيبة! إنّ إنكلترا تفقد بخسارته أصدق وأوفى أصدقائها. أؤكّد لك أنني أحبه كما يحب المرء أخاه».

أعتقد أن المفوض السامي كان يمثّل نوعاً ما، هذا إن لم يكن كومانوس قد بالغ قليلاً... فذلك اليوناني لم يكن على كل حال الوحيد الذي يعرف الحالة الصحية للسلطان الذي كان لديه في العام 1917 ستة أطباء غيره، ومنهم الدكتور بروسار الذي كان، على ذمة أبي، يزوّد وكالة فرنسا بالمعلومات.

القسم الرابع

بيه من الدرجة الأولى

1

ظهر سيمودتشيك في منزل آل بطركاني في بداية العشرينات. وجورج، الذي بدأ حينذاك لتوه في علاج مشكلة حشو وصباغ الطرابيش، كان يعاني من منافسةٍ أجنبيةٍ شديدة. فإذا كان النمساويون قد احتكروا السوق قبل الحرب، فإنّ الشركات التشيكوسلوفاكية هي التي كانت تنال حصة الأسد في ذلك الحين.

ـ يا لهؤلاء التشيكيين الملاعين! كان جدّي يهتف في كل مرةٍ يتطرّق فيها الحديث يوم الأحد إلى الطرابيش من قريبٍ أو من بعيد.

حتى إنّ رشيد *السفرجي* سأل يولاند بتحفظٍ في إحدى المرات:

ـ *الخواجة* يتحدث دوماً عن *سيموديتشيك*(*). من هو هذا السيد؟

أضحكت هذه الكلمة العائلة لعدة أسابيع، ثم دخلت في قاموسها؛ حتى إن جورج نفسه تبنّاها، فكان يقول: «لقد حصل *سيموديتشيك* على طلبيةٍ جديدةٍ في الإسكندرية»؛ أو يقول: «حسب معلوماتي، فإنّ *سيموديتشيك* سوف يطلق موديلاً جديداً في الخريف».

اضطرت مؤسسة بطركاني إلى الحفاظ على أسعارٍ منخفضة كيلا تزيحها تلك المنافسة المخيفة، وفي الوقت ذاته، أخذ جورج

(*) هنا لعبةٌ لفظية من المؤلف، حيث دمج *السفرجي* جملة «هؤلاء التشيك الملاعين» ces maudits tchèques وجعل منها كلمةً واحدة هي سيموديتشيك Sémoditchek . م.

بالاعتبار صعود التيار الوطني القوي، فغير أسلوبه؛ وتمصّرت طرابيشه فجأةً في بداية العام 1923، فلم يعد يُكتب عليها: «صنع على الطريقة الفرنسية»، بل حملت النماذج الجديدة عبارة «Made in Egypt»(*)، كما تغيرت أسماؤها: استبدل *الفرساي* بـ *«الملكي»* و*مارسيليا* بـ *«الدمنهور»* و*الكليمنصو* بـ *«بلادي»*.

إلاّ أنّ نتائج تلك السياسة ظلت ضئيلة، فلم تسمح العشرة آلاف طربوش المباعة عام 1925 باسترداد النفقات إلاّ بالكاد. من حسن الحظ أنّ جورج لم يكن يعتمد على مصنع شبرا فقط لتأمين مصاريف حياته!

في ذلك العام، شنّ مصطفى كمال حرباً شعواء في تركيا على الطرابيش؛ فبدأ بإضافة واقيةٍ صغيرة إلى العمرة التي يرتديها جنوده، ثم قام بجولةٍ في الريف لإقناع الشعب بارتداء القبعة الغربية. وكان أتاتورك يظهر حاسر الرأس، بيده قبعةٌ خوصية، ويشرح قائلاً: «نحن بحاجةٍ إلى لباسٍ متمدن وعالمي. إنّ الطربوش لم يوجد في بلادنا إلاّ منذ قرن، وهو ليس من أصلٍ تركيٍ، بل يوناني، وليس له أية دلالةٍ دينية».

وكان الفلاحون يهزون برؤوسهم أدباً، لكنهم لم يكونوا يصدقون شيئاً مما يقوله، فزعماؤهم الدينيون يؤكدون لهم العكس تماماً، ويقولون أنّ القبعة الأوروبية تدلّ على عدم الطهر المسيحي، وعلى الخشية من نظرة الله. بل إنّ طرف تلك القبعة يمنع المؤمن من أن يلامس الأرض بجبينه، ومن غير الوارد بالطبع أن يصلّي المرء برأسٍ مكشوف.

حين عجز أتاتورك عن الإقناع، لجأ إلى الإكراه، وأصدر قانوناً ينصّ على أنّ ارتداء الطربوش يمسّ أمن الدولة. وويلٌ للمواطن الذي يخرق القانون! فقد كان رجال الشرطة ينقضّون عليه لينزعوا عن رأسه الطربوش ويدوسوه بعد ذلك بأقدامهم. أما

(*) أي : صُنع في مصر. م.

الرافضون، فتُساء معاملتهم ويسجنون. بل إنّ بعضهم انتهى إلى فصيلة الإعدام أو إلى حبل المشنقة.

راقب جورج بطركاني هذه الأحداث من بعيد، فالطربوش التركي ليس شأنه، وتكفيه الصعوبات التي يعانيها في تصميم طربوشٍ مصري... لكن طريقة أتاتورك في إغراق تلك القبعة الشقيقة بالدم لَم تكن بالنسبة له تبشر بالخير.

من جهةٍ أخرى، ظهرت ردود فعلٍ متباينة في البلدان التي كانت خاضعةً للإمبراطورية العثمانية القديمة. ففي القاهرة، كتبت مجلة *«المصور المصرية»* الناطقة بالفرنسية في عدد شباط مقالةً بعنوان: «تحقيقٌ مثير حول الطربوش»، ووزعت فيه استبياناتٍ لعددٍ من الشخصيات بعنوان «مع أم ضد؟ أي المعسكرين سيكسب المعركة؟ معسكر المحدِثين المتعطشين للقواعد الصحية وللحركات الرمزية بشكلٍ خاص، أم معسكر التقليديين والشعراء الذين لا يريدون أن يتخلّوا تماماً عن زيٍّ قديم العهد وأكثر بساطةً؟».

ـ أنا لا أفهم شيئاً من كل هذا اللغط، قال جدي لميشيل حين أحضر له المجلة. لماذا يدسّ هؤلاء المزعجون أنوفهم في ما لا يعنيهم؟

بدأت المجلة تنشر بعض الإجابات التي تراوحت بين معارضةٍ للطربوش ومؤيدةٍ له، وحكَم جورج على الأولى بأنها فضيحة، وعلى الأخرى بأنها ضعيفةٌ بشكلٍ يدعو للأسف. كان يغلي من الغضب.

ـ سأكتب بنفسي إلى محرري تلك المجلة المبتذلة. لكنني متأكد بأنهم لن ينشروا رسالتي.

ـ ولمَ لا تقابلهم؟ اقترح ميشيل الذي يعرف أحد أولئك الصحافيين الهواة.

ـ عليهم إذن أن يطرقوا بابي! هتف جورج بترفّعٍ، تاركاً لابنه ترتيب المقابلة.

وجد محررو المجلة الفكرةَ رائعة، ولاموا أنفسهم لأنها لم تخطر لهم على بالٍ، فقرروا الذهاب جميعاً ـ ولم يكن عددهم

يتجاوز الأربعة، بمن فيهم رئيس التحرير والمدير العام ـ لمقابلة جدّي الذي استقبلهم في مكتبه في ساحة الأوبرا.

ـ سيد بطركاني، نحن لن نسألك إن كنت مع أو ضد الطربوش...

ـ أنتم محقون، أجاب بنوعٍ من الجفاء، فالنقاش غير واردٍ أصلاً.

ولكي يترك تأثيراً في نفوس المستمعين إليه، أشعل على مهلٍ سيجاراً، ثم أرسل ثلاث دوائر من الدخان إلى السقف.

ـ كلا، أيها السادة، النقاش غير وارد؛ فالطربوش ليس عمرةً للرأس فحسب، بل هو رمزٌ وشعارٌ؛ هل يناقش أحدٌ ألوان العلم الوطني؟ هناك أمورٌ لا يجوز اللعب بها.

أما هو، فكان يلعب ببراعة، إذ نصّب نفسه حارساً للمعبد وقيّماً على المقدسات. لكنه، مع ذلك، لم يكن يجهل بأنّ بعض الناس في القاهرة كانوا يجدون من الغرابة بمكان أن يقوم سوريٌّ، ومسيحيٌّ علاوة على ذلك، بتصنيع القبعة الوطنية.

تدخل أحد الصحافيين قائلاً:

ـ لكن الطربوش ليس قبعةً وطنية، فالأجانب أيضاً يرتدونه.

ـ هذه فكرةٌ حمقاء! الأجانب الذين تتحدث عنهم لا يرتدونه في لندن أو في باريس، بل في مصر، ذلك أنهم فهموا مغزاه وقدّروه حق قدره. الطربوش يسمح للأوروبي بأن يندمج في الشرق، كما أنه يسمح أيضاً للشرقي بأن يتبنى البدلة الأوروبية الكاملة دون أن يفقد خصوصيته.

تخلّى الزائرون عن الخوض في نقاشٍ عميقٍ بدا وكأنهم قد تورطوا به، وغيّروا لهجتهم.

ـ الطربوش لا يتلاءم مع مناخ مصر، قال أحدهم بشيءٍ من الحدة، فهو يؤدي إلى التعرق، ويسبب الصداع؛ كما يقال بأنه يساعد على الصلع...

ـ وهو يسبب البواسير أيضاً، أعرف!

ـ عليك الاعتراف، يا سيد بطركاني، بأنّ ارتداء الطربوش في الصيف محنةٌ حقيقية، حيث يقضي الناس وقتهم في رفعه، وتجفيف رؤوسهم من العرق بمنديل.

ـ ماذا في ذلك؟ لو تعلمون كيف كان الأمر في القرن الماضي! ففي ذلك الحين، لم يكن الطربوش مبطّناً، كما أنه كان أخفض وأكثر رخاوةً من طربوش اليوم. كان على الشخص الذي يرتديه أن يضع على رأسه قلنسوةً بيضاء صغيرة كيلا يتلطخ شعره وجبينه بالصباغ الأحمر الغارق بالعرق. هل تعلمون بأنه كان يتوجب كيّه كل يوم؟ إنّ الإنكليز هم الذين أدخلوا الطربوش الحالي المبطّن بالقش الذي يحافظ على شكله، والذي لم يعد يتوجب كيه إلاّ مرةً في الأسبوع. هذه المعلومات شيّقة، بل تاريخية! هذه هي المعلومات التي يجب على مجلّةٍ بارزة كمجلتكم أن تنشرها، عوضاً عن اختلاق المناقشات.

أعاد أحد الشبان الكرّة، دون أن يفقد رباطة جأشه:

ـ ألم يفقد الطربوش معناه على أية حال؟ في الماضي، كانت تحيط به عمامةٌ تضفي عليه تناسقاً وثباتاً. أما اليوم، فأصيص الزهور هذا الموضوع على الرأس يقع أرضاً لأدنى هزة.

ـ لا أسمح لك بوصفه بأصيص الزهور! كما لا أسمح لك بتزييف التاريخ. لقد أدخل إبراهيم باشا الطربوش إلى مصر ليحل محل العمامة التي كانت ثقيلةً للغاية ومُربكة. إبراهيم باشا، يا سيدي العزيز، كان حامل لواء الحداثة. انتبه جيداً لهذه الكلمة: الحداثة. ففي الوقت ذاته، حطّم عصيّ العسكر، وبدّل الأرائك في المحاكم بالكراسي، كما أمر بتنظيف الشوارع مرتين يومياً.

ـ لنعد إلى موضوعنا، يا سيد بطركاني. أودّ أن أطرح عليك سؤالاً بسيطاً: أليست القبعة أكثر أناقةً وأسهل استعمالاً من الطربوش؟

هز جورج رأسه عدة مراتٍ مبدياً أسفه:

ـ لو وضعنا على طاولةٍ القبعةَ الأوروبية والطربوش جنباً إلى

جنب، فربما فازت الأولى. لكن، ضعهما على رأسك وسوف تلاحظ الفرق! الطربوش يا سادتي شيءٌ حيّ، شيءٌ يتكلم. انظروا إليه كيف يقف قائماً على رأس الأشخاص الجادّين، أولئك الذين لا يحبون لفت الأنظار. بالمقابل، فإننا نراه يميل على أحد الجانبين في معظم الأحيان على رأس الأشخاص الأنيقين، سواءً إلى اليمين أم إلى اليسار، وفقاً للذوق والشخصية. لكن حين ترونه مائلاً إلى الخلف، فإنّ هذا يعني أنّ صاحبه ينتمي، بشكلٍ عام، إلى فئة من يحبّون الاستمتاع بالحياة.

ـ وإلى الأمام، يا سيد بطركاني؟ سأل أحد الشبان بلهجةٍ ساخرة.

ـ حين تراه مائلاً إلى الأمام، فقال جورج وهو يحدجه بنظرةٍ ثاقبة، فأنت بالتأكيد أمام شخصٍ أبله أو قليل التهذيب.

انفجر الحاضرون بالضحك.

ـ لن تكتبوا العبارة الأخيرة، فأنا لا أودّ أن أخسر جزءاً من زبائني...

ـ وماذا عنك أنت، يا سيد بطركاني؟ كيف ترتدي الطربوش؟ سأل رئيس التحرير.

فأخرج جورج أهم ما في جعبته، بعد أن شعر بأنّ اهتمامهم يتزايد:

ـ أنا لا ألبسه أيها السادة، بل أتركه هو يلبسني؛ وإن شئتم أن أكون دقيقاً، فإنني أتركها هي لتلبسني، فأنا أمتلك في منزلي، كأيّ شخصٍ يحترم نفسه، مجموعة كاملةً من الطرابيش ذات الألوان المختلفة، والتي تتوافق مع كل مناسبة، بل أكاد أقول مع كل حالة مزاج...

بعد عشر دقائق، كان جورج مايزال يتكلم بين دفقة دخانٍ وأخرى، في حين كان محدثوه يدوّنون الملاحظات بشكلٍ محموم:

ـ الطربوش، أيها السادة، جزءٌ من المظهر العام لمصر، مثله في ذلك مثل أبي الهول والأهرامات. ألم تروا في حياتكم متسولاً

استنزف حججه، فأخذ يمسح بيده على طربوش الشخص الذي يستجديه، وكأنه يزيل عنه الغبار؟ لو كنت مكانكم، لكتبت أنّ الطربوش شيءٌ بالغ الأهمية، ينبغي على الدولة ألاّ تفرض عليه الضرائب، بل أن تقدم له دعماً مالياً.

ظهرت مقابلة جورج بطركاني في الأسبوع التالي تحت عنوانٍ كبير، بصفتها خلاصةً للتحقيق السابق ذكره. وفي مساء اليوم ذاته، تلقى كلٌ من الصحافيين الأربعة في منزله طربوشاً من النوع الملكي الفاخر، مرفقاً بتعليماتٍ للعناية به.

2

كان لجدّي صديقٌ سوريٌّ يعرفه منذ الطفولة، وهو موظفٌ رفيعٌ في القصر. ما من مرة عبر فيها ذلك الصديق ساحة الأوبرا مع موكب الملك إلاّ وفتح نافذة سيارته ليوجّه لجورج تحيةً صغيرةً عبرها. وكان جورج يقف على شرفة مكتبه ويردّ بتلويحةٍ من يده.

خطرت ببال ذلك الموظف الكبير فكرةٌ حسنة، وهي أن يُطلع الملك على المقابلة المنشورة في مجلة *المصور المصرية*. ولأنّ فؤاد كان يكره أهواء أتاتورك الجمهورية، فقد وجد أنّ جورج بطركاني هذا قد أحسن إرسال الإجابة، وقرّر أن يكافئه، فمنحه في اليوم التالي لقب بيه من الدرجة الأولى «للخدمات الاستثنائية التي قدمها للصناعة المحلية»، ودعاه مع زوجته لحضور حفل استقبالٍ في قصر عابدين.

انتشر الخبر في العائلة انتشار النار في الهشيم، فتدفقت برقيات التهنئة، ولم يعد الهاتف يتوقف عن الرنين. أما جورج نفسه، فكان يطير فرحاً عندما يسمع في كل لحظةٍ سائقه وخدمه وموظفيه يدعونه *سعادة البيه*؛ وقد أمر بإعادة صياغة بطاقاته الشخصية واللوحة النحاسية الموضوعة على مدخل بيته، وكتب للأدلة التجارية والجمعيات المختلفة ليبلغها بالحدث. لم يعد تماماً جورج الذي كانه: لقد أصبح اسمه منذ ذلك الحين جورج بيه بطركاني.

- عزيزتي، قال ليولاند، لم تكوني حتى الآن سوى شقيقةٍ لكونت

مؤخرتي؛ أما الآن، فأنت زوجة بيه حقيقي، بيه من الدرجة الأولى!

ربما شعر هنري توتة بالغيرة من صهره، إلاّ أنه لم يُظهر شيئاً من ذلك؛ وفي يوم الأحد التالي، قال له بودٍ خلال العشاء الذي أقيم على شرفه:

- عزيزي جورج، *Audaces fortuna juvat!*(*) أنت على الطريق الصحيح. متى ستحوز على لقب باشا؟

تأثر جدي كثيراً بالملاحظة، وليخفي اضطرابه، حكى إحدى القصص التي سحرته في طفولته:

- في كانون الثاني من العام 1863، قدّر أطباء سعيد باشا أنه لن يعيش حتى نهاية الشتاء. فانتظر إسماعيل، ابن أخيه، النهاية بنفاد صبرٍ متزايد؛ وخوفاً من ضياع العرش، وعد أول من يخبره بوفاة نائب الملك بمكافأة، فذلك الرسول سوف يحصل على لقب بيه، وإن كان حاصلاً عليه أصلاً فسيحوز على لقب باشا.

«بعد أن أجري له عمل جراحي بسبب إصابته بالجمرة، نُقل سعيد إلى جناحٍ مستقل في أحد قصوره بالإسكندرية، وأحيط بشكلٍ دائم بالأطباء والأقرباء ورجال البلاط. أما في القاهرة، فقد كلّف وليُّ العهد مديرَ البريد، بيسّي بيه، أن يبقى قرب جهاز البرق، ليحضر له على الفور البرقية التي تعلن وفاة عمه.

«بعد ثمانٍ وأربعين ساعةً من الانتظار، طلب بيسّي بيه، الذي استُنفدت قواه ولمّا يصله شيءٌ بعد، من أحد موظفيه أن يناوب مكانه، وترك له عربته، وألحّ عليه أن يخبره على الفور بأيّ جديد، واعداً إياه بمكافأة تبلغ مئة تالاري.

«وصلت البرقية، فأسرع الموظف بها إلى عربة بيسّي بيه، وأمر السائس بالذهاب... إلى قصر وليّ العهد. حين وصل إليه، رمى بنفسه عند قدميْ إسماعيل وأعلن له الخبر السعيد، فوعده ذلك الأخير وهو في قمة السرور بمنحه لقب بيه.

(*) أي: القدر يبتسم للجسورين. م.

«استغلّ الموظف الاضطراب الذي ساد الحجرة، فاستعاد البرقية، وأسرع ليوقظ بيسّي بيه الذي منحه المئة تالاري كما وعده، ثم أسرع بدوره إلى القصر حالماً بلقب باشا. لكنه أدرك حين وصل بأنه خُدع، فذهب غاضباً إلى بيت موظفه ليحاسبه على فعلته. إلاّ أنّ ذلك الأخير استقبله ببرودٍ شديد وقال له: «تكلّم معي باحترام من فضلك. هل تعلم بأنني الآن بيه مثلك؟»».

كانت تلك أول مرة يدخل فيها جدّاي إلى قصر عابدين الفخم الذي أمر الخديوي إسماعيل ببنائه وسط القاهرة عام 1860، بعد أن صودرت مئات البيوت، وأوكل أمر تصميمه الداخلي إلى مهندسين أتراك وفرنسيين وإيطاليين.

بانفعال، صعد جورج بطركاني وزوجته الدرج المرمري الفسيح وهما بلباس السهرة، يحفّ بهما الحرّاس من حملة الرماح، وكانوا عمالقةً يرتدون زياً أزرق وعلى صدورهم واقياتٌ لمّاعة، وتنعكس صورهم إلى ما لا نهاية في مجموعةٍ من المرايا. وتبعاً للعرف، أبقت يولاند يدها اليمنى دون قفازٍ كي تستطيع مصافحة الملك.

في صالة قناة السويس التي كانت تشع بكل أنوارها، استقبلهما بأدبٍ جمّ سعيد ذو الفقار، كبير أمناء القصر، الذي كان بالغ الأناقة *باسطنبوليته* المبطنة بالحرير الأخضر وقال:

ـ جلالته حريصٌ على أن يتعرّف عليك يا سيد بطركاني. سيتم التعريف بعد قليل.

شدّ جورج بحرارة على يد الموظف السوري الرفيع الذي يدين بلقبه إليه، وأخذ ذاك يعلّق على كل لوحةٍ من اللوحات الثقيلة التي تزين القاعة، والتي تمثّل مراكب تعبر القناة. في تلك الأثناء، كان الخدم، *بشراويلهم* الحمراء المطرزة بالذهب، يمرّون بين المدعوين، حاملين الصواني الفضية الملأى بكؤوس عصير البرتقال وقطع الحلوى الصغيرة.

لم يدخل الملك القاعة إلاّ بعد نصف ساعة، وما لبث أن خرج منها، متأبطاً ذراع زوجة السفير الفرنسي، للذهاب إلى قاعة الطعام، فتبعه كل المدعوين. أصيبت يولاند بشيءٍ من خيبة الأمل، فكادت ترتدي قفازها.

تم العشاء بوتيرةٍ سريعة، فقد كان عددٌ لا يحصى من *السفرجية* يقفون خلف المدعوين وهم يبدّلون الصحون، كما لو أنهم تلقوا الإيعاز بتسريع مرور الزمن؛ وبعد أقل من ساعة، عاد الملك من جديد إلى الصالة الكبيرة، وطلب تقديم بعض المدعوين له.

كان رجلاً قصيراً، بطيناً، ذا وجهٍ مربع، يضع يده اليسرى داخل جيب *اسطنبوليته* السوداء، ويعلّق على ساعده عصا من الخشب الثمين. حين اقترب جدّاي منه، يتقدمهما ذو الفقار، كان فؤاد يتحدث مع بتسي تقلا، إحدى أشهر نساء جالية الروم الكاثوليك، زوجة ابن مؤسس *الأهرام*، والتي كانت تعتبر حينذاك قوةً سياسية في القاهرة. فقد أدارت الصحيفةَ المرموقة ببراعة بعد وفاة زوجها، بانتظار أن يتمكن ابنها غابرييل من الحلول محلها. بابتسامةٍ صغيرة وقف غابرييل ذاك يستمع إلى الملك وهو يصرّح لأمه بآرائه السلبية حول قادة حزب الوفد. كان ذلك اتهاماً غير مباشر له، فقد انتُخب نائباً ضمن قائمةٍ وفدية...

كان الملك يكره حزب سعد زغلول الذي فاز مؤخراً بالأغلبية في المجلس النيابي. أما عزاؤه الوحيد، فتجلّى في استبعاده الزعيم الوطني من الحكومة في تشرين الثاني 1924، بعد اغتيال السردار البريطاني *سير لي ستاك* في القاهرة.

هتف غابرييل تقلا بودٍ حين رأى الزوجين بطركاني يقتربان: «*مبروك يا بيه!*»، مثيراً في نفس جدّي سروراً عارماً.

وبما أنّ آل تقلا تكفّلا بالتعريف، فقد استغلّ ذو الفقار ذلك، وذهب لملاقاة باشا مسنٍّ نصف أعمى، يرتدي بزّةً سوداء مذهّبة، وعلى جنبه سيف، بدا وكأنه يتلمّس طريقه.

كان فؤاد يتكلّم الفرنسية بلكنةٍ إيطالية خفيفة اكتسبها في

الأكاديمية العسكرية في توران، حيث تلقّى علومه. توجّه الملك ببعض الجمل الاعتيادية لآل البطركاني دونٍ أدنى إشارةٍ للطرابيش، مما دعا جورج للتساؤل إن كان مطّلعاً حقاً على نشاطاته... وفجأةً صدر عن الملك صوتٌ أجشّ أشبه بصرخةٍ، جفلت له يولاند.

لكنها كانت بعيدةً نوعاً ما لحسن الحظ، ومرت حركتها الخائفة دون أن تلفت الانتباه. على أية حال، فقد تابع فؤاد الحديث مع بتسي تقلا كما لو أن شيئاً لم يحدث، في حين اقترب ذو الفقار وبصحبته الباشا المسنّ، وهو يسنده بذراعه.

حدج جورج زوجته بنظرةٍ قاسية، فذنبها لا يغتفر! ألم يحذرها مراتٍ عدة من مثل ذلك الحادث العارض المتوقع؟ لم يكن أحدٌ في القاهرة يجهل تلك الصفة عند الملك، وكانت كل زيارةٍ له إلى المدارس تُسبق بتحذيراتٍ للطلاّب الذين كان يُطلب منهم ألاّ يتحركوا إذا سمعوا ذلك الصوت الملكي الغريب.

والأمر يعود إلى ربيع 1898، حين كان الملك متزوجاً من الأميرة شويكار التي اتهمته بالسيطرة والعنف. وفي أحد الأيام، لجأت الأميرة إلى والديها في «القصر العالي»، فذهب فؤاد على الفور ليعيدها، وبصحبته زمرةٌ من رجال الشرطة.

منذ ذلك الحين، أصبحت شويكار شبه حبيسةٍ للمسكن الزوجي، وانتهى بها الأمر إلى إرسال رسالةٍ إلى أخيها سيف الدين الذي استشاط غيظاً عندما قرأها، وسارع إلى نادي محمد علي حيث كان الملك فؤاد يلعب البلياردو، ودخل إلى الصالة وبيده مسدس. رآه صهره، وبدأ تراكضٌ مجنونٌ حول الطاولة، قطعته أصوات طلقاتٍ نارية. أصابت رصاصةٌ أولى فؤاداً في رئته، وأخرى أصابته في إليته، في حين دخلت ثالثةٌ في حنجرته. وبسبب تلك الرصاصة الأخيرة التي تعذّر إخراجها، كان الملك يُصدر بانتظام تلك الصرخة الغريبة التي سببت الكوابيس لزوجة جورج بيه بطركاني أسبوعاً كاملاً.

رافق مساعدو ذو الفقار المدعوين بلطفٍ إلى المسرح الكبير،

حيث ستقدم فرقةٌ فرنسية مسرحية *الحصالة* لمؤلفها لابيش. صُفّت مئاتٌ عدة من المقاعد المذهبة في هذه الصالة الضخمة المزدانة بالأعمدة والثريات التي تتدلى منها حبات الكريستال. حضرت الملكة نازلي العرض، وهي زوجة فؤاد الثانية، التي منحته وريثاً للعرش عام 1920.

على الرغم من أنّ جورج كان جالساً بارتياح، يشعّ وجهه بالسعادة، إلاّ أنه لم يتابع كلمةً واحدة من المسرحية. لقد أصبح يحمل لقب بيه، وأخذ ينظر لمصر منذ ذلك الحين بعينين مختلفتين. شعر أخيراً، وهو في السادسة والأربعين من عمره، بأنه في وطنه، وأنه مندمجٌ فيه ومحترم. مصريٌّ؟ لم يكن السؤال مطروحاً أصلاً. بل مَن هو المصري حقاً بين الحضور؟ فالملك من أصلٍ ألباني، وقد نشأ في إيطاليا ولم يكن يجيد التحدث بالعربية. أما الملكة، فهي من سلالة رجلٍ فرنسي...

حين منح جورج بطركاني المقابلة لمجلة *المصور المصرية*، أراد أن يثير بعض الضجة من حوله. أما الآن، فقد أخذ يفكر بأقواله بصورةٍ جدية، ووجد أنّ فيها الكثير من الصواب. ألم يكن الطربوش القاسمَ المشترك في هذا البلد المتعدد الأجناس، الذي يجد كلّ من يعيش فيه مكاناً له؟ إنه اليوم بيه، من يمنعه من أن يصبح غداً باشا؟

في الأسبوع التالي، قالت ماغي التي لا يفوتها أمر لأختها بلهجةٍ ماكرة:

ـ لقد تغيرت هيئة زوجك يا حبيبتي، ولم يعد كما كان منذ أن حاز على لقب بيه.

3

أما عائلة والدي، فكانت أبعد ما تكون عن البهوات والباشاوات.

سأل الصوت الصارم آتياً من داخل المرحاض:

ـ ما هي فرنسا؟

فأجاب سليم يارد من مقعده مرتّلاً وهو يؤرجح ساقيه:

ـ فرنسا هي وطننا، هي وطن خساراتنا(*).

فانتفض حين سمع ضربة مسطرةٍ قوية مفاجئة على الباب.

ـ وطن آبائنا، *يا فلاّح*!

صدرت عن سليم تنهيدةٌ عميقة ثم عاد إلى طَلْبته. كان يكره كثيراً طريقة أخيه الأكبر في استدعائه وهو جالسٌ على المرحاض، ولم يكن هناك برأيه أسوأ من ذلك الاستجواب الأعمى. في المدرسة، كان لديه على الأقل الوقت الكافي ليرى المسطرة وهي تهوي على الطاولة أو على اليد. أما هنا، فالمفاجأة تامة. وعلاوةً على ذلك، فالرائحة كريهة.

جاء صوت طرّادة الماء ليحرره أخيراً من عذابه، ولم يبق عليه سوى أن يتخذ هيئةً كاذبة لتلميذٍ مثابرٍ، وأن ينتظر برباطة جأش طقس التأنيب الذي يصاحب فتح الباب.

(*) يبرز المؤلف هنا خطأ الطفل حيث يقول nos pertes أي خساراتنا بدلاً من nos pères أي آبائنا. م.

ـ أقسم لك بحياتي أنك لن تذهب إلى السينما بعد غدٍ إذا لم تحفظ دروسك!

في عصر بعض أيام الأحد، كانت الخادمة تأخذ سليماً ذا الأعوام الثمانية وأخاه جان ذا الأعوام الستة إلى سينما ضاهر، حيث لم تكن الأماكن في *الترسو* أسفل الشاشة مباشرةً تكلّف سوى قرشٍ واحد. هناك، يقوم حارسٌ مسلّحٌ بعصا بمنع أولئك المشاهدين الجالسين في الأماكن ذات السعر المنخفض من تسلّق الحاجز، والوصول إلى مقاعد الدرجة الثانية. وحين لا يروق الفيلم للجمهور، كان يخبط بأقدامه وهو يصيح: *سينما أونطة! هاتوا فلوسنا!* وعبثاً يلوّح الحارس بعصاه؛ فتضاء الأنوار، ثمّ تطفأ من جديد ويُستأنف عرض الفيلم، وسط أصوات فصفصة بزر البطيخ المحمص الذي ترمى قشوره، مستهدفةً نقرة المشاهد الجالس أمام من يأكله...

ـ أتسمع أيها الكسول؟ لن تذهب إلى السينما بعد غد!

لم يكن روجيه يارد يتجاوز الثالثة عشرة من عمره في ذلك الحين، إلاّ أنّه أخذ دور ربّ الأسرة منذ وفاة والده. كانت ميما تتركه يتصرف على ذلك النحو ومشاعرها مزيجٌ من الإعجاب والخشية من ثورات غضبه. إلاّ أنّ ذلك لم يكن يمنعها من أن تصرخ بدورها بين حينٍ وآخر لتدافع عن الصغار.

ـ سوف يُصاب بذات الرئة! تقول مستنكرةً حين يُرغم جان أو سليماً على البقاء على عتبة المنزل في عزّ الشتاء بسبب علاماته السيئة.

ـ عليك إذن أن تغطي رأسه، يصرخ هو من الطرف الآخر للممر؛ قبعة الكسول موجودة في الصوانة.

ورث روجيه ـ الذي كان تلميذاً لامعاً ـ عن أبيه تصميماً قوياً، لكنه لم يرث عنه ذلك المرح الدائم، وتلك السكينة المنيعة على الصعاب، اللذين كانا يُكسبانه سحراً خاصاً.

قلبت وفاة خليل حياة ميما رأساً على عقب، فقد بقيت ثلاثة أيام كاملة خائرةَ القوى وكأنها مخدرة. وحين أمرها الطبيب بتغييرٍ الجو، ذهبت لتستريح عند راهبات الراعي الصالح اللواتي اعتنين

بها عنايةً فائقة: ميما من هنا، ميما من هناك... مع أن الله وحده يعلم كم كانت صدمتهن بها كبيرةً منذ زواجها، بفساتينها وزينتها وسلوكها الشديد الانفتاح...

اختير نعمان، شقيق زوجها، ليكون وصياً على الأولاد، وبناءً على نصائحه، استغنت عن الخادمة الثانية، ولم تحتفظ سوى بفتحية. لقد كان عليها أن تشدّ الحزام مع وجود خمسة أولاد، ذلك أنّ حساب خليل المصرفي، الذي لم يكن كبيراً أصلاً، يمكن أن يتبخر بسرعةٍ كبيرة.

أمضى سليم أول سنةٍ دراسية له في المدرسة البطريركية، حيث ينتمي معظم الطلاب إلى عائلاتٍ متواضعة، ولا يعرفون اللغة الفرنسية جيداً، وحيث لم يكن مسموحاً التحدث باللغة العربية أثناء الفرصة. وكان القساوسة يقدّمون القدوة، بمن فيهم أولئك الذين لايعرفون لغة بوسويه، كالأب عكاوي، ذلك الإكليروسي الضخم الذي كان يظنّ بأنه حسناً يفعل عندما يترجم تلقائياً عباراتٍ عربية إلى الفرنسية. فصنبور الماء يصبح بالنسبة له: أم النبع، وكانوا يسمعونه وهو يصيح من آخر الباحة:

ـ أنتم هناك! أغلقوا الأم!

وقد كُلّف الأب عكاوي بتنبيه الطلاّب الذين لم يدفعوا أقساطهم المدرسية إلى أحكام النظام، فكان يقترب من الطالب المعني خلال الفرصة، ويضرب كتفه بجرسه الصغير. وقد تعرّض سليم غير مرة لمثل تلك المطالبة الرنّانة، مما كان يجعله يحمرّ حتى أذنيه. وبما أنه يكن يجرؤ كثيراً على قول ذلك لميما، لعلمه بالصعوبات المالية التي تتخبط بها، فقد كان يتوجه بالتالي إلى أخيه الأكبر الذي ينتفض حينذاك غضباً «ضدّ أولئك القساوسة اللصوص»، لكنه يذهب على الفور ليقابل العم نعمان من أجل إبعاد جرس الأب عكاوي.

أصبح سليم الآن في إعدادية لاسال في الضاهر، عند أخوة المدارس المسيحية الذين لم يكونوا يعلّمون اللغة اللاتينية، إلاّ أنّ خطّ طلاّبهم كان جميلاً ـ كما كان اليسوعيون يقولون بلهجةٍ تشوبها الرحمة ـ والذين كانوا يعرفون الحساب بفضل درةٍ صغيرة هي كتاب «تمارين في الحساب، حول العمليات الحسابية الأساسية

الأربعة»، من تأليف مجموعةٍ من الأساتذة. فكان سليم ورفاقه يتلون عن ظهر قلب طوال النهار بصوتٍ رتيب، على إيقاع منبهٍ خشبي تنظم دقّاتُه حياة الإعدادية بأكملها: اثنين ضرب اثنين أربعة، ثلاثة ضرب ثلاثة تسعة... كما يدرسون فرنسا، وطن آبائهم المزعومين. وفي المساء، كانوا يسيرون في أزقة الضاهر ويحاولون إحداث بعض الجلبة بغنائهم: «نريد الرب، فهو أبونا...».

بطلاّبهم الذين تجاوز عددهم ثمانية آلاف، كان الأخوة يؤثّرون في الاستعراضات الكبيرة بأعلامهم وعروضهم. وقد استعادت إعدادية الضاهر تقاليدها الجميلة التي كانت لها قبل الحرب، فأخذت تنظّم عرضاً رياضياً كل عام بحضور العديد من الشخصيات. فيرتدي الصغار، كسليم وجان، ملابس بيضاء من الجورسيه وحزاماً أزرق وقبّعة بيريه تصل حتى الأذنين، ويحملقون بأعين مندهشة أثناء مباريات المصارعة وألعاب التوازن على المطوال(*) وتمارين الملاكمة على الطريقة الفرنسية.

كان الأخوة الأعزاء جداً يحملون أسماء تبدو قادمةً من كوكبٍ آخر: نيارك، سولير، جيرفيه ـ ماري، غورديان ـ ديزيريه. وعلى عكس الأب عكاوي، لم يكن وارداً أن يستخدموا عباراتٍ عربية، فقد كانوا فرنسيين حتى أخمص أقدامهم، وكان أحدهم يزجر سليماً بالطريقة نفسها دائماً وهو يقرص أذنه:

ـ رأس شرقي، هيا!

فينتهي صاحب الرأس هذا إلى شيءٍ من الضياع في كل تلك التناقضات، فليس سهلاً على المرء أن يوفّق بين وطن آبائه ونظرات الأخ العزيز جداً، بين أسلافه الغاليين(**) وهذا الشرق الملتصق بجلده...

(*) المطوال: عكازاتٌ قائمة يرتفع عليها السائر. م.

(**) الغاليين: نسبةً إلى بلاد الغال (أي فرنسا). م.

4

كل صباحٍ لدى استيقاظه، كان قلب جورج بطركاني يُفعم فرحاً عندما يتذكر بأنه قد أصبح بيه؛ ولم ينغّص عليه هذا الإحساس سوى أنّ والديه لم يعيشا فترةً كافية ليشهدا تلك الترقية: أباه الياس، وأمه ليندا، وبشكلٍ خاص أمه التي توفيت عام 1894 حين كان عمره أربعة عشر عاماً. لم يكن جورج يستطيع منع نفسه من أن يتذكّر بشكلٍ دائم تلك الوفاة التي انحفرت تفاصيلها في ذاكرته، فقد كانت دون شكٍ أصعب لحظةٍ في حياته وأكثرها إيلاماً.

تقول ليندا بطركاني بصوتٍ منكسر:

ـ تجاوزت الساعة الثانية عشرة بقليل، وفرغ المؤذنون لتوهم من الدعوة للصلاة من أعلى مآذنهم، حين سمعنا ضربتي مدفع تلاهما صوت صراخٍ شديد...

صمتت ليندا أربعة وثلاثين عاماً؛ ربما صمتت بدافع الحياء أو كيلا تزعج أولادها، أو ربما ببساطة لتطرد تلك الأحداث من ذاكرتها... لكن حين اقترب منها الموت، سقطت دفاعاتها واحداً تلو الآخر، فتركت للذكريات أن تجرفها. بدا الأمر وكأنّه جرحٌ متقيحٌ لايمكن السيطرة عليه، يفيض من كل حوافّه.

طوال ستة أيام بلياليها، لم تتوقف تلك المرأة الموشكة على الرحيل عن سرد حكايتها وهي جالسةٌ في سريرها، ووجهها غارقٌ بالدموع. أخذت تكرر نفس الكلمات لكلّ واحدٍ من أبنائها

المضطربين، كما لو أنها تريد أن تتخفّف من عبئها قبل الصعود إلى السماء...

ـ تجاوزت الساعة الثانية عشرة بقليل، وفرغ المؤذنون لتوهم من الدعوة للصلاة من أعلى مآذنهم، حين سمعنا ضربتي مدفع تلاهما صوت صراخ شديد... فقد ظهر مئات الجنود في الحي المسيحي، يتبعهم رعاعٌ يحملون سيوفاً عريضة وفؤوساً جديدةً تماماً وغدّاراتٍ هائلة الحجم، وخلفهم نهّابون ونساءٌ ماجناتٌ يحمّسنهم بصراخهنّ. كانوا حين يصلون إلى منزل أحدنا، يكسرون بابه، ويذبحون البعض، ويأخذون البعض الآخر بعد أن يضعوا في صررٍ كبيرةٍ كلّ ما يسترعي انتباههم، ثم يشعلون النار في المنزل ويذهبون إلى البيت التالي. وويلٌ لمن يحاول الفرار من ألسنة اللهب! فبعضهم كُسرت أطرافهم، ومزّقت طعناتُ الخناجر أجساد البعض الآخر، وهناك من عُلّقوا من أرجلهم فوق الأتون...

ـ كفى يا أمي، يقول جورج. ما الفائدة؟ إنك تعذّبين نفسك.

كانت تتابع دون أن تسمعه.

ـ وويلٌ للحوامل! فأولئك الوحوش بقروا بطونهنّ وألقوا بثمرةِ أحشائهنّ أرضاً ليدوسوها بأقدامهم. بل إنهم، يا عذراء! قاموا بشيّها على اللهب بطرف عصيّهم...

ـ وما الفائدة، *يا ماما*؟ ما الفائدة؟ يتوسّل جورج والدموع تملأ عينيه.

عادت ليندا إلى الماضي، وحكت كيف كان مسيحيو دمشق يعيشون قبل أحداث 1860، فاستذكرت لوحةً ساحرة لمدينةٍ ضمن المدينة.

ـ بلغ عدد بيوت حارة النصارى ثلاثة آلافٍ وثمانمئة بيتٍ. وكان سكانها إما تجاراً أو حرفيين أو مهندسين أو أطباء... وتميزوا بالعلم وحسن التربية والسلوك اللطيف المهذّب. بعضهم، كأبي مثلاً، عملوا في المحكمة المحلية؛ فلم يكن من الممكن كتابة أيّ عقدٍ أو أيّ حكمٍ بدونهم. والبعض الآخر، كخالي حنّا، تداولوا

أموالاً كثيرة وأقرضوا الباشاوات. لم يكن للمسيحيين الحق في امتلاك الأراضي، فكرّسوا كلّ عائداتهم لتجميل منازلهم وإهداء الحليّ لزوجاتهم وبناتهم.

بيدٍ واهنةٍ مرتجفة، تسحب ليندا بطركاني سلسلةً معلّقةً حول رقبتها، مظهرةً الصليب المطعّم بالفيروز الذي كان كلّ ما تبقّى لها من الماضي.

ـ لم يكن مظهر بيوتنا من الخارج يشي بما في داخلها. فقد كنا نحرص على عدم التميّز عن الآخرين. أما في الداخل، فالسحر بعينه. كانت باحة دارنا مبلّطةً بالمرمر، وتتوسطها فسقيةٌ يتدفق فيها الماء، تحيط بها أشجار البرتقال والليمون. كانت كلّ الأبواب منقوشةً وكلّ الأسقف مزخرفة. من سطح بيتنا، كنا نشرف على حدائق المدينة، ومن بعيدٍ نرى الجبال التي يسيل منها العديد من الجداول التي جعلت من دمشق أكثر المدن السورية غنىً بالماء وأجملها.

طلبت ليندا كأساً من الماء، فسارع جورج لإحضاره وهو يأمل أن تتوقف القصة هذه المرة عند هذا الحد. إلاّ أنّ ليندا تابعت قائلةً:

ـ كان مسيحيو دمشق يتّصفون بحلاوة العسل ووداعة الحِملان، ولم تُخفِ بيوتنا يوماً بندقيةً أو سيفاً. لماذا فعلوا ذلك؟ لماذا؟ لماذا؟

أخذت تبكي، فانسكب كأس الماء على شراشف السرير؛ مدّ جورج يده بمنديلٍ كبيرٍ أبيض وقال:

ـ ارتاحي *يا مامي*، نامي قليلاً...

ـ ذهب اثنان من أخوتي الكبار في صباح ذلك اليوم على صهوة حصان مع شبانٍ آخرين في الحيّ ليخبروا الأمير عبد القادر، فقد استشعروا الخطر حين رأوا إشارةً رسمت بالفحم على أبواب بيوتهم ليلاً. آثر أبي المسكين البقاء معنا، فأخذه أولئك المتوحشون بعد أن سرقوا بيتنا وأحرقوه، ولم أره بعد ذلك أبداً...

«ذهبنا أنا وأخوتي الثلاثة الآخرون وأخواتي الأكبر مني سناً

وأمي ملتجئين إلى جارةٍ مسلمة، فوافقت على إيوائنا. لكنها في صباح اليوم التالي شعرت بالخوف فطردتنا، ولم يعد أمامنا سوى الرحيل ونحن نحتمي بجدران الحيّ.

«ما أن خطونا عشرين خطوة حتى بزغ ثلاثة رجالٍ مسلّحين من شارع جانبي وانقضّ اثنان منهم على أختيّ الكبيرتين اللتين أخذتا بالصراخ، فحملاهما على أكتافهما رغم توسلات أمي، وأخضعاهما لأقصى الانتهاكات في منزلٍ مجاورٍ على بُعد خطواتٍ منا، في حين كان الثالث يهددنا بمسدّسٍ كبير، وسمعنا أصوات صياح أختيّ، الصياح...

أخذت ليندا تصيح هي أيضاً، وحاول جورج أن يهدّئها بترطيب وجهها بماء الورد؛ إلاّ أنّ الجرح استمرّ في نزّ صديده دون رحمة.

«قال الرجل ذو المسدس: «انقلعوا، يا كلاب!» ثمّ أطلق رصاصةً باتجاهنا، فوقع أخي كمال أرضاً والدم يملأ وجهه. سحبتنا أمّنا وهي تركض إلى بيت المسلمة الذي كنا قد تركناه لتونا، وأخذت تنهال بالضربات على الباب وهي تصرخ بصوتٍ ثاقب، ثم دفعت الجارة وأدخلتنا. بقينا هناك خائري القوى عدة أيامٍ وليالٍ».

سبّبت هذه الحكاية هزّةً كبيرةً لجورج، لكنّ أكثر ما أثّر به هو فكرة أنّ أمه لزمت الصمت كل ذلك الوقت. فهي لم تكن قد ذكرت لهم عن طفولتها في دمشق حتى ذلك الحين سوى الجانب الجميل. وهاهي الآن تفتح فجأةً باباً لم يكن وجوده متوقعاً، خلفه مذابح وأنقاض. صحيحٌ أنّ جورج سمع كثيراً قبل ذلك بعض الكبار وهم يتحدثون عن أحداث دمشق، إلاّ أنّ الأمر مختلفٌ هذه المرة، فما يروى هنا بصيغة المتكلّم - وأيّ متكلّم! - قد صدمه بشدة، إذ اتخذ كل شيءٍ شكلاً ومعنى.

رسمت ليندا إشارة الصليب، ثمّ حكت كيف آواهم الأمير عبد القادر الذي تكنّ له كلّ العرفان - مع ثلاثة آلاف مسيحيٍّ آخر - في قصره بدمشق. لكن ذلك لم يوقف المجازر. وأخذت تقصّ عشرات

التفاصيل المريعة حول مسيحيين صلبوا، وأطفالٍ قُطعت رؤوسهم في أحضان أمهاتهم...

لم يعد جورج يحاول مقاطعتها، فقد آن أوان أجمل مقاطع القصة: الهجرة إلى بيروت، واستقبال رجال الدين لهم، والجنود الفرنسيين الذين غمرتهم القبلات... وفي العام التالي، ركوب البحر صوب الإسكندرية، والأمواج، والعاصفة، وبراميل الزيتون التي تنكسر سلاسلها وتتدحرج على جسر المركب... لكنهم مع بزوغ ضوء النهار شاهدوا بحراً كالزيت وسماءً كالحرير. مصر!

ـ كنا جميعاً على جسر المركب مستندين إلى حافته، ننظر إلى مجموعةٍ من المكعبات البيضاء والكثبان وأشجار النخيل وهي تكبر في الأفق. وعندما دخلنا إلى الميناء، اقتربت من مركبنا قوارب شراعية ألقى ركابها علينا التحية باللهجة المصرية وأجبناهم بلهجتنا السورية. وددنا، من فرط فرحنا، أن نقدّم لهم المال أو بعض القطع الذهبية. لكننا، بالطبع، لم نكن نملك شيئاً؛ فقمت بحلّ المنديل الذي يغطي شعري ورميته نحوهم.

أضاء وجه ليندا:

ـ كان بجواري شابٌ من حلب يقهقه، وكان جميلاً كالملاك جبرائيل، يدعى الياس بطركاني.

5

بين يديّ النشرة الجميلة التي صدرت في العام 1929 بمناسبة اليوبيل الذهبي لثانوية العائلة المقدسة. وأبرز ما ذُكر في هذه النشرة هو حفلة شاي للطلاّب القدامى، أقيمت في العام السابق على شرف محمود فخري باشا، صهر الملك، وشارك فيها بول، وكذلك ميشيل الذي استفاض في الدفتر الرابع من مذكراته في وصفها. فعصرُ ذلك اليوم الذي واكبته الموسيقى والذي حدّثني عنه أكثر من مرة مثّل بالنسبة له رمزاً لفترة الأيام السعيدة...

كانت فكرة سعيد ذو الفقار ساحرةً، ولم يكن ميشيل آخر من هنأه عليها. فحفلة الشاي التي تجمع الطلاب القدامى أعادت التقليد السابق بصورةٍ لطيفة. قدّم عرّابي نفسه لكبير أمناء القصر الذي شدّ على يده بحرارةٍ دون أن يعرفه، مثلما كان عليه أن يفعل طوال الأسبوع في عابدين مع شخصياتٍ من أصولٍ مختلفة.

ذو الفقار الخالد! لقد انقضت اثنتا عشر سنةً على زيارة السلطان للثانوية التي كان ذو الفقار منظمها الرئيسي... اثنتا عشر سنةً من المآسي، والتجديدات، والوفيات، والولادات. إلاّ أنّ كبير الأمناء حافظ على الابتسامة نفسها وعلى الوظيفة ذاتها في القصر، تلك الوظيفة التي منحته اعتراف العالم بأجمعه، كما بدا من قائمة أوسمته السبعة والعشرين: الفارس الأول للإمبراطورية البريطانية، الفارس الأول لجوقة الشرف، الفارس الأول لعرش سيام والعرش

الملكي البروسي، وشاح إسماعيل الأكبر، وشاح النيل الأكبر، وشاح نهضة الحجاز الأكبر، وشاح الثالوث المقدس الأثيوبي الأكبر...

استعرض ميشيل في رأسه تلك السنوات الاثنتي عشرة: موت السلطان حسين، الجماهير المتجمعة في ساحة الأوبرا، وجه السائس الدامي، حزب الوفد، البطل القومي سعد زغلول وزوجته تلوّح بالعلم الأخضر على الشرفة، مصر المستقلة، فؤاد الأول المتباهي وشاربيه المفتولين، النصر المدوّي للوفد في انتخابات 1924، زغلول رئيساً للمجلس، قبطيّاً في منصب وزير الخارجية، اغتيال السير لي ستاك، اضطرار زغلول للاستقالة، سفر فؤاد إلى أوروبا، استقبال البابا لفؤاد، وفاة سعد زغلول، النساء يمزّقن خمرهنّ صائحاتٍ من الألم، الوفد، الوفد دوماً...

وذو الفقار وفيٌّ للمنصب! لقد حلّ محل محمود فخري باشا كرئيسٍ لجمعية الطلاّب القدامى حين أصبح ذلك الأخير وزيراً مفوضاً لمصر في باريس. وقد استغلّ ذو الفقار مرور فخري باشا في القاهرة ليدعو إلى انعقاد الجمعية العمومية في الخامس من شباط 1928، تلا ذلك حفل شاي.

زُيّنت قاعة الاحتفالات في المدرسة بأعلام مصر وفرنسا والفاتيكان، وجلس على مائدة الأب المدير ما لا يقل عن أربع باشاوات. كما حَفِل الاجتماع بالمستشارين الملكيين وكبار الموظفين والقضاة في جوٍ من الروح الرفاقية المرحة.

رأى ميشيل أخاه بول في الطرف الآخر من الصالة وهو يتحدث مع جرّاحٍ سويسريّ. إنّه بول ذو الاثنين والعشرين عاماً، الدائم الأناقة والصلف، بول الذي يبشّر بأنه سوف يصبح محامياً لامعاً، بول الذي يُقحم نفسه دائماً بين الأوروبيين...

أظهر ذو الفقار مقدرةً بارعة في التنظيم. فقد بدأ برنامج مابعد الظهر بالموسيقى، حيث عزف الدكتور إدوار شقير على كمانه أنغاماً حزينة جميلة، تبعه طبيبٌ آخر هو الدكتور أوسكار شدياق الذي غنّى بسعادةٍ أغنيةً لبوتريل؛ وقد صفق لهما الحضور بقوة.

ابتسم ميشيل بارتياح؛ فقد كان يشعر بأنه في صحبةٍ جيدة ضمن شرنقةٍ لذيذة، وبدا له وكأنه ينتمي إلى نادٍ للمحظوظين لاوجود فيه للحواجز الطائفية. حسناً، تقريباً... هنا في الثانوية تنقلب الأدوار، كما كان الأمر في الصف سابقاً، فالمسلمون الذين يشكّلون أقليّة يبدون كالضيوف، ومصر كانت في أرضٍ فرنسية وتفكر باللغة الفرنسية.

حتى وجود فكتور ليفي على طاولةٍ مجاورة لم يفلح في إفساد سرور عرّابي. فالزميلان السابقان، اللذان اختلفا بسبب حكاية لافونتين، لم يوجّها لبعضهما الكلام منذ تخرجهما من المدرسة قبل خمسة أعوام؛ وحين كانا يتقابلان بالمصادفة في المدينة أو في السينما أو في محلّ غروبي، كان كلٌّ منهما يتظاهر بأنه لم يرَ الآخر.

كان فكتور ليفي يدرس في كلية الفنون الجميلة، في حين كان ميشيل يتساءل عن موضوع أطروحة الدكتوراه التي سيتقدم بها بعد أن حاز على إجازةٍ في التاريخ. فهل سيختار حياة السلطان حسين بأكملها، أم الأشهر الثلاثة والثلاثين التي أمضاها في الحكم؟ لكلٍ من الصيغتين مساوئها.

من مختلف أرجاء القاعة، تصاعدت أصواتٌ تطالب بالصمت، فجوزيف بيه قسيس، النائب في قلم قضايا الدولة، سوف يسرد قصيدةً ألّفها للمناسبة.

الشرف والفضيلة، ذلكم هو الشعار العظيم

الذي أتانا من باشا محبوبٍ ومعروف

فلنحيِّ بكل فرحٍ ذلك الرئيس المرموق

ولنشكره على حضوره في هذا اليوم!

ابتسم الحضور بسرورٍ بالغ. ليس هناك مجالٌ للشك: لقد جادت قريحة جوزيف قسيس.

حين عيّنك فؤاد الأول، مليكنا المهيب

في فرنسا، وزيراً وسفيراً

فقد أعطى لتقديره طابعاً ملكياً

وبدوره عيّنك البابا قائداً.

تعالى التصفيق، فنهض محمود فخري باشا وانحنى قليلاً.

أصبحت مصر معروفةً بصورةٍ أفضل

ففي كلّ عاصمة، استُقبل مليكنا بأحرّ الترحاب

وانتشرت الأبهة والروعة الشرقية

إنه لفخرٌ حقيقيٌ لنا، نحن رعاياه

وهنا، إذا صدّقنا نشرة اليوبيل الذهبي، اضطر جوزيف قسيس للتوقف دقيقةً كاملة ليترك المجال للتصفيق والتهليل. إلاّ أنه لم ينسَ أحداً:

إنه فخرٌ للأخوية العزيزة

ذلك الذي بقي حاضراً مع الملك

فقد كان دوماً في الصفّ الأول للبلاط

إنه الرئيس الرفيع ذو الفقار!

استدار الأب المدير نحو كبير الأمناء وهو يهزّ برأسه موافقاً، مما أثار التهليل من جديد...

كان الطلاّب القدامى يشعرون بالارتياح لوجودهم معاً، ولم يفكّر أحدٌ منهم في المغادرة؛ حتى أنّ فخري باشا نفسه بدا وكأنّه لايتعجّل الانصراف. وحين نهضوا عن المائدة، التفّت مجموعةٌ صغيرةٌ حوله. اقترب ميشيل في اللحظة التي كان فيها بلجيكيٌ من مصرف التسليف العقاري يسأل ضيف الشرف عن مستقبل الامتيازات. هل كانت مصر مصممةً حقاً كما كان يُقال على إلغاء الامتيازات الممنوحة منذ أعوامٍ لرعايا عددٍ من الدول الأجنبية؟

- لم يعد لهذا النظام معنى، أجاب فخري باشا بصوتٍ واثق؛ فمصر هي البلد الوحيد تقريباً الذي أبقى عليه. في الماضي، وُضعت هذه الامتيازات وأشكال الحَصانة لتسمح للأجانب المقيمين في

الإمبراطورية العثمانية بتنظيم العلاقات في ما بينهم وفقاً لقوانينهم الخاصة ودون تدخلٍ من السلطان. لكن، مع تزايد ضعف الإمبراطورية، أصبحت تلك الضمانات حقوقاً خارج حدود بلادهم.

ـ ألست تبالغ قليلاً، سيدي الوزير؟

ـ لا! فأنت تعلم جيداً أنّ في مصر أجانب من مختلف الجنسيات؛ وحين يكونون شركاء في الجرم نفسه، فإنهم يحاكمون كلٌّ في محكمته القنصلية، وحسب قانون بلاده! وهذا منافٍ للعقل.

ـ أنتم تريدون إذن إلغاء المحاكم الخاصة؟ هتف البلجيكي.

أبدى فخري باشا شيئاً من التبرّم:

ـ من قال بإلغاء المحاكم الخاصة؟ ليكن بعلمك أنّ والدي هو الذي أشرف على إقامتها عام 1875 حين كان وزيراً للعدل! أنا لا أريد إلغاءها يا سيدي العزيز، بل أريد، على العكس، زيادة سلطاتها، فلها، وليس للمحاكم القنصلية، ينبغي أن تحال الجنايات التي يُتّهم فيها أجانب. لكن ينبغي أيضاً أن يمثّل القضاة المصريون بشكلٍ أفضل قليلاً على رأس هذه السلطات القضائية!

ـ أنت توافق معي، سيدي الوزير، بأنّ الامتيازات ليست أكبر أشكال الظلم الذي تعاني منه مصر...

ـ ربما، يا سيدي العزيز، ربما. لكن هذا الظلم بالذات يشلّ البلاد. وأنت تعلم جيداً بأنّ النظام القضائي ليس وحده موضع جدال. لا تنسَ أنه لا يمكن فرض أيّة ضريبةٍ مباشرة على الأجانب المقيمين في مصر دون موافقة كافة القوى العظمى. والحال أنّ الحكومة المصرية بحاجةٍ إلى موارد مالية جديدة...

ـ لا شيء يمنعها من فرض ضرائب جديدة...

ـ ينبغي مع ذلك أن نتمكّن من جعل الأجانب يدفعونها، وأن نستطيع تطبيق العقوبات المناسبة عليهم! لقد منعت المحاكم المختلطة الحكومةَ من فرض الضرائب على الأجانب في مناسباتٍ عديدة.

لم يستسلم البلجيكي:

ـ لماذا تعلّقون كل تلك الأهمية على الأجانب؟ لا يوجد في مصر على حدّ علمي أكثر من مئة وستين ألف أوروبيّ...

تدخّل محامٍ قبطي بشيءٍ من الحدة:

ـ تقول مئة وستين ألفاً؟ لكن هؤلاء المئة والستين ألفاً ياصديقي العزيز يمتلكون قسماً كبيراً من ثروة البلاد! هل تعلم أنّ جزءاً من سبعة من المساحة المزروعة يملكها أولئك الأجانب؟

عند هذا الحد، رأى الأب المدير بأنه من المناسب إخلاء سبيل فخري باشا، إذ أنّه خشي أن يحتدم النقاش؛ فتركه الباشا يقوده إلى سيارته، مودَعاً بالتصفيق.

زمجر بول بطركاني الواقف خلف ميشيل قائلاً:

ـ وماذا لديه ضد الأجانب، هذا الفلاّح القبطي؟

6

كانت فيفيان، ذات السنوات الست، تشعر بأنّ أخوتها الكبار ينتمون إلى عالمٍ آخر غير عالمها، ولم تكن تعرف موقعها بالنسبة لميشيل وبول اللّذين كانا يتحدثان ويلبسان ويتصرفان كالراشدين. هذا عدا أندريه الذي لم تره أبداً والذي كانت تتخيله تارةً على شكل شيطانٍ متمرد، وأخرى بلحيةٍ بيضاء على شكل القديس بطرس...

جلست الفتاة الصغيرة في الصالون قرب جورج بطركاني، وعلى ركبتيها ألبوم صورٍ كبير، وأشارت بسبابتها إلى صورةٍ مصفرّةٍ قليلاً.

ـ وهذه، من تكون؟

ـ ألم تعرفيها؟ إنها أمي المسكينة! لقد أُخذت هذه الصورة لها في شارع شبرا... انظري، كان من الممكن رؤية الأهرام في الأفق البعيد.

بحثت فيفيان دون جدوى عن أيّ شيءٍ يمكن أن يشبه الأهرام؛ إلاّ أنّ الصورة كانت شديدة الغبش، أو أنّ المصور لم يركّز على الهدف كما ينبغي...

ـ وهذا الصبي البدين على الحمار؟

ـ اسكتي، هذا عمك ناندو.

قهقهت الطفلة، وضحك أبوها بدوره وهو يضمها بين ذراعيه. كانت لحظاتٍ أزلية.

في الخامسة من عمرها، كادت فيفيان تموت بسبب إصابتها بالتهاب السحايا؛ حينها فقط، شعر جورج بوجود ابنته الصغرى، وأحسّ تجاهها بحبٍ غامر؛ فكان يرابط قرب سريرها ساعاتٍ بأكملها، ويطلب الطبيب في ساعةٍ متأخرة من الليل، منذراً إياه بضرورة شفاء الصغيرة... في الصباح، حين يذهب إلى المعمل، يأمر السائق بالالتفاف ليمرّ بكنيسة الرضوانية كي يشعل فيها بعض الشموع، الأمر الذي لم يحصل قبل ذلك. أما بعد الظهر، فيلغي كافة المواعيد ويعود إلى البيت بأقصى سرعةٍ.

ـ أين هو ذلك الطبيب الحمار؟ يصرخ حالما يدخل وهو ينزع طربوشه.

وذات يوم أربعاء، أجابه صوت نهيق: لقد تأكد الدكتور دبّاس، الذي يتمتع بروح الدعابة، أنّ فيفيان قد تجاوزت الخطر...

أشارت الفتاة الصغيرة إلى صورةٍ أخرى بدا فيها ضابطٌ أوروبيّ بأبهى حالاته، وسألت:

ـ هل هذا هو الجنرال سمبسون؟

ـ إنه الكولونيل سمبسون. أما الحصان الذي بجانبه، فهو السيدة سمبسون.

لكن فيفيان لم ترَ حصاناً...

حين توفّي الياس بطركاني العام 1920، لم يجد أبناؤه الثلاثة صعوبةً في اقتسام الميراث الهزيل. فقد وضع ناندو عينه على ثلاثة فدادين من الأرض قرب المنصورة كان قد دفع أباه ليشتريها. أما نيني، فأرادت طقم السفرة الفضي؛ ولم يولِ جورج اهتماماً إلاّ لجهاز التصوير المكسوّ بالغبار، بمعدّاته وركيزته الثلاثية القوائم.

ـ هل أستطيع أن آخذ الصور أيضاً؟ سأل جورج.

ـ نعم، سنتركها لك هديةً، أجاب ناندو الذي لم يكن يهتم سوى بالمطبوع من الورق.

اضطر سائق جورج أن يقوم برحلتين كي ينقل كل علب القبعات

التي كدّس فيها الياس أعماله. كان قسمٌ كبيرٌ من تلك الصور لا ينفع إلاّ لسلّة المهملات، إلاّ أنّ ما تبقّى منها كان كافياً لملء تسعة ألبوماتٍ كبيرة. أما جهاز التصوير الذي أعيد جديداً وكُلِّف أحد الخدم بتلميعه بانتظام، فقد تصدّر إحدى زوايا المكتب.

في كثيرٍ من الأحيان، كانت فيفيان، عصر يوم الأحد، تأخذ أحد الألبومات المغلّفة بالجلد الكستنائي اللون، وتطلب من أبيها أن يعلّق على محتوياته أمامها. كان هناك، بين عددٍ كبيرٍ من الصور الأخرى، مجموعةٌ كاملةٌ لسطيحة الشيبرد التقطت من الشارع. ظهر في إحداها جورج طفلاً، ممتطياً أحد تمثالي أبي الهول في مدخل الفندق. لقد بقيت ذكرى ذلك اليوم محفورةً في ذهنه، فتلك كانت المرة الأولى التي حُمل فيها إلى الجانب الآخر من الحاجز، إلى داخل تلك المملكة الرائعة، وذلك بفضل ترجمانٍ لطيف، ربما أثار اهتمامَه جهاز تصوير الياس.

في عصر أحد الأيام، أعادت فيفيان الألبوم إلى مكانه، ثم تسللت إلى حجرة الخدمة لتستولي على قطعةٍ من البسكويت دون أن تراها الآنسة غيومار، واثقةً بأنها تستطيع الاعتماد على تواطؤ رشيد، *السفرجي* ذي الندبة. لكنها عندما دخلت إلى الحجرة وجدت نفسها وجهاً لوجهٍ أمام صبيٍّ يرتدي جلاّبيةً زرقاء بدا أكبر منها بقليل، أي في الثامنة أو التاسعة من عمره.

ـ من أنت؟ سألته بالعربية، بمظهر المتحدّي.

فأجاب رشيد نيابةً عن الغلام:

ـ هذا حسن، ابن أخي المسكين صبري الذي قضى نحبه خلال أحداث 1919.

وقف كلّ من الطفلين يحدج الآخر بنظراته بازدراءٍ وصمت، في حين كان الخادم مشغولاً أمام الثلاجة الكبيرة؛ وعبر النافذة، سمعا نداءً بعيداً يقترب، أشبه بطَلبةٍ تقول:

ـ *صندوق الدنيا، صندوق الدنيا...*

خفق قلب فيفيان بقوة، فذاك كان *أبا سمسم*، حاملاً صندوق العجائب. اقترب الطفلان من النافذة في الوقت نفسه، ورأيا رجلاً معمّماً يظهر من شارعٍ جانبي، وعلى كتفيه مقعد وصندوقٌ كبير وحاملٌ خشبي.

ـ أنا ذاهب، قال حسن لعمّه دون أن ينتظر الجواب.

كانت فيفيان الغاضبة تعلم بأنها لن تتبعه، فقد منعتها أمها مئة مرة من الذهاب إلى صندوق العجائب:

ـ إنه وسخٌ ومليء بالجراثيم. أنت ترين بعينيك، لا يوجد هناك سوى العرب.

وضعت فيفيان مرفقيها على النافذة والغيظ يأكلها لرؤية حسن يتقدم نحو المقعد. تراكض أيضاً عددٌ آخر من أطفال الحيّ. ومقابل قطعةٍ صغيرةٍ من النقود، تمكّن خمسةٌ منهم من الاقتراب من العدسات السحرية الخمس. غطى *أبو سمسم* رؤوسهم بقطعة قماشٍ سوداء ثم أدار ذراعاً وهو يغني:

يا سلام، يا سلام

شوف الفرجة دي كمان...

ورأى الأطفال على التوالي مركباً شراعياً كبيراً، والشيطان، والملاك جبريل، ورجلاً يحمل بين يديه رأس امرأةٍ يسيل منه الدم، وتنيناً، ويوسف وعزيزة، وقاطرةً، وشمشون الجبار وهو يهدم أعمدة الهيكل، وألف أعجوبةٍ أخرى. وحين حرّرت قطعة القماش رؤوسهم، كانوا يضحكون ويتحدثون جميعاً في الوقت نفسه. ترك حسن خمسة زبائن آخرين يقتربون، فقد نفذت نقوده.

أغلقت فيفيان النافذة بعنفٍ، ثم تركت حجرة الخدمة، في حين عاد صوت *أبي سمسم* الخافت إلى الغناء بنفس اللهجة:

يا سلام، يا سلام

شوف الفرجة دي كمان...

7

عاش أندريه الأعوام الأولى لتأهيله الديني في ليون وكأنها حلم. فكان يسبح في الغبطة ويستسلم لتشرّب الوسط السائد بلطف. كان العديد من رفاقه ينتمون إلى طبقة النبلاء أو البرجوازية الكبيرة الفرنسية؛ ألم يأخذ يخاطب أبويه مثلهم بصيغة الجمع؟ وتُبرز رسالةٌ كتبها في صيف 1924 ذلك التأثر تماماً: «... فلتعلموا، يا أمي الحبيبة، أننا أمضينا معظم يوم الرابع عشر من تموز ونحن نصلّي، بعيداً عن فظاعات الاحتفالات في المدينة...».

بدءاً من العام 1926، عاد أندريه يخاطب أبويه بصيغة المفرد، ولم يعد يحلم بمحاربة الثورة الفرنسية، فقد عاد إلى أرض الواقع ـ وإلى الأرض المصرية، وانقلبت طريقته في فهم العالم رأساً على عقب بسبب حادثٍ بسيط جرى ذات أحدٍ شتائي.

ففي ذلك اليوم، وبعد النزهة، ناداه الأب المشرف إلى مكتبه وقال له:

ـ سوف نستقبل في الأسبوع المقبل مطران بيروت للموارنة الذي يمرّ في فرنسا بشكلٍ عابر، وأود أن أقدم له مفاجأةً صغيرة. هل يمكنك أن تكتب نصاً بالعربية تعرض فيه محتوى وروح التأهيل الذي نقدمه هنا؟

اضطرب أندريه، واضطر للاعتراف بأنّه عاجزٌ تماماً عن ذلك. صحيحٌ أنّه كان يتكلّم العربية ويقرؤها بشكلٍ متوسط، ويكتبها قليلاً،

إلاّ أنّ مستواه لا يصل إلى درجة كتابة عرض. فاستغرب المشرف:

ـ أنا لا افهم. إنّ العديد من اليسوعيين الفرنسيين في بلاد الشام يبذلون جهوداً خارقة لتعلّم اللغة العربية في حين أنك أنت، الذي تدرسها منذ الطفولة، أنت المصري، الذي سوف تمارس رسالتك في الشرق الأوسط، تجيز لنفسك عدم معرفة تلك اللغة كما ينبغي!

احمرّ وجه خالي خجلاً وبربر ببعض الكلمات، ثم صعد إلى غرفته وهو شديد الانزعاج، إذ لم يسبق له أبداً أن فكّر بالأمر على هذا النحو. ففي مدرسته بالقاهرة، قام أساتذةٌ سوريون ممتازون بتعليم اللغة العربية، لكن الطلاب كانوا يعتبرونها لغةً أجنبية، ولايولونها إلاّ الحد الأدنى من اهتمامهم. وحتى أولئك الذين يحضّرون للشهادة الثانوية المصرية كانوا يختارون تقديم امتحاناتهم باللغة الفرنسية، فالقانون كان يسمح بذلك. والحقيقة أنّ القدوة كانت تأتي من الأعلى، فالملك فؤاد لم يكن يجيد العربية، وكانت جلسات مجلس الوزراء تدار عادةً بالفرنسية...

إلاّ أنّ أندريه لم يبحث لنفسه عن أعذار، وكتب لأبويه في مساء اليوم نفسه يطلب منهما إرسال كتابٍ موجزٍ في اللغة العربية، وقاموس، واشتراك في مجلتين قاهريتين، ومجموعة من الرِيَش ذات الرؤوس المربعة بأسرع ما يمكن.

ـ إذا كنت قد فهمت جيداً يا حبيبتي، قالت ماغي لأختها، فإن ابنك ذهب إلى ليون ليتعلم العربية...

بدأ نوعٌ من التقارب بين جورج يطركاني وابنه البكر في نهاية عام 1926، ويعود جزءٌ من الفضل في ذلك إلى مصر. ألم ينظر كلٌ منهما إليها منذ ذلك الحين كشبه وطن؟ أصبح البيه الجديد والمستعرب الجديد يعتبران نفسيهما مصريين، رغم أنّ القانون الشهير حول الجنسية قد ظلّ في الأدراج، إذ وجد الملك فؤاد وحزب الوفد في ذلك القانون مناسبةً أخرى للخلاف بينهما، وأرجئ التصويت عليه إلى أجلٍ غير مسمى.

وعلى مرّ السنين، أظهرت رسائل أندريه قناعةً ويقيناً متزايدين. وكان قسّ المستقبل يكتب بكثرةٍ إلى أفراد الأسرة كافة، مقدماً لهم بشكلٍ صريحٍ نصائح، إن لم يكن إرشاداتٍ في الحياة. وشكّلت تلك الرسائل سلطةً معنويةً عن بعد، تتصدّى في آنٍ معاً لأكثر المواضيع تنوعاً. فقد تابع أندريه باهتمام التعليم الديني للولا، والنتائج المدرسية لفيفيان، وأشغال والده، والأعمال الخيرية لوالدته...

كانت يولاند متأثرةً بشدة بثقافة وإيمان أندريه، وتحتفظ ببعض رسائله لتقرأها على صديقاتها في يوم استقبالها المعتاد، كل ثلاثاء.

ـ *اسم الله، اسم الله*! كانت أولئك السيدات يهتفن بإعجاب، بشرفي، يا يولا، لقد أنجبتِ مطران المستقبل...

فتتلمس جدتي الخشب في مقعدها أو تقوم بحركةٍ خفيةٍ لطرد العين الحاسدة.

أما ألكس، فقد كان نصيبه من أخيه الأكبر رسائل شعرية حقيقية كانت في بعض الأحيان تثير حنقه، وفي أحيانٍ أخرى تضحكه بشدة.

ليون في الخامس عشر من حزيران 1930

عيد الثالوث الأقدس.

عزيزي ألكس

ستبلغ التاسعة عشرة من عمرك، وهي سنٌّ صعبة بانتظار تلك التي سوف ترتبط بك يوماً على السرّاء والضرّاء.

إنك تعلم ربما بأنّ الزواج المبكر غير مستحب أبداً؛ فالإحصائيات تشير إلى أنّ الشبان الذين يتزوجون قبل الخامسة والعشرين من عمرهم، والفتيات اللواتي يتزوجن قبل الثامنة عشرة يموتون بنسبةٍ أعلى من العزاب الذين يماثلونهم عمراً. وبالفعل،

وحسب أخصائيين بارزين، فإنّ الوظيفة الإنجابية تتطلب بذلاً معيناً للطاقة الجسدية يتحقق على حساب العضوية ذاتها.

لا ضرورة مع ذلك لأن أنكّرك بضرورة التزام العفّة حتى يتمّ الزواج، فالشبان الذين لا يحافظون على عفتهم يعرّضون أنفسهم ليس لخطيئةٍ قاتلةٍ وحسب، بل أيضاً لأخطارٍ جسدية جسيمة. أما العفّة، فلم تتسبب يوماً بأيِ ضرر لأحد، ولم يكن لها أية ضحية. إلاّ أنّها تتطلّب حياةً معقولةً خالية من المشروبات والأغذية المسببة للإثارة. والعفّة تسمح بالحفاظ على قوى المرء الطبيعية لكي يجعل منها أحد أسس عائلته عندما يحين الوقت.

أودّ كثيراً يا أخي العزيز أن أعرف ردودك حول كلّ هذه النقاط. اكتب لي بين حينٍ وآخر.

أخوك الذي لا ينساك أبداً في صلواته

أندريه س.ج

ورث ألكس عن أبيه شيئاً من المخاتلة وحباً نهماً للحياة. لكن في الوقت الذي توجهت فيه كل طاقة جورج نحو النجاح الاجتماعي، فإنّ طاقات ألكس تشتّتت بين المتع غير المنظمة وهبّات الحماس التي تخمد في اليوم التالي.

لم تكن دراسة خالي عند الأخوة أكثر نجاحاً منها عند اليسوعيين؛ فبعد رسوبين إضافيين، طُلب منه بلطفٍ أن يترك المدرسة، ولم يكن هناك أيّة مؤسسةٍ مدرسية تستطيع إيصاله حتى الشهادة الثانوية. والحقّ يُقال أنّ المعني نفسه لم يكن يصرّ على نيل تلك الشهادة، فقد أعلن بأنّه «يستعجل البدء في الحياة المهنية كرجل أعمال». وقد أثّر تصميمه ذاك كثيراً على أمه.

انطلق ألكس في عدة دروبٍ عجيبة؛ وبانتظار النتائج، كان يمضي الوقت في لعب البلياردو في نادي ريزوتو، وتعلّم قيادة السيارة مع سائق أبيه، وإنفاق المال الذي تغدقه عليه يولاند.

وفي مساء أحد الأيام، اتصل بجورج من بيت أحد أصدقائه قبل منتصف الليل بقليلٍ وقال له:

ـ بابا، ينبغي أن أراك على وجه السرعة. الأمر يتعلّق بالطرابيش.

ـ ألا يمكن تأجيل ذلك إلى الغد؟ سأله جدي الذي كان قد ارتدى منامته.

في تلك الليلة، لم ينم جدي جيداً، فقد كان يفكّر بمصنع الطرابيش الذي تراوح مبيعاته مكانها؛ إذ لم تتجاوز مبيعات عام 1929 اثنتي عشرة ألف وحدة إلاّ بالكاد، *فسيموديتشيك* ذاك لا يقهر...

في صباح اليوم التالي، وفي مكتب ساحة الأوبرا، كشف ألكس عن مخططٍ مثير:

ـ كم لوناً تستخدم لصبغ طرابيشك يا أبي؟

ـ خمسة أو ستة ألوان، مثل كل الآخرين، أجاب جورج بدهشةٍ.

ـ أبداً! أنت لا تستخدم ، مثلك مثل الآخرين، سوى درجاتٍ متفاوتة من الأحمر.

ـ حسناً، وماذا بعد؟

ـ سوف تصنع طرابيش زرقاء، بيضاء، سوداء، صفراء...

ـ ماذا؟!

ـ بلى! ستسحق بذلك كل منافسيك، وتحدث ثورةً في الأزياء، وسوف نتبنى الطربوش، نحن الشباب.

أخذ جورج ينظر إليه بدهشةٍ، ثم قال:

ـ ولمَ لا أصنع طرابيش مقلّمة أو مزهّرة، بما أنك فتحت الموضوع؟ أنت تظنّ بأنه يمكن اللعب بالتقاليد بهذه السهولة!

ـ لكن يا أبي، كان رجال سلالة الرسول يضعون عماماتٍ خضراء...

ـ بالضبط، أيها الأحمق، سلالة الرسول! هل تريد أن تقضي علينا؟

تزايدت حدة صوت جورج مع تقدم الحديث:

ـ في العام الماضي، كنت تريد أن أنتج طربوشاً مثقّباً كيلا يشعر من يرتديه بالحر. طربوش مثقوب! والله وحده يعلم ما الذي سوف تقترحه عليّ غداً: ربما طربوشاً للسيدات، أو طربوشاً بنوابض، أو طربوشاً بدوّاسات. فاض بي الكيل من أفكارك الصبيانية! متى ستقرر أن تنضج؟ متى؟ قل لي متى...

أسِف ألكس لذهنية أبيه المحافظة؛ وحوّل الحديث بمهارة ليسأل جورج عن سيارته الجديدة، وهي سيارة دودج سيدان ستصل إلى القاهرة في الشهر التالي.

ـ يقولون بأنّ محرّكها صامت...

كان جورج يسترخي شيئاً فشيئاً.

ـ نعم، فلديهم نظامٌ جديدٌ للمقود صمّم خصّيصاً للعجلات التي تعبأ بالهواء.

ـ حدّثوني أيضاً عن جذعٍ معقوف ذي وساداتٍ خمس.

ـ ما أكثر ما تعرفه، *يا ابني*!

ـ كم سيأخذ منك ماركاريان ثمناً لها؟

ـ مئتين وثمانين جنيهاً، بما فيها ثمن مصباح السقف، والمرآة العاكسة، وجيوب الأبواب، وستارة حريرية على الزجاج الخلفي.

ـ وسيارة الفورد الحالية؟

ـ ماذا عن سيارة الفورد الحالية؟

ـ إذا احتفظتَ بها، فقد يكون باستطاعتي...

فانفجر جورج قائلاً:

ـ ربما تريد أيضاً أن تأخذ السائق؟ لينتظرك أمام نادي ريزوتّو؟ هل تظنني أعمى؟ هل تظنني أمك؟ أتعتقد أنني أجهل الحياة المضطربة التي تعيشها؟

قاطعه رنين الهاتف، فأشار إليه ألكس بيده إشارةً خفيفةً وتراجع إلى الخلف منسحباً لا يلوي على شيء.

8

يقفز الدفتر الرابع من مذكّرات عرّابي من العام 1926 إلى العام 1930. لقد أصبح صوته الآن صوت شخصٍ بالغ، رغم أنّ ميشيل كان مايزال يخضع كثيراً لوالديه حتى ذلك الحين. وفي ذلك الدفتر، يذكر بإسهابٍ وجبات غداء يوم الأحد في المنزل، وفيه كميةٌ هائلةٌ من المعلومات التي تتفاوت في أهميتها، مثل مبيع مجموعةٍ من الطرابيش لشيكوريل، أو زيٍّ جديدٍ لماغي، أو رحلة رشيد إلى القرية التي ولد فيها... وعلى مرّ السنين، يرِد بصورةٍ متزايدة ذكرُ حيّ شبرا الذي أخذ يفقد أشجاره ويكتظّ بالسكان، مما دفع جدّيّ إلى استبداله ببيتٍ آخر في حيّ غاردن سيتي. وقد تمّ العشاء مع مكرم، المذكور فيما يلي، قبل الانتقال بقليل.

25 حزيران 1930

إنه لأمرٌ غريب ألاّ يكون مكرم قد تعشّى قبل اليوم مع زوجته في بيتنا. حين وصلا البارحة يتأبط كلٌ منهما ذراع الآخر، بدا الأمر وكأننا في مسرحيةٍ لنجيب الريحاني؛ فهو بنحوله المعهود، ويرتدي طقمه الأسود الأزليّ الملوّث برماد السجائر، أما هي فكانت مكتنزةً، ترتدي ثوباً وردياً فاقعاً، وقد أفرطت في تخضيب وجنتيها.

مضى نصف وقت الوجبة بتبادل المجاملات بين تلك القبطية التي لا تعرف من اللغة الفرنسية كلمةً واحدة، وبين أمي التي لا تتدبر أمرها باللغة العربية إلاّ بصعوبة. أما أبي ومكرم، فقد انغمسا كلّ

في طبقه، وبدا وكأنه لا يوجد الكثير مما يمكن قوله في ما بينهما. كان عشاءً مضجراً بشكلٍ قاتل.

أضفى عطلٌ في الكهرباء نوعاً من المرح على نهاية العشاء، حيث خرج الجميع على السطيحة للإفادة من ضوء البدر، في حين كان رشيد يحضّر الشمعدانات؛ وبدأ أبي ومكرم بالجدل حول حكومة صدقي، حيث قال مكرم الذي كان حماسه لحزب الوفد يتزايد: «إننا نعيش في شبه دكتاتورية، والمسّ بالنظام البرلماني فضيحة. هناك اضطراباتٌ تنفجر في كلّ مكان...» أما أبي، فكان، على العكس، شديد الإعجاب بقبضة صدقي باشا الذي يقال بأنه أمضى السنة الأخيرة من دراسته الثانوية عند الأخوة عام 1889، قبله هو ومكرم بحوالى عشر سنوات.

هدأ النقاش حين عاد النور، وعادت السيدات لتبادل السلامات... وقمت باستغلال ذلك الجوّ لأحوّل المحادثة نحو السلطان حسين.

أدهشني مكرم بسعة معلوماته؛ وهو يؤكّد بأن حسين كامل، الذي كان الابن المفضل للخديوي إسماعيل، أراد أن يخلفه عام 1879، ولم يستسلم لتسمية توفيق إلاّ بمرارة. هذه المعلومات تتناقض مع صورة رجلٍ ليس لديه طموحٌ شخصيّ، ضحّى بشخصه عام 1914 لإنقاذ سلالة محمد علي، ولمنع إلحاق مصر بإنكلترا إلحاقاً تاماً.

ربما يجدر بي أن أشكّ في تفسيرات مكرم، فهي تفسيرات مناضلٍ سياسي، وليست تفسيرات مؤرّخ. إلاّ أنّ كل هذا لا يساعدني على اختيار موضوع أطروحتي.. «لِمَ لا يكون موضوعك: السلطان حسين ولافونتين الكاتب الواعظ؟»، اقترح عليّ أندريه في رسالته الأخيرة. بالفعل، لِمَ لا؟

9

كانت لولا تحلم وهي ممددة على بطنها فوق الرمل الرطب، وشمس الظهيرة تبعث شيئاً من الدوار في رأسها؛ ومن حينٍ لآخرٍ تأتي موجةٌ متهامدةٌ لتلامس قدميها أو ربلتيْ ساقها، وتصعد أحياناً حتى فخذيها، فيرتعش لها جسدها كله. بدت فائقة الجمال، وكانت قد بدأت تدرك ذلك.

ـ صار عمرك ثلاثة عشر عاماً، ولم تعودي في سنٍ تسمح لك بأن تعرضي نفسك بهذه الطريقة أمام الرجال. قالت لها أمها بتأثيرٍ من الآنسة غيومار.

إلاّ أنّ لولا العنيدة تجاهلت الملاحظة؛ ومن جهتها، كانت المربية قد أعلنت استسلامها منذ وقتٍ طويل.

أتت موجةٌ أشد قليلاً من الأخريات أغرقت خصرها، فأصدرت لولا صرخةً صغيرة أثارت انتباه صبي نحيلٍ ذي خصلة شعرٍ متمردة، رأته البارحة في مخبز سان ستيفانو.

بعد قليلٍ يحين موعد الغداء، ويُحضر الخدم من المنزل خلف الكثيب أطباقاً يتصاعد منها البخار، يضعونها على حسكاتٍ مقلوبة قرب الكبائن. سوف تكون الوجبة عائلية، ككل يوم، تضم الأعمام والأخوال، والعمات والخالات، وأبناءهم.

كان الجميع يعرفون بعضهم في شاطئ سان غليمنوبولو الذي يستوطنه السوريون، في حين يحتل اليهود شاطئ ستانلي المجاور. الجميع يشعرون بأنهم في بيوتهم، وبين أفراد عائلاتهم، لدرجة

أنهم يبدون استغرابهم بصوتٍ مرتفع إذا خطر ببال عائلةٍ قبطيةٍ أو مسلمةٍ أن تزرع شمسيتها على الشاطئ.

كانت لولا تعشق تلك العطلات الطويلة في الإسكندرية، وتحلم، قبلها بأسابيع، بالدخول إلى محطة سيدي جابر، وبسيارة الأجرة السوداء الضخمة التي تنقلهم إلى الفيلا وهي تنفث دخانها، حيث تجد في غرفتها ألعابها القديمة التي ظلت في أماكنها بكل رزانة، فتداعبها وتشمها، بل وتلحسها أحياناً بطرف لسانها لتتأكد من طعمها المالح. ثم تركض، وفيفيان وراءها، إلى البيوت المجاورة لتلاقي أقرباءها...

في العادة، يتجمّع عددٌ من السابحين حول ناندو بطركاني والكونت هنري توتة حين يبدءان بلعب طاولة النرد، بعد أن يضع كلٌّ منهما خمسين قرشاً على الطاولة.

كانت كتل لحم ناندو تفيض من كرسيه البحري، رغم أنّه أُحضر خصيصاً له، ليناسب حجمه؛ فقد أخذ وزن الشقيق الأكبر لجدّي يتزايد يوماً بعد يوم. وإذا صدّقنا الإشاعات، فإنّ رصيده في المصرف كان يساوي ثمانمئة ألف جنيه، في حين بلغ وزنه مئة وعشرين كيلوغراماً دون ملابس. ويتساءل المرء كيف صمدت الآنسة دمّر الرقيقة والنحيلة التي تزوجها قبل ثلاثين عاماً أمام هجمات ذلك الوحش طيلة ذلك الوقت.

كان الكونت هنري الذي أعفته إمارة لشتنشتاين من مهامه وأصبح قنصلاً للبيرو، ودائماً في العنوان ذاته، جالساً في برنس مقلّم بالأخضر، يحرّك النرد في يده طويلاً قبل أن يرميه على الطاولة الخشبية المطعّمة بالصدف.

ـ البارحة، *يا كونت*، قال له خصمه، كان حظّك قوياً. أم اليوم، فإنني أقسم لك بحياة...

ـ لا تُقسم، أيها التعس! أنت لا تعرف ما ينتظرك. *Abyssus abyssum invocat*(*).

(*) أي: الهاوية تستجرّ الهاوية. م.

تصاعد التوتر، وأخذت أصابع ناندو البدينة المفتولة تهوي بالأحجار وهي تفرقعها بقوةٍ متزايدة. وحين كان أحد اللاعبين يحصل على ثلاثةٍ مزدوجة أو خمسةٍ مزدوجة أو ستةٍ مزدوجة، يهتف لها بألقابها.

ـ دوش!

ـ دوبيش!

ـ أنت فعلاً محظوظٌ! ألم أقل لك؟

أخذت يولاند تهزّ جرساً صغيراً قرب الكبائن: فورق العنب المحشوّ لا ينتظر. ترك ناندو الجائع اللعبة على الفور، رغم احتجاج هنري توتة.

انسلّت لولا لتجلس قرب خالتها ماغي؛ كانت مفتونةً بتلك المغوية التي تبدو، وقد بلغت الرابعة والأربعين، أصغر من ذلك بخمسة عشر عاماً، وما زالت تفتك بالرجال، فقد كانت زمرة عشاقها الأخيرة تضم أحد كبار تجار القاهرة اليهود، ولاعب كرة سلة إيطاليّ من فريق Pro patrio، ونبيلاً من العائلة المالكة.

ـ أين إدمون؟ سألت يولاند مستغربةً عدم وجود أخيها بين الحضور.

كان إدمون توتة يقوم بحساباته وهو ممدد على كرسيٍّ مقابل البحر، إذ أنّ آخر إحصاءٍ لسكان مصر قدّرهم بأكثر من أربعة عشر مليوناً وجعله في أسوأ حالاته، فقرّر أن يكتب للملك فؤاد ليبلغه بعلاجٍ جذريٍّ يتضمّن منع الزواج قبل الثامنة والعشرين بالنسبة للرجال، وقبل الخامسة والعشرين بالنسبة للنساء.

ـ بهذه الطريقة، سينقص عدد المواليد إلى النصف، قال بصوتٍ محموم.

فأخذ أبناء أخوته يختلقون الأقاويل ليخدعوه وهم يتضاحكون سراً:

ـ هل قرأت، يا عم إدمون، في مجلة الإصلاح، قصة تلك الصعيدية التي أنجبت ثمانية عشر طفلاً؟

ـ يا إلهي! ثمانية عشر طفلاً؟

ـ بلى، وهي حاملٌ بالتاسع عشر.

فأعاد إدمون توتة حساباته باضطراب، ورفع سنّ الزواج إلى تسعةٍ وعشرين للرجال وستةٍ وعشرين للنساء...

لم يكن يحقّ للخدم السباحة إلاّ عند مغيب الشمس، بعد أن ينتهوا من غسيل الأواني والتنظيف. وفي ذلك الوقت، يذهب الأطفال لشراء الفطائر المحشوة من مخبز سان ستيفانو، بعد أن يتسابقوا مع الترام.

وفي عصر بعض الأيام، كانوا يلعبون لعبة القداس؛ كانت قدّاساتٍ روم كاثوليكية ـ وهي بالتالي أكثر تلوناً بكثير من القداسات اللاتينية ـ تسمح بالمناولة باستخدام عنصرين: الخبز وشراب التوت. إلاّ أنهم يضيفون إليها موعظةً باللغة الفرنسية تشكّل حجر الأساس في الاحتفال. وبين أولاد العم، يتنافس عدة محامين ناشئين على دور مقيم القداس؛ وهناك وظيفةٌ أخرى مرغوبةٌ بشدة هي وظيفة المرتّل. ولا يبقى للبنات سوى أدوار ثانوية، مثل أطفال الجوقة أو المصلين العاديين. فتنتقم لولا بزرع الاضطراب في نفوسهم حين تقول:

ـ ألا تعتقدون بأنّ أندريه سوف يغضب بشدة لو عرف بأننا نلعب مع الله؟!

في الأول من شهر آب، يساهم الأطفال في الزيارة التقليدية إلى أبناء الخال توتة في سيدي بشر، وهو الفرع الإسكندري من العائلة، الفرع الذي يقول جورج عنه بأنه فرع المختلّين، في إشارةٍ إلى الأصول الوراثية لأطوار شقيق زوجته، إدمون.

كان في ذلك الفرع أحد عشر أخاً وأختاً أطلق عليهم أهلهم أسماء فرعونية. وضع سيزوستريس، الابن الأكبر ـ وهو موظّفٌ كبيرٌ مُنح لقب بيه قبل أن يبلغ الأربعين ـ في رأسه فكرة السكن في

مركب، فأمر ببناء منزلٍ له مواجهٍ للبحر على شكل قاربٍ طوله ثلاثون متراً. كلّ شيءٍ كان موجوداً فيه، من الجسر إلى الممر الجانبي، مروراً بالسلالم والعبّارات والروزنات.

كان سيزوستريس بيه يستقبل ضيوفه على الكوْثل وعلى رأسه قبعة أميرال. أما أختاه، إيزيس ونيفتيس، فتقدّمان الحلوى والمشروبات للأطفال الذين كان يُفرحهم كثيراً السماح لهم بمراقبة البحر بمنظار صاحب البيت المكبّر.

كان جميع سائسي الرملة يعرفون العنوان. فيكفي أن يقول لهم الزبائن:

ـ نريد الذهاب إلى منزل سيزوستريس بيه.

فتعبر العربة الشوارع الهادئة المحفوفة بأشجار المانوليا والأثْل التي تغفو خلفها بهدوءٍ منازل واسعةٌ ذات *مشربيات*، غارقةٌ في الخضرة. ويخرق جرس العربة السكون مردداً في بعض الأحيان صدى أنين جرسٍ مجاور، ويغلق الأطفال أعينهم كي يتذوقوا عطر الطحالب بشكلٍ أفضل. كانت إسكندرية تلك الأيام تعبق برائحة البحر والياسمين.

القسم الخامس

صفعة أتاتورك

1

فور دخوله، داهمت رشيداً رائحةٌ كريهة. فرفع خادم جديّ أطراف جلابيته وتقدّم بحذر ليتجنب برك الدم ورزم الأحشاء التي تبعثرت على الأرض.

كان هناك اضطرابٌ كبير في المسلخ؛ فالرجال يذهبون ويجيئون، ويصرخون، ويشتم بعضهم بعضاً وهم يشهرون السكاكين. بحث رشيد بعينيه عن ابن أخيه، لكن كيف له أن يميز وجهاً بعينه في تلك العتمة الخفيفة وسط جمعٍ هائجٍ بهذا الشكل؟

قبل يومين، انزعج رشيد بشدة حين علم بأن حسن لم يعد يذهب إلى المدرسة، وأنه أصبح يعمل في مسلخ الجِمال في الجيزة. لا بد أن ذلك حصل تحت ضغط زوج أمه الجديد الذي ربما وجد بهذه الطريقة وسيلةً لاستغلال الفتى ذي الأعوام الثلاثة عشر.

لم يكن *السفرجي* يعرف القراءة أو الكتابة. إلاّ أنه كان متأكداً بأنّ أخاه صبري الذي سقط صريعاً عام 1919 أثناء إحدى المظاهرات كان يتمنى أن يبقى ابنه في المدرسة. فكم أسف ذلك العامل الثائر على الظلم الاجتماعي لكونه هو نفسه أمياً!

ـ سوف تصبح موظفاً في المستقبل، هذا ما كان يقوله رشيد لابن أخيه حين كان يحضر لزيارته في بيت آل البطركاني مرةً كل سنة.

موظف، نعم. ألم تكن الوظيفة الحكومية أفضل المراكز؟

تقدم جملٌ نحو منتصف القاعة، تحثّه أصوات معلمه، وبَرك أرضاً انصياعاً لأمرٍ حازم؛ وعلى الفور، انقضّت سكينٌ هائلة الحجم على رقبته فنفر الدم على بعدٍ لا يقل عن مترين اثنين. تخبّط الحيوان بغضبٍ وقوائمه مرفوعةٌ في الهواء، في حين ثبّت صعيديٌّ قويٌّ عاري الجِذع رأسه على الأرض، واستمرت خلجات الدابة دقيقةً طويلة.

حين همد الجمل أخيراً، رأى رشيد طفلاً يتقدم نحوه وبيده منفاخٌ كبير. اعتقد للوهلة الأولى بأنه ابن أخيه، لكن حسن لم يكن، ولله الحمد، يعرج كذلك المتدرب الصغير الذي بدأ ينفخ جسد الدابّة.

انتصب جملٌ آخر على قوائمه وقد أثارته رائحة الدم؛ كان اللعاب يسيل من فمه، وأحاط به عددٌ من القصّابين. ذرى أحدهم في عينيه رملاً ليعميه، وانزلق آخر تحته، ثمّ غرس بحركةٍ سريعة السكينَ في بطنه. أصدرت الدابّة صرخةً طويلة ثم انهارت.

رأى رشيد ابن أخيه بين الأطفال الذين تقدموا والهراوات بأيديهم، فاندفع نحوه قائلاً:

ـ تعال!

ـ لكن، يا عمي...

ـ أقول لك تعال.

سحب رشيد حسناً من كمه إلى الخارج، ثم قال:

ـ سوف تعود إلى المدرسة، أتسمعني؟

اقتربت بعض النساء المحجبات المتجمعات قرب المسلخ لكي يتفرّجن على المشهد. كنّ، كعادتهن في كل مساء، بانتظار أن ينهي القصابون عملهم ليجمعن روث الجِمال التي سوف يستخدمنها كوقودٍ أو كسماد.

ـ سوف تعود إلى المدرسة، كرر رشيد وهما يبتعدان نحو محطة الترام. وإذا كانت أمك بحاجةٍ لهذا المال، فأنا من سيعطيه لها.

في كتابه المعنون *مسار ضابط*، يحكي حسن بأنه رأى عمّه وهو يدخل إلى المسلخ.

«كنت أقف خلف أحد الأعمدة، *بجلابيةٍ* مبقعةٍ بالدم، ولم أدعه يراني، لم أجرؤ على ذلك. أحسست كما لو أنني ضُبطتُ متلبساً بارتكاب ذنْب، في حين حضر عمي ليحررني...

«عدت إلى المدرسة منذ صباح اليوم التالي. كان عمي يفرض عليّ أن أريه علاماتي في كل فصل، رغم جهله بالقراءة والكتابة، فكنت آخذها له إلى بيت أحد الأثرياء في جاردن سيتي، حيث كان يعمل *سفرجياً*. ودون أن ينظر إلى الورقة، التي لم تكن مفهومةً بالنسبة له، كان يسألني: «هل اجتهدتَ في دروسك؟» فأجيب أن نعم. فيقرص أذني وهو يقول : «ينبغي أن تجدّ أكثر لتتمكن من أن تصبح *موظفاً* يوماً ما». وعندما يحين موعد انصرافي، كان يعطيني قرشين ملفوفين بورقةٍ صغيرة...».

2

في بدايةِ الأمر، لم يولِ جورج بطركاني أي اهتمامٍ لجمعية القرش التي أُسّسَت في العام 1931، برئاسة أحد الباشوات. فجمعُ التبرعات في الشارع لصالح الصناعة المصرية بدا له أمراً غبياً بمقدار ما هو عديم الجدوى. وأولئك الطلاب الذين ينادون المارة ليبيعوهم بطاقاتٍ مقابل قرش، هل كانوا يعرفون إلى أين ستذهب هذه الأموال بالضبط؟

أثناء تناوله طعام الإفطار في صباح يوم خميس، فغر جدي فاه حين عرف من جريدة *البورصة المصرية* أنّ مبلغ التبرعات سوف يستخدم في إنشاء صناعةٍ محلية للطرابيش.

ـ لكن مثل هذه الصناعة موجودةٌ أصلاً! هتف قائلاً وهو يقلب صحن *القشدة* على المائدة. وماذا أصنع أنا؟ نونيات للأطفال؟ طرّادات ماء؟

بجزعٍ وصمت، وضعت يولاند قطعةً من القماش على القشدة المنسكبة. كانت تفضل ألاّ تقول شيئاً في مثل هذه الأحوال، فزوجها كان بإمكانه أن يلتقط أصغر تنهيدةٍ ليجعل منها ذريعةً لشجارٍ فظيع.

بعد عشر دقائق، رنّ جرس الهاتف بينما كان جورج يحلق ذقنه وقد جرح نفسه لشدة غضبه. كان إدوار ديلليم يتحدث من فندق الشيبرد.

ـ هل قرأت...

ـ قرأت، قرأت. إنها فضيحة. مرّ علي في مكتبي لنتحدث.

بعد ساعة، وفي ساحة الأوبرا، واجه إدوار شريكه الذي لم يكن غضبه قد برد بعد. أخذ جورج يشتم العالم بأسره وفي فمه سيكارٌ مطفأ:

ـ حتى الآن، كنّا نحمل همّ أولئك التشيكيين الملاعين. وإن كان علينا، إضافةً إلى ذلك، تحمّل منافسةٍ محلية جدية... سوف يحصل هذا المصنع الحكومي على معداتٍ أفضل مما لدينا، ومؤكّد بأنه سوف يتمكن من البيع بأسعارٍ أرخص من أسعارنا... حين أفكر بكل أولئك الحمقى الذين يعطون قرشاً إلى متسولين مرخّصين!

قلّب الشريكان المشكلة وبحثاها من الأوجه كافة، ووصلا إلى نتيجةٍ مفادها أنهما قد يضطران إلى إغلاق المصنع. إلاّ أنه بدا لهما من السابق لأوانه اتخاذ مثل ذلك القرار لنقص المعلومات الكافية عن المشروع الحكومي.

عاد إدوار إلى فرنسا. وببرقيةٍ موجزة، أخبره جورج بطركاني بعد عدة أشهر أنّ حجر الأساس للمصنع الحكومي للطرابيش سوف يوضع في الرابع عشر من تشرين الأول عام 1932.

حينذاك، حصلت حادثة أنقرة. فقد ذكرت صحفٌ قاهرية بلهجةٍ مليئةٍ بالاستنكار أنّ مصطفى كمال قد وجّه اللوم إلى سفير مصر، عبد الملك حمزة بيه، لأنه احتفظ بطربوشه على رأسه أثناء حفل عشاءٍ شاركت فيه بعض السيدات؛ فترك ممثل مصر القاعة غاضباً. إلاّ أن بعض الشائعات قالت بأنّ الحادثة أخطر من ذلك: فقد قام أتاتورك بحركةٍ مفاجئة، أوقع بوساطتها الطربوش عن رأس الديبلوماسي حين انحنى ذاك أمامه.

ـ إطلاقاً! أكّد الكونت هنري توتة الذي كان يعرف قنصل تركيا في مصر. وتابع قائلاً: لقد كانت الحادثة بسيطةً تماماً. فقد اقترب مصطفى كمال من وزير مصر المفوض ليتحادث معه، وبما أن الجو

كان شديد الحرارة داخل القاعة، فقد دعاه بلطفٍ إلى أن ينزع الطربوش عن رأسه. *Non erat his locus*(*). وقد اندفع أتاتورك في لطفه، فنزع الطربوش بيديه عن رأس حمزة بيه ثم قبّله على وجنتيه.

- ولكن هذا أسوأ، *يا* كونت! علّق ناندو وهو ينفجر ضاحكاً.

طالبت بعض الصحف المصرية باعتذارٍ تركيٍّ رسمي؛ وبعضها الآخر طالب بحزمٍ بقطع العلاقات الدبلوماسية... حينذاك، لمعت فكرةٌ في ذهن جورج بطركاني.

في الأسبوع التالي، ظهر إعلانٌ من صفحةٍ كاملة في عدة صحف يومية في القاهرة والإسكندرية. لم يكن الإعلان يتضمن غير كلمةٍ بحروفٍ بالغة الكبر: فخرنا. وفي الأسفل، وبحروفٍ أصغر حجماً: طرابيش بطركاني.

كانت الصيغة تتمتع بالتباسٍ مُتقَن. فقد يقرؤها البعض بحرفيتها: إنّ مؤسسة بطركاني تفخر بأنها تنتج طرابيش عالية الجودة. والبعض الآخر قد يجدون في الإعلان صرخةً من القلب ترتبط بأحداث الساعة: فالشعب المصري له كرامته، ولن يخضع لإهانة أتاتورك. لكن لا شيء كان يمنع تفسيراً أكثر طموحاً: إنّ طرابيش بطركاني هي فخر مصر، مثلها في ذلك مثل نهر النيل أو الأهرامات أو الفول المسلوق، وأفضل سبيلٍ لردّ إهانة أتاتورك يتمثل في شرائها.

لاحظ جورج ارتفاعاً ملحوظاً في نسبة المبيعات خلال الأشهر التالية. ولكنه حين جرد حساباته، آخذاً بعين الاعتبار مصاريف الدعاية، قرّر بأنها عمليةٌ غير مجديةٍ اقتصادياً، غير أنها وفّرت له زبائن جدداً وفتحت أمامه آفاقاً أخرى.

في ذلك الحين، رُبطت مصر بأوروبا بوساطة كابلٍ هاتفيٍّ تحت البحر. واستفاد إدوار ديلليم من ذلك الإنجاز، فاتصل بجدّي ليستعلم

(*) أي: لم يكن ذاك مكانه. م.

عن تصفية الشركة، لكنه لمس، رغم التشويش على الخط، بأنّ شريكه رائق المزاج بشكلٍ غريب، بل ومرحٌ جداً.

ـ التصفية؟ أنت لا تعني ذلك، يا عزيزي إدوار! على العكس، إنها الفرصة المناسبة للانقضاض.

ـ أنا لا أسمعك جيداً... هل تقول الانقضاض؟

ـ نعم، الانقضاض، الاستثمار.

ـ لكن ماذا عن ذلك المصنع الحكومي قيد الإنشاء...

ـ بالمناسبة، لماذا لا نستفيد منه؟

أخذ الفرنسي يلعن الأزيز على خط الهاتف، فلم يكن يسمع جيداً، ولم يفهم شيئاً. إلاّ أنّ محادثه تابع بكل هدوءٍ:

ـ هيا، يا إدوار، فكّر جيداً. لن يبدأ مصنع مشروع القرش بالعمل قبل عامٍ ونصف العام، وليس هناك ما يمنعنا من مواكبة الحركة، بل من استباقها. المصريون يريدون طربوشاً وطنياً؟ حسناً، سوف نقدمه لهم نحن أيضاً! وقبل الآخرين. لن يفقه الحمقى الذين تبرعوا بقروشهم شيئاً.

تحسن سماع ديلليم لصوت جورج، وفكّر هنيهةً: على كلٍ، لِم لايحاولان؟ ربما يتمكن المصنع من البقاء عاماً آخر أو عامين، مثلما بقي قائماً حتى ذلك الحين. لم يكونا يكسبان المال، لكنهما في ذات الحين لم يكونا يخسران. أما تصفية المصنع، فيمكن إجراؤها وقتما يشاءان.

قدّر جورج بيه أنّ العملية تتطلّب ثلاثة آلاف جنيه للدعاية، وضعف هذا المبلغ لتحسين شبكة التوزيع.

ـ تسعة آلاف جنيه! هتف الفرنسي. إنه محض جنون. من أين سنأتي بها؟

لم يكن لدى إدوار أية نيّةٍ في الإفلاس من أجل الطرابيش، فهو لم يتحمس يوماً بشكلٍ حقيقي لهذا النشاط الصناعي. وإن كان يضاعف عدد رحلاته إلى مصر، فإنّ ذلك لم يكن إلاّ لانبهاره بذلك

البلد، البلد الذي سوف يمتزج قريباً في أحلامه مع خيال سوريةٍ جميلة التقى بها على سطيحة أحد المنازل في هليوبوليس...

- أنا كفيلٌ بالعثور على المال، قال جورج.

وافترض ذلك تعديل الحصص في المشروع: فلن يعود لإدوار سوى عشرين بالمئة. وافق دون أي تردد.

عاد الحديث ليدور حول طرابيش بطركاني منذ بداية العام 1934، في حين لم يكن المصنع الوطني قد بدأ بالإنتاج بعد. هذه المرة، أصبحت صفحات الإعلان أصغر حجماً، لكنها كانت أكثر عدداً بكثير؛ واقتصرت على شعارٍ شديد الإيجاز، لكن كلماته كانت موزونةً بدقة: «طرابيش بطركاني. إنتاجٌ وطني عالي الجودة». السرّ كله كان يكمن في كلمة «وطني»...

سرعان ما ظهرت ثمار تلك الحملة الإعلانية المكثفة، إضافةً إلى توظيف خمسة وسطاء تجاريين؛ فخلال بضعة أشهرٍ فقط، ازدادت المبيعات بنسبة ستين بالمئة، وتجاوزت الضعف حين ظهرت طرابيش مشروع القرش، التي كانت تفتقر إلى الإتقان، لأول مرة في السوق. أما الماركات الأجنبية، فقد بدأت تعاني من نتائج الإصلاح الجمركي الذي رفع من الضرائب المفروضة عليها.

في نهاية العام 1935، أظهرت حسابات جورج بيه أنه باع اثنين وأربعين ألفاً من الطرابيش خلال العام، وكان المستقبل يبشر بخيرٍ أوفر. فليحافظ أتاتورك على قبعته، وليذهب *سيموديتشيك* إلى الجحيم.

3

حين أفكّر في جدتي لأبي، لا تتبادر إلى ذهني أكثر صورها قوةً. فلا أرى الشابة ذات الستة عشر ربيعاً وهي تقع بين ذراعي خليل يارد في أحد الشعانين، ولا الزوجة الهانئة التي كانت تختلي بزوجها في غرفة نومهما ثماني وأربعين ساعةً، ولا حتى المرأة الغارقة في الدموع التي أيقظها صراخ الخادمة بعد حادثة وفاة زوجها المأساوية... بل أرى مسافرةً ساهمة في قطار هليوبوليس الكهربائي.

في مطلع أمسية يوم الأحد ذاك، كانت مقطورة الحريم شبه خالية؛ لم يكن فيها سوى مسلمة شابة كشفت نصف وجهها، تحتل أحد المقاعد، ما لبثت أن أسدلت الخمار على وجهها بحركةٍ سريعة بمجرّد ظهور سائق القطار عند الباب.

جلست ميما على الطرف المقابل من الممر الضيق، وأخذت تنظر عبر النافذة إلى بيوت هليوبوليس الأخيرة تمر أمام ناظريها. لفح هواءٌ جافٌ لطيفٌ وجهها، فأغمضت عينيها نصف إغماضة، تهدهدها ارتجاجات القطار المنتظمة.

لقد أدار لها هذا الفرنسي رأسها.

كان منزل آل عيروط الواقع في شارع البارون أمبان رائعاً، يقدَّم فيه الشاي على سطيحة جميلةٍ مظلّلة، مؤطّرةٍ بإفريزٍ حجري ضخم، في حين يتبادل بعض الشبّان الكرات في ملعب التنس في عمق الحديقة. كان أصحاب البيت يستقبلون ميما بكل ود، إلا أنّ تلك

الزيارات كانت تسبب لها في كل مرة انقباضاً في الصدر. كانت تتذكر كيف وصل خليل قبل أسبوعٍ من وفاته إلى تحديد مكان المغاطس في دارتهما المرتقبة في هليوبوليس: «سوف ترين، يا جميلتي، ستكون لنا غرفة نومٍ ملوكية، يغار منها آل سكاكيني وآل تقلا مجتمعين..».

لم تسمع جيداً اسم ذلك الرجل، إدوار ديلين أو ديليم. أربعون؟ اثنان وأربعون عاماً؟ إنه ساحرٌ على كل حال، بذلك الشارب الدقيق وتينك العينين الزرقاوين، والبدلة الصوفية الفاتحة، الجيدة التفصيل.

أما ميما، فقد كانت ترتدي في هذه المرة أيضاً فستانها المصنوع من الأورغاندي الأخضر المزين بالشرائط والذي يبرز شباب تقاطيعها. فهي، رغم كونها في السادسة والثلاثين من عمرها، مازالت تُذكّر بنبتةٍ فتيّةٍ متفتّحة لا تكف عن الإزهار.

كانوا يقولون لها دوماً: أي شيءٍ يجعلك أنيقة.

بالفعل، فقد كان أبسط شالٍ يُكسبها مظهراً ملكياً. لكن، منذ أن رحل خليل، اتخذ «أي شيء» معنًى إضافياً: إذ أنها أصبحت مضطرةً للاكتفاء بملابسها القديمة التي بدأ الزمن يترك عليها بصماته. ولتضفي على هذه الملابس شيئاً من روح الموضة الدارجة، صار عليها أن تقوم بالعجائب بمساعدة جارةٍ ماهرة: ثنيةٌ هنا، ضربة مقصٍ هناك، ويتحول المعطف المهترئ إلى سترة، والسترة البالية إلى صدرية...

كانت ميما تجد صعوبةً في تدبر أمورها والإنفاق على خمسة أولاد، على الرغم من إدارة شقيق زوجها الصارمة جداً، ومن الإعانة التي كانت تصلها من الجمعية الخيرية للروم الكاثوليك. مايزال أمامها وقتٌ طويلٌ قبل أن تستطيع الاعتماد على روجيه، ابنها البكر، الذي كان مايزال في السنة الثانية من دراسته للطب في القصر العيني.

لم تكن تلك المرةَ الأولى التي تشعر فيها بنظرات رجلٍ منذ وفاة خليل، لكنها كانت تعرف تماماً كيف تحيّد مثل تلك المحاولات، إما

بالتجاهل التام أو بحركةٍ فظة، لا بل تكشيرة. لكنها هذه المرة فوجئت بأنها لم تفعل مثل ذلك، بل تركت نظرات ذلك الديلليم الزرقاء تغمرها وهو يجلس مقابلها على السطيحة.

شعرت بأنها أكثر مرحاً من العادة حين تحدثت مع من كانوا بجوارها، بل إنها ضحكت ضحكةً مدوّية حين تحدث حبيب عيروط بكثيرٍ من الدعابة عن آخر الابتكارات المعمارية لأولئك السادة في شركة هليوبوليس.

سار عددٌ من المدعوين للتنزه في الحديقة باتجاه ملعب التنس، وكانت ميما على وشك اللحاق بهم حين اقترب منها إدوار:

ـ هليوبوليس مكانٌ جميل، قال بلكنته الفرنسية. هل تسكنين هنا؟

تمتمت بجوابٍ ما وهي تشعر بحمرة الخجل تصعد إلى خديها كفتاةٍ مراهقة، ورأت نفسها في منتهى البلاهة. لكنها سرعان مااستعادت تماسكها، وحكت له كيف انبثقت هذه المدينة ـ الحديقة من الصحراء. كان ذلك موضوعاً تعرفه جيداً، فلطالما سمعت زوجها يعلّق على مشاريع البارون أمبان.

كان كلّ ما يتعلق بمصر يأسر إدوار ديلليم، إلاّ أنّ نظراته المتمعنة في ميما صرفته عن متابعة حديثها. وهي ذاتها كانت بالكاد تلقي بالاً لما تقوله، فقد كانت تتأمل يدي ذلك الفرنسي الجميلتين المتكئتين على حافة السطيحة. أيقظهما من استغراقهما *السفرجي* الذي أحضر طبقاً من قطع الحلوى الصغيرة.

ـ في الحقيقة، قال إدوار، بما أنك عائدةٌ إلى المدينة، فسيكون باستطاعتنا أن نوصلك بالسيارة بعد قليل. لقد حضرت مع آل بولاد، وهم من أصدقائي؛ ربما كنت تعرفينهم...

كادت ميما توافق، لكنها غيّرت رأيها واختلقت عذراً معقداً بعض الشيء، مؤكدةً بأنها مضطرةٌ إلى الانصراف حالاً. حيّت إدوار ديلليم باستعجالٍ غير مفهوم واستأذنت من أصحاب البيت.

نزلت الراكبة المسلمة في العباسية، وشعرت ميما فجأةً بالوحدة الشديدة في تلك المقطورة الخالية، في مساء يوم أحد. وللمرة الثانية

خلال بضع ساعات، حكمت على نفسها بالبلاهة؛ فبعد كل حساب، من يمنعها ـ وقد بلغت السادسة والثلاثين من عمرها! ـ من أن يوصلها أصدقاء إلى بيتها بسيارتهم؟

بعد ظهر اليوم التالي، رنّ جرس بيتها، فشقّت الباب لأنها لم تكن تنتظر أحداً؛ وجدت على بسطة الدرج سلة ورودٍ كبيرة ، حجبت ساعياً فتياً حافي القدمين، تعلو وجهه ابتسامة من يتوقع *البخشيش*. دعته ميما إلى أن يضع حمولته في المدخل ثم أغلقت الباب بهدوءٍ وراءه ناسيةً، في غمرة ذهولها، أن تعطيه قطعة النقود التي كان ينتظرها.

في البطاقة المثبتة على باقة الورود، والتي تحمل اسم وعنوان فندق شيبرد، قرأت ميما: «إنّ إدوار ديلليم الذي سرّه كثيراً التعرف إليك البارحة في هليوبوليس يسمح لنفسه بأن يرسل لك هذه الورود قبل سفره إلى مرسيليا. وهو يتمنى بشدة أن يتمكن من رؤيتكِ ثانيةً خلال إقامته المقبلة في مصر».

كانت الباقة فاخرةً، ثمينةً جداً وبديعة التنسيق... ولحسن الحظ، فإن الجارة لم تر الفتى الذي أوصلها وإلاّ لصاحت بأعلى صوتها من شرفتها:

ـ ميما، يا ملاكي، زهورٌ لك!

كان من المتوقع أن يعود الأولاد بين لحظةٍ وأخرى، فاندفعت ميما لإحضار المقص وانكبّت على الغلاف، ثم قسمت الورود إلى ست باقاتٍ متباينة ووزعتها في أنحاء الشقة. ستقول لأبنائها أنها رغبت فجأةً في شراء بعض الزهور. سوف يلومها زوجيه بالطبع على تلك المصاريف التي لا ضرورة لها، فهو الذي يدير ميزانية البيت. لكن هل هناك حلٌ آخر؟ لقد كان ذلك الفرنسي مجنوناً.

خلال ثلاثة أيام، ظل طيف إدوار ديلليم يقابلها في كل مكان من البيت. فما أن تدخله حتى تتعثر بالورود، وتجد أخرى في غرفة الطعام، وغيرها في المطبخ... ودون أن تترك لها الوقت لتذبل، انتهى بها الأمر إلى رميها كلها بمزيجٍ من المرح والحزن لم يكن بوسعها تفسيره.

4

بعد دهرٍ من الغياب، أعلن أندريه عن عودته إلى مصر. فقد أمضى عامين في التدرّب، وعامين آخرين في التمرن على التدريس الديني، وثلاثة أعوام في دراسة الفلسفة، وأربعة أعوامٍ في دراسة اللاهوت، تخللها عامٌ من التمرين. ولم ينته بعد، فمازال عليه أن يتدرّب سنةً ثالثة قبل أن ينذر نذوره الكبرى.

- الأمور عندنا أسرع، كان المسؤول البطريركي للروم الكاثوليك يقول بلؤمٍ عندما يأتي ليتقصى أخبار يسوعي المستقبل.

تم التحضير لغداءٍ عائليٍّ كبير بمناسبة عودة خالي، وكانت يولاند بطركاني مضطربةً كأنها مبتدئة. يعلم الله كم من الاستقبالات أعدّت منذ زواجها! فبيتها في شبرا، ثم هذا البيت الجديد في جاردن سيتي قد شهد حضور مختلف أصناف الأشخاصِ، وأكثرهم أهميةً: قناصل، بهوات، باشوات، بل ووزير في المنصب... لكن ذلك الغداء العائلي المعدّ على شرف أندريه جعلها أكثر حساسيةً من أي وقتٍ مضى. كل شيءٍ كان يشغلها: من قائمة الطعام إلى الثوب الذي سترتديه. «أنا أتقدم في السن»، قالت لنفسها، دون أن تعتقد ذلك فعلاً.

حتى جورج بيه نفسه، على الرغم من مظهره المتعالي، لم يكن يهمل أياً من التفاصيل، فكان يقول:

ـ أكيد، لا بد من أن يجلس على رأس الطاولة! الجميع يريدون أن يروا ذلك الفتى. إنه البكر على أية حال...

لقد غيّر جدي موقفه مئة وثمانين درجةً، فأصبح شديد الفخر بأنّ لديه ابناً يسوعيّاً، وخاصةً بعد أن هنأه على ذلك علناً سفيرٌ أوروبي في إحدى السهرات.

ستكون العائلة مكتملة العدد في غداء الأحد ذاك. فسوف يحضر بول، الذي تزوج قبل فترةٍ وجيزة، بصحبة ماري ـ لور التي يدعوها الجميع «السويسرية». حتى ألكس نفسه وعد بأن يشرّف الغداء بحضوره.

ـ أرجوك ألاّ تقوم بأيّ استفزاز، توسلت إليه أمه.

وإذا حسبنا الأعمام والعمات، والأخوال والخالات والأقارب الذين اختيروا بصعوبة، فإن عدد الأطباق على الطاولة سوف يتجاوز الستة والعشرين. لكنّ الموعد حدد أولاً في كنيسة ثانوية اليسوعيين حيث سيقيم أندريه قداساً. لقد عاد إلى القاهرة مساء اليوم السابق خلسةً، فلم يذكر لعائلته موعد وصول القطار لأنه لم يكن يريدها أن تستقبله.

حضر الأقارب والأصدقاء إلى الثانوية قبل عشرين دقيقة من الموعد المحدد، وانتظروا في غرفة بواب الكنيسة، ثم دخلوا دون أن يروا أندريه. لم يخرج اليسوعيّ الشابّ من المَوْهِف(*) بملابسه الدينية إلاّ حين بدأ الأورغ بالعزف، يسبقه أطفال الكورس. شعر جورج ويولاند بطركاني بالصدمة: صحيحٌ أنهما قد حضرا في العام السابق رِسامة ابنهما في لبنان، إلاّ أنها كانت المرة الأولى التي يريانه فيها وهو يترأس قداساً. لقد انتقل حقاً إلى الطرف الآخر من طاولة المناولة.

نال بطل اليوم نصيبه من العناق، ثم أتت سيارة جورج الجديدة

(*) الموهِف: حجرة مجاورة لهيكل الكنيسة تُحفظ فيها الأواني المقدسة وأوسمة الكنيسة ويبدّل فيها الكهنة ومساعدوهم ملابسهم ويضعون فيها ما يلزم للخدمة المقدسة. م.

السوداء والبيضاء اللماعة من ماركة كرايسلر دون ضجيج إلى جوار بوابة شارع بستان المكسي؛ نزل السائق منها ليفتح الأبواب، فبدت مقاعدها الرائعة المصنوعة من الجلد البني اللون، العريضة كأنها أرائك.

ـ *مبروك* يا بابا! قال أندريه محاولاً قدر استطاعته أن يسبغ المرح على صوته. ثم دلف ببعض الضيق إلى ذلك الصالون المتحرك.

كان أندريه يعلم كم تؤثّر في أبيه مثل تلك المجاملات، والأهمية التي يوليها لتلك السيارات الحديثة التي يجددها بانتظام.

ـ إنها من نوع إيرفلو، وضّح جورج بيه. هل لاحظت كم تُخمد الاهتزازات؟ إنها كالمخمل. يتسع خزان الوقود لسبعة عشر غالوناً. كما أنّ زجاج النوافذ يهبط بالكامل...

سارت الكرايسلر بسرعة في شوارع القاهرة، ومرت بعربات ترام صفراء وحافلاتٍ ذات لونٍ أخضر وأبيض، وعرباتٍ مختلفة تجرها الأحصنة. ومن خلال النافذة المفتوحة، كان أندريه ينظر بانفعالٍ، ولحيته يعبث بها الهواء، إلى مناظر مألوفة لم تتغير تقريباً. خلال اثني عشر عاماً، لم يكن قد أتى إلى القاهرة إلاّ في زيارتين قصيرتين؛ أما هذه المرة، فقد أتى ليبقى، بعد أن عُينّ للتدريس في الصف التاسع.

دهش اليسوعي لمنظر *الشاويشية* الذين يفتقرون إلى البراعة وهم ينظّمون حركة السير في تقاطعات الطرق، بحركاتٍ متعَبة وصفيرٍ بائس. لم يبدُ له أبداً أولئك القرويين باللباس الرسمي ضعفاءَ وسيئي المظهر إلى هذه الدرجة: كانوا يعبرّون عن بؤس ورقّة مصر التي لم تنجح بعد في أن تعطي لنفسها أهمية.

في شارع قصر النيل، كانت كلّ عمارةٍ ماتزال في مكانها: مصرف سواريس السابق، القنصلية الإيطالية، البعثة الدبلوماسية الفرنسية، روبير هوغ، الصالون الأخضر... تذكّر أندريه بحنانٍ قطعة قماشٍ اشتراها مع والدته من ذلك المتجر الجميل، عشية عيد الميلاد من العام 1915 أو 1916.

لفت جورج نظر ابنه إلى المبنى الضخم الذي احتل مكان فندق سافوا القديم. لكن أنظار أندريه كانت مثبتة على الأماكن التي يعرفها في ساحة سليمان باشا: البرجين السكنيين الصغيرين، مقهى غروبي وسينما الهواء الطلق الملحقة به، نادي ريزوتو حيث كان كل الشبان يذهبون للرقص في نهاية الأسبوع، مقهى ريش... ولم يستطع أن يمنع نفسه من النظر إلى نُزل ريغي المرتفع الذي أخفى بين جدرانه العديد من اللقاءات الغرامية غير الشرعية. ألم يكن يقال همساً إنّ الخالة ماغي نفسها...

أوقف *شاويشٌ* يتظاهر بأنه ينظم حركة السير سيارة الكرايسلر لبرهة، فاغتنمت فتاةٌ صغيرة بأسمالٍ بالية ووجهٍ يأكله الذباب الفرصة لتقترب وتطلب الصدقة بصوتٍ شاكٍ، فنهرها السائق كي تنصرف:

ـ *يا الله، يا* بنت!

انزعج أندريه، لكنه لم يجد الوقت ليتصرف، فقد انطلقت السيارة بين صفين من الأشجار في شارع سليمان باشا الذي تعرّف فيه على سطيحة نادي محمد علي، حيث كانت الحكومات تتشكل وتحلّ، وكذلك على دارة الأخوة غرين التي ماتزال مغلقة، والتي يشاع بأنها مسكونةٌ بالأشباح.

زاد السائق من سرعة السيارة ثانيةً بعد شارع القصر العيني، فبدت مجموعةٌ من المنازل الواسعة التي بالكاد تسنّى لجورج أن يعددها: آل الحريري، والعدس، وتوليدانو، واسكندر شديد بيه، وفخري باشا... حين مرّوا بقرب قصر أم الخديوي، لاحظ أندريه شجرات نخيلٍ بيضاء جميلة للغاية. لقد شارفوا على الوصول.

ـ أرجو أن تعجبك *ملوخيتي*، قالت يولاند.

فانحنى صوبها وقبّلها. شعرت يولاند بوخز لحيته على خدها، فاضطربت.

بقي الجو مشدوداً أثناء تناول المشروبات المشهّية رغم ضحكات ناندو المجلجلة وتظارف ماغي التي كانت ترتدي بيجاما

خضراء رائعة من الساتان. ظلّت السويسرية صامتة، غير قادرةٍ على الخروج عن تحفّظها. أما لولا وفيفيان، فقد شعرتا بالرهبة أمام ذلك الأخ الكبير ذي الثوب الكهنوتي والذي كثيراً ما سمعتا أحاديث مطوّلة عنه. بل إنّ جورج ذاته وجد صعوبةً في الاعتياد على طريقة ابنه في الكلام: فدون أن يكتسب تماماً اللكنة الفرنسية، أصبح أندريه يتكلم دون أن يمدّ مقاطع الكلمات كالسابق، كما أصبح يلفظ بعض الكلمات بصورةٍ مختلفة، ويستخدم كثيراً من الكلمات الجديدة.

أما رشيد، *السفرجي*، فقد كان يحاول ألاّ يظهر كثيراً؛ ولئن كان، حين فتح الباب، قد استقبل ابن آل البطركاني البكر والدموع تملأ محاجره، فإنه الآن لم يعد يجرؤ حتى على النظر إليه، مع أنّ أندريه كان قد قبّله على ندبته قبل أن يقدّم له هديةً صغيرة.

لم يكترث إدمون توتة بكل ذلك الحرج وحدّث اليسوعي عن آخر الأخبار، المقلقة جداً، لجبهة المعركة السكانية:

ـ هل تعلم بأن عدد سكان مصر يقترب من الخمسة عشر مليوناً؟ هذا مخيف، أليس كذلك؟

كان إدمون قد أرسل حوالى ثلاثين رسالةً إلى الملك فؤاد. في المرة الأولى، أحضر موظفٌ من القصر ورقة إعلام بوصول الرسالة، وأكّد له بأنّ جلالته أخذ علماً بكثيرٍ من الاهتمام بملاحظاته. أما الرسائل التسع والعشرون الأخرى، فقد بقيت دون إجابة، إلاّ أنّ إدمون كان مقتنعاً بأنّ الملك يدرس رسائله بجدّية ليضع خطة معركة ضد الزيادة السكانية في مصر.

انتقل الجميع إلى مائدة الطعام، ورسم أندريه إشارة الصليب، ثم أغمض عينيه في خشوعٍ بضع لحظات. لم يجرؤ أحدٌ على الجلوس، إلاّ أنّه هو الذي رطّب الجوّ وهو يتّخذ مكانه على رأس الطاولة الضخمة إذ قال:

ـ خمّنوا من ذهبت لأرى في فرنسا قبل رحيلي.

ـ آل ديلليم.

ـ لا.

ـ أليس توتة.

ـ لا.

ـ إيفون برانتان.

ـ ألكس! لقد وعدتني...

ـ الآنسة غيومار.

ـ بلى! هنرييت اللطيفة!

حدثت جلبةٌ فرِحة، فقد كان اسم المربية السابقة التي عادت إلى فرنسا منذ العام 1931 يثير المرح الصاخب على الدوام.

نهض ألكس قائلاً بصوتٍ حاد:

ـ هذا محال، محال! لا يمكن ترك هذا الطفل وسط جمعٍ قذرٍ وهيستري. سيضيع. سيُجرح أو الله يعلم أي مرضٍ سيلتقط...

عمّ الضحك.

ـ حين أتذكر، قالت يولاند، أنّ ميشو كاد ألا يقابل السلطان في الثانوية لأنّ هنرييت نسيت أن توقظه...

ـ صحيح؟ سألت فيفيان متظاهرةً بالسذاجة؛ لقد كانت تحفظ القصة عن ظهر قلب، لكنها لم تكن تملّ من سماعها.

وهكذا، أعيدت قصة استيقاظ ميشيل وخروجه المتعجل ورباط حذائه المفكوك والترام والأخ البواب... تدخلت ماغي من طرف المائدة الآخر لتطرح سؤالاً ألحّ عليها منذ سنواتٍ عديدة:

ـ *من وين لوين يا* ميشو كان للسلطان أن يعرف لافونتين؟

أشرق وجه ميشيل وقال:

ـ لكن حسين كامل تلقى أفضل تعليم في باريس! بل إنه أصبح رفيق لعبٍ وعملٍ للأمير الإمبراطوري...

كان ميشيل يعتبر أخصائياً حقيقياً بالسلطان حسين، وكان يتحدث عنه بثقة كاتب السيرة المفتون، على الرغم من أن أطروحة الدكتوراه التي كان يعدّها كانت ماتزال معلّقة بانتظار تحديد

موضوعها بدقة. فكلما ازدادت معلوماته، كلما ازداد حيرةً في الاختيار. وأضيفت إلى ذلك مسألةٌ حساسة، أو ربما ذريعة: هل يستطيع الحديث عن السلطان دون أن يجري مقارنةً مع الملك فؤاد؟ لن تكون هذه المقارنة لصالح الأخير. كانت الأطروحة موضوعةً إذن على الرف، وبانتظار استكمالها، كان ميشيل يعمل بدوامٍ جزئيٍّ كمدرّسٍ مساعد في الجامعة، ويذهب إلى صالون آمي خير الأدبي، ومن حينٍ لآخر يكتب مقالةً في *مجلة القاهرة*.

- بلى يا خالتي ماغي، لقد أرسل الخديوي إسماعيل ابنه إلى باريس! بل إنه عهد بتعليمه إلى الجنرال فلوري، مساعد نابوليون الثالث...

- *rudimini, qui judicatis terram!* قال الكونت هنري توتة.

- «تثقفوا، أنتم يا من تقررون مصير الأرض»!، ترجم أندريه وهو يبتسم.

ثم التفت إلى أمه وقال دون تمهيد:

- ماما، ليس عليّ استخدام هذا التعبير، لكن *ملوخيتك*... إلهية!

صفّق الجميع. أما يولاند، فكادت تطير فرحاً.

فيما بعد، استدعى جورج السائق حين أراد ابنه العودة إلى الثانوية، إلاّ أنّ أندريه رفض بحزم. كما لم يقبل أن يذهب مع ناندو ولا مع هنري توتة بالسيارة.

- كما تشاء، *يا ابني*، كما تشاء، قال جورج بلهجةٍ آسفة.

كان لا بدّ من التسليم بالواقع، فأول يسوعيٍّ خرج من صفوف العائلة كان يفضل ركوب الترام.

5

في حزيران 1934، كان عمر سليم، أبي، أربعة عشر عاماً، وقد بدأ يشعر بالاختناق في تلك الشقة في الفجّالة ذات الجدران المتعبة...

- ثلاثون قرشاً! صرخ روجيه بالعربية؛ أنت مجنون! هل تريد أن تسبب لأمك الإفلاس؟

ألقى سليم على أخيه الأكبر نظرةً ملتهبة، ثم ترك الغرفة وهو يصفق الباب. وبعد دقيقةٍ واحدة، عاد من جديد وقبضتاه على خصره، وقال وهو يرتجف من الغضب:

- بلى، ثلاثون قرشاً! وهذا هو الحدّ الأدنى. لن نذهب لنطلب من أولاد عمنا صدقة. ينبغي أن يكون بإمكاننا شراء قرن من المثلجات بين حينٍ وآخر...

- بشرفي، إنه مجنون! أمه تحرم نفسها من كل شيء، وهذا *المجنون* يتحدث عن المثلجات...

فسُمع من جديد صوت اصطفاق الباب.

كان من المقرر أن يذهب سليم وجان لقضاء أسبوعين عند أبناء عمٍ لهما أكثر يُسراً استأجروا كوخاً في رأس البر. كانت ميما ستعطيهما مصروف الجيب ذاك على حساب مصروف البيت، إلاّ أنّ ابنها البكر عمل من الحبة قبة. فروجيه، الذي كان يعيش حياة

اسبرطي صارم، لم يفهم ضرورة قضاء عطلة. فهو، من جهته، سوف يدرس ليل نهار طوال الصيف ليتمكن من النجاح في السنة الخامسة من دراسته للطب بتفوّق السنوات الماضية نفسه.

ـ يجدر بك أن تبدأ بمراجعة دروسك تحضيراً للعام الدراسي القادم، قال لسليم، بدلاً من أن تذهب لتنفق المال في رأس البر...

دوّى مدفعٌ من المقطّم، ارتجّت له النوافذ، معلناً انتصاف النهار.

ـ مع كل هذا الحر، قالت ميما، أنا أفهم رغبة الصبيان في الذهاب إلى البحر.

ـ وماذا عني أنا؟ احتجّت سولانج، أصغر الأبناء سناً.

ـ أنتِ اسكتي!

ـ لكن هذا ليس عدلاً...

ـ قلت لك اسكتي! قالت ميما وقد خرجت عن طورها.

ما أن فتحت الفتاة فمها ثانيةً حتى دوّت صفعةٌ، تلاها على الفور صراخٌ وبكاء، فانخرطت ميما في البكاء بدورها وقد فقدت أعصابها، وارتمت البنيّة بين ذراعيها. وكالعادة، غمرت الأم ابنتها بوابلٍ من القبلات وفيضٍ من الدموع، ثم انخرطتا في ضحكٍ مجنون يستحيل إيقافه.

هكذا كانت ميما، دائمة التوتر، تفيض بالحيوية، وتخلق حولها إثارةً دائمة. فكل ستة أشهر، كانت تتشاجر مع الخادمة فتحية وتطردها، متهمةً إياها بأنها لا تطبخ الكفتة كما ينبغي، أو أنها تتأخر في السوق، أو تصيب بالعين، ثم تأتي بخادمةٍ غيرها. لكنها لم تكن تستطيع الاستغناء عن ضحيتها، فتستقل الترام بعد بضعة أيام إلى حيّ السيدة زينب وتذهب لتأتي بفتحية من بيتها الواقع في زقاقٍ بائس...

خرج روجيه من الحجرة وهو يهز رأسه، فقد قرر أن يعطي أخويه خمسةً وعشرين قرشاً، خمسةً وعشرين قرشاً لا أكثر.

ـ هل تسمع يا سليم؟ خمسةٌ وعشرين قرشاً. أحلف بحياتي أنك لن تأخذ مليماً زيادة!

تلك الحسابات المبالغ في دقّتها كانت تثير غضب والدي الذي لم يعد يتحمل البنطلونات المرقعة، والجوارب المرفوّة، والأحذية التي يستبدل نعلها مرّةً بعد مرّة... كان يحلم بأن يصبح ذات يومٍ غنياً، لا لشيءٍ سوى ليرمي النقود في وجه ذلك الأخ الأكبر المثاليّ، الذي لا يطاق، الذي كان يجعله يستذكر دروسه وهو جالسٌ على المرحاض وبيده مسطرة.

6

بعث السحر الهليوبوليسيّ الليليّ الذي يزجّ بنفسه عبر النافذة المفتوحة على مصراعيها الجذل في نفس ميشيل الذي جلس باسترخاءٍ في مقعده، مسبل الجفنين، يتلذّذ بكلّ نغمةٍ من أنغام ڤالس شوبان الذي تعزفه ليدي ببراعة. ومن حينٍ إلى آخر، تداعب ظهر البيانو نسماتٌ خفيفة، مذكّرةً بليلٍ ليس له نهاية.

كانت مجموعة من الكتّاب تلتقي كل شهر في هليوبوليس حول محاضِر. وفي يوم الجمعة ذاك من شهر تشرين الأول لعام 1934، تحدّث أستاذٌ في كليّة الآداب ببراعةٍ حول «بوالو Boileau وتجربة الزمن في نزاعات الأقدمين والمحدَثين»، وقد أثارت المحاضرة نقاشاً حامياً. ثمّ، وكما في كلّ مرّة، محا عزف ليدي على البيانو كلّ شيء...

يعود لقاء ميشيل بمجموعة الكتّاب إلى شهر شباط السابق، وكان ذلك اللقاء نتيجةً غير متوقّعة لعامٍ من خلافات اجتماعات الأحد العائلية حول ألمانيا النازية.

ـ لقد قابلتك بفضل ذلك *البهلوان* هتلر. قال عرّابي لليدي.

لكنّ الفتاة الشابة لم تكن تعتبر هتلر مسلياً أبداً. ففي عائلتها، كما في أوساط البرجوازية اليهودية القاهرية كلّها، أثارت إجراءات معاداة السامية التي تبنّتها ألمانيا غضباً وقلقاً متزايدين. وقد قرر ممثلو المنظمات اليهودية الذين اجتمعوا في آذار من عام 1933 حول

جوزيف قطاوي باشا والحاخام الأكبر حاييم نعّوم أفندي مقاطعة المنتجات الألمانية في مصر. وبما أنّ المقاطعة شملت الأدوية، فقد طلبت لجنة المشافي اليهودية من وكلاء الأدوية الفرنسيين منتجاتٍ بديلة: كدواءٍ لعلاج الإصابة بالبلهارسيا يحل محلّ *الفؤادين* الشهير الذي صممه معمل باير مايستر خصّيصاً لمصر.

كان جورج بطركاني في قمة الغضب:

ـ من يحسبون أنفسهم، أولئك اليهود؟ بشرفي، إنهم يريدون تجويعنا!

اعتبر جورج بيه نفسه ضحيةً مباشرةً للمقاطعة لكونه وكيلاً لشركةٍ صيدلانيةٍ من هامبورغ. لكنّ الجميع كانوا يعلمون بأنّ تلك الوكالة لا تشكّل سوى جزءٍ ضئيلٍ جداً من حجم أعماله. كما أنه كان أيضاً ممثلاً لأربعة معامل فرنسية، وكان بوسعه بهذه الصفة أن يستفيد من السياسة الجديدة للمستشفيات اليهودية...

ـ لكن ماذا يريد هؤلاء اليهود الملاعين؟ إنهم يملكون الآن كافة المتاجر الكبيرة في مصر. شيكوريل لهم، شملا لهم، وغاتينيو لهم، وأوروزدي باك، أليس لهم أيضاً؟ الحمد لله أنّ لدينا نحن محلات صيدناوي!

تدخّل ميشيل قائلاً:

ـ أنت تعلم جيداً، يا أبي، بأنّ معظم وكلاء شركات الأدوية الألمانية هم من اليهود. إنهم يوقعون العقاب على أنفسهم بشكلٍ ما...

ـ أنت ساذج! أما أنا، فإنني أراهم وهم يعملون: فهم ينزعون اسم البضاعة عنها ويطرحونها للبيع. أو يخزّنونها بانتظار أيامٍ أفضل، ويرفعون الأسعار.

حاول ميشيل أن يعيد النقاش إلى الإجراءات المعادية للسامية التي اتخذها هتلر، إلاّ أنه اصطدم بأخيه بول الذي عاد متحمّساً من زيارةٍ لبرلين:

ـ لا تبصق على ألمانيا. ربما نحن بحاجةٍ هنا إلى النظام السائد هناك.

ـ لكن هذا ليس موضوعنا، *يا أخي*. من يحدّثك عن النظام؟

ـ لنتحدث عنه إذن!

ولكي تخفف توتّر الجو وتكرّر قصةً لم تكن تملّ منها، حاولت يولاند أن تحكي قصة جدها الجمركيّ:

ـ هل تعلمون بأنّ الجمارك في مصر، بداية القرن الثامن عشر، كانت تحت سيطرة اليهود؟ لقد تطلّب الأمر من الروم الكاثوليك في دمياط أن يستخدموا كلّ مهارتهم ليزيحوهم عن مراكزهم ويحلّوا محلّهم. جديّ الجمركي...

فقاطع جورج بيه تلك القصة التي يحفظها الجميع كلمةً كلمة:

ـ ما أعرفه هو أنّ اليهود متنفّذون ويسيطرون اليوم على كلّ شيء. وكلّ أولئك السواريس والقطاوي والرولو والموسيري يتحدّوننا ويذلّوننا بمعاملهم ومصارفهم وبيوتهم الفخمة.

أصبحت وجبات الغداء أيام الأحد أكثر توتراً حين قررت ألمانيا التوقف عن شراء القطن المصري رداً على المقاطعة. وجعل جورج بيه من ذلك الأمر قضيةً شخصية، كما لو أنّ محصوله مرصودٌ لبلاد هتلر فقط:

ـ ما الذي فعلته لهم ليعاقبوني مرتين؟ لا يكفي أنني لا أستطيع أن أبيع هنا، بل يُحظر عليّ أيضاً أن أصدّر إلى هناك! سوف ترى، سيمنع اليهود الطربوش قريباً. بشرفي، سوف نرتدي جميعاً القلنسوة اليهودية!

أخذ ميشيل يضرب على حامل سكينه بعصبية. كانت كلّ تلك الظنون السيئة تغيظه. مع *سيموديتشيك*، كانوا على الأقل يضحكون...

في بداية كانون الثاني 1934، جاءت محاكمة جابيس لتزيد الأمر سوءاً وتجعل جلسات الغداء العائلية لا تطاق. بدأت القضية قبل

بضعة أشهر حين نشر النادي الألماني في القاهرة مقالةً هجائيةً شديدة العداء للسامية، اتُّهمت فيها اليهودية العالمية بعدة أمورٍ منها التكاثر الخطير والميل الطبيعي لارتكاب بعض الجرائم. شعر يهوديٌّ إيطاليٌّ يدعى أمبرتو جابيس أنه أهين شخصياً، فرفع دعوى قضائية على الكونت فان ميتيرين، رئيس النادي الألماني، اتهمه فيها بالقذف والتشهير.

- إنه على الأقل كونت حقيقي، قال جورج ليولاند، وليس مثل أخيك...

أثارت المقالة استنكار ميشيل، ووقف في طابور في الثاني والعشرين من كانون الثاني 1934، مع ألفٍ وخمسمئة شخصٍ آخر، أمام المحكمة المختلطة للهتاف ضد محامي الدفاع، الأستاذ غريمّ الذي أتى من مونستر.

- المقالة المدانة تحدثت عن وضع اليهودي في ألمانيا، أعلن المحامي. إنها لم تستهدف لا السيد جابيس ولا أياً من الأشخاص الذين اشتركوا معه في الشكوى. لذلك فالدعوى مرفوضة.

احتجّ ميشيل بصوتٍ مرتفع، وشجّعه على ذلك غضب من حولَه. وهدد رئيس الجلسة بإخلاء القاعة، ثم أعطى الكلمة للأستاذ ليون كاسترو، محامي المدّعي، الذي ردّ ببراعةٍ قائلاً:

- للقاضي أن يبرز إن كان الضرر قد لحق بجماعةٍ أو بفرد. إلاّ أنه لا توجد جماعةٌ يهودية. هذه الجماعة ليست إلاّ مجموعةً من الأفراد...

ووفقاً للعرف المتبع، أعاد الأستاذ كاسترو وضع طربوشه على رأسه ليختم كلامه بعظمةٍ قائلاً:

- إنّ البرهان على أنّ أفراد شعبٍ أو عرقٍ أو طائفةٍ ما يستحقون احتراماً متساوياً لمعتقداتهم وكرامتهم وحقوقهم لا ينبغي أن يتمّ أمام محكمةٍ مختلطة في مصر، تتألّف من قضاةٍ من جميع الأعراق والجنسيات والمذاهب، وتعاملت طوال خمسين عاماً - دون

أيّ خللٍ ـ مع كل المعتقدات والأعراق ومع حقوق الشعوب كافةً بالقدر نفسه من الاحترام.

كان ميشيل يصفّق بحماس، عندما شعر بيدٍ توضع على كتفه؛ فالتفت ليجد خلفه فكتور ليفي.

نظر الزميلان السابقان لبعضهما برهةً، عاجزين عن النطق. كانا منفعلين بنفس القدر...

حكمت المحكمة بردّ شكوى السيد جابيس وسط صيحات استنكار الحضور. نهض ميشيل من مقعده يتنازعه شعوران: السخط والفرح الكبير. لقد خسر دعوى، لكنه ربح صديقاً.

ـ هل أنت مرتبطٌ على العشاء؟ سأله فكتور ليفي حين تلاقيا عند باب الخروج.

في الواحدة صباحاً، كانا مايزالان عند غروبّي، في عمق الصالة، يستدركان بمرحٍ ثمانية عشر عاماً من الصمت. ووسط زجاجات بيرة ستيلاّ، استعرضا كلّ دفعة 1921، وشربا نخب الأب بينالتي والسلطان والفلاّح وكلّ واحدٍ من أبنائه...

في تلك الأمسية، دعا فكتور ليفي ميشيل للمشاركة في مجموعة الكتّاب التي كان عنصراً نشطاً فيها. وكان من المقرر أن ينعقد اجتماعٌ ذو أهميةٍ خاصة بعد عشرة أيام حول «واقعية روح *القوانين*، قراءة جديدة لمونتسكيو».

ـ وإذا كنت تحبّ البيانو، فسوف تستمع إلى ابنة عمي ليدي وهي تعزف عليه، فهي تقدّم لنا دائماً عدداً من المقطوعات الموسيقية.

كان ميشيل يكره البيانو، لكنه عشق ليدي.

7

كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً حين رنّ جرس الهاتف في بيت جاردن سيتي.

ـ لقد حصلت مصيبةٌ يا جورج. أخوك ناندو...

رغم أنّ ابن العم الصحافي الذي يعمل في جريدة *البورصة المصرية* كان أمامه برقيةٌ مفصلة، إلاّ أنه لم يعطه أية تفاصيل عن ملابسات الحادث. استُقبلت عباراته بصمتٍ طويل.

ـ هل تسمعني يا جورج؟ هل تسمعني؟

ـ أسمعك، قال جورج أخيراً بصوتٍ مخنوق؛ سوف يرى هؤلاء الأوغاد ما سأفعله.

ـ كان الباب مغلقاً، إلاّ أنّ الدم كان يمرّ من تحته، مشكّلاً بركةً صغيرةً أمام المدخل. لم أرَ شيئاً للوهلة الأولى، لا بدّ أن أحدهم قد أطفأ المصباح...

كان رجل الشرطة الصامت لا يكفّ عن غمس ريشته في المحبرة، وتوجّب انتزاع الأقوال من بعض الشهود. أما *العمدة*، فلم يتوقف عن الكلام، وكان يستبق الأسئلة.

ـ كنا على موعدٍ لإنهاء بيع قطعةٍ من الأرض. وقال لي *الخواجة* أن أحضر بعد مغيب الشمس. وعلى عتبة البيت، كان هناك كلب ينبح بشدة...

كان فردينان بطركاني راقداً على ظهره، وقد ذُبح كالنعجة.

ـ أنا لا أفهم، قال *العمدة*، كان يكفي أن يخنق. لماذا بقروا له بطنه؟ كانت أمعاؤه مدلاّةً إلى جانبه وقد غطاها الذباب...

في صباح اليوم التالي، زار جورج بطركاني أرملة ناندو، ثم ذهب بالسيارة إلى مزرعة أخيه الواقعة على بعد بضعة كيلومتراتٍ من المنصورة. وعرض عليه أبناؤه أن يرافقوه، لكنهم اصطدموا بجدار:

ـ أنا ذاهبٌ مع مكرم. محاسبٌ يكفي.

بعد عشرين عاماً من الحادثة، بقي ما عناه جورج مدعاةً للتساؤل. حتى مكرم نفسه لم يستطع أن يقدّم إجابةً شافية حين سأله ميشيل، ثم بول، سراً عن ذلك. وحسب قوله، فإنّ جورج ظلّ صامتاً حتى وصلا إلى المنصورة.

بالنسبة لمكرم، كان فردينان بطركاني نموذجاً مثالياً للطفيليّ والمستغّل. وقد رأى على الدوام في ذلك الملاّك الجشع الذي كان يراكم الفدادين عدواً للشعب.

ـ سوف يلقى شقيقك جزاءه عاجلاً أو آجلاً، كان ذلك القبطي يقول.

وماذا لو كان جورج قد اصطحبه إلى المنصورة بسبب تلك الجملة فقط؟ محاسب، لكي يقدّم حساباً، لكي يتحقق بنفسه... على أيّ حال، فإنّ الطقم الأسود الذي يرتديه مكرم دائماً بدا هذه المرة في محله.

وعلى ما يبدو، فإنّ ناندو لم يقع ضحية مجرم واحدٍ عابر، فكلّ شيءٍ كان يوحي بجريمةٍ محليةٍ وجماعيةٍ ومنظمّة: غياب الخدم، الشهادات غير المنطقية للجيران الذين لا يعرفون شيئاً ولم يروا شيئاً ولم يسمعوا شيئاً...

ـ لو أمسكت بالقاتل، لخنقته بيديّ هاتين، قال جورج *للعمدة*.

لكنهم اجتمعوا على قتله. فليعلمنّ مدينوه أنّ ديونهم لن تلغى بسبب هذه الجريمة! فدفاتر حسابات أخي في الحفظ والصون في القاهرة، وسوف أدافع بنفسي عن مصالح أرملته وأولاده. والويل لمن لايسدد دينه!

وفي المساء، على طريق العودة، طلب جورج من مكرم أن يساعده على تصفية أعمال ناندو، فلم يستطع القبطي أن يرفض طلبه.

ومنذ اليوم التالي، قام جورج بيه بإجراءٍ مدوٍّ في وزارة الداخلية. كانت خطوةً لا أمل فيها، لكنه قام بها حفاظاً على الشكليات ومن أجل الشرف. وسوف تطوى القضية كلها بعد بضعة أشهر لعدم وجود الأدلّة الكافية.

كان جدي من القلائل الذين يعرفون كم تكلّف ناندو من جهودٍ وخيالٍ وجرأةٍ ليصبح غنياً. لقد جمع ثروته قرشاً قرشاً وفداناً إثر فدان، منطلقاً من الصفر. لقد جرؤ ناندو على الابتعاد عن أضواء المدينة لينغمس في ذلك الريف المصري المجهول والمزدرى، وانتهى به الأمر إلى أن يعرفه بشكلٍ يثير الإعجاب - وإلى أن يحبّه.

ففي العام 1890، حين كان في الثامنة عشرة من عمره، عمل الشقيق الأكبر لجورج عند شخصٍ اسمه سيناكيس؛ وبسبب إصابته بداء النقرس، ظلّ ذلك المرابي اليوناني في القاهرة، واحتاج إلى وكيلٍ متجوّلٍ يمرّ على زبائنه في الدلتا.

وهكذا، كان ناندو البدين يستقلّ القطار في الصباح الباكر أربع مرات في الأسبوع باتجاه بنها، ويحمل معه زوّادةً كافية: شطيرتين أو ثلاثاً من الفول مع بعض حبات البندورة وقطعةً من جبن القسطنطينية ملفوفةً بصفحةٍ مزدوجة من جريدة *البوسفور المصري*. أما بقية تجهيزاته، فكانت تقتصر على قلمٍ من الرصاص ودفترٍ صغير. وكان يخفي المال في جيبٍ خاصٍ خاطته له أخته أوجيني داخل البنطال.

ما أن يتحرك القطار حتى يفرد ناندو الجريدة: فتلك الساعة التي يقضيها في السفر كانت تُشعره دائماً ببعض الجوع. في مقطورة الدرجة الثالثة تلك التي تشبه القنّ، كان يشعر فوراً بأنه في الريف؛ فالدجاج والبط يتجول فيها بحرية، ويملأ بالأقذار الأخفاف الجلدية الصفراء التي خلعها الركاب ليرتاحوا ويفركوا أصابع أقدامهم.

وحين يصل إلى بنها، كان ناندو يستأجر حماراً صغيراً نشيطاً أسود ـ الحمار نفسه دائماً. أما مهمته، فهي أن يذهب من قريةٍ إلى أخرى ليقبض الديون ويعرض على الفلاحين قروضاً أخرى. وكلّ عمليةٍ مبرمة كانت تعود عليه بعمولةٍ مقدارها واحد بالمئة.

لم يكن زبائن اليونانيّ يعرفون القراءة أو الكتابة، فكانوا يوقّعون على الأوراق ببصمة الإبهام. وبصورةٍ عامة، كان يتمّ إقراضهم الجنيه الإسترليني على أساس أنه يعادل 125 قرشاً، مما يجعل الفائدة تصل إلى 27.5 بالمئة. لم يكن القانون المدني يسمح بأن تتجاوز الفائدة 12 بالمئة؛ لكن كيف يمكن منع المزارعين المديونين أصلاً والذين يرون أسعار المنتجات الزراعية تنخفض بين عام وآخر من أن يقعوا في شباك المرابين؟ فعليهم تسديد السلف التي رصدت لشراء البذار أو الأسمدة؛ كما أنّ أية مناسبةٍ عائلية ـ زواج أو ختان أو جنازة ـ كانت تخلّ بميزانيتهم الضعيفة أصلاً، وتجبرهم على مزيدٍ من الاستدانة، مهما بلغت الفائدة...

كان بإمكان أولئك المزارعين الصغار أن يتجهوا للمصارف، مثلما يفعل الباشوات من أصحاب الأملاك الكبيرة. إلاّ أنّ المصارف تفرض الرهن، كما أنها علاوةً على ذلك لم تكن تقرض مبالغ متواضعة كهذه إلاّ في ما ندر. إضافةً إلى ذلك، فالجباة المكروهون في الأرياف هم الذين كانوا يتولون تحصيل الديون. ولم ينس أحدٌ تصرفاتهم حتى الاحتلال الإنكليزي: فقد كانوا يحصّلون ضرائب باهظة في كلّ مناسبة تحت ضربات *الكرباج*، ذلك السوط المصنوع

من جلد فرس النهر، الذي كان استخدامه، من حيث المبدأ، ممنوعاً منذ 1883. من حيث المبدأ... وحين يتعامل المدين المفلس مع مصرفٍ ما، فقد تُصادَر أرضه، أما حين يتعامل مع مرابٍ، فإنّ التفاهم يبقى ممكناً دائماً.

كان ناندو يستمع مطولاً إلى هذا وذاك من الفلاّحين، وأخذ يتآلف مع العادات الريفية والأساليب الزراعية. أصبح يعرف كيف يقيّم بنظرةٍ واحدة نوعية محصولٍ من قصب السكر، أو سعر جاموسةٍ حلوب، أو مردود ناعورةٍ مائية. كما راقب طريقتهم المبتكرة في قياس حجم الحبوب ـ وهو قياسٌ يأخذ بالحسبان الطبقات السفلى في الأكوام، فتعلّم أيضاً أنّ اثنين زائد اثنين لايساوي أربعة بالضرورة، وهو درسٌ أساسي سوف يفيده كثيراً فيما بعد...

مرةً في الأسبوع، كان ناندو يقدّم لليوناني دفتره الذي يحتوي على أسماء المدينين ومقدار الكمبيالات وتاريخ تسديدها؛ إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من أن يعمل في الوقت نفسه لحسابه الخاص بمبالغ صغيرة: فكان مثلاً يقرض عشرين قرشاً لمزارع، ويستوفيها ثلاثين في الأسبوع التالي، في يوم السوق...

بعد بضع سنوات، ترك ناندو اليونانيّ. لقد تعلّم من أين تؤكل الكتف، فأصبح يعرف اللعب على مواعيد تسديد القروض وعلى أسعار القطن في الوقت ذاته.

رغم أنّه يتمّ حساب الفوائد على أساس العام كلّه، فإنّ التسديد كان يُطلب دائماً في شهر المرابين، أي شهر تشرين الأول، في موعد القطاف، فيجد الفلاح الذي لا يتمكن من تسديد دينه نفسه مضطراً لأن يبيعهم محصوله. والحال أنّ أسعار القطن كانت لا تني تتغيّر؛ وكانت تصل إلى المرابين ذوي العمل المنظّم، كناندو مثلاً، برقياتٌ من مراسليهم تعلمهم بآخر الأسعار، فيتصرفون على هذا الأساس. وفي المحصلة، كانت فوائدهم تصل إلى 60 بالمئة.

كان كرش ناندو يتضخم مع تضخّم جيب بنطاله. وحين اندلعت الحرب عام 1914، تحوّل فارس المراباة ذاك إلى مضارب؛ فكان يشتري كلّ الأراضي التي تُعرض عليه. وحين توفي بعد عشرين عاماً، قُدّرت ثروته بمليون جنيه مصري.

كان موقف جورج تجاه ذلك الأخ الأكبر الذي لا يشبهه أبداً موقفاً معقداً على الدوام. فكان يبدو بأنه يدافع عنه ويلتمس له الأعذار، دون أن يؤيده بالضرورة. لقد كان هو، جورج، الأخ الأكبر في الواقع. وزاد لقب بيه الذي حصل عليه من إبراز ذلك الانقلاب في الأدوار.

في السنوات التي تلت موت ناندو، بدا جدي وكأنه يخلّد ذكرى المرحوم. وكان يردد في كثيرٍ من الأحيان بطريقةٍ مفخّمة:

ـ كما كان أخي فردينان يقول...

لكن أحداً لم يحتفظ لفردينان بطركاني إلاّ بذكرى رجلٍ ذي ثروةٍ كبيرة، وشهيةٍ هائلة، وضحكةٍ مجلجلة مدوّية تنفجر كأنها طرّادة مياه.

القسم السادس

الأحياء المخصّصة

1

كزّ الأب أندريه على أسنانه وصلّى لمريم العذراء. كان يتقدّم منذ خمس دقائق في هذا المكان المرذول بصحبة عُبيد، أقدم سائقي المدرسة. وقد اضطرا إلى ركنِ سيارة السيتروين في مكانٍ بعيدٍ بعض الشيء قبل أن يعبرا ممراً ضيقاً يحدّد مدخل سوق السمك.

بالطبع، لم يكن هناك سمكةٌ واحدة. وكان السائحون، الذين يحضرهم إلى ذلك الحيّ أدلاّء سياحيون ذوو هيئاتٍ مريبة، يكتشفون بسرعة أنّ سوق السمك هو الحيّ المخصص في القاهرة.

ـ مخصصٌ لمن؟ للإنكليز مثل نادي السبورتنغ؟ سأل يوماً أندريه، الذي كان في العاشرة من عمره، خلال اجتماعٍ عائليٍ، مثيراً ضحك جميع من حوله.

لقد أشفق على ذلك الصبي الذي كانه والذي مايزال يشبهه كثيراً في بعض النواحي. مخصّصٌ لمن؟ لماذا «مخصّص»؟ لم يجب أحدٌ على سؤاله. في تلك الفترة، كان أخواله يقولون له بالتواطؤ مع بعضهم في أيام الأحد أثناء الغداء:

ـ حين تكبر، سوف تدخل إلى المحاكم المختلطة.

فيحمرّ خجلاً. ذلك المكان المبهم، المخصص للاختلاط، ألم يكن نفس المكان الذي يقوم به بعض الرجال بأعمالٍ محرّمة مع بناتٍ سيئات السمعة؟

كانت امرأةٌ ذات صوتٍ أجشّ قد اتصلت بالمدرسة بعد الظهر قائلةً:

ـ هناك صبيّ ليس على ما يرام أبداً. وقد قال لي رفاقه بأنه من مدرستكم. سأخبر الشرطة إن لم تحضروا بسرعة.

فاستدعى الأب المدير أندريه على الفور وقال له:

ـ لا يمكن أن يُحضر الصبي إلاّ شخصٌ يجيد العربية. هل بإمكانك الذهاب فوراً؟ سيرافقك عُبيد.

مرّا بأزقةٍ كثيرة، منازلها واطئة وقذرة. كانت نساءٌ من كافة الأجناس ـ سوداوات، عربيات، يونانيات، مالطيات أو يهوديات ينادين المارة بكلّ اللغات. وعلى الأبواب، وضعت لوحاتٌ تشير إلى أسمائهن وجنسياتهن. وكنّ يكملن المعلومات بصوتٍ مرتفع فيقدّمن تفاصيل حول علومهنّ الغرامية بحركاتٍ وإشاراتٍ معبّرة.

دون أن يلتفت يمنةً أو يسرة، تبع أندريه بشكلٍ آليّ عُبيداً الذي كان يتوقف بين حينٍ وآخر للسؤال عن الطريق. سحبته امرأةٌ لوّنت شعرها بالأشقر وطلت وجهها بالأصباغ، من كم ردائه قائلةً:

ـ تعال من هنا، أيها الوسيم! أنا أعرف عمّا تبحث!

تخلّص منها بقوة وقد شحب وجهه من الغضب، في حين دفع السائق المرأة، فكالت لهما السباب الذي تناول، فيما تناول، أمّ أندريه. حثّ عُبيد المسكين خطاه وهو يهز رأسه.

في الزقاق التالي، بدت النوافذ مسيجةً بالقضبان. وكان بعض المارة يقفزون إلى الحائط ثم يتعلقون بالقضبان بضعة ثوانٍ، ليحكموا بشكلٍ أفضل على الخدمات التي تقدمها الفتيات.

لو كان الأب أندريه وحده، لعاد أدراجه ربما. إلاّ أنّ عُبيداً أسرع الخطى بعد أن تأكد من أنه على الطريق الصحيح.

ـ هناك، قال عُبيد وهو يشير إلى تجمّعٍ صغيرٍ أمام بابٍ مفتوح.

لاحظ أندريه شبح شخصين ينفصلان عن المجموعة ليختبئا

في الزقاق المجاور، وهما طالبان كسولان من الصفوف العليا معروفان منذ فترة طويلة بعدم انضباطهما. سيريان فيما بعد...

ـ أخيراً وصلتم! قالت امرأةٌ سوقيةٌ بدينة تجرّ في قدميها خفّاً بالياً. تأخرتم! حظكم جيد، فالولد تحسّن. لقد أغمي عليه، بل إننا اعتقدنا أنّه مات. *يا الله، يا الله*! خذاه وانصرفا. لن أقبل أطفالاً عندي بعد الآن.

في الحجرة، كانت ستائر وسخة من الموسلين تحجب جزئياً سريراً حديدياً كبيراً تمدد عليه الشاب رؤوف ب. الطالب في الصف العاشر، ووجهه كالنار. رفع رؤوف رأسه عندما رأى الأب بطركاني وسأله بصوتٍ قلق:

ـ هل سأطرد من المدرسة، يا أبي؟

لم يجب أندريه، وطلب بعينيه من عُبيد أن يساعد الفتى على النهوض، وسار هذه المرة في الطليعة.

ـ *يا الله، يا الله*! لا توجد هنا فرجة، صاحت المرأة البدينة بصوتها الأجش وهي تبعد المارة المتجمعين.

2

كانت يولاند بطركاني تقيم في بيتها حفلة شاي كلّ ثلاثاء. في العادة، كانت فيفيان تهرب من تلك الثرثرات الاجتماعية، فتتدبر أمرها بحيث لا «تدخل للتحية» أبداً. أما هذه المرة، فلم تصل قبل الوقت وحسب، بل إنها دعت صديقتها سلوى إلى البيت: فكلا الفتاتين تتحرقان شوقاً للتعرف إلى ضيفة الشرف هدى شعراوي، القلب النابض للحركة النسائية المصرية.

في الشهر الماضي، حضرتا معاً عرس صديقةٍ لهما مسلمة، بلغت بالكاد ستة عشر عاماً. كان زواجاً دبرته العائلة حتى دون أن تستشير صاحبة العلاقة. صُدمت فيفيان عندما رأت العريس، فقد كان أربعينياً، بطيناً، شديد السمرة وأصلع تقريباً. وفقاً للعادة، بدّلت صديقتهما فستانها عدة مرات خلال الحفل، إلاّ أنّ هيئة الأموات ارتسمت على وجهها المصبوغ. وحين رأتهما، أجهشت بالبكاء.

ـ لو كنت مكانها لقتلت نفسي، قالت سلوى لفيفيان في المدرسة في اليوم التالي أثناء الفرصة؛ نعم، كنت سأقطع شراييني، أو كنت سأذهب لأرى هدى شعراوي...

ابتعدتا عن بعضهما بشكلٍ ملحوظ عندما رأتا الناظرة تقترب. لقد كانت الراهبات يقلن: «ما اجتمع اثنان، إلاّ كان الشيطان ثالثهما».

ما الذي يمكن أن يعنيه الشيطان تماماً بالنسبة لمسلمةٍ مثل سلوى؟ في الصفّ، أثناء الصلاة، كانت تقف صامتةً وكأنها لامبالية، وفيفيان ترقبها بطرف عينها. سرت في المدرسة إشاعةٌ تفيد بأنّ طالبةً مسلمة من الصف الأول الثانوي قد اعتنقت المسيحية خفيةً عن أهلها وأنّ الراهبات كنّ يناولنها القربان سراً بعد القدّاس. هل كان ذلك صحيحاً؟ على أية حال، فإنّ سلوى لم تكن لتتصرف على ذلك النحو، وفيفيان التي تعرفها جيداً لا يمكن أن تتخيلها راكعةً في المَوْهِف...

حين دعتها سلوى إلى منزلها للمرة الأولى، كان هناك سيارة كبيرة تنتظرهما أمام المدرسة. ودهشت فيفيان حين رأت سلوى تقبّل يد أبيها. جلست معها في المقعد الخلفي وهي تشعر بالحرج. أما الأب، فجلس قرب السائق ولم يوجه لهما كلمةً أو نظرةً واحدة طوال الطريق.

كان آخر أعمال هدى شعراوي الاستفزازية يتعلّق بالزواج. فقد أطاحت بالتقاليد الإسلامية حين نظمت بطريقتها حفل زفاف ابنتها الروحية، الجميلة حورية إدريس. ارتدى العريس بذلةً سوداء وقفازاتٍ بيضاء على الطريقة الغربية، في حين ارتدت حورية ثوباً أبيض ذا طرحةٍ طويلة، حملها صبيٌّ صغير مشى خلفها، وأحاطت بها فتيات الشرف... إلاّ أنّ ما أثار الثرثرة بشكلٍ خاص كان عقد الزواج: فلكي تزوّجه حورية، لم تطلب هدى شعراوي من ذلك الدبلوماسي الشاب كمعجّل سوى مبلغٍ زهيدٍ: خمسةً وعشرين قرشاً، وثلاثمئة جنيه كمؤجّل. واتهمها منتقدوها قائلين بأنها «تقلّل من قيمة فتياتنا».

حين سألتها إحدى صديقات يولاند عن هذا الأمر وسط قعقعة الملاعق الفضية في الفناجين، أجابت هدى شعراوي وهي تبتسم:

ـ لا، أنا لا أقلل من قيمة فتياتنا! إنني أجعل الزواج أكثر سهولةً وحسب؛ ففي نظام الزواج الحاليّ، وهو نظامٌ غير منطقي، يُفرض على الشاب مهرٌ مرتفع جداً، فإما أن يعدل عن الزواج أو يستدين

مبالغ كبيرةً من المال. أليس من الأنسب أن يكرّس هذا المال لتأسيس بيتٍ لطيف؟

ـ يأخذون عليكِ أيضاً أنك تسهّلين الطلاق...

ـ يا له من نفاق! إنني فخورةٌ لأنني طرحت للتصويت قانوناً يسمح للزوجة بالطلاق إذا كانت ضحيةً لسوء المعاملة. وأرجو أيضاً أن أستطيع منع زواج الفتيات قبل سنّ السادسة عشرة.

أخذت سلوى التي تجلس مع فيفيان، بعيدتين نوعاً ما عن بقيّة النسوة، تستمع بنهمٍ إلى كلمات هدى شعراوي، وهي أرملة باشا كان رفيق درب سعدٍ زغلول.

ـ زوّجني أهلي حين كنت في الثالثة عشرة من عمري، تقول ضيفة الشرف، وكنت ماأزال جاهلةً تماماً. طلبت من زوجي أن يسمح لي بالذهاب لبعض الوقت إلى أملاكنا في الصعيد، فوافق لأنه كان رجلاً ذكياً ومثقفاً. ولكي يراسلني في ذلك الوقت، كان عليه أن يرسل رسالته إلى الخادم ضمن مغلفٍ مزدوج: فقد كان اسم المرأة سرياً لدرجة أنه لم يكن ينبغي أن يتلفظ به ساعي البريد! وفي الصعيد، التهمتُ مكتبة أبي الأوروبية التهاماً. ثم طلبتُ كتباً أخرى من فرنسا وإنكلترا وأمريكا. ظللت حتى العشرين من عمري أدرس وأفكّر وأقارن. وفي أحد الأيام، كتبت إلى الباشا بأنني أصبحت جديرةً به، واستأنفنا حياتنا الزوجية على الطريقة الإسلامية.

أثناء أحداث 1919، تظاهرت هدى شعراوي في شوارع القاهرة مع سيداتٍ أخريات، محجباتٍ مثلها. وبعد أربع سنوات، كانت قد شكلت الاتحاد النسائي المصري، ومثّلت مصر في المؤتمر النسائي في روما.

ـ حين عاد وفدنا، كان آلاف الأشخاص يتجمعون في محطة القاهرة. نزلت من القطار وأنا أرتدي لباساً أسود بالكامل، ثم نزعت عني حجابي. كان بإمكانهم أن يبصقوا في وجهي، إلاّ أنّ أحداً لم يتحرك. عبرت الجمع ببطءٍ والدموع تنهمر من عيني... في اليوم

التالي، أتى بعض العلماء الشيوخ متوسّلين إليّ أن أعيد وضع الحجاب، فأجبتهم بأنّ ضميري يمنعني من ذلك.

ـ هل كان الملك يساندك؟ سألت يولاند.

هزّت هدى برأسها أن نعم ولا: فالملك فؤاد لم يكن يريد التورط.

ـ في العام 1932، حين جاءت ثريا ملكة أفغانستان إلى القاهرة، خشي فؤاد أن تُظهر وجهها، فأرسل إليها خماراً من الموسلين السميك يُعقد حول العنق بقطعةٍ من المجوهرات. وصلت ثريا وهي تضع ذلك الخمار. وكنا، نحن أعضاء الاتحاد النسائي الحاضرات في المحطة لاستقبالها، محجباتٍ أيضاً بأمرٍ من الملك. لكن حين مرّت سيارة فؤاد من أمامنا، خلعنا الحجاب جميعاً بحركةٍ واحدة. ولكي يغفر لنا ذلك التصرف المتمرد، رميناه بالورود.

ـ هذا رائع! هتفت سلوى، ثمّ احمرّ وجهها فجأةً حين رأت كافة الأنظار تتجه صوبها.

أرسلت لها هدى شعراوي بيدها إشارة ودية، وتابعت قائلةً:

ـ إنّ الأمور تتطور فعلاً. ففي العام الماضي، تقدمت طالبةٌ للحصول على الإجازة في الحقوق؛ ولدينا اليوم في مصر مئتا ألف طالبة مدرسة ـ أي أكثر بمرتين من عددهن في بداية العشرينات. إلاّ أنهنّ لا يمثّلن حتى عشر عدد الفتيات اللواتي هنّ في سن المدرسة، بمن فيهنّ الفتيات المسيحيات في المدن الكبيرة، من أمثالكنّ، اللواتي يذهبن جميعاً إلى المدرسة.

كادت فيفيان تتدخّل لتوضّح بأنّ صديقتها مسلمة، إلاّ أنّ هدى شعراوي تابعت على نفس الوتيرة:

ـ صحيحٌ أنّ العربات المخصصة للنساء في الترام أصبحت أقل إلزاماً اليوم، وقد نجد فيها رجالاً، كما لا تتردد بعض النساء في ركوب العربات الأخرى. لكن حذارِ، لم يتغير شيء! لنأخذ مثالاً الفضيحة التي أثارتها طالبتان لأنهما ارتديتا لباس السباحة في احتفالٍ رياضيّ في الجامعة. ومشايخ الإسكندرية يريدون تقسيم

الشواطئ إلى منطقتين؛ كما سوف يفتتح قريباً في سيدي بشر تجمّعٌ سياحيّ للنساء فقط. وأنا أعرف أكثر من وجيهٍ سوف يرغم زوجته على ألاّ تسبح إلاّ في ذلك السجن البحري...

ثم استدارت نحو سلوى وقالت:

ـ ستكون المعركة من أجل تحرر المرأة المصرية طويلة، طويلةً جداً. ستحصل توقّفاتٌ مفاجئة وتراجعات، لكننا سوف ننتصر؛ أنا متأكدة من ذلك، وخاصةً إذا انضمت إلينا شاباتٌ مثلك...

دخل *السفرجي* فجأةً إلى الصالون بنظرةٍ متوترة، مقاطعاً هدى شعراوي.

ـ ماذا حصل يا رشيد؟ قالت يولاند باستغراب.

ـ اعذريني، سيدتي. جلالة الملك توفي.

3

في شارع عابدين، أُجّرت الكراسي بثلاثين قرشاً لفترة الصباح. بل إنّ البعض اشتروا أماكن على سلّم مزدوج وضعه على الرصيف بقّالٌ ماهر. أمّا المقتدرون، فانتظروا الموكب الملكي في فندق الإنتركونتيننتال، الذي جُهّز بمقاعد لهذه المناسبة...

جاء حسن متسكعاً، لكنه شعر بأنّه قد وقع في فخّ، كما ذكر فيما بعد في كتابه *مسار ضابط*. ألم يكن يساهم في زيادة حجم ذلك التجمع الكبير الذي قد يفسّر بأنه توقيعٌ على بياضٍ للملك الجديد؟

مات فؤاد بعد عدة أيام من الاحتضار تخللتها بياناتٌ طبية خادعة طمأنت الناس على صحته. ولم تستطع أية صلاةٍ قام بها علماء الدين المسلمون والأساقفة من كافة الطوائف والحاخام الأكبر أن تستبقيه على الأرض.

اضطر الأمير فاروق إلى انتظار تأكيد وفاة والده لكي يترك مدرسته في وول ويتش قرب لندن ويتجه إلى مصر، ووصل إلى القاهرة بيسرٍ وسهولة بعد الدفن بخمسة أيام.

ـ لقد عرض الإنكليز على فاروق أن يعيدوه على وجه السرعة بوساطة باخرة حربية، قال أحد موظفي الترام خلف ظهر حسن.

ـ لقد رفض، وحسناً فعل، أجاب صوت. كيف كنا سنبدو؟ يجب ألاّ يأتي ملكٌ مصريٌ ليستلم عرشه على متن بارجةٍ بريطانية!

عومل فاروق، الذي كان بالكاد في السادسة عشرة من عمره،

بكلّ مظاهر الأبهة. فقد حياه إدوار الثامن في بكنغهام، ثم ذهب إلى دوفر في قطارٍ خاص. وقامت مدمرتان بمرافقة مركبه البخاري حتى كاليه، أما في ميناء مرسيليا، فقد جهّز له جناحٌ كامل من سفينة *فايسروي أوف إنديا*.

إلاّ أنّ كل ذلك لم يكن شيئاً بالمقارنة مع ما ينتظره في مصر: الأسطول الإنكليزي بأكمل هيئة، طائراتٌ في الجو، وأعدادٌ كبيرة من الناس المتجمعين في كل المحطات لمشاهدة مرور قطاره الأبيض. وفي القاهرة، وعلى طول الشوارع التي سيسير فيها الموكب، أخذت مكبرات صوت تبثّ بلاغاتٍ وخطاباتٍ وأغاني.

ـ إنه شابٌ وجميل، وسوف يطرد الإنكليز، قال موظف الترام.

ـ على كلّ حال، لن يعوزه مصروف الجيب، علّق أحد زملائه. يبدو بأنّ فؤاداً قد أورثه عدة ملايين من الجنيهات، بالإضافة إلى القصور ومجموعات الطوابع البريدية...

فكّر حسن، الذي كان بعمر فاروق، بالجنيه الذي أعطاه له عمه رشيد. كانت هديةً جميلةً جداً. الهدية السنوية... كما فكّر مرةً أخرى بفيفيان بطركاني التي تلاحقه عيناها الخضراوان منذ ذلك الصباح. ماذا كانت تفعل في المطبخ حين رنّ جرس باب الخدمة؟ فهو لم يكن يصادف عادةً أياً من أفراد عائلة *الخواجات* تلك.

عرف حسن وفيفيان بعضهما منذ النظرة الأولى، فقد تذكرا أول لقاءٍ لهما في البيت القديم في شبرا، قبل ذلك بست سنوات. لم ينس أيٌّ منهما أغنية أبي سمسم، حامل صندوق العجائب:

يا سلام، يا سلام

شوف الفرجة دي كمان...

ـ جئت لأرى عمي رشيد، قال حسن بصعوبة، وقد أبهرته تلك الفتاة ذات العينين الخضراوين.

كان الصوت المتردد لابن شقيق رشيد يتناقض مع وجهه المتطاول الحاد. إلاّ أن أكثر ما أثار الاضطراب في نفس فيفيان كان صدره الرياضي الذي يشق قميصاً أبيض بلله العرق.

ـ ادخل، قالت فيفيان بصوتٍ أرادت أن يكون شديد اللامبالاة. سوف أنادي رشيداً.

مجرد لفظ هذه الكلمات باللغة العربية أتاح لها أن تستعيد وعيها وأن تقيم حاجزاً لا مرئياً بينهما. فلكل لغةٍ وظيفتها. لن يفكر أي فردٍ من عائلة بطركاني أن يترجم كلمة *معليش* بجملة «ca ne fait rien»، أو أن يستبدل بكلمة *مبروك* كلمة «felicitations». وبالمقابل، فإنه لا يمكن تصور الحب في السينما إلاّ بالفرنسية ـ أو بالإنكليزية في أسوأ الأحوال. فكلمة «je t'aime» تبدو مضحكة إذا قيلت بالعربية، بل مبتذلة تقريباً...

شحر الفتى حسن بالصوت الواثق لتلك البرجوازية الكوسموبوليتية؛ واجتاحته رغبةٌ عارمة في أن يضمها بين ذراعيه وأن يقبّلها بملء فمه...

أخذت الجموع تضطرب في جهة ساحة الأوبرا؛ مدّ حسن عنقه فشاهد سيارةً حمراء كبيرة تقترب ببطء، تحفّ بها عدة سياراتٍ أخرى، وسط تصفيقٍ متزايد. كانت تلك الملكة الأم وبناتها اللواتي سبقن فاروق إلى قصر عابدين لاستقباله.

سرّ رشيد بزيارة ابن أخيه الذي كان في عهدته تقريباً منذ اليوم الذي أخرجه فيه من مسلخ الجِمال في الجيزة. كان يحلم بأن يراه موظفاً.

ـ ألا تريد أن تتقدم للعمل في السكك الحديدية؟ سأله للمرة الألف. يمكنني أن أطلب من *الخواجة* أن يساندك، فهو يعرف الكثير من الناس ولديه نفوذ...

ـ سوف أتقدم للأكاديمية العسكرية، قال حسن.

ـ إلى الأكاديمية العسكرية! كي تصير ضابطاً! لكنهم لن يقبلوا بك أبداً، *يا ابني*. فهم لا يقبلون سوى الأغنياء أو أبناء الضباط.

كان حسن يعرف بأنّ قبوله في الأكاديمية العسكرية بعيد المنال. وقد كتب في *مسار ضابط*: «صحيحٌ أنني كنت أستطيع أن أجتاز اختبار الاستعداد الجسماني بسهولةٍ، إلاّ أنّه كان من الممكن

أن أُرفض في الامتحان الشفهي، مثل معظم رفاقي. فاللجنة الفاحصة كانت ستسألني بالتأكيد إن كنت قد شاركت في مجموعةٍ سياسية أو إذا كنت قد ساهمت في مظاهرات العام الماضي. بماذا كنت سأجيب؟ فهؤلاء الضباط الكبار، الذين لا يقل تعاليهم على الآخرين عن ازدرائهم لهم، يمكن لهم بالتأكيد الوصول إلى وثائق الشرطة..».

وفكّر حسن أيضاً بأنّه لابدّ أن يكون قد فتح ملفٌ لأبيه عام 1919 قبل أن يُقتل مثل كلب، في الشارع. لم يكن حسن يعرف شكل أبيه، إذ أنه لم يجد له أية صورة: لا لدى أمه التي أصبحت منذ العام 1920 الزوجة الثالثة *لعمدة القرية*، ولا لدى العم رشيد الذي حكى له بأنّ أباه، عامل التبغ، كان ثائراً على أشكال الظلم وأنّ دمه كان حامياً.

كان حسن يشعر بالدم يغلي في عروقه، لكن دون أن يستحق مع ذلك أن يوصف بمثير الشغب: كان متحمّساً فقط ويبحث عن طريقه بحميّة، بين القمصان الزرقاء لحزب الوفد ـ التي كان يجدها باهتةً، والقمصان الخضراء التي كان لابسوها يضعون المتفجرات في حلوان. لكن مظاهرات الطلبة في تشرين الثاني 1935 خلطت كلّ الألوان...

«في الثالث عشر من تشرين الثاني، نزلت إلى الشارع بصحبة العديد من طلاّب المدارس الثانوية للمطالبة برحيل الإنكليز وإعادة العمل بدستور عام 1923. توجّهنا نحو جسر الروضة لملاقاة طلاب الجامعة الذين أتوا من الضفة الأخرى للنيل. كنت في منتصف الجسر حين سمعت أزيز رصاصةٍ تمرّ قرب أذني، فاستدرت على الفور وهربت راكضاً...

«قتيلان وعشرات الجرحى، والعديد من الموقوفين. أعلنت الحكومة إغلاق المدارس لمدة شهر، لكن الملك فؤاد أعاد العمل بدستور 1923 بعد بضعة أسابيع. لقد انتصرنا..». (*مسار ضابط*، الصفحة 40).

علا ضجيجٌ من ساحة الأوبرا، وفجأةً، صمتت مكبرات الصوت

التي كانت تبثّ موسيقى مزعجة. لم يبق سوى صوت حوافر الخيول الذي يزداد ارتفاعاً، معلناً وصول الموكب.

ضُعق حسن عندما رأى وحدة الحرس الملكي على خيولهم. كان الضباط يتبخترون بستراتهم البيضاء وسراويلهم الزرقاء المخططة بالأحمر وأحزمتهم الذهبية والحربات التي يمسكون بها. انتابته رغبةٌ جنونيةٌ في أن يكون مثلهم. تخيّل نفسه لبضع لحظات بينهم، بالزي العسكري، يركب حصاناً، ويمرّ تحت نوافذ منزل هذه الفيفيان بطركاني التي تنتظر أبا سمسم وهي تستند بمرفقيها على نافذتها...

كان فاروق راكباً في عربةٍ مكشوفة، مرتدياً سترةً سوداء وطربوشاً، وبجانبه علي ماهر باشا، رئيس مجلس الوزراء. كان جميلاً وصغير السن.

ـ يعيش الملك! صرخ موظّف الترام.

ـ ليرحل الإنكليز! صرخ أحد الواقفين قربه.

شعر حسن بصدره يمتلئ بالانفعال. كان ذلك الملك جميلاً وشاباً، وسوف يطرد الإنكليز. قفز ضابط الغد في مكانه وذراعاه في الهواء، وأخذ يصيح هو أيضاً بأعلى صوته: يعيش *فاروق*!

4

ربما كان فاروق سيطرد الإنكليز، لكنهم بانتظار ذلك كانوا مايزالون هنا، وقد ترسخت أقدامهم في قلب المدينة. فإذا كان مقر الحاكم البريطاني مركز السلطة في مصر، إلاّ أنّه كانت توجد كذلك أماكن أخرى أقلّ جدّيةً ترمز هي أيضاً إلى السلطة الإنكليزية، كنادي تورف مثلاً الذي لا يرتاده إلاّ رعايا جلالة ملك بريطانيا، حيث يقرؤون جريدة التايمز على مقاعد جلدية كبيرة وهم يدخّنون، أو نادي سبورتنغ الجزيرة الذي يقع بين فرعين للنيل، والذي تستقبل مروجه الممتدة على عدة كيلومترات لاعبي التنس و الكريكت والبولو.

كان خالي بول وزوجته يرغبان بشدة في الانضمام إلى عضوية النادي. وإذا كانت السويسرية تطمح إلى ارتياد المسبح، فإنّ بول الذي لم يكن لديه أيّ ميلٍ للرياضة كان يهدف فقط إلى أن يكون له شرف الانتماء إلى قدس الأقداس.

احتلّ الإنكليز نادي السبورتنغ منذ تشييده واحتكروا إدارته. ولم يفسحوا المجال إلاّ بشكلٍ طفيف لأجانب آخرين ولبعض المصريين المختارين بعنايةٍ شديدة.

قدّم بول بطركاني طلب انتسابٍ في حزيران 1937 ورُفض الطلب في الشهر نفسه دون إبداء الأسباب. إلاّ أنّه وصل إلى مسامع طالب الانتساب تعليقٌ لطيف لأحد أعضاء اللجنة يقول:

- النادي ليس لصانعي الطرابيش.

شعر بول بالغيظ الشديد. وكان يمكن أن يتحول بعد تلك القضية إلى معادٍ للإنكليز، إلاّ أنه أصبح معادياً للطربوش.

- ينبغي أن تفكّر بإنتاج شيءٍ آخر، قال لأبيه، فالطربوش مضحك، ويبدو الناس به وكأنهم يضعون أصيص زهورٍ على رؤوسهم.

نظر إليه جورج بيه مصعوقاً وقال:

- هل تمزح؟

فانطلق بول عندئذ في عرضٍ طويلٍ مفصّل حول عدم ملائمة الطربوش للصحة في بلدٍ حارٍ كمصر.

- أنت مجنونٌ تماماً! هتف جدي مقاطعاً. أنت تقدّم لي حججاً ممجوجة وحماقاتٍ سبق لي سماعها ألف مرة. أنا لست معلماً لقواعد الصحة ولا مصمماً للموضة. لم يسبق أن بيعت أصص الزهور كما تسميها كما تباع الآن.

فبفضل إجراءات حماية الصناعة المحلية، وربما أيضاً لأن قسماً من الناس كانوا يفضلون أن يشتروا إنتاجاً مصرياً، أخذ استيراد الطرابيش الأجنبية الصنع يتناقص عاماً بعد عام. وضمن الصناعة المحلية، بدأت طرابيش بطركاني تكتسح السوق. ورافقت بعض الضربات الإعلانية الجميلة ذلك المنحنى المتصاعد. ووضع جورج بيه فوق مكتبه صورةً كبيرة للفريق الأولمبي المصري أُخذت له عند ذهابه إلى برلين عام 1936 للمشاركة في الألعاب الأولمبية: فقد كان كلّ أولئك الرياضيين الباسمين المتجمعين على نوافذ القطار الذي أقلّهم إلى الإسكندرية ليستقلوا المركب يضعون على رؤوسهم طرابيش قدمها لهم معمل بطركاني مجاناً...

لكن بول استمرّ في إلحاحه، فقدّم حجةً تجارية، هي الوحيدة القادرة على التأثير في أبيه:

- أنا أفكر بالمستقبل يا أبي. سوف يختفي الطربوش عاجلاً أم آجلاً؛ فمعظم الشبان اليوم لا يرتدونه إلاّ حين يكونون مجبرين على

ذلك، كما هو الأمر عندما يجتازون امتحاناتٍ رسمية مثلاً. ينبغي أن تتأقلم مع هذا التبدل في العقلية.

ـ تبدلٌ في لا شيء! وأرجوك ألاّ تأتي أبداً إلى المعمل بعد الآن بقبعةٍ على رأسك مثلما فعلت منذ أيام. هذا غير معقول! لا أحد يتخيل ابن هنري فورد يقود سيارة بونتياك أو كرايسلر.

هزّ بول كتفيه وغيّر الموضوع. كان لديه الكثير ليقوله في مواضيع أخرى غير الطربوش... فهذا المحامي اللامع كان يعلن أكثر فأكثر عن ازدرائه لمصر، وعن اهتمامٍ متزايدٍ بكلّ ما هو أوروبي. وبما أنه كان مشتركاً في جريدة *الزمان* الباريسية، فلم يكن يفوّت فرصةً ليعلّق أثناء الوجبات على إجراءٍ فرنسي، أو مشروعٍ لبلوم أو خطابٍ لبريان. وقد كان هذا الأمر يسلّي ألكس كثيراً، فلم يعد يناديه إلاّ بالترجمة العربية لاسمه: حوّل اسم بول إلى بولس، مخاطراً بإزعاج أسلافه الفرنسيين.

من دفتر ميشيل السادس، أقتطع هذه السطور التي يرشح منها شيءٌ من المرارة:

التاسع من تشرين الأول 1937

قبل عشرين عاماً، مات أفضل حاكم عرفته مصر في تاريخها. ولسوء الحظ، فإنه لا يمكن كتابة هذا الأمر في أيّ مكان، فالجميع يفغرون أفواههم إعجاباً أمام ذلك الفتى فاروق، كما أن شبح فؤاد مايزال ينتصب بيننا: فلا يمكن مسح تسعة عشر عاماً من الحكم بهذه السهولة.

إلاّ أن الشرف محفوظ، إذا تجرأت على قول ذلك، بفضل بائع السجاد في ميدان الإسماعيلية الذي يحتفظ بصورةٍ كبيرة للسلطان حسين في مدخل دكانه. وأنا أذهب إلى ذلك المتجر بين حينٍ وآخر لأتمتع بذلك، إلاّ أنّه يندر أن أعود من هناك دون أن اشتري شيئاً. لم أعد أعرف أين أضع كل تلك السجادات الصغيرة...

مسكين السلطان حسين! لقد مات باكراً بعد أن وصل متأخراً

إلى كرسي الحكم. لا يمكن لفاروق أن يقول الشيء ذاته، فذلك الشاب الذي يبدو وكأن كلّ شيءٍ يبتسم له. بدأ حكمه باتفاقيتين تاريخيتين لا يد له فيهما، إلاّ أنه يحصد فوائدهما. فهاهي مصر قد تحررت نسبياً من الاحتلال العسكري البريطاني، كما أُلغيت الامتيازات.

أما بول، فلم يتمالك نفسه بعد. فقد اعتبر، بتشاؤمه المعهود، أنّ اتفاقية مونترو هي نهاية سوريي مصر. والواقع أنّ زوال المحاكم المختلطة المحدد لعام 1949 سوف يرغمه، عاجلاً أم آجلاً، على أن يبدّل نشاطه. البارحة، قال له ألكس أثناء الطعام: «ما رأيك في أن تتحول إلى صنع الطرابيش»؟. كاد الاثنان يتعاركان بالأيدي.

5

في عيد الغطاس من كلّ عام، يأتي أسقف الروم الكاثوليك ليبارك البيوت ويجمع بعض المال. وكان يظهر ثانيةً في تشرين الأول أو تشرين الثاني ليستطلع أخبار رعيته المؤمنة ويجمع مبلغاً أكبر من المال. في تلك الزيارة الثانية التي تدعى *النورية*، تقدّم معظم العائلات جنيهاً مصرياً. أما جورج بطركاني، فقد قرر أن يعطي لموظف الكنيسة خمسة عشر جنيهاً: فلم يكن «ملك الطربوش» ـ كما ستسميه قريباً صحيفة *إيماج* يريد أن يبدو أقل كرماً من أحد أفراد آل كحيل أو آل صيدناوي...

تكون مدة الزيارة عادة متناسبةً مع مقدار المال الذي يحتويه المغلف. بل إنّ النائب البطريركي كان يبقى لتناول الغداء لدى بعض العائلات البرجوازية التي يعرفها جيداً. حضّرت جدتي لتلك *النورية* من عام 1938 ورق العنب المحشو.

سكب الأسقف في صحنه مرتين إضافيتين، واستعلم عن أخبار العديد من أفراد العائلة، وعلّق على المعلومات التي وصلته بعبارة *اسم الله! اسم الله!* للدلالة على إعجابه. وأثناء تقديم القهوة، سأل ميشيل دون مقدمات:

ـ وأنت، حبيبي؟ ألا زلت عازباً؟

فوجئ عرّابي بالسؤال وغمغم بالإيجاب وهو يشعل سيكارةً بعصبية.

ـ أنت تعلم ما يقال، تابع الأسقف، «*العروسة أو الكلوسة..*».

ـ «الخطيبة أو قبعة الخوري»، ترجمت يولاند إلى الفرنسية بصورةٍ آلية، فقد كانت هي أيضاً ترى أنّه من الأجدر بشابٍ بلغ الثالثة والثلاثين من عمره أن يؤسس بيتاً بدلاً من أن يسجن نفسه بين كتبه.

شعر ميشيل بأنه أهين. فهو بالطبع لم يفكر أبداً *بالكلوسة*. لكن ماذا عن *العروسة*؟

ردّ على الأسقف بابتسامةٍ متشنّجة، وبقي دقائق أخرى تأدباً، ثم انسحب من الصالون.

قبل ذلك بثلاثة أشهر، ألقى ميشيل محاضرةً في جمعية الكتاب حول تأثيرات الإيقاع في شعر لافونتين قوبلت باستحسانٍ شديد. وأرسلت له ليدي بيدها إشارةً من موقعها أمام البيانو فاقت بالنسبة له كلّ الإطراءات الأخرى مجتمعةً.

قضى ميشيل بقية السهرة محلّقاً بين الغيوم، إذ لم يشعر في حياته كلّها ربما منذ أن سرد قصيدته أمام السلطان في المدرسة، بمثل تلك الإثارة وذلك الإحساس بالامتلاء.

حين بدأ الحضور بالانصراف، اقترب من البيانو حيث أخذت الفتاة تجمع أوراق معزوفاتها. بدت غير حقيقية بثوبها المصنوع من قماش الموسلين الأبيض وبشرتها الشاحبة وتلك النظرة الشفافة التي طالما أثّرت به. أحسّ ميشيل أنّ أجنحةً تنمو فيه؛ سألها دون مقدمات وهو يتلعثم قليلاً:

ـ ليدي، هل توافقين على أن تصبحي زوجتي؟

حملقت فيه بدهشةٍ وقالت:

ـ لكن يا ميشيل...

لم يكن طلب الزواج ذاك مبيّتاً على الإطلاق. فحتى مساء أمس،

شكر السماء على أنه عازب، لا همّ لديه ولا ضغوط، حين علم من شقيقه بول بأنّ السويسرية تنتظر مولودها الثاني...

- أنا يهودية يا ميشيل.

فشرح لها بأنه ليس لذلك أية أهمية وأنّ الحبّ أقوى من كل شيء. وقد عرف آخرون غيرهم في مصر كيف يتجاهلون هذا النوع من الحواجز ولم يكونوا أكثر الأزواج تعاسةً، بل العكس هو الصحيح!

- لكن هناك شيءٌ آخر يا ميشيل... أنا مريضة.

ابتسم وقال:

- سوف أشفيك.

- أنا مريضةٌ جداً. الطبيب يخشى وجود قصورٍ تنفسي.

استمر في الابتسام، إلاّ أنّ حماسه فتر نوعاً ما. لقد أعاده ذلك المرض غير المتوقع إلى أرض الواقع، وأيقن أنه لم يكن لديه أدنى رغبةٍ في الزواج.

يبدو بأنّ حيرته كانت ملحوظةً، فقد تدخلت ليدي على الفور بعذوبةٍ وصرامة قائلةً:

- لا، ميشيل، أؤكد لك؛ أنت صديقٌ عزيزٌ جداً. لنبقَ أصدقاء، أرجوك.

سألها بالتفصيل عن مرضها وحاول بارتباكٍ أن يطمئنها. ثم كرر عرض الزواج، مضفياً عليه كل إقناعٍ ممكن.

- أرجوك يا ميشيل، لا تلحّ على الأمر.

فخفض عينيه بهيئة الاستسلام، وهو مدركٌ بأنّ رفض الفتاة قد أراحه بشكلٍ كبير...

في الأشهر التالية، لم يعد هناك أدنى شكٍ في مرض ليدي؛ وأخذت تسعل. إلاّ أنّ أخبار أوروبا لم تكن غريبةً عن الحزن الذي

كان يغلّف نظراتها في كثيرٍ من الأحيان. كانت الفتاة تتابع باهتمام استفزازات هتلر وكان مصير النمسا يثير المخاوف في نفسها. كانت تتحدث عن ذلك الأمر مع موسيقيين يهود هربوا من ڤيينا وقدموا إلى القاهرة ليستقروا فيها.

وفي جمعية الكتّاب، كانت ليدي تتوقف أحياناً في منتصف مقطوعة وتستدير نحو النافذة وهي ترهف السمع، كما لو كان صوت أحذيةٍ عسكريةٍ يقترب... ثم ترتجل بعض الأنغام الصاخبة، وتنتزع من البيانو نوتاتٍ مكتومةٍ وغريبة تثير أشد الانزعاج لدى السامعين.

القسم السابع

سيدي بشر رقم 2

1

في ذلك الصيف من العام 1941، كثر مرتادو سينما مترو. لقد وجد العديد من سكان القاهرة أنفسهم محتجزين فيها بسبب الحرب، فاستفادوا من التجهيزات الثورية لتلك الصالة - التي كان فيها هواءٌ مكيّف! - ليهربوا من الحر الشديد. وكان سليم يارد يرتادها ليمضي فيها قيلولة بعد ظهر الأحد، بصحبة صديقه رُنيه عبد المسيح.

في ذلك الأحد، كان يعرض فيلمٌ أمريكي من الدرجة الثانية، مترجم كالعادة إلى ثلاث لغات: الفرنسية على الشريط مباشرة، والعربية واليونانية على لوحةٍ صغيرة جانبية. وحين ظهرت كلمة «End»، كان رنيه وسليم نصف نائمين. وجاء النشيد الوطني المصري، الذي أذيع بطريقةٍ تصمّ الآذان وتخلله تشويشٌ متكرر، ليذكّرهما بأنّ بريطانيا العظمى في حالة حربٍ مع ألمانيا.

في إحدى زوايا الصالة، ترنّم ستة أو سبعة جنود إنكليز ثملين قليلاً بأغنيةٍ للحرس بطلاها الملك فاروق وزوجته فريدة. هز بعض الحاضرين رؤوسهم واجمين، ومن شرفة السينما، شتمت امرأةٌ بصوت مرتفع بالعربية أبناء ألبيون أولئك وهي تطلق صرخاتٍ حادة. لكن الناس بدؤوا يصطفون للانصراف...

في العادة، كان سليم يشعر بصدمةٍ حين يعود إلى حرارة الجوّ في الخارج؛ إلاّ أنّه هذه المرة لم ينتبه لها أصلاً. ففي بهو السينما، اختطفت نظره على الفور فتاةٌ رشيقة ترتدي فستاناً أصفر اللون كانت تدخل ضاحكةً وسط رفاقها.

كان رنيه عبد المسيح يعرف القادمين، فقدّم لهم صديقه.

ـ كيف وجدتما الفيلم؟ سأل القادمون.

ـ سيئاً جداً، أجاب سليم بعفوية، لكن أية طراوة!

ضحكت الفتاة. كانت عيناها خضراوين. ولم يكن لدى سليم مانعٌ في أن يحضر عرضاً ثانياً للفيلم كي يبقى معها، إلاّ أنّ رنيه استأذن من المجموعة.

ـ من هي تلك الفتاة ذات الفستان الأصفر؟ سأل سليم صديقه بعد بضع دقائق وهما جالسان في محلات غروبّي.

ـ ذات الفستان الأصفر؟ آه، نعم، إنها فيفيان بطركاني. الطرابيش...

توقف عند ذلك الحد بدافعٍ من الحذر والحس السليم. لطالما حذّروه من الضفدعة التي أرادتْ أن تصبح بحجم الثور. فتاةٌ من آل بطركاني ليست له، فهو ليس سوى محاسبٍ عند ماتوسيان، بمرتّب أحد عشر جنيهاً في الشهر، اضطر للتوقف عن الدراسة بعد حصوله على شهادة البكالوريا لعدم توافر المال. حاول سليم أن يغيّر أفكاره، فقضى بقية السهرة في مركز الشبيبة الكاثوليكية في شارع عماد الدين، بين الرقص ولعب البوكر.

وفي منتصف الليل، عرض عليه رنيه عبد المسيح أن يوصله بسيارة أجرة إلى الفجّالة:

ـ التاكسي هو بمثابة التأمين على الحياة بالنسبة لي. أنا لاأريد أن يتعرّض لي أحد السكارى من الإنكليز أو الأستراليين في الطريق. لقد وجدنا منذ أيامٍ واحداً آخر في شارعنا، وكان شبه ميت من شدة السكر...

لم يكن سائقو سيارات الأجرة يشاطرونه هذا النوع من المخاوف. فقد كانوا، على مثال سائسي العربات في الحرب الأولى، يترقبون العسكريين الأجانب الذين يدفعون ما يُطلب منهم. وكان الزبائن المصريون يشتكون بمرارة: فقد أصبح العثور على تاكسي أمراً صعباً.

لكن رنيه عبد المسيح استخدم طريقته المعتادة. فقد كان يختبئ خلف مصباحٍ كهربائي وينادي بصوته المدوّي: «هيه، تاكســي»! بلهجةٍ قادرةٍ على خداع سكوتلاندي. وما أن تتوقف قربهما سيارة أجرة حتى يحشران نفسيهما فيها، كلٌ من باب، دون أن يتركا للسائق مجالاً للاحتجاج.

حين وصل سليم إلى بيته، أدار المفتاح بهدوءٍ في القفل كيلا يوقظ أحداً. تعثّر بطاولةٍ صغيرة لم يعتد على مكانها بعد: فمنذ أن أصبح عددٌ من أولادها يعملون، أخذت ميما تسمح لنفسها بين حينٍ وآخر بشراء قطعةٍ صغيرة من الأثاث لتعويض خمس عشرةً من السنوات العجاف؛ أو كانت تشتري فستاناً، أو إحدى باقات الورود الكبيرة التي تحبها بجنون...

لم يكن سليم يشعر بالنعاس، فخرج إلى الشرفة واستند بمرفقيه إلى حافتها. من بعيد، فوق النيل، كانت الأنوار الكاشفة تجوب السماء، بلا جدوى. فهذه الليلة أيضاً، لن تأتي أية طائرةٍ ألمانية لتوقظ المدافع المضادة للطائرات. وتكاد الحرب في القاهرة تتلخص في الورق الأزرق الذي يغطي النوافذ والصور الملصقة على المرايا لمنع تناثرها المحتمل ـ اختارت ميما صوراً على شكل أهرامات ـ وبالسكارى الأنكلوساكسون. لا شيء يقارن مع ما يحصل في الإسكندرية، حيث دمّر انفجارٌ عنيف في الشهر السابق الحيّ المخصص، حي *الجنينة* الشهير، مخلّفاً العديد من القتلى.

فيفيان بطركاني... كانت عيناها خضراوين، وضحكتها ترنّ مثل جرس. يقال بأن أباها يغطّي رؤوس كل وزارة الخارجية؛ وبأنّ طرابيشه تصل إلى سفراء مصر في أوروبا بوساطة الحقيبة الدبلوماسية...

في تلك الليلة، وجد سليم صعوبةً في النوم. وزاره في الحلم كائنٌ غريب يضع على رأسه طربوشاً أخضر، وعلى كتفه بندقية، ويصرخ: «هيه، تكسي»! وهو يضحك بأعلى صوته...

2

أعتقد أنّ كنيسة المدرسة لم تكن مختلفةً جداً عن تلك التي عرفتها بعد ذلك بعدة سنوات. المقاعد الملمعة بالشمع نفسها على الأرجح، الأعمدة المحزّزة ذاتها، الهدوء نفسه ورائحة الرماد نفسها عند الغسق...

منذ بداية الحرب، كُلّف الأب أندريه بطركاني بسرّ الاعتراف في تلك الكنيسة يوماً في الأسبوع، في فترة ما بعد الظهر، بالفرنسية أو بالعربية. كان هناك الرواد الدائمون، ومعظمهم من المسنين، وكذلك بعض المجهولين الذين يأتون للمرة الأولى والذين لم يكن أحدٌ يميّز وجوههم.

في عصر ذلك اليوم، ركعت امرأةٌ في حجرة الاعتراف؛ لم تقل شيئاً. ألصق أندريه أذنه بالشبك، وسمع أخيراً صوتاً مألوفاً يقول:

ـ أندريه، أنا ماغي. هل أستطيع الاعتراف أمامك؟

أجاب ببعض الارتباك بعد أن مرّت لحظة المفاجأة:

ـ نعم، بالطبع. لكن ربما يكون الأمر أبسط وأكثر طبيعيةً لو أنّ...

ـ لا، لا يا أندريه. أنا أريد أن أتحدث إليك أنت، وليس إلى أيّ شخصٍ آخر.

بعد نصف ساعة، خرجت ماغي توتة من حجرة الاعتراف ورأسها مغطى بخمارٍ أسود مخرّم، وغادرت الكنيسة على الفور وهي ترسم إشارة الصليب بسرعة.

ـ لم تؤدّ سرّ التوبة، زمجرت إحدى المرتادات الدائمات، بل إنها لم تركع حتى مرةً واحدة!

كان أندريه قد اكتفى بإحلال خالته من ذنوبها، لكنه نسي، في غمرة اضطرابه، أن يحدد لها الصلوات التي ينبغي عليها أن تقوم بها. على كلّ حال، كم مرةً من المفروض أن تتلو *أبانا* و *أحييك يامريم* كي تكفّر عمّا قالت قبل قليل؟

لقد كان سر الاعتراف يقيده، وكانت ماغي تعلم ذلك.

ـ افهمني، يا أندريه، أنا بحاجةٍ لأن أطلب المغفرة من الله، رغم أنني لست متأكدة من أنني أخطأت مع أبيك. إن كنت قد أخطأت، فقد حصل ذلك مع آخرين وليس معه... كل ذلك انتهى على أيّة حال. لم نعد الآن شباباً... لكنني بحاجةٍ إلى أن أقول ذلك لشخصٍ من العائلة. ليس ليولا بالطبع لأنها لو علمت لماتت كمداً. لا يمكن لهذا السر أن يبقى بيني وبين جورج. أنت الوحيد... والدك أيضاً طرح على نفسه العديد من الأسئلة طوال هذه السنوات. لكنه لن يحدثك عن ذلك الأمر. لن يستطيع حتى لو أراد. أما أنت، فبإمكانك أن تصلّي لأجله...

حين حدّثتني ماغي عن ذلك المشهد بعد حصوله بعشرين عاماً، أوضحت لي بأن اليسوعي لم يفه بشيءٍ تقريباً، وأنا أصدّقها تماماً. ألم يُقل كل شيءٍ على الطرف الآخر من الحاجز الشبكي بصدقٍ ومنطقٍ يثيران الاضطراب؟ لم تأت الخاطئة لتطلب حكماً ولا نصيحة، بل طلبت استماعاً وغفراناً فقط؛ واستمع ابن أختها لها دون أن يطرح سؤالاً واحداً. وحين تركته، كانت قد تخففت من ثقلٍ كبير.

لم تخبر ماغي جورج بالذي فعلته، وهذا أفضل بلا ريب.

ـ إنك تفهمني، قالت لي فيما بعد، لو أنني أخبرته عن خطوتي، ولو كان ذلك بعد حصولها، لأصبحت علاقته مع أندريه مزيفة. فلم يكن جورج ليقبل بالحديث مع ابنه في هذا الأمر، حتى لو كان ابنه يعلم به... وليس هناك، *يا* حبيبي، أسوأ من سرٍ مشتركٍ لا يمكن التصريح به.

3

بعد محاولتين غير مثمرتين، قُبل حسن أخيراً في الأكاديمية العسكرية في تشرين الأول 1938، وذلك بفضل الاتفاقية الإنكليزية ـ المصرية التي عُقدت قبل ذلك بستةٍ وعشرين شهراً، والتي ترغم مصر على زيادة حجم جيشها: فقد أصبح هذا الجيش بحاجةٍ إلى ضباط، رغم أنّ الاحتلال البريطاني لم ينته حقيقةً. ففتحت الأكاديمية أبوابها جزئياً أمام أبناء الشعب الذين لم يكن بإمكانهم الانتساب إليها لولا ذلك.

إلاّ أنّ هذا لم يمنع ذلك الضابط الجديد من أن يدين الاتفاقية الإنكليزية ـ المصرية وأن يطالب «بالاستقلال التام». ووحده الحذر هو الذي منعه من الانضمام إلى الطلاّب الذين تظاهروا في الثاني من شباط 1942 في شوارع القاهرة هاتفين: «نحن جنود رومل».

كانت الفرق الألمانية المحتشدة على الحدود الليبية تهدد باجتياح مصر. وكان حسن مناصراً للألمان بتصميم، انطلاقاً من مبدأ أنّ أعداء أعدائنا هم أصدقاؤنا. ألم يكن يقال في الثكنة أنّ مبعوثي هتلر وعدوا الوطنيين المصريين بالاستقلال التام والفوري؟

«كنت قد فقدت كل تقديرٍ أكنّه لفاروق، كتب حسن فيما بعد في كتابه، فقد بدأ الجميع يعلم بتصرفات الملك الرعناء. كان من المعروف بأنه يمضي أمسياته في نوادي القاهرة الليلية بصحبة زمرةٍ من الإيطاليين على رأسها أنطونيو بوللي الذي كان كهربائياً

في القصر ومُنح لقب بيه. لكن لو أنّ فاروق طلب منّا في العام 1942 ذاك، أن نساعده على النضال ضد الإنكليز، لوقفنا جميعاً إلى جانبه».

وكان إيطاليو القصر يزعجون السير مايلز لامبسون، السفير البريطاني، بشكلٍ خاص.

ـ نحن في حالة حربٍ مع إيطاليا، رغم كل شيء! قال في أحد الأيام أمام شخصياتٍ بارزة من المصريين.

وانتشر ردّ فاروق في كلّ صالونات القاهرة:

ـ إذا أراد أن أنفصل عن رفاقي من الإيطاليين، فلينفصل هو أولاً عن زوجته الإيطالية!

كانت الليدي لامبسون ابنة الدكتور آلدو كاستيلليني، الجراح السابق في قوات موسوليني في أثيوبيا... إلاّ أنّ الميول المناصرة للألمان لدى العديد من قادة مصر كانت أكثر ما يقلق المسؤولين البريطانيين الذين طالبوا بعودة النحاس باشا، زعيم الوفد، إلى رئاسة الوزراء ليزيحوهم عن السلطة. ورفض الملك رغم تكرار الطلب. فلجأ الإنكليز حينذاك إلى القوة، إلى شبه انقلابٍ، كرّس له حسن أعنف صفحتين من كتابه.

«في الخامس من شباط 1942، ذهب سير مايلز إلى قصر عابدين محاطاً بالجنود والمدرعات، فوجد البوابات موصدة. كسرت رصاصةٌ القفل، ففُتحت الأبواب الأخرى من تلقاء ذاتها. مدّ السفير يده بنصٍ إلى فاروق يدعوه إلى التوقيع على صك التنحي؛ وبعد أن مرّت لحظة المفاجأة، والملك يخرج من جيبه قلماً استعداداً للامتثال، توجه إليه مستشاره الأول باللغة العربية. فقال فاروق للسفير البريطاني: «امنحني فرصةً أخرى»... وبعد بضع ساعات، استدعي النحاس باشا إلى القصر ليصبح رئيساً لمجلس الوزراء...

«في الثكنة، كان للخبر مفعول القنبلة. كنت أكثرهم حماساً، وقلت لو كنت مكان الملك، لما أخرجت من جيبي قلماً، بل مسدساً. أصبح تصميمي كاملاً منذ ذلك الحين: سوف أناضل بكل ما أملك من قوة وبجميع الوسائل، لأطرد المحتل الغاشم من مصر» (*مسار ضابط*، الصفحتان 78-79).

4

بعد أربعة أشهر، شهد حسن وهو في قمة الحماسة والإثارة تقدّم القوات الألمانية القادمة من ليبيا. فقد عبر الجيش الأفريقي الحدود وهزم بسهولةٍ شديدة القوات المتواجدة في السلوم ومرسى مطروح قبل أن يصل إلى العلمين في الثلاثين من حزيران 1942.

في الإسكندرية، بدأ بعض التجار بتزيين متاجرهم للترحيب برومل، وهجرها سكانها من اليهود، في حين اصطف العديد منهم في القاهرة أمام كوى المصارف ليسحبوا أموالهم كلّها وهم مصممون على الرحيل بأقرب فرصة إلى فلسطين أو جنوب أفريقيا.

وضع الإنكليز ملصقاتٍ لطيفة على جدران العاصمة عليها عبارة «*Keep smiling*» التي تدعو للابتسام. لم يعد سير مايلز لامبسون يعرف ماذا يبتكر ليبعث الطمأنينة في نفوس القاهريين: فقد أخذ يذهب مع زوجته أمام الجميع للتبضّع في الموسكي، وباشر بعض العمال بطلاء أسوار السفارة... إلاّ أنّ هذا لم يمنع أجهزته من حرق كافة الوثائق في الأول من تموز، وأحدث ذلك غمامةً من الدخان فوق النيل كان لها أسوأ تأثير.

وبسبب عدم استطاعتهم قضاء الصيف في الإسكندرية، توجه بعض القاهريين الأغنياء إلى منطقة رأس البر التي كانوا ينظرون إليها حتى ذلك الحين باحتقار. حُجزت أجمل الأكواخ للباشوات

الذين قبلوا مرغمين لأول مرة أن يجاوروا أناساً عاديين. بل إنّ قسماً من فندق كريستال حُجز للملكة الأم وبناتها.

رأس البر، لعدم وجود بديلٍ أفضل... استأجر بول بطركاني في تلك المنطقة كوخاً، وهو يسد أنفه، بعد أن لاحقته السويسرية التي طالبت بالهواء البحري للأطفال. ذهب *السفرجي* والخادمة أولاً لاستكشاف الوضع والتأكد من أنّ الكوخ قابلٌ للسكن، ولإكسابه بعض الوجاهة. خُصصت غرفةٌ لفيفيان التي يُفترض بها أن تلتقي مجموعةً من أصدقائها. ووعدهم ميشيل بزيارةٍ قصيرة؛ أندريه نفسه سيحضر إلى رأس البر لبضعة أيام حيث يوجد مخيم صيفي لليسوعيين، فيه كنيسة من القش مقامةٌ على أعمدة...

كانت حشودٌ صغيرة تتجمّع عدة مرات في اليوم أمام فندق كريستال؛ فطلبت منهم الملكة نازلي عبر مكبرات الصوت أن يتركوها وشأنها: فهي تريد قضاء العطلة بحريّةٍ مع بناتها مثل كل الناس.

ـ الحق معها، قالت فيفيان لصديقتها ذات الشعر الكستنائي التي كانت بصحبتها. هذا سخف. لنبتعد.

وجدت نفسها وهي تستدير وجهاً لوجه مع سليم يارد الذي أُخذ لدرجة أنه لم يستطع حتى أن يوجه لها التحية.

الله وحده يعلم كم ترقبها طوال عام! فقد أصبح يرابط طوال مابقي من الصيف الماضي في سينما مترو. كلّ فستانٍ أصفر كان يثير اضطرابه... وبالطبع فقد وجد عنوان آل بطركاني، وذهب ثلاث مرات يتمشى في ذلك الشارع الذي تظلله الأشجار. مرةً واحدة فقط، رأى سيارةً تتوقف أمام البوابة الحديدية الضخمة، نزل منها مجهولٌ نحيلٌ طويل القامة، شديد الأناقة، ثم دخل على الفور إلى البيت بعد إشارةٍ صغيرةٍ من يده إلى السائق.

ـ صباح الخير، قالت فيفيان بأدب. أعتقد أننا التقينا مرةً في القاهرة. عند غروبّي، أليس كذلك؟

ـ بل أظنّ أن ذلك كان في سينما مترو...

لحسن الحظ، قطعت الفتاة الكستنائية الشعر ذلك الحديث المتألق الذي لم يكن من الممكن أن يذهب أبعد من ذلك.

ـ سوف نتأخر، يا عزيزتي. إذا أراد صديقك أن يلحق بنا بعد قليل...

فلم تجد فيفيان بداً من القول:

ـ سوف نذهب إلى الشاطئ مع مجموعةٍ من الأصدقاء. إذا أردت... فالموعد محدد في الساعة العاشرة أمام فندق كورتيّ.

وافق سليم وهو يتلعثم قليلاً. وما أن استدارتا حتى أسرع لتبديل ثيابه في كوخ أبناء عمه الذين كانوا يستضيفونه في عطلة نهاية الأسبوع.

بعد ثلاثة أرباع الساعة، كانت المجموعة بأكملها شبه متمددة على الرمال قبالة البحر. بدت فيفيان أخّاذةً بلباس سباحةٍ برتقالي، وقد أخذت تداعب بطرف قدمها الأمواج المتلاشية؛ أما سليم، فكأن يجرؤ بالكاد على النظر إليها.

ـ هل أتيت مؤخراً من القاهرة؟ سأله شابٌ ذو شارب نحيلٌ طويل القامة. كيف هو الجو السائد هناك؟

فذكر لهم حديثاً مسلياً عن حرق وثائق السفارة البريطانية في الأول من حزيران: فالكثير من الأوراق التي لم تحترق تطايرت في الشوارع المجاورة.

ـ بعد بضعة أيام، وفي ساحة الأوبرا، كان بائع الفستق السوداني يصنع لفافاته الورقية برسائل من المستشار التجاري البريطاني حملت عبارة: سرّي للغاية *top secret* .

نهضوا ليسبحوا وهم يضحكون. غطست فيفيان أولاً، وشهدت سباحتها الممتازة على ثلاث سنواتٍ من ارتيادها لمسبح نادي الجزيرة الرياضي الذي قُبل فيه بول أخيراً عام 1939، والذي قُبلت فيه شقيقتاه فيما بعد.

اعتادت فيفيان على الذهاب إلى نادي الجزيرة في الصباح الباكر مع صديقةٍ لها، في الوقت الذي يكون فيه المسبح شبه خالٍ من الرواد. لم تكونا تجدان جذوع الضباط البريطانيين العارية ـ التي جعلتها شمس مصر تشبه القريدس ـ سيئة المظهر. كانت الفتاتان تقطعان المسبح عدة مرات، ثم تتمددان على الكراسي الطويلة. في تلك الساعة، كان الجنرال أرشيبالد وافل، القائد العام للقوات البريطانية، يأتي ليتعلم الغطس، وكان الحول في عينيه يبث أشد الجزع في نفوس الأشخاص النادرين المتواجدين، الذين كانوا يغلقون أعينهم حين يرمي سير أرشيبالد بنفسه في الماء محدثاً ضجةً كبيرة...

ركض سليم بدوره وغطس. لم يعلمه أي أستاذٍ السباحة الحرة، فقد تعلم وحده أن يضرب بساقيه ويسحب ذراعيه أثناء مراقبته للآخرين في رأس البر تحديداً...

لحق بفيفيان قرب الدولاب الأبيض الذي تعلّقت به لتسترد أنفاسها. رأى وجه الفتاة والماء يقطر منه وصدرّها وهو يرتفع بانتظامٍ مثيراً الزبد في كلّ مرة، واضطرب. شيءٌ غريزيّ نبهه إلى الخطر؛ ففي الحبّ أيضاً، كما قيل له، لا يمكن للمرء أن يتخطى مستوى إمكانياته. لكن سليماً لم يشعر بأنّ له روح موظفٍ مقتصدٍ وحذر. لم يكن لديه أدنى رغبةٍ في أن يترك ذلك الدولاب الذي كان يؤرجحهما معاً بالإيقاع نفسه على البحر المائج، ولم يترك نفسه ينزلق تحت الماء ليعود إلى الشاطئ ببطء سابحاً على بطنه إلا بعد أن لحق بهما أعضاء المجموعة الآخرون.

بعد قليل، وهو ممدد على الرمل الحار، أخذ يراقب فيفيان بطركاني وهي تخرج من البحر بدورها. توقفت في منتصف الطريق وانحنت لتأخذ بعض الماء بين يديها وترش نفسها به، ثم تقدمت من جديد، تتثنّى وردفاها يهتزّان بتلك المشية التي لا تقلّد، مشية سابحةٍ أتخمت من السباحة.

جاءت لتجلس قربه بكل بساطة، كشخصٍ لا يخشى أية نظرة. قال سليم لنفسه بأنها لكي تتصرف بهذا الارتياح، فلا بدّ أن يكون

لديها فارس يعرفه الجميع وربما كان هنا، ضمن هذه المجموعة...

ـ هل كنت تعرف رأس البر قبل الآن؟ سألته وهي تنظر إلى البحر.

ـ نعم، فحين كنا أطفالاً، كنا نأتي إلى هنا كل عام، وفاءً لذكرى أبي الذي أحبّ هذا المكان كثيراً...

تلألأت قطراتٌ من الماء على بشرة فيفيان السمراء. وبطرف قدمها، أخذت تحفر خطوطاً صغيرة في الرمل. كان سليم متيّماً بتلك القدم.

ـ كان أبي يحب أن يتنزه في رأس البر وهو *بالجلابية* وعلى رأسه قبعةٌ كبيرة من القش. وفي المساء، يصحب مجموعةً من الأصدقاء إلى فندق مارين ويدير فيه رقصاتٍ رباعية صاخبة...

بعد بضع ساعات، استعاد سليم وهو في القطار الذي يقلّه إلى القاهرة كلّ لحظةٍ من ذلك اليوم المبارك. ولأول مرة، لم تملأه العودة من رأس البر بالحزن، بالعكس، كان يطفح بالسعادة.

ـ صديقك ساحر يا عزيزتي، قالت الفتاة ذات الشعر الكستنائي لفيفيان. لكن ألا ترين معي أنه *بلدي* قليلاً؟

لم يكن ذلك مديحاً بالتأكيد، فصفة *البلدي* تعني أنه محلّي، عادي، مبتذل تقريباً.

والواقع أنّ سليماً لم يكتف بالإكثار من العبارات العربية، بل كانت لغته الفرنسية أشبه بالترجمة في بعض الأحيان. وقد خدش مسامعهنّ حين قال:

ـ أنا أشتغل محاسباً عند ماتوسيان(*).

وهناك علاماتٌ صغيرةٌ أخرى تجعله *بلدياً* بشكلٍ خطير في نظر

(*) الصيغة الصحيحة باللغة الفرنسية هي :«أنا محاسب عند ماتوسيان». م.

أولئك الآنسات، الطالبات في معهد أم الله، كالطريقة التي يتمخط بها ـ حيث يطوي محرمته بعناية بعد استخدامها ـ أو حذاؤه الأبيض والأسود المزخرف الذي بدا وكأنه قد اشتراه من التنزيلات في العتبة الخضراء.

لم يكن ذلك الجاهل يعرف شيئاً عن باريس، كما لاحظت الفتاة ذات الشعر الكستنائي. باريس التي تحلمان كلتاهما بها والتي ذهبت إليها فيفيان مرةً مع أهلها، في العام 1937، أثناء المعرض العالمي.

وفاقم سليم حالته في نظرهما حين أظهر، بالمقابل، معرفةً ممتازة برأس البر. كان بادياً للعيان بأنه ليس مهجّر حربٍ بل معتاداً على الأماكن، ولديه ذكريات طفولة لم يحاول حتى إخفاءها.

ـ نعم، إنه يبدو *بلدياً* نوعاً ما، أجابت فيفيان ببعض الضيق وهي تتساءل ما الذي دعاها إلى الجلوس قرب ذلك الشاب الصريح، ذي الجسد القوي، والذي ينقل عدوى مرحه إلى الآخرين.

أضافت باللهجة نفسها، كما لو كانت تعتذر:

ـ لكنني لم أكن أعرفه، تصوري. لقد رأيته مرةً واحدة عند غروبّي أو في سينما مترو، لم أعد أذكر...

5

19 أيلول 1942

حفلةٌ صغيرة مفاجئة في البيت بمناسبة إنتاج الطربوش رقم مليون من طرابيش بطركاني. وقد تأثر بابا كثيراً بهذه المبادرة التي لم يكن يتوقعها.

صنع كلٌ منا هديةً مبتكرة لها علاقةٌ بالحدث. فأندريه حصل (...الله وحده يعلم كيف!) على طربوشٍ يعود لعام 1880كان يخص طالباً كهنوتياً قبطياً كاثوليكياً صغيراً، والاسم مطرزٌ بداخله. وأوصت الخالة ماغي على طربوشٍ من الذهب بحجم كشتبان عند الصائغ إيلياكيم، يحمل حرفيْ ج.ب.

بين الهدايا الأخرى: موسوعةٌ عن عمرات الرأس عبر العصور (بول)، قالبٌ قديمٌ نحاسي للطرابيش (لولا)، ترجمةٌ بالفرنسية لخطاب أتاتورك الذي يدين فيه الطربوش (الخال هنري)، قبعة من القش (ألكس)...

من جهتي، فقد قدّمت لبابا الصورة الوحيدة المتوافرة لحسين كامل وعلى رأسه طربوشٌ يميل إلى اليمين لا إلى اليسار. لكنني أخشى ألاّ يكون قد أدرك تماماً قيمة هذه الوثيقة.

أما ماما، فقد أوصت الأسطة علي أن يصنع قطعاً من الحلوى بالجوز على شكل طرابيش لها ذؤاباتٌ من السكر الأسود. كانت الفكرة تقلقها منذ العشية: «لقد خطرت ببالي فكرة حمقاء... سيجدها

جورج سخيفة...» وكأنّ بابا أدرك مخاوفها، فقد قبّلها طويلاً وسط التصفيق.

20 تشرين الأول 1942

رائع!!! لقد سُحقت قوات رومل الأفريقية في العلمين.

قلت لفيكتور ليفي إنني سوف أتكفّل بالشمبانيا. سوف نذهب لنشربها غداً مع ليدي في المستشفى.

في غمرة حماسه، رسم ميشيل على هذه الصفحة بضع زهراتٍ على شكل إكليل، وهو الرسم الوحيد في دفاتره الأحد عشر!

كما كتب عرّابي أيضاً رسالة شكرٍ إلى الجنرال مونتغمري وذهب في مساء اليوم ذاته ليضعها في سفارة بريطانيا العظمى. ستبقى معركة العلمين، في نظره، رمزاً لإيقاف البربرية.

بعد ثلاث سنواتٍ من تلك الخطوة، في كانون الأول 1945، تلقى ميشيل بالبريد رداً بخطّ اليد على رسالته التي لم يعد أصلاً يتذكرها، وبتوقيع «مونتغمري العلمين». يُعتقد بأنّه كان لدى خصم رومل بريدٌ متأخر، وأنّه تأثر بصورةٍ خاصة بالجمل الحماسية التي كتبها سوريٌ من القاهرة، رغم أنّه لا يتقن لغة شكسبير إتقانه لغة لافونتين...

6

في ذلك المساء، دشّن ألكس بطركاني، وفي الوقت نفسه، سيارة موريس مكشوفة خضراء اللون وصلته لتوها، وفتاةً مالطية التقطها في العشية في مقهى بيرّوكيه. أراد أن يجرّب الأولى ويبهر الثانية ـ إذا لم يحصل العكس ـ، فقاد السيارة بسرعةٍ جنونية على طريق ألماظة الخالية.

لفتت انتباهه إشارةٌ بالأنوار انعكست في مرآة سيارته، فخفف من سرعته، مفسحاً المرور لسيارةٍ رياضية يحتلها راكبان. زاد سائق السيارة الأخرى من سرعته بشكلٍ ملحوظ حين وصل بمحاذاته، فدخل ألكس في اللعبة وضغط بدوره على المدْوَس.

غطست المالطية في مقعدها وقد أغلقت عينيها، ومشاعرها موزعةٌ بين الرعب ومتعة لفح هواء الصحراء الدافئ لوجهها. أبطأ خالي فجأةً حين رأى السيارة الأخرى متوقفةً إلى جانب الطريق. كان سائقها مايزال وراء المقود، إلاّ أنّ رفيقه الذي نزل منها أشار له بالتوقف. عاد ألكس إلى الخلف وركن سيارته بدوره، ثم انتزع نفسه من الموريس.

ـ هل أنت مصري؟ سأل الرجل:

ودون أن ينتظر الجواب حقاً، تابع قائلاً:

ـ جلالته يودّ التحدث إليك.

اقترب ألكس، مصعوقاً، من السيارة الرياضية. كان فاروق وراء المقود يبتسم.

ـ كم أسطوانة؟ سأل بالفرنسية وهو يشير بإصبعه إلى الموريس.

ـ ست، يا صاحب الجلالة... تمتم ألكس.

ـ هل الفرملة مدعومة؟

لم يكن أحدٌ يجهل ولع الملك بالسيارات السريعة. انفرج ألكس قليلاً، فقد كان ضمن مجالٍ يعرفه جيداً:

ـ نعم، الفرملة مدعومة لكنها قاسية نوعاً ما. إنها نقطة ضعفٍ في هذه السيارة التي تتمتع، بالمقابل، بثباتٍ ممتازٍ على الطريق.

ـ سوف أنهي السهرة في أوبرج الأهرام. هل تتبعني؟

ركض ألكس إلى سيارته، في حين أقلعت السيارة الأخرى بأقصى سرعة.

ـ من هو ذلك الثرثار؟ سألت المالطية.

ـ الملك.

فأطلقت ضحكةً رنّانةً وقالت:

ـ صحيح؟ والآخر الجالس بجانبه هو قداسة البابا، أليس كذلك؟

لم يجب ألكس. وضع يديه على المقود وعيناه مثبتتان على الأنوار الخلفية للسيارة الأخرى التي دخلت بسرعةٍ فائقة إلى هليوبوليس التي كان ثلاثة أرباع سكانها نائمين.

كان الملك يمتلك عشرات السيارات، ومنها المرسيدس التي أهداه إياها هتلر عام 1938 بمناسبة زواجه بفريدة. وكانت تُحكى قصصٌ كثيرة عن تلك السيارات السريعة الحمراء التي تجتاز بسرعة شوارع القاهرة وضواحيها عند هبوط الليل، وتذهب أحياناً إلى مابعد الأهرامات، إلى طريق الإسكندرية الجديد المارّ عبر الصحراء. في إحدى الليالي، اصطدمت سيارةٌ يقودها فاروق بالرصيف

المنصّف للطريق في أحد شوارع العاصمة؛ وفي صباح اليوم التالي، كان جيشٌ من العمال يعمل على إزالة ذلك العائق المزعج...

بعد أقل من عشر دقائق من تجاوزهما لهليوبوليس، سارت السيارتان الرياضيتان بسرعة مئة كيلومتر في الساعة في شارع الملكة نازلي. وعلى مستوى ارتفاع محطة القطار، كان يمكن بصعوبةٍ تمييز ثانوية اليسوعيين التي بدت ككتلةٍ رمادية كبيرة إلى يسار الطريق. فكّر ألكس بذلك المبنى الملعون الذي طُرد منه مرتين، وبأخيه أندريه الذي ينام فيه الآن قرير العين ... وتخيّل نفسه وهو يروي مغامرته خلال الغداء العائلي القادم.

كان شبح الأهرامات قد بدأ يرتسم من بعيدٍ عندما مدّ رفيق الملك ذراعه مشيراً إلى أنهما سوف يتوقفان. ضغط ألكس على مكابح سيارته بعنفٍ، جارّاً على نفسه شتائم المالطية.

نزل فاروق من سيارته، وركب في سيارة كاديلاك لابدّ أنها كانت تتبعهما عن بعدٍ منذ بعض الوقت، وأشار بيده إلى ألكس إشارةً ودية ملأته بالفخر. أما المالطية، فقد فتحت، بصمتٍ، عينيها دهشةً.

حين وصلوا إلى الأوبرج، أسرع السوري ألبير بيه سوسة، صاحب تلك المنشأة الشهيرة، لاستقبالهم. كانت طاولة الملك محجوزةً بشكلٍ دائم، كما هي الحال أيضاً في حوالى نصف دزينة من الملاهي الليلية القاهرية الأخرى؛ وسرعان ما امتلأت بعصير الفواكه وصحون *المازة*.

أُحضر لفاروق وعاءٌ يحتوي على كراتٍ صغيرة من الورق الملون التي كان يتسلى بإلقائها على الراقصين. وفي كلّ مرّةٍ تصيب الكرة واحداً منهم، كان الملك ينفجر بضحكةٍ مجلجلة تثير على الفور ضحك المحيطين به.

في هذه الليلة بالذات تعرّف ألكس بأقرب رفاق فاروق إليه: الإيطالي أنطونيو بوللي الكهربائي السابق في القصر والذي أصبح

رئيس مكتبه الخاص؛ والسوري كريم ثابت، ابن مؤسس جريدة *المقطّم* اليومية والذي يُعتبر المستشار السرّي الخاص للملك.

قاد ألكس المالطية من يدها إلى حلبة الرقص. كانت رقصة تانغو، فأبدعت فيها لدرجة بدا لمراقصها أنّه لم يضمّ بين ذراعيه جسداً مثيراً لهذه الدرجة قبل الآن. فعلاً، ستكون ليلةً لا تنسى!

في الفجر، أخذ أحد مرافقي الملك ألكس جانباً وقال له:

ـ سيدي العزيز، هل يمكن أن نطلب منك ألاّ ترافق صديقتك إلى بيتها؟ لقد دعاها جلالته إلى القصر وشعرت بأنها قد شُرّفت كثيراً بذلك...

أحنى ألكس رأسه دلالةً على الانصياع. ماذا كان بوسعه أن يفعل غير ذلك؟ وبعد عشر دقائق، كان يقود سيارته الموريس الخضراء ببطء، وقد أغلق سقفها، باتجاه غاردن سيتي، متسائلاً كيف سيروي ذلك الفصل الأخير من المغامرة لعائلته وأصدقائه...

7

لم يصدّق جورج بطركاني أذنيه.

ـ أنت هنا! قال لإدوار ديلليم الذي كان يهتف له من الشيبرد. هذا لا يصدّق: فأنت تتدبر أمرك في كلّ مرةٍ تندلع فيها الحرب لتأتي إلى مصر...

ـ لقد استفدت بالفعل من وساطةٍ صغيرة، قال الفرنسي وهو يضحك.

ـ نِعمَ الأمر! نِعمَ الأمر! نحن متشوقون لرؤيتك. كم يوماً ستبقى؟

ـ لن أرحل ثانيةً.

ـ كيف ذلك؟ ماذا تعني بقولك إنك لن ترحل ثانيةً؟

ـ جئت لأستقر في القاهرة يا جورج.

صمت جدّي ذاهلاً. كان يعرف بالتأكيد أنّ العديد من الأجانب قد حوّلوا ثرواتهم إلى القاهرة منذ بداية الحرب، ويعرف أيضاً أنّه لم يعد هناك ما يستبقي إدوار ديلليم في ليلّ بعد طلاقه، وأنّ لمصر تأثير المغناطيس عليه، لكن أن يصل الأمر إلى الاستقرار فيها إبان معمعة الحرب...

ـ هل يمكن أن نرى بعضنا هذا المساء؟ سأل الفرنسي بمرح.

ـ بالطبع! نحن بانتظارك على العشاء. سوف آتي لاصطحابك من الشيبرد بعد خروجي من القصر، فهذا يوم التوقيع...

كان جورج بيه يعطّل أعماله كلّها بعد الظهر مرةً كل حوالى ثلاثة أشهر. فكان يرتدي بعد القيلولة إحدى أبهى بدلاته ويضع طربوشاً جديداً ثم يقول للسائق:

ـ سنذهب للتوقيع.

وفي قصر عابدين، يستقبله مسؤولٌ عن التشريفات يوجِّه كلّ زائرٍ وفقاً لأهميته إلى مسؤولٍ عن البروتوكول أعلى منه رتبةً. فكان جورج بيه يُستقبل أولاً في مكتب المرافقين حيث يُقدم له شرابٌ أو قهوة، ثمّ يأخذه واحدٌ منهم إلى صالة التوقيع حيث وُضعت مجلداتٌ كبيرةٌ مغلّفة بالجلد الأحمر على طاولاتٍ من الخشب الثمين. فيكتب اسمه كأوضح ما يكون، لأنه يعلم بأنّ هناك موظف مكلّفٌ بإجراء جردٍ لجميع الزائرين بعد كل حفل استقبال. وربما استعرض الملك نفسه تلك القائمة...

ثمّ يعبر جدّي ممراتٍ طويلة، مصحوباً بموظّف استقبالٍ آخر يقوده إلى جناح الملكة الذي تتكرر فيه نفس الإجراءات. ومنذ زواج فاروق، أصبحت هناك محطةٌ ثالثة، فالملكة الأم التي رفضت وضع المتقاعدة كان لديها سجلٌ خاصٌ بها...

لقد اتّخذت جلسات التوقيع هذه، والتي كانت تنظّم بمناسبة عطلة عيدٍ أو حدثٍ خاص، طابع المناسبة الاجتماعية. فقد كان *السفرجية* يتنقّلون بين الزائرين وهم يحملون أطباقاً كبيرة من الحلوى والمرطبات. ويحضر هذه الحفلات كبار الزعماء السياسيين، يحيط بهم مناصروهم؛ ويتوجّه الخصوم التقليديون إلى بعضهم بالحديث بشكلٍ استثنائي، فيوم التوقيع يوم هدنة.

أما جورج، فكان يستغله لتوسيع علاقاته، بل إنّه كان يعقد أحياناً صفقةً بين قطعتي حلوى. وقد احتفظ بذكرى طيبة لبعض أيام التوقيع، كحفلة رمضان 1937 مثلاً، حيث حصل على وكالةٍ لشركة دواءٍ سويسرية؛ أو كحفلة زواج فاروق وفريدة، في كانون الثاني من العام التالي، التي سمحت له ببيع أربع آلاف طربوش...

كلّف إدمون توتة صهره بمهمةٍ خطيرة، وهو يعلم بأنه يتردد

على القصر: الاستعلام عن جواب الملك على رسائله العديدة حول الانفجار السكاني. فلم يكن فاروق يجيب على الرسائل أكثر مما كان فؤاد يفعل.

ـ هل رأيت الملك؟ يسأل إدمون أثناء غداء يوم الأحد التالي.

ـ رأيته، يجيب جورج بلهجةٍ جدّية، والملف على الطريق الصحيح.

فيضيء وجه إدمون.

ـ هل وجدت الشيبرد، فندقك العزيز، بحالةٍ جيدة؟ سأل جدي إدوار ديلليم حين التقيا في بداية السهرة.

ـ أُف! إنه مليءٌ بالضباط الإنكليز، وبالكاد يستطيع المرء الدخول إلى البار.

ـ اشكر ربّك، لقد منعوا صف الضباط من دخول الفنادق الكبرى، فهم أوغادٌ حقيقيون. هل تعرف إحدى تسلياتهم المفضلة؟ إنها تدعى *لعبة الطربوش*.

ـ إنهم يقومون بالدعاية لك...

ـ وأية دعاية! تلك اللعبة السخيفة تقضي بالاقتراب من المارة بالسيارة أو بالتاكسي، ثم دفع الطربوش عن رؤوسهم بحركةٍ مفاجئة من اليد. والرابح هو الذي يرمي على الأرض أكبر عددٍ من الطرابيش. لا داع لأن أقول لك بأنني قدّمت شكوى كتابية إلى رئيس جهاز الشرطة.

ـ لا أفهم، قال إدوار وهو ساهم، لماذا يصبح الإنكليز، البالغو التهذيب في بلادهم، شديدي الفظاظة حين يأتون إلى مصر... وبمناسبة الطرابيش، أريد أن أقول لك يا جورج إني أريد أن أبيع حصتي في المعمل.

ـ تبيع حصتك؟ أنت مجنون! إنّ العمل في الذروة؛ فالطرابيش الأجنبية لم تعد تدخل إلى البلاد، ونحن نسيطر على جزءٍ كبيرٍ من

السوق، كما أنّ مبيعاتنا التي تجاوزت في العام الماضي مئة وستين ألفاً من الطرابيش سوف تزداد. لا ترتكب حماقة! وكما كان أخي فردينان يقول، ينبغي ألاّ نتخلى عن الجواد الرابح. فكر في الأمر.

ـ لقد فكّرت ملياً يا جورج. أنا أنوي افتتاح مخزنٍ لبيع الأثريات المصرية، وأنت تعرف ولعي بهذا النوع من الأشياء...

ـ أعرفه، ولا أفهمه.

ـ سوف أساعدك في العثور على الشاري لو لزم الأمر.

ـ الشاري موجود لسوء الحظ يا إدوار: فشقيق زوجتي الأبله، هنري توتة، كونت مؤخّرتي، لا يعرف ماذا يفعل بأمواله. لقد طلب مني مراراً أن يدخل شريكاً في المصنع، ولن أستطيع أن أرفض طلبه بعد الآن. لكنني أكرر ثانيةً: أنت ترتكب حماقة.

8

إذا كان رأس البر قد اعتُبر قبلة المصطافين عام 1942، فإنّ القاهرة بأكملها توجهت إلى الإسكندرية خلال صيف 1943. فبعد هزيمة الألمان في العلمين، لم يعد هناك ما يخيف في العاصمة الثانية.

ـ لقد انتهت الحرب، صرّح جورج.

سواءً انتهت الحرب أم لم تنته، فقد استفاد منها جيداً. فالبضائع التي كدّسها بكمياتٍ كبيرة قبل الأعمال العدائية ـ وتكونت بصورةٍ خاصة من عدة آلافٍ من الإطارات ـ والتي أعاد بيعها بالقطّارة إلى الجيش البريطاني أو لبائعي المفرّق ـ كانت تدرّ عليه ثروة. فقد كان جورج بيه يتحلّى بخبرة حرب 14-18، على العكس من العديد من تجار القاهرة الأصغر منه سناً. كان يعرف كيف يستفيد من حربٍ عالمية، بل كيف يتهيأ لها. وقد أعدّ عدّته بعد اتفاقيات ميونيخ على الفور، فأخذ يشتري كل ما يجده، مكدّساً البضائع بعناية في مستودعين كبيرين بُنيا لهذه الغاية: أحدهما في شبرا خلف معمل الطرابيش، والآخر في دمنهور على أراضيه.

وكانت صفقةٌ واحدة باع فيها مجموعةً من الأدوات الصحية كافيةً لكي يشتري دارةً جميلة في سيدي بشر قبالة البحر بمبلغ تسعة آلاف جنيه. وتم الاتفاق على أن تبقى فيها يولاند معظم أيام الصيف

مع فيفيان وبعض الخدم. أما بقية أفراد العائلة، فيذهبون إليها تباعاً وفقاً لمشاغلهم.

كان من المفروض أن يقضي سليم يارد حوالى عشرة أيام عند بعض أبناء عمه في الإسكندرية. وقد وجهت إليه فيفيان، التي التقى بها بعد ظهر أحد أيام شهر أيار على سطيحة غروبّي، دعوةً لاقت لديه أذناً صاغية.

ـ إذا كنت في الإسكندرية، تعال ووافِنا، فلدى عائلتي كابينةٌ في سيدي بشر، وسأكون فيها مع بعض الأصدقاء.

ـ على أيّ شاطئٍ في سيدي بشر؟ سأل سليم ببراءة.

ـ رقم 2 ! أجابت بثقة، كما لو أنّ ذلك الشاطئ هو الوحيد الذي يمكن ارتياده في الساحل كله.

في سيدي بشر، التقى سليم مجموعة رأس البر، وبينهم الفتاة ذات الشعر الكستنائي. لكنّ عينيه لم تكونا تريان سوى فيفيان المليئة بالحيوية والتي لعبت دور ربة المنزل بيسرٍ فائق.

على بعد ثلاثين متراً من كابينة آل بطركاني، كانت تُرى الصلعة المدببة للنحّاس باشا رئيس مجلس الوزراء وهي تلمع. كان يتأمّل البحر وهو غاطسٌ في كرسيٍّ طويل مرتدياً برنساً فستقي اللون. أم تراه البحر، مبهوراً، هو الذي يتأمّل الرجل الأكثر إثارةً لمشاعر الإعجاب ولمشاعر الكره في البلاد كلّها؟

كان بإمكان المرء أن يشعر بحركةٍ خفية حول ذلك الرجل. فقد كان هنا مع بلاطه ـ البلاط الثاني في مصر. بين حينٍ وآخر، يقترب صديقٌ أو قريبٌ أو متملّقٌ من الكرسي الطويل ليهمس في أذن الرجل الكبير بشيءٍ ما أو ليريه مقالةً في صحيفة؛ كان زعيم الوفد يتجنّب الرد المباشر ولم تكن الإجابة تتجاوز إشارات تملّصٍ غامضة من يديه.

لم يستطع سليم أن يزيح نظره عن هاتين اليدين النفيستين

اللتين ارتمى عليهما باندفاع كثير من الرجال الطيبين طوال خمسة عشر عاماً لتقبيلهما. هل كان النحاس يدين بشعبيته إلى موهبته كخطيبٍ مفوّه؟ أم لمعاركه السابقة حين كان ينام في محطات القطار مع زعماء آخرين للوفد لأنه مُنع من القيام بجولاتٍ في الأرياف؟ أم أنه ببساطةٍ كان يتمتع بالشعبية لأنّ الملايين من الأشخاص كان بإمكانهم أن يروا أنفسهم في ذلك الرجل الخشن الأكرش المصاب بحولٍ في عينيه؟

كان الملك فؤاد يكرهه. وقد فعل ما بوسعه طوال السنوات التسع عشرة من حكمه ليحول دون اقتراب الوفد من السلطة. لكن ماكان لذلك الملك الذي لا يتمتع بالكثير من الحب أن يسرق من النحاس قلوب الجماهير. أما فاروق، فقد أقلقه بشدةٍ عندما اعتلى العرش، فالملك الشاب كان منافساً خطيراً. وحين كان يقوم بجولةٍ في الأرياف، كان زعيم الوفد يتبعه على الفور، مقتفياً خطاه في جولةٍ مماثلة، ليحصل على التأييد نفسه...

في الثانية عشرة والنصف ظهراً، توقفت سيارة باكار سوداء على مستوى كابينة آل بطركاني، تنبعث منها أنغام مسجّلٍ آلي، ونزل منها سائقها *وسفرجي* محمّلين بالأطباق الساخنة.

ـ بسرعة، إلى المائدة! صرخت فيفيان. *الكبيبة* لا تنتظر.

سيطرت الأصوات المذكّرة على الغداء، ولاحظ سليم بدهشة أنّ هذه المجموعة من سوريي مصر منقسمةٌ بين مناصرين لديغول ومناصرين لبيتان، وأخذ الطرفان يتجادلان ببعض الحدة.

ـ وماذا عنك؟ سألته جارته، أنت لا تقول شيئاً...

لم يستطع أن يمنع نفسه من الإجابة:

ـ ما يهمني أنا هو مصر.

ألقت ملاحظته ظلاً من الضيق على الحاضرين؛ ولترطيب الجو، وضعت فيفيان في المسجّلة أغنية مارينيلاّ لتينو روسّي، فرافقتها المجموعة بأصواتها. ثمّ اقترحت الذهاب إلى مونسينور بعد الظهر للرقص.

بعد عشر دقائق من وصولهم إلى ذلك المكان العصري، سحب شابٌ نحيلٌ طويل القامة يدعى راؤول فيفيان إلى حلبة الرقص، وأخذ يضمها إليه وينظر من فوق كتفها بثقة المالك المعترف به. لم يكن هناك أيّ مجال للشك.

جلس سليم وساقاه تترنحان؛ احتسى كأساً من الويسكي ليرفع معنوياته، ثم كأساً أخرى ليمرر الأولى... سوف ينهي سهرته على كرسيه، نصف مخبول، عاجزاً عن القيام بأي رد فعل. أصبح الأمر واضحاً: فيفيان بطركاني لن تكون له أبداً.

طوال الأسبوع التالي، بذل سليم جهده لكي يكون مرحاً، وأسلم نفسه لدوامةٍ من النشاطات، فأولاد الأغنياء أولئك يعرفون كيف يملؤون نهاراتهم وينوّعون تسلياتهم بشكلٍ دائم. فبين جلستين على الشاطئ، كان يتبعهم عند «أتينيوس» وإلى «غران تريانون» حيث توجد استعراضاتٌ راقصة. ملأ بطنه معهم بالحلويات في محل «ديليس» وبالسمك عند «كسينوفون». ورغم قلقه على حافظة نقوده، فقد التهم معهم آخر الأفلام الأمريكية في سينما «ستراند» وسينما الحمراء، وذهب إلى مسرح محمد علي حيث كان ابن طه حسين يعرض مسرحياتٍ لموليير مع ممثلين محليين. بل إنه ذهب ليتثاءب في محاضرةٍ عن الانطباعيين في جمعية الصداقة الفرنسية وأمضى سهرةً على متن يختٍ فخم...

في سيارة الباكار وسيارتين أخريين مكشوفتين، لم تتوقف المجموعة عن التجول على شاطئ البحر، من المنتزه إلى ميكس، وحتى العجمي أحياناً. وكلّ يوم، كانوا يذهبون إلى فندق متروبول حيث يُعلمهم تلكس عن آخر أخبار الجبهة الروسية، وتدلّهم أعلامٌ صغيرة تُحرَّك على خريطةٍ جداريةٍ كبيرة على مواقع المعسكرين. كان مناصرو ديغول ومناصرو بيتان في المجموعة يجدون في ذلك الأمر مادةً للتصادم. وقد أطلق عليهم سليم لقبيْ *الأهلاوية والزملكاوية* كما اسم مناصري فريقين كبيرين لكرة القدم في القاهرة...

قبل سفر سليم بيومٍ واحد، استأجروا مركباً لنزهةٍ ليلية حول

الميناء. كانت ليلةً لطيفةً جداً، أنارها هلالٌ جميل. وبين حينٍ وآخر، كانت الضحكات أو *المارسيليز* المغنّى جماعياً تطغى على صوت الماء الخفيف.

وقف راؤول في مؤخرة القارب وحده، فقد قرر أن يصطاد بالقصبة، وتدبّر سليم أمره بحيث جلس قرب فيفيان، وأحسّ باضطرابٍ بفخذها يلامس فخذه.

ـ وسط كلّ هذه الضجة، قال سليم، أشكّ في أن يتمكن خطيبك من التقاط شيء.

ـ من قال لك بأنه خطيبي؟ أجابت.

للوهلة الأولى، اجتاح سليماً أملٌ كبير. فقولها «من قال لك ذلك؟» أشبه بالتكذيب. ثم إنّ راؤول هذا... إلاّ أنّ الحقيقة ما لبثت أن قفزت أمام عينيه. «من قال لك ذلك؟» تعني كيف حزرت ذلك؟ ثم إنّ فيفيان تركت مكانها لتوافي ذلك الأهبل الطويل الذي كان يغمس قصبته في مؤخرة القارب...

في تلك الليلة، وأثناء تقلبه على شرشفٍ خشن، بكى سليم من القهر، وصبّ أسوأ اللعنات بالعربية على آل بطركاني وراؤول وأمثالهم، سواءً كانوا ديغوليين أم بيتانيين، *أهلاويين* أم *زملكاويين*. فلينتظروا وسيرون. سوف يعود يوماً ما إلى سيدي بشر رقم 2، غنياً وقوياً. سوف يشتري كابينة النحاس باشا وسيكون له جيشٌ من الموالين...

9

جلس جورج ومكرم في غروبّي، يتناولان العشاء معاً. وقد حجزت لهما كالعادة طاولةٌ في ركنٍ من الصالة، بعيداً عن الأضواء والضجيج.

ـ هل تظنّ بأنّ النحاس سوف يستمر طويلاً على رأس الحكومة؟ قال جدّي. يقال بأنّ الملك مصممٌ هذه المرة على طرده...

كان جورج بيه يجد متعةً خبيثةً في نكءِ الجرح. فهو يعلم تماماً أنّ مكرماً ممزّقٌ منذ أشهر بين رئيس مجلس الوزراء وبين زعيمٍ وفديٍّ آخر كال للنحاس تهماً خطيرة.

ـ لن يستسلم النحاس، رد القبطي. ثم إنّ أحداً لا يعرف النوايا الحقيقية للملك. يبدو أنّ لفاروق مشروعاً آخر يتجاوز ألاعيب السياسة المحلية. وإذا كان يطيل لحيته، أفليس للمطالبة بالخلافة؟

ـ خليفة، لم يكن ينقصنا سوى هذا!

ـ على أية حال، فالملك الآن يتداوى في مستشفى عسكريٍّ إنكليزي. يا للعار!

وبالفعل، فقد وُضع فاروق الذي تعرّض لحادث سيارة في مشفى خارج العاصمة. وكان الطعام يصله من القصر كل يوم، ويعوده زوارٌ كثيرون. بدا كأنه لا يريد الرحيل...

ـ في هذه الأثناء، أصبح الطريق خالياً أمام نحّاسك، قال جورج بيه.

ـ إنه ليس نحّاسي. ثمّ إنك تعرف جيداً أنّ القرارات بيد الإنكليز.

ـ بمناسبة الحديث عن الإنكليز، لقد صادفت بعد ظهر البارحة في غاردن سيتي رَسْل باشا على صهوة حصانه الأبيض. أية هيئة! ليس هناك ما يقال: فالطربوش يناسبهم بشكلٍ رائع. وذلك الحصان، بحوافره المدهونة بالشمع كأخفاف الرقص... أنا أنام هانئاً طالما أن إنكليزياً يدير الشرطة.

ـ سيكون الاستيقاظ عنيفاً يا جورج.

ـ صحيح؟ وهل الاستيقاظ مبرمج؟

ـ سنعود للحديث عن هذا الأمر حين تنتهي الحرب.

ـ هذا بالضبط ما كنت تقوله لي في حرب 14-18، يا مكرم أفندي!

ـ وماذا عن ذلك؟ لم أخطئ كثيراً: ففي عام 19، حصلنا على سعد زغلول...

ـ نعم، واليوم، وبعد أربعةٍ وعشرين عاماً، يتبختر رسل باشا على حصانه الأبيض، وأنت ماتزال بالملابس السوداء.

18 تشرين الأول 1943

انطفأت حياة ليدي في الساعة العشرة من صباح هذا اليوم، دون آهةٍ واحدة. وعلى الهاتف، كان فكتور يبكي وهو يبحث عن كلمات عزاءٍ لي وله. «لن تتألم بعد الآن...»

في اليوم التالي لانتصار العلمين، حين دخلنا إلى غرفتها في المشفى ونحن نحمل الشمبانيا، بدت سعيدةً رغم هزال وجهها. «لقد قالت لي إحدى الممرضات أنّ جناحاً قد حُجز لرومل في الشيبرد. كنت أجهّز نفسي لوضع نجمةٍ صفراء مثل أولاد عمنا في فرنسا.

وها أنتم تصلون وبيدكم الشمبانيا... كان بإمكانكم أيضاً أن تحضروا لي بيانو! هل تعلم يا ميشيل بأنني لم ألمس بيانو منذ عامين»؟

ليدي، أختي الصغيرة. ذات مساء، في هليوبوليس، طلبت منك الزواج بخفةٍ أخجل منها الآن. ورفضتِ بتعقّل، فقد كنتِ تعلمين بأنكِ مريضةٌ جداً، وبأنني لم أُخلق للزواج، كما كنتِ تعرفين بأننا ننتمي إلى عالمين مختلفين. وكنتِ تقولين لي: «لنبقَ أصدقاء يا ميشيل».

ليدي، أختي الضامرة التائهة في عالمٍ من العنف. أختي الصغيرة الهشة التي أخذتها الريح.

10

جاء سليم يارد، الذي لم يكن يجيد الرقص، إلى حفلة رأس السنة تلك التي أقامها صديقه رنيه عبد المسيح دون حماسٍ كبير. وفي حوالى العاشرة مساءً، كان يحاول بصعوبةٍ أن يوافق خطواته مع خطوات فتاةٍ تعشق رقصة الشارلستون حين دخلت فيفيان بطركاني بصحبة بعض الأصدقاء.

أحسّ سليم بأنّ قلبه قد توقّف عن الخفقان، مع أنّه كان يظن بأنه قد شطبها من حياته... وجعله مجيئها غير المتوقع يتخلى فجأةً عن كل قراراته وعن كل نقاط ارتكازه، فقد أعادته إلى الوراء ستة أشهر، إلى الإسكندرية، على مركبٍ تحت ضوء القمر...

أنهى بسرعةٍ رقصة الشارلستون، ثم تخلّص من مرافقته المنفعلة التي كانت تتراقص أمامه وذهب لملاقاة فيفيان...

ـ مساء الخير. لم أكن أعلم بأنك سوف تأتين...

ـ هذا صحيح، كان من المفروض أن أذهب إلى سهرةٍ أخرى. لكن رنيه أصرّ.

ـ أنت وحدك؟ أليس راؤول معك؟

لمعت نظرة خبثٍ في عيني فيفيان وقالت:

ـ لا، لم يعد راؤول معي.

شعر سليم على الفور بنفسه مفعماً بالحيوية:

ـ هل تريدين أن ترقصي؟

كانت الموسيقى لحسن حظه هادئة، فأمسكها من خصرها، شعر بوجهها قرب وجهه، تنفس عبير شعرها وعطرها، وترك نفسه للموسيقى تحمله وهو ثملٌ من الانفعال. أما هي، فكانت تبتسم. سألها سليم عن أخبارها بعد أن استعاد كل ثقته بنفسه.

ـ أنا ذاهبةٌ بعد غدٍ إلى المنيا.

ـ إلى المنيا! يا لها من فكرة!

ـ سوف أشارك في بعثةٍ صحية لصالح جمعية مدارس الصعيد. ألا تعرف جمعية الأب عيروط؟

اعترف بجهله، لكن بهيئة من يتحرّق للمعرفة.

ـ لنجلس، قالت فيفيان، أكاد أموت عطشاً.

فاندفع نحو البار ليحضر المرطّبات المثلجة.

ينتمي هنري عيروط إلى جمعية يسوع، مثله في ذلك مثل أندريه بطركاني. وهو ابن حبيب عيروط، المقاول المفضل لأمبان، ذاك الذي أدخل والد سليم إلى هليوبوليس. وقد نشر اليسوعي الشاب مؤخراً أطروحته: *فلاحو مصر*، سرعان ما أصبحت مرجعاً. واكتشف البرجوازيون المسيحيون في القاهرة من خلال هذا العمل اللامع عالماً يجهلونه تماماً. وكان اللقاء مع الكاتب مفاجأةً أخرى: فخلف سواد الجبة واللحية والنظارات المستديرة بركانٌ مشتعل.

شرحت فيفيان قائلةً:

ـ في كانون الأول 1940، جمع الأب عيروط مجموعةً من النساء والفتيات في بيت أبويه في هليوبوليس. ذهبت إلى هناك دون حماس، وأنا أجرجر رجليّ، بعد طلب ملحٍّ من شقيقي اليسوعي الذي قال لي: «سوف ترين، إنه شخصٌ رائع».

ـ ولم يخب أملك، حسبما فهمت...

ـ كانت النساء الشابات المجتمعات في ذلك اليوم في

هليوبوليس من جميع الطوائف: روم كاثوليك، موارنة، لاتين، أقباط... بل وحتّى أورثوذوكس. «لا يوجد في مصر سوى مسيحيةٍ واحدة، قال لنا الأب عيروط على الفور؛ وفي العمل الذي سنقوم به، لا أريد أن أسمع كلمةً عن الانتماءات المذهبية. وسوف تدفع الفتاة التي تُغلّب مذهبها دون ضرورة غرامةً مقدارها خمسة قروش».

ـ لقد أفلستنّ بالتأكيد!

ـ ضحكنا، فقد استمالنا... لكن حين يقول الأب عيروط بأنه لا توجد إلاّ مسيحيةٌ واحدة، فإنه يفكّر كذلك في القطيعة القائمة بين المدن والأرياف. هذا العمل الخيري مكرّسٌ لأطفال الصعيد؛ فبسبب الحرب، لم تعد المدارس المجانية تستطيع الاعتماد على دعم أوروبا المالي. يجب علينا أن نجمع المال هنا. وأنا أقوم، بصحبة مسؤولين آخرين، بجمع التبرعات على أبواب الكنائس وفي النوادي والمصارف والمكاتب...

ـ *يا سلام*!

ـ لقد عادت علينا الحملة الأولى بألف جنيه. ونأمل بالحصول على ضعف هذا المبلغ في الحملة التالية. انتظر وسترى، فأنا أضعك على قائمتي.

ـ اتفقنا، سوف أبخشش، أجاب سليم بابتسامةٍ عريضة.

وتساءل إن لم يكن عليه أن يشعل فوراً شمعةً في الرضوانية: ليس فقط من أجل أطفال الصعيد، بل أيضاً وبصورةٍ خاصة من أجل الموظفين المتواضعين من أمثاله الذين يستحقون زيادةً في رواتبهم ليتمكنوا من تقديم المساعدة لهم...

جاءت فيفيان إلى تلك السهرة لأنها وجدت اسم سليم يارد في قائمة المدعوين التي وصلتها. فمنذ الصيف الماضي، لم تتوقف عن التفكير به بمشاعر متداخلة. في ذلك الشاب شيءٌ ينفّرها ـ لا ريب أنه جانبه *البلدي* نوعاً ما ـ لكنها من جهةٍ أخرى تجده ساحراً بجنون. لم يؤثّر فيها أي رجلٍ مثلما أثّر فيها سليم، ربما باستثناء

حسن ذي القميص المبلل بالعرق الذي رأته عرَضاً عام 1936 حين جاء ليقابل عمه رشيد في البيت...

استطاع سليم يارد أن يطغى بملاحظاته وبمجرد حضوره على دلع وسخافة مجموعة الإسكندرية التي لم تدركها فيفيان تماماً، إذ كانت هي ذاتها منغمسة منذ يفاعتها في ذلك الجو. لكنها كانت تضحك من كلّ قلبها في كل مرة يصف فيها سليم مناصري ديغول ومناصري بيتان *بالأهلاويين والزملكاويين*...

لم يكن راؤول، الذي كان يبشّر بالديغولية بحذر، يرحّب أبداً بذلك المزاح. وكان ينظر شزراً إلى ذلك الفظ، ثم يقدّم عرضاً لامعاً حول النتائج الاجتماعية لفوز الجبهة الوطنية أو حول التفوق البحري للحلفاء، بانتظار أن يتألق على حلبة الرقص، أو يحقق غطسةً ماهرة في سان ستيفانو، أو يبهر الفتيات اللواتي يركبن معه في سيارته الجوفاكاتر المكشوفة.

كان راؤول يطلب من فيفيان بمعدل مرة في الأسبوع أن تصبح زوجته، لكنها لم تجبه لا سلباً ولا إيجاباً. ألم يكن تلميذ اليسوعيين القديم ذاك الذي ينتمي إلى عائلةٍ ميسورة والذي أصبح مهندساً تخرج من ليون، ينطبق بالضبط على نموذج الصهر الذي يتمناه آل بطركاني؟ هكذا، تكون فيفيان قد تزوجت زواجاً مرموقاً كأختها لولا التي ارتبطت مؤخراً على الحلو والمرّ بابن أخ صائغٍ قاهريٍّ مهمّ.

عشية ذهاب سليم، تعمّدت فيفيان الجلوس قربه في المركب. لم يكن يُسمع سوى صوت الماء المتلاطم. تمنت لو تتكئ على كتفه القوي... إلاّ أن أحد الأغبياء بدأ بإنشاد *المارسيلليز*، وشاركه الآخرون على الفور، فأفسدوا سحر اللحظة.

ذهبت لتلحق براؤول الذي كان يصطاد السمك في مؤخرة القارب وهي مصممةٌ تماماً على أن تقول له بأنّها قررت، بعد أن فكرت جيداً، ألاّ تتزوجه. لكنه كان منشغلاً بقصبته التي لا بدّ أنها كانت إمّا أقصر أو أطول مما ينبغي كي تسمح له بالتقاط أية سمكة.

واضطرت أن تنتظر طلبه التالي بعد بضعة أيامٍ لتضع نهايةً لشبه الارتباط ذاك.

ـ لا، لم يعد راؤول معي...

تهلّل وجه سليم، وشعرت فيفيان في الرقصة البطيئة التالية بنفسها منقادةً، مأسورةً، كما لم تشعر من قبل أبداً.

لكن الذعر سيطر عليها حين حاولت أن تتخيل سليماً في غداءٍ عائلي في البيت. نظرة الآخرين... نظرة أخيها بول، بالأخص، الصارم في ما يتعلق بالسلوك الراقي وقواعد النحو الفرنسي. «سوف أبخششك...»

بعد يومين من تلك السهرة، رنّ سليم جرس آل بطركاني في تمام الساعة الثامنة، وفتحت له فيفيان الباب بنفسها. لقد وافقت على اقتراحه بأن يأتي ليصحبها إلى المحطة بسيارة أجرة. كانت هناك حقيبة سفرٍ كبيرة في المدخل، فحملها بحيويةٍ وقال:

ـ *يا ساتر!* لا بدّ أنّ حقيبتك تزن عشرين كيلوغراماً. لن تتمكني أبداً من رفعها عند نزولك من القطار. هل تحملين لهم مؤونة أيضاً؟

احمرّ وجه فيفيان قليلاً. لم تكن تعرف الكثير عن الحياة هناك، لذلك فقد وضعت العديد من الفساتين من مختلف الموديلات، وكنزاتٍ من كافة السماكات، ودزينةً من القمصان، وخمسة أزواجٍ من الأحذية... هذا عدا الأشياء المطلوبة من كلّ «مسؤولة»، أيْ عدّة خياطة وصيدلية وكتباً وكراساتٍ وقربة ماء وأغطيةً ولوازم مائدة وصفارة وهارمونيكا...

كان من المقرر أن تدوم تلك البعثة إلى المنيا شهراً «بإدارة الآنسة مونفاللون، الممرضة المجازة». وسوف يكون مقرها دير اليسوعيين القديم، إلاّ أنّ النشاطات سوف تجري في العديد من القرى المجاورة.

وأوضحت فيفيان أثناء انطلاق سيارة الأجرة قائلةً:

ـ لقد نبهونا كثيراً ألاّ نصدم الفلاحين وألاّ نولّد عندهم مشاعر الطمع. لقد قدّم الأب عيروط للمسؤولات عشر وصايا: عدم التبرج، عدم وضع ساقٍ فوق الأخرى، عدم ارتداء بنطلون أو صدّار بلا أكمام، عدم الضحك...

ـ كم ستتسلين!

ـ عدم التدخين، عدم مناداة بعضنا بعضاً، عدم التكلم بلغةٍ أجنبية أمامهم...

ـ *يا الله*!

على رصيف محطة باب الحديد، كانت قاطرةٌ تنفث دخاناً أبيض بصوتٍ يصم الآذان. وتحلّقت جماعةٌ صغيرة حول رجل دينٍ بلحيةٍ سوداء. فضّل سليم أن ينسحب كيلا يحرج «المسؤولة»، فشكرته بابتسامة.

11

بعد ذلك بشهرين، نظّم رنيه عبد المسيح سهرةً جديدة في بيته. أزيحت قطع الأثاث ولُفّت السجادات، وهبّ الشباب يرقصون على أنغام موسيقى مزعجة.

أخذ سليم، الجالس في أحد الأركان، ينظر إليهم، تنهشه الغيرة، وهو يرى فيفيان ترقص بين ذراعي ضابطٍ فرنسيٍّ شابّ. يا لهؤلاء الفرنسيين! فمنذ بداية الحرب وهم يديرون رؤوس كلّ الصبايا السوريات في القاهرة...

خرج سليم إلى السطيحة متجهّماً ليدخّن سيكارة. كانت ذكرى أبيه تنغّصه، فلكي يطلب يد ميما، لم يستغرق الأمر من خليل أكثر من ثلاث ثوانٍ. وتذكّر سليم بأنه يحوم حول فيفيان منذ ما يقارب الثلاث سنوات دون أن يجرؤ على الإفصاح عن مشاعره. كان الخوف من الفشل يشلّه. فماذا بوسعه أن يقدم لفتاةٍ من عائلة بطركاني وهو ليس سوى محاسبٍ صغيرٍ عند ماتوسيان؟ ربما كانت ميما رائعة الجمال في ذلك الوقت، ربما كانت تدير الرؤوس أينما ذهبت، لكنها كانت يتيمة ومعدمة...

لام سليم نفسه لتفكيره بهذه الطريقة. وقد تأثّر حين حكت له أمه في أحد الأيام كيف حصل ذلك الموقف:

- حين قال لي أبوك: «ما رأيك لو تزوجنا في السادس من أيلول القادم؟ سيكون يوم أحد»، يبدو بأنني ابتسمت. لقد كان من

الممكن أن يؤخذ كلامه على أنه مزاح، لكنني لم آخذه على هذا المحمل إطلاقاً...

شعر سليم بوجود أحدٍ ما قربه، ولم يتوافر له ما يكفي من الوقت ليلتفت.

ـ بماذا تفكر؟ سألته فيفيان بنعومة.

فأجاب بعفويةٍ:

ـ كنت أفكّر بأبي وهو يطلب من أمي أن تتزوجه بعد بضع لحظاتٍ فقط من أول لقاءٍ لهما.

ـ ولماذا كان عليه أن ينتظر؟

التفت إليها سليم مأخوذاً، ثمّ، دون تفكير، احتضن يديها بين يديه، فأرخت فيفيان جفنيها، وبدت على وشك البكاء.

بعد ساعةٍ، قالت له هامسةً وهما جالسان في زاويةٍ من السطيحة، والعينان في العينين، غير عابئين بمن راح وجاء:

ـ حصلت لي قصةٌ غريبة أثناء رحلتي إلى المنيا...

كانت «المسؤولات» يُستقبلن في القرى وكأنهنّ رب السماء. إذ أنّ الناس هناك اعتبروهنّ طبيباتٍ بارعات، في حين أنّهن بالكاد يعرفن كيف يضعن كمّادة أو يحضّرن ماء البوريك أو يميّزن بين قطرةٍ زرقاء وقطرة أرجيرول... وذات يوم، رأت فيفيان فلاّحاً يدخل إلى المستوصف الذي كانت فيه وهو يحمل صرّةً أعطاها إياها دون أي تفسير. كان فيها رضيعٌ بالغ الشحوب. همست لها الراهبة الواقفة قربها بالفرنسية:

ـ سوف يموت. أسرعي! جِدي له اسماً وعمّديه بسرّيةٍ.

وضعت فيفيان يدها بصورةٍ آلية على جبين الطفل وتمتمت بين أسنانها وهي تتذكر دروس الدين في المدرسة الداخلية:

ـ سليم، أعمّدك باسم الأب والابن والروح القدس.

مات الرضيع بعد بضع لحظاتٍ بين يديها. هز الوالد رأسه دون

أن يبدو عليه أي تأثّرٍ خاص. كان ذاك طفله الثامن، ولا بدّ أنّه سيرزق بغيره...

في سهرة ذلك المساء، انعزلت فيفيان عن الآخرين، ساهمة. ثم أمضت ليلةً شديدة الاضطراب.

ـ كنت مضطربة. أولاً لأنني عمّدته، في حين أنّ ذلك ربما لم يكن ضرورياً. ثم لأنني أطلقت عليه ذلك الاسم دون تفكير. ثم...

أخذت تضحك والدموع في عينيها:

ـ ثم لأنني تساءلت عن مدى صلاحية ذلك التعميد: هل سليم هو اسم قدّيسٍ حقاً؟

12

لم تكن ميما مرتاحةً جداً وهي تدخل بيت آل بطركاني، فقد كانت تخشى الاحتكاك مع تلك العائلات الثرية التي طالما تحدث عنها خليل في الماضي، واعداً إياها بأن يبهرها يوماً، لكن الوقت لم يسعف ذلك المسكين... كما أنها لم تكن تشعر بالراحة في لعب دور الحماة ذاك رغم القبعة ذات الريش التي فرضتها عليها جارتها تقريباً وهي تقسم بأنها تتناسب بشكلٍ رائع مع طقمها البنيّ الفاتح ذي الردّات البيضاء.

لم تكن تعرف من آل بطركاني سوى فيفيان التي قدمها لها سليم قبل ذلك بثلاثة أسابيع، وصوت يولاند التي دعتها هاتفياً إلى حفلة الخطوبة هذه.

ظهرت على فيفيان علائم الانزعاج. ربما لم تكن تتوقع أن يكون أثاث الشقة بتلك البساطة وأن يكون طلاؤها قديماً لهذه الدرجة. لم يفلح سليم في ترطيب الجو فغادر بسرعةٍ مع تلك الفتاة الأنيقة التي بدا أنها تنتمي إلى عالمٍ آخر غير عالمه.

ـ كان بإمكانك أن تنتظر مجيء روجيه على الأقل! قالت ميما متذمرةً في اليوم التالي.

ذلك أنّ روجيه كان، بلقب الطبيب الذي يحمله، رايتَها ومصدر فخرها. لم يكن ليجد، في نظرها، فتاةً تستحقه. وكانت لديها موهبة

إدخال عبارة «ابني الدكتور» في أية محادثة، سواءً تناولت ورق العنب المحشو أو رتق الجوارب.

وكانت فتحية صدى سيدتها، في الحديث عن *الدكتور* في كل مناسبة. وكان المعني ينزعج كثيراً من تلك الدعاية التي في غير محلها، وخاصةً حين تصرخ الخادمة من الشباك، مؤنّبةً الكوّاء الذي يقع محله على بعد عمارتين:

ـ يا موريس! *الدكتور* ينتظر قميصه؛ إنّه مستعجل. ليس لديه قميصٌ سواه...

وصلت ميما إلى منزل آل بطركاني وهي تتأبط ذراع روجيه. وأكّد ذلك المنزل الجميل بأشجاره، وبوابته الثقيلة من الحديد المشغول، وذلك *السفرجي* بالزي الرسمي والقفازات البيضاء آمالها ومخاوفها في آنٍ: سيكون لسليم زواجٌ راقٍ لا شكّ، لكن ألم يرنُ عالياً؟ وهي، ماذا ستقول لأولئك الناس الذين لن ينظروا إليها إلاّ باستخفاف؟

حين دخلت ميما إلى الصالون، سادت بضع لحظاتٍ من الصمت.

ـ من هذه الجميلة؟ غمغم ألكس بطركاني.

صعدت الدموع إلى عيني سليم الذي كان يقف وراءه. نعم، إنّ أمه جميلة رغم أعوامها الستة والأربعين! أدرك ذلك فجأةً، وهو يشعر بالأسف لأنّ الجمع بدأوا في الثرثرة.

منذ اللحظة الأولى، استطاع جورج بطركاني أن يجعل ميما تسترخي بإطراءٍ صغيرٍ لم يخلُ من الصدق:

ـ أتدرين يا سيدتي أن التهاباً في السحايا كاد يخطف منّا فيفيان حين كانت في الخامسة من عمرها؟ لقد أُنقذت بأعجوبة. وقد أقسمتُ منذ ذلك الحين أن أجعلها سعيدةً وأن أزوجها زواجاً جيداً. وها أنا كما ترين أفي بوعدي!

في الصيف السابق، شعر جورج بالقلق لأنّ ابنته كانت ماتزال عازبة.

ـ من كثرة الانتظار، *يا* بنتي...

فهزت فيفيان كتفيها، ثم قالت لكي تغيظه:

ـ هل تعرف ما الذي يقوله لنا الأب عيروط في اجتماعات الهيئة؟ «ابحثوا عن ملكوت الرب، وسيأتيكم فارس الأحلام على البيعة».

ـ هذا العيروط مجنون! صرخ جورج بيه. بحماقاتٍ كهذه تُخدع الفتيات.

لكن جورج بيه لم يكن من النوع الذي يزوّج ابنته لأول خاطب. كانت فيفيان تخشى من امتحان قبول سليم وسمحت لنفسها أكثر من مرة بأن توجه إليه ملاحظاتٍ من نوع:

ـ عزيزي، لا يُقال: «سوف أقطع تذاكر للسينما».

أخذ ملاحظاتها بعين الاعتبار وهو يبتسم. وكانت فيفيان تقول لنفسها: لابدّ أنّ جورج بطركاني نفسه قد عانى، عند زواجه، من صعوباتٍ مماثلة مع أولئك الذين مايزال حتى الآن يدعوهم أحياناً «المتحذلقين واللاتينيين» من آل توتة.

قدمت فيفيان سليماً لأبيها عصر أحد الأيام على سطيحة غروبّي وهي مصممة على القتال ببسالة كي تنتزع موافقته. وكم كانت مفاجأتها كبيرة حين بدا والدها فائق اللطف، فلم يطرح على سليم أيّ سؤال عن وضعه المادي أو المهني. بدا غير مهتم إلاّ برأيه حول الحلوى عند غروبّي.

وفي المساء، قال لابنته بشيءٍ من الخبث حين رآها في البيت:

ـ لست أدري إذا كان عليّ أن أهنّئ الأب عيروط، إلاّ أنّ فارس الأحلام يبدو لي رائعاً.

فقفزت وتعلّقت بعنقه وقبّلته. لم تكن بالطبع تدري بأنّه قد استعلم عن سليم عند ماتوسيان، بل عند الآباء الأعزاء في الضاهر...

حين اتصلت يولاند بطركاني بميما هاتفياً، أخبرتها بأنّ حفلة الخطوبة سوف تكون بسيطة، حميمةً، وعائلية. وبالفعل... لم يكن هناك سوى حوالى ستين شخصاً.

قالت يولاند لضيفتها وهي تأخذها من ذراعها:

ـ تعالي، سوف أقدّم لك عرّاب فيفيان.

خُدعت ميما بالشعر الأشيب، ولم تتعرف إلى إدوار ديلليم إلاّ عندما استدار نحوها وقبّل يدها مطولاً ليخفي اضطرابه.

ـ لم أكن أعلم... قالت ميما دون أن تكمل جملتها.

أمّا يولاند، فقد تابعت الحديث دون أن تنتبه لشيء:

ـ نعم، إدوار فرنسي، وهو أحد أقرب أصدقائنا. كان يمر في القاهرة في العام 1922 عندما ولدت فيفيان... اعذراني، سوف أترككما معاً، فثمة من يناديني.

ـ لم تتغيري، قال إدوار لميما حين أصبحا وحدهما.

فأجابت بابتسامةٍ مبهمةٍ وهزّةٍ من كتفيها. فمنذ لقائهما على سطيحة آل عيروط في هليوبوليس قبل ذلك بعشر سنوات، لم توافق أبداً على أن تراه ثانيةً.

ـ هل تعلمين بأنني مستقرٌ في مصر منذ ما يقارب العامين؟ لقد افتتحت متجراً للعاديّات في نهاية شارع سليمان باشا. هل تحبين الأنتيكا؟

ابتسمت ميما وقالت:

ـ بالكاد تسمح لي إمكانياتي بشراء الجديد، فكيف بالأنتيكا؟

ـ أرجو أن تقبلي دعوتي لزيارة المتجر. سوف أريك روائع، للفرجة فقط. أنا موجودٌ هناك بعد ظهر كل يوم... هل تعدينني بزيارة؟

كانت الدعوة من اللطف بحيث وعدته ميما بأن تزوره يوم الأربعاء التالي.

حصل هرجٌ في الصالون الأول، فقد حضر الأب أندريه بطركاني، وتراكض بعض المدعوين لتحيته. وبعد أن شدّ اليسوعي على أيدي البعض، اقترب من فيفيان وقبّلها، ثم طوّق كتفيها بصورةٍ أبوية وهو يهمس لها:

ـ أتمنّى لك زوجاً صعب الإرضاء.

عرض إدوار ديلليم على ميما أن يقدّم لها ذلك الذي سوف يبارك الزواج بعد بضعة أسابيع:

ـ سوف ترين، إنه رجلٌ ذو قيمة. أعرفه مذ كان طفلاً. لكنني أعترف بأنه يثير اليوم في نفسي بعض الرهبة، بلحيته وردائه الكهنوتي وتلك النظرة الثاقبة...

سوف يتزوج فيفيان وسليم، بالطبع، في كنيسة سيدة السلام، فتلك الكنيسة التي دُشّنت مؤخراً في غاردن سيتي أصبحت تعتبر ملتقى العائلات الموسرة من الروم الكاثوليك أيام الأحد. والفضل يعود لماري خليل، وهي ثريةٌ عازبة من أبٍ سوري وأمٍ ألمانية، عميقة الإيمان، وكان لقائها بعالم الإسلاميات لويس ماسينيون قد أثّر فيها بشدة.

ـ تحوّل ماسينيون إلى راهبٍ روم كاثوليك، قالت فيفيان لسليم شارحةً، وقد جرّ ماري معه في مغامرةٍ صوفية لا يدرك أحدٌ عنها شيئاً. وما أعرفه على كل حال هو أنّ الكنيسة كانت للأنغليكان، وأنّ ماري كانت تحلم بها. بل إنها تسللت ذات يوم خلسةً إلى الحديقة كي ترمي فيها ميداليةً للقديسة تيريزا...

ـ وقد تلقّت القديسة تيريزا الرسالة بالطبع...

ـ استطاعت ماري أن تشتري الكنيسة في كانون الأول 1941 بمبلغ عشرة آلاف جنيه، وتولى أمر الإنفاق على ترتيبها عددٌ من المساهمين ومنهم أبي. وبما أنّ الوقت كان وقت حرب، فقد دعيت باسم كنيسة سيدة السلام.

في الصالون الثاني، كانت سلوى، صديقة فيفيان المسلمة، تتناقش مع روجيه يارد الذي قدموه إليها:

ـ ألا تجد يا دكتور بأنّ ختان البنات عمليةٌ شنيعة؟

ـ بل إنّ ما يزيد من شناعتها كونها تتم بشفرات حلاقة غير معقمة...

ـ ينبغي على الجسم الطبي أن يتحرك. ينبغي أن يتم إصدار قانون.

ـ إذا كنت تعتقدين بأنّ قانوناً يكفي لتغيير العقليات في الأرياف...

كانت سلوى، وهي إحدى أكثر أتباع هدى شعراوي تحمساً، مناضلةً نسائية شديدة النشاط. وقد عاندت أبويها حين أرادا تزويجها في الثامنة عشرة من عمرها، واستطاعت الحصول على إجازةٍ في الحقوق.

وكانت سلوى تقول لفيفيان وهي تلومها على اكتفائها بالقسم الأول من الشهادة الثانوية:

ـ أمّا أنا، فسوف أبقى عازبةً حتى أحصل على الدبلوم.

أثار وصول لولا هتافات الإعجاب في الصالون الأول، فقد كانت ترتدي، رغم أنها حاملٌ في شهرها الرابع، ثوباً أحمر قرمزياً يقولب جسدها المثير ويبرز مفاتنها. وخلفها، جاء زوجها رولان، النحيل الأنيق، وأخذ يوزع الابتسامات الهوليودية على الحاضرين. كان الجميع يتذكرون الصورة التي نشرتها مجلة *المصوّر* قبل ثلاث سنوات بمناسبة شهر عسلهما، حيث ظهرا في سيارة بوغاتي مكشوفة أمام فندق مينا هاوس. وكان ابنا السعة هذان يوحيان بأنهما يجمعان كل نِعم السماء، وكل مظالم العالم...

ـ آه صحيح، أنت محاسب؟ قال لسليم شخصٌ غريب الأطوار يرتدي ربطة عنقٍ عريضة بنفسجية، إذن، لا بدّ أنك تعرف كم هو العدد الدقيق لسكان مصر الآن.

لا، لم يكن يعرف، والحقيقة هي أنه لم يسأل نفسه أبداً ذلك السؤال.

ـ أنت تخفي عني شيئاً، همس الرجل ذو ربطة العنق العريضة.

ألقى سليم بنظرةٍ قلقة إلى فيفيان التي كانت تراقبهما بطرف عينها: لقد نسيت أن تنبهه إلى هوس خالها.

ـ ربما خمسة عشر مليوناً، قال سليم تحسّباً لكلّ طارئ.

ـ أنت تمزح! صاح إدمون توتة.

ابتلعت فيفيان ضحكةً مدوية ورآها سليم، مما جعله يسترخي ويقول بلهجةٍ قاطعة:

ـ خمسة عشر مليوناً وسبعمئة وخمسون ألف نسمة، وفقاً لآخر إحصائياتنا.

كان محدثه يتصبب عرقاً، فجفف جبينه بربطة عنقه.

ـ هذا مستحيل، أيها الشاب! فقد تجاوزنا السبعة عشر مليوناً في بداية العام. سبعة عشر مليوناً! هذا مخيف، أليس كذلك؟

1

30 أيلول 1945

هاأنا ذا أصبح عرّاباً! فكيف يمكنني أن أرفض عرض فيفيان؟

كان من المفترض أن يُدعى ابني بالمعمودية رفيقاً. لكن أبي الذي سبق الجميع إلى دار التوليد أصرّ على أن يُدعى شارل.

لم يكن سليم مسروراً، وأنا أفهمه. إنّ المسكين يقاسي الكثير من عمٍ كجورج بطركاني!

وبغض النظر عن أساليب أبي، فإنني لا أعرف كيف أفسّر تلك الموضة الجديدة في إعطاء المواليد الجدد أسماء عربية، كما كان الأمر في الماضي، كرزق الله وحبيب وخليل... صحيحٌ أيضاً أنّ المدّ الوطني يدعو إلى الحذر. قال مكرم منذ بضعة أيام: «إنّ الحروب تلد الثورات». لكن ذلك الرجل المسربل بالسواد كثيراً ما ينظر إلى رغباته على أنها حقائق. هل أراد أبي أن يخالفه بتحويل اسم رفيق إلى شارل؟

أما أختي الصغيرة، فهي لا تبدو منزعجة من تغير اسم ابنها، خاصةً وأنّ البروفيسور مارتان بيرار وجد هذا الخيار صائباً جداً على ما يبدو. آهِ من هؤلاء الفرنسيين!

في الماضي، كانت أمهاتنا يلدن في البيوت، وكانت أم يوسف، ومن بعدها ابنة أخيها السيدة رطْل هما اللتان يستقبلننا في هذه الدنيا. ولكن سرعان ما يتولّى اليسوعيون أو الأخوة أمرنا...

بالطبع، كاد ميشيل يتخلّف عن حفل عمادتي. فقد ذهب إلى كنيسة سيدة السلام، ناسياً أنّ أبويّ يسكنان في هليوبوليس... ووصلت سيارة الأجرة التي كان يستقلها إلى كنيسة القربى متأخرةً خمساً وثلاثين دقيقة.

ـ لن تقول هذه المرة أنّ الآنسة غيومار هي السبب! هتف أندريه الذي كان يتهيأ للاحتفال بعرّابٍ بديلٍ.

أما رنيه عبد المسيح، المرح كعادته، فقال لأبي:

ـ بعد أن بدّل ابنك اسمه، سوف يبدّل عرّابه. لا بأس *يا سيدي*. المهم أن يحتفظ بجنسه...

نرى في الصور أندريه بلباسه الديني المخصص للاحتفالات، وسليماً، إلى الوراء قليلاً، مرتدياً سترةً بيضاء وربطة عنقٍ من اللون نفسه. أما فيفيان، فلم تستعد رشاقة قوامها بعد، إلاّ أنّ إشراقة وجهها أضفت عليها سحراً أخّاذاً. ويبدو ميشيل متشنجاً بعض الشيء وكأنّ فستاني المصنوع من الدانتيل يربكه. إنها أول مرةٍ يحمل فيها طفلاً رضيعاً بين ذراعيه.

2

قال جورج بيه:

ـ ستكون هذه رحلة شهر العسل الحقيقية بالنسبة لكما.

لم يتحمس سليم للوهلة الأولى لاقتراح عمه، فالذهاب إلى أوروبا مع كلّ آل بطركاني... إلاّ أنّ صيحات فيفيان الحماسية ثم صفير أخوته المعجب جعلته يغير رأيه بسرعة.

والحقيقة أنّ جورج بطركاني لم يستشر أحداً قبل أن يشتري بطاقات الطائرة. فهل يُعقل أن يفوّتوا أول رحلةٍ منتظمة لشركة الطيران الفرنسية بين القاهرة وباريس؟ كانت تلك الرحلة مثل طرازٍ جديد من السيارات: هل ينتظر المرء أن تجربه المدينة كلّها لكي يطلبه؟...

كانت جدتي تموت خوفاً من فكرة الطيران فوق الغيوم، إلاّ أنّ جورج بيه مسح كلّ اعتراضاتها بهزةٍ من كتفيه. وسوف يشارك بول وزوجته السويسرية في الرحلة، وكذلك ميشيل. أما لولا التي بقيت في القاهرة، فقد اقترحت على والديّ أن تستضيفني عندها مع الخادمة. كنت في الشهر العاشر من عمري.

في مطار ألماظة، وقبل المرور بالجمارك، رأى سليم جورج بطركاني ينزع طربوشه الأحمر عن رأسه بكلتا يديه ويعطيه للسائق الذي ناوله عوضاً عنه قبعةً رائعة من القش. ثبّت جورج بيه القبعة على رأسه بسهولةٍ أذهلت أبي. كان جدّي يبدّل عالمه.

دامت الرحلة ثلاث عشرة ساعةً، بما فيها توقفٌ في تونس. رسمت يولاند إشارة الصليب على صدرها ثلاث مرات أثناء إقلاع طائرة DC4 الضخمة. وسليم نفسه الذي كان متوتراً صلّى للعذراء وهو يتظاهر بالنظر عبر النافذة. لم يفهم عدم اكتراث فيفيان التي أخذت تتحدث مع السويسرية التي يفصلها عنها ممر الطائرة عن اكتشافها لباريس عام 1937:

ـ أخذنا الأهل، أنا ولولا، إلى المعرض العالمي. وفي وسط البحر المتوسط الذي كان هادئاً تماماً، أخبرونا بأنّ مركبنا الذي يحمل العلم المصري سوف يصادف اليخت الملكي *فخر البحار*. فاجتمع كل الركاب على السطح وانتظرنا أن يصبح المركبان على سويةٍ واحدة لكي نغني جميعاً: *«تعيش بلادي ويحيا الملك»*. حيّانا فاروق بإشارةٍ من يده؛ كان حينذاك في الثامنة عشرة من عمره وكان جميلاً...

ـ لم تربطي حزامك جيداً، قال سليم بصوتٍ متشنج.

حُجزت أربع غرفٍ في فندق سكريب، أحد الفنادق الباريسية اللائقة، النادرة في ذلك الحين، التي لم تحتلها جيوش الحلفاء. استقبل صاحب الفندق آل بطركاني بالانحناءات، وأراهم صالة الطعام بنفسه.

ـ سوف يُقدّم لكم الطعام في الغرف اعتباراً من يوم غدٍ إذا أردتم. همس في أذن جدي. سيكون الطعام أغلى سعراً بقليل، إلاّ أنّه أقلّ تقنيناً بكثير.

كان الجنيه المصري يساوي وزنه ذهباً في أوروبا تلك، الخارجة لتوها من الحرب. أدرك سليم ذلك من الذهول الذي بدا على ساعي الفندق الصغير حين أعطاه ما يعادل قرشين. وقبل ذلك، قوبلت المجموعة بابتسامات التبجيل في مكتب الاستقبال بفضل جوازات السفر التي تحمل عبارة «المملكة المصرية».

كانت لغرفة أهلي رائحةٌ حموضةٍ، تشبه رائحة مكتبةٍ قديمة سيئة التهوية، سوف تصبح بالنسبة لسليم على الدوام، رائحة باريس، وفرنسا، وأوروبا.

بينما كانت فيفيان تفتح صنبوراً في الحمام، أزاح أبي ستارةً من قماش الكريتون المزهّر مثبّتةً على النافذة. لم يكن يتخيل أبداً مثل تلك الصفوف المتناسقة للأبنية في الشوارع! كل شيءٍ كان منظّماً، كما لو كان مرسوماً. ورغم جراح الحرب وبطاقات الإعاشة، بدت هذه المدينة تتدفّق بثراءٍ فاحشٍ متراكم عبر قرون... يخال المرء أنّه يعرف فرنسا بفضل الكتب والأفلام والآباء الأعزاء جداً في المدارس المسيحية. وها هي تلك العاهرة تُذهلك منذ اللقاء الأول!

كان صوت روجيه الصارم يسأل من داخل المرحاض:

ـ ما هي فرنسا؟

ـ فرنسا هي وطننا، إنها وطن خساراتنا...

ـ وطن آبائنا، *يا فلاّح*!

ألصق سليم أنفه بزجاج النافذة، مثل طفل ذلك الزمان الذي كان يراقب طيور الحدأة في الفجّالة. هاهو وطن آبائه المزعوم أمام ناظريه، بمشاته المستعجلين الذين لا يلتفتون...

فُتح باب الحمام، وخرجت منه فيفيان باسمةً، وهي ترتدي طقماً ورديّ اللون، جاهزةً للنزول لتناول العشاء. شعر سليم بصدمة، كأول مرةٍ رآها فيها. اتجه نحوها وأخذها بين ذراعيه. وبينما شفاههما تتقارب، حدّث نفسه بأنه في باريس، وأنه لا يحلم، وأنّ تلك المرأة المتكورة بين ذراعيه اسمها حقاً فيفيان بطركاني...

اعتنى موظفو سكريب بجورج بيه وعشيرته عنايةً فائقة. أما سائقو سيارات الأجرة المتوقفون أمام الفندق، فقد كانوا يتنازعون على إيصالهم إلى أركان المدينة الأربعة.

ـ يمكننا أن نبتهج لكوننا مصريين! قال ميشيل خلال استراحةٍ في كافيه دو لا بيه.

ـ نحن لسنا مصريين، أجاب بول بنبرةٍ جافة.

اقترب النادل ليسجل الطلبات. فقال أبي:

ـ أنا سأتناول كازوزة مع شاليمو.

فاستبق بول تساؤل النادل وشرح بصوتٍ فيه انزعاج:

ـ السيد يريد عصير الليمون المضغوط مع قشة.

لو كان سليم في ظروفٍ أخرى لانفجر ضاحكاً. إلا أنّ لهجة شقيق زوجته أغاظته، فقد رأى نفسه في عينيّ بول بطركاني فلاّحاً يكتشف باريس.

والحقيقة أنّ سليم كان منذ أول أمس يحملق حوله مذهولاً. حتى الآثار الفرعونية في متحف اللوفر أبهرته، فهو لم يذهب يوماً إلى الصعيد، ولا حتى إلى متحف القاهرة. لم يكن يعرف شيئاً عن تلك الحقبة غير الأهرامات وأبي الهول، في حين كانت السويسرية تعلّق بمرحٍ على الكتابات الهيروغليفية وتتنقل بيسرٍ بين السلالات الفرعونية...

بعد أسبوع، غادروا باريس إلى سان موريتز حيث حجز جورج بيه لهم عدة غرف. أراد جدي أن يستمتع بهواء الجبل وأن يزور أهل السويسرية الذين يمتلكون كوخاً على بعد بضعة كيلومترات.

كان هناك شيءٌ غير حقيقيّ، خياليّ، في ذلك المنظر الذي يشبه بطاقةً بريدية. وفي كلّ منعطفٍ من الطريق المؤدي إلى الفندق، كان سليم يكتشف سهولاً شديدة الخضرة وأبقاراً شديدة السمنة... شعر بأنه في آخر العالم.

ـ آه! أنتم أيضاً مصريون! قال موظف الاستقبال في الفندق بابتسامةٍ كبيرة.

فقد كان حمدي باشا، النائب عن الإسكندرية، يصطاف مع عائلته في المكان نفسه. أرسل له جدي بطاقته أثناء العشاء، ثم نهض للسلام عليه. وأصبحا بعد ذلك يتبادلان *السلامات* والابتسامات عن بعد. لقد التقت مصران، غريبتان الواحدة عن الأخرى، ولكنهما ليستا عدوتين على الإطلاق.

وجد سليم هذه اللعبة ثقيلة. والحقيقة أنّ كل شيءٍ كان يثقل

عليه في سان موريتز. فعدا أوقات وجبات الطعام اليومية في القرية والنزهات في طرقاتها الترابية التي تتلف أحذيته الأنيقة، كانت النهارات سأماً قاتلاً. وكان يحوم حول فيفيان التي لم تكن تبدي الكثير من الحماس للقيلولات الغرامية التي يعرضها عليها تلميحاً، والتي تبدو أشبه ما تكون بوسيلةٍ لقتل الوقت.

ـ وماذا لو سبقنا الآخرين إلى باريس؟ اقترحت فجأةً عصر ذات يوم، بينما كان أبي مسترخياً في كرسيه، يتصفّح، عابساً، جريدة «منبر جنيف».

ـ لكن... وأبواك؟

ـ سوف أتكفل بهما.

فاندفع إلى الاستقبال ليسأل عن موعد القطار التالي، وكان ذلك شهر العسل الحقيقي لهما.

عندما لحقت بهما المجموعة بعد ذلك بعشرة أيام في فندق سكريب، كان سليم بأقصى لياقته ويعرف باريس عن ظهر قلب. فقد تجولا دون كللٍ أو ملل على الأرصفة المحاذية للنهر، وذرعا مونمارتر في كلِّ الاتجاهات، وقطعا مئات الكيلومترات في المترو. كما تنقّلا من مسرحٍ لآخر، وضحكا من أعماقهما في مسرحية «بلوم! بلوم! ترالالا!» وذهبا إلى حفلةٍ لأندريه كلافو، بل إنهما حضرا نهائيات مسابقة أجمل السابحات لعام 1946 في مسبح موليتور...

خصّصوا القسم الأخير من زيارتهم إلى باريس للمشتريات. لم تكن النساء يغادرن المخازن الكبيرة إلاّ للذهاب إلى متجر مصممة قبعاتٍ شهيرة في شارع رويال. ولم يترك جورج بيه سجادةً ثمينةً في زقاق روان، في حين كان ميشيل ينتقي أثمن الكتب القديمة. أما أبي، فقد كرّس جلّ وقته للعثور على هديةٍ لميما. فكان يذهب من متجرٍ لآخر، ويتردد، ويعود، ويزداد توتراً. وفاض الكيل بفيفيان، فاختارت لها بدلاً عنه حقيبةً من جلد السحلية من متجر لانسيل، رغم معرفتها بأنّ حماتها سوف تحبّذ بشكلٍ خاص أدوات المطبخ التي

حازت على جوائز في مسابقة ليبين، والتي اشترتها ببضعة فرنكات في الشوارع الكبرى.

راقب جورج بيه صهره طوال الرحلة، وفي اليوم الأخير، انتحى به جانباً في ردهة الفندق وقال له:

ـ هل أنت مرتاح عند ماتوسيان؟ أقول ذلك لأنه قد يكون بإمكانك أن تأتي للعمل معنا... فكّر. لست مضطراً للإجابة على الفور.

كانت بطاقات الطائرة محجوزة ليوم السادس من أيلول. وقبل ذلك الموعد بثلاثة أيام، تحطمت طائرة كوبنهاجن باريس أثناء إقلاعها واندلعت فيها النار، فشعرت يولاند بطركاني بانزعاجٍ شديد. وبذل أفراد المجموعة كل جهودهم لطمأنتها وهو يمزحون قليلاً. وفي الرابع من أيلول، تحطمت طائرة باريس ـ لندن بدورها، وتفحّم كل ركابها...

ـ ولا كلمة ليولا! أمر جورج أولاده.

حين صعدوا إلى طائرة DC4 التابعة لشركة الطيران الفرنسية بعد يومين، كانوا جميعاً يشعرون بالخوف، ولم يقتصر التوجه للعذراء على سليم وحماته هذه المرة.

صفق الركاب بشدّة حين هبطت الطائرة في مطار ألماظة، ورسمت يولاند إشارة الصليب على صدرها مرةً أخيرة. تجمعت عائلاتٌ بكاملها على سطيحة المطار الصغيرة، وأشار سليم الذي كان يمسك بفيفيان من خصرها لهم بيده ملوحاً بقوة، وكأنه بطل. شعر كأنه يعود من مكانٍ بعيدٍ جداً، كأنه رحل منذ دهر. أخذ ينظر إلى مصر بشكلٍ جديد، مستغرباً أن يراها قاحلةً وصفراء لهذه الدرجة...

وبعد عشر دقائق، ضم بين ذراعيه ميما الباكية، في حين أخذ سائق آل بطركاني يوبّخ الحمالين الذين خلطوا الحقائب كلها. أخذوا يصيحون ويضحكون، يحكون عما فعلوه ويفاخرون. لقد عادوا.

3

ـ بينما أنتم تتنزهون في أوروبا يا أعزائي، قام الملك برحلةٍ غرامية في البحر المتوسط، قال ألكس دون أي حرج، وهو يغرز شوكته في قطعةٍ من ورق العنب المحشو، واثقاً من التأثير الذي سيحدثه الخبر.

ـ رحلة غرامية؟

ـ احكِ لنا *يا ألكس*!

سمح غياب أندريه عن الغداء ببعض الأحاديث العابثة... وقد أصبح خالي ألكس، بعد لقائه الشهير مع فاروق بالسيارة، خبيراً لايهزم في الشؤون الملكية. وقد حافظ على التواصل مع بعض رفاق سهرات الملك الذين أصبحوا يعاملونه كواحدٍ منهم، ولا يترددون في ذكر إنجازات الملك أو طُرَفه أمامه.

ـ في بداية الصيف، وقع فاروق في غرام فتاةٍ يهوديةٍ من الإسكندرية. تعرفها، إنها كاميليا الشهيرة التي كانت تغني في أوبرج *الأهرام*... وقد وعد الملك نفسه بأن يقوم معها بأول رحلةٍ له في البحر المتوسط منذ الحرب. ذهبت كاميليا إلى قبرص، ولحق بها فاروق على متن يخته مع بعض الأصدقاء دون أن يُعلم الحكومة بذلك.

ـ لكن يقال بأن فاروقاً عاجزٌ جنسياً...

ـ بول، أرجوك! الأولاد هنا...

ـ لنقل إنه يصعب عليه أحياناً أن ينهي العمل، وضّح ألكس بمرح. لكن الأمر مختلف مع كاميليا، فهي تقوم بالمعجزات.

تدّخلت يولاند بحدةٍ قائلة:

ـ لم يقل لي أحدٌ رأيه في ورق العنب. ألا يعجبكم؟ ربما تريدون بعض *الملوخية*...

فانهال عليها الثناء من كافة أركان الطاولة.

ـ بالمناسبة، قال جورج بيه، أرى بأنّ فاروقاً قد أصبح بديناً تماماً.

ـ لو رأيت كل ما يلتهمه على مائدة الإفطار! قال ألكس بلهجة من يرابط بشكلٍ دائم تحت السرير الملكي. دزينةٌ من البيض، كركند، طيور فرّي محشوة، مثلجات... وقبل كل عشاءٍ رسمي في القصر، يغير على مطابخ القصر ليأكل فيها الكريمة المخفوقة.

ـ لم يتحول فاروق إلى شخصٍ مشوّه القوام فحسب، بل إنّ النظارات السوداء التي يضعها دائماً تضفي عليه منظراً سخيفاً. أين هيبة فؤاد؟

ـ أية هيبة؟ أرجوك! قال ميشيل الذي أخذت الأمور برأيه تتدهور بالتدريج منذ وفاة السلطان حسين عام 1917.

ـ على أية حال، فإنّ فاروقاً البدين لا تنقصه الجرأة ولا المرح. هل تعرفون قصة لعبة البوكر؟

كان الجميع يعرفونها بالطبع. إلاّ أنه كان هناك دائماً طفلٌ يطلب إعادتها، وكان جورج بيه يمتثل بسرور:

ـ ... أعلن فاروق بأنّ لديه أربعة ملوك، لكنه وضع على الطاولة ثلاثةً فقط. نظر شركاؤه في اللعب إلى بعضهم بشيءٍ من الحرج. ثمّ سأل أحدهم بخجلٍ أخيراً: «أين الملك الرابع؟». فصاح الملك وهو يضحك قبل أن يجمع النقود عن الطاولة: «الرابع هو أنا!»...

ـ في بعض الأحيان، يوقظ فاروق أحد شركائه في منتصف الليل ليطلب منه أن يوافيه إلى نادي شارع قصر النيل، وتُسمع ضحكته المدوية عبر النافذة المفتوحة.

ـ يقال بأنّ أحداً من الموجودين على الطاولات المجاورة لطاولته لا يجرؤ على النهوض ما لم ينته الملك من اللعب. ويمكن أن يستمر ذلك حتى الصباح الباكر.

ـ هل تعلم بأنّ فاروقاً يدعو نفسه أحياناً إلى حفلاتٍ خاصة؟ منذ بضعة أيام، وجد الأنوار مضاءةً في دار آل تقلا، فرنّ الجرس ودخل.

ـ لا يكتفي فاروق بسلب الآخرين نساءهم، قال بول؛ بل إنه مصابٌ بداء سرقة شتّى الأشياء. قبل بضعة أيام، قال لي أحد الدبلوماسيين إنّ الملك قد نشل ساعة تشرشل عام 1942.

ـ أنت تمزح!

ـ لا، الأمر في منتهى الجدّ.

ضجّ الجالسون إلى الطاولة، مبدين فراغ صبرهم.

ـ أنتم تذكرون بأنّ تشرشل جاء إلى مصر في حزيران 1942 ليتفقد ساحة المعركة. فألحّ فاروق على دعوته للعشاء في مينا هاوس، وتواعدا على اللقاء هناك. كان رئيس الوزراء البريطاني مستعجلاً جداً، وأراد إظهار ذلك، إذ كان عليه أن يسافر في اليوم نفسه إلى جبل طارق، فمدّ يده إلى جيب صداره لينظر إلى ساعته الذهبية، لكنّها لم تكن هناك. ولأنه كان قد سمع بهوس فاروق، أحاطه علماً بأقصى ما استطاع من الهدوء والأدب أنّ ساعته قد اختفت، وبأنّه شديد التمسك بها، ولن يتعشى قبل العثور عليها. غضب فاروق واستنكر فعلة اللصوص، ولكنه وعد بأن يتولّى الأمر. ترك المائدة وعاد بعد عشر دقائق منتصراً والساعة بيده... من لديه أفضل من هذه القصة؟

ـ أنا. لكنها قصةٌ لا أعرف إن كان لي الحق في روايتها...

ـ هيا، يا ألكس، لا داعٍ لهذه الحركات، أرجوك.

ـ بشرفي، لقد وعدت.

ـ احكِ، *يا ألكس*!

ـ حسناً... حصل ذلك خلال الحرب، حيث كان الإنكليز يأخذون على فاروق أنّه محاطٌ بالإيطاليين. بل إنهم أحصوا سبعة عشر منهم في القصر. صاح السفير البريطاني قائلاً للملك: «ينبغي ألاّ ننسى أننا في حالة حربٍ مع إيطاليا! الرعايا الإيطاليون الآخرون الذين يعيشون في مصر محتجزون في معسكرات، في حين يحتل أصدقاؤك منهم أهم المراكز». وناشدت الحكومة المصرية بدورها الملك بإلحاحٍ أن يطرد بولّلي وصحبه، إذ أنّ البرلمان لم يكن ينظر إلى أولئك الأجانب بعين الرضى. أجانب؟ لا بأس! قرر فاروق على الفور أن يمنحهم الجنسية المصرية.

ـ حين أتذكر بأننا انتظرنا عشرات السنين!

ـ ولكي ينجز الأمر على أكمل وجه، استدعى فاروق بعضاً من أصحابه الإيطاليين بعد ذلك بفترة وقال لهم: «أنتم تعلمون بأنّ المسلمين يُختنون. ولكي تصبحوا مصريين حقاً، طلبت من جرّاحي أن يجري لكم عمليةً صغيرة».

ـ ألكس، الأطفال يستمعون إليك...

ـ ولكنّ أحداً من الإيطاليين، كما تتوقعون، لم يبدِ حماساً للموضوع. فقرر فاروق حينذاك: «إنه أمرٌ ملكي». ومع ذلك، فقد أصرّ أحدهم على رفضه، فوجد نفسه في اليوم التالي على سريرٍ في مشفى القصر، والملك وحلاّقه أمامه، يتلويان من الضحك. لقد أصبح ذلك الإيطالي مصرياً حقيقياً بفضل منوّمٍ دُسّ في شرابه...

ـ وماذا عن *الكنافة*؟ ما رأيكم *بكنافتي*؟ توسلت يولاند، وهي تحدّث نفسها بأنه ينبغي في المستقبل إطعام الأطفال على حدة.

عصر ذات يومٍ من شهر آب، وخلال رحلة الأسرة إلى باريس،

استدعى أندريه أخاه ألكس إلى مدرسة اليسوعيين. كانت تلك أول مرة تطأ فيها قدما أكثر أخوالي شغباً ذلك المكان الملعون.

لم يكن الطلاّب يصعدون إلى الطابق الثالث حيث يقيم الآباء إلاّ في حالاتٍ استثنائية. أثناء تقدمه في الممر الصامت، شعر ألكس بوجلٍ يقارب ذاك الذي كان يشعر به أيام علامات الصفر والعقوبات. وتأكد مرتين من الاسم قبل أن يطرق الباب.

كانت غرفة أندريه، التي تضيئها نافذةٌ عريضة، واسعةً وعاريةً إلاّ من سريرٍ حديديٍّ يحاذيه مركع، تعلوهما أيقونةٌ بيزنطية باهتة الألوان، ورفوفٌ تنوء تحت ثقل الكتب. شعر بأنه على بعد عشرة آلاف كيلومترٍ من نادي ريزوتو.

دخل اليسوعيّ في صلب الموضوع على الفور:

ـ لقد بلغت الخامسة والثلاثين يا ألكس. العديد من الرجال ممن هم في سنّك قد أسسوا بيوتاً...

آه! هذا هو الأمر إذن! لاحت على وجهه ابتسامة، فحين كان في التاسعة عشرة من عمره، كان أندريه يحذره من الزواج المبكر. وهاهو الآن يعيب عليه أنه انتظر أكثر مما يجب.

ـ لا بدّ أنني غير طبيعي، قال وهو يضحك.

ـ لا، بالعكس، أنت ضمن المعايير المعتمدة حالياً، وهذا مايؤسفني. فالشبان السوريون يميلون اليوم إلى تأجيل زواجهم سنةً بعد سنة، حتى ليخال المرء بأنهم يتهربون من المسؤوليات وبأنه لم يعد لهم ثقةٌ بالمستقبل.

ـ ربما أتزوج من أجنبية...

ـ كلكم تريدون الزواج من أجنبيات!

ـ السوريات لا يثرن الاهتمام.

ـ بلى! إلاّ أنهنّ مختلفات عنكم وحسب. هنّ رومانسيات، وأنتم ماديّون جداً. هنّ يبدين أصغر من أعمارهنّ في حين أنكم شختم قبل الأوان...

كان ألكس يشعر بأنه فتيٌّ جداً. لم يكن يشغل باله إلاّ صلعٌ ناشئٌ ورثه عن آل توتة. لكن ألم يكن يقال في نادي البلياردو بأنّ الرجال الصلع يجذبون النساء وبأنّ قدراتهم الجنسية أقوى من قدرات أصحاب الشعر الكثيف؟

ـ لا تقلق، يا أندريه. إنني أتلقى عرض زواج كل شهر، غير الزيجات الجيدة التي تصرّ أمي على تأمينها لي. لا بدّ لي في النهاية من الزواج...

4

عندما كنت في التاسعة أو العاشرة من عمري، كان الأب أندريه يأتي أحياناً للعشاء عندنا في هليوبوليس. كان يترك الكبار في الصالون يتناولون المشروب المشهّي، ليصلّي صلاة المساء مع الأطفال. لكن قبل إطفاء النور، كنا، أنا وأخوتي، مضطرين لسماع حكايةٍ تحثّ على الورع ـ الحكاية نفسها دائماً ـ بطلها هو ماكسيموس مظلوم، أشهر بطاركة كنيستنا.

كان الأب أندريه الذي يرتدي جبّةً سوداء في الشتاء وبيضاء في الصيف، يجلس على طرف أحد أسرّتنا ويبدأ دائماً بسؤال:

ـ هل تعرفون متى انتخب مظلوم بطريركاً؟

كنا نجيب كيفما اتفق... فيصحح لنا.

ـ كان ذلك عام 1833. لم تكن كنيستنا الروم كاثوليك وقتها معترفاً بها بعدُ في الإمبراطورية العثمانية. وفي كلّ مرةٍ يريد أسلافنا أن يسجلوا ولادةً أو زواجاً، في كلّ مرةٍ يريدون فيها إتمام عملية ميراث، كان عليهم أن يتوجهوا إلى الكنيسة الأورثوذوكسية. وكانت تلك الكنيسة تذيقهم الأمرّين لأنهم اتفقوا مع البابا. بل إنّ البطرك الأورثوذوكسي في القسطنطينية طالب بمنع رهباننا من ارتداء *الكلوسة*... من يستطيع أن يصف لي *الكلوسة*؟

فنجيب جميعاً في الوقت نفسه، إذ كثيراً ما شاهدنا خوري

كنيستنا الروم كاثوليك يضع على رأسه تلك القبعة الأسطوانية السوداء المميزة لرجال الدين البيزنطيين.

- لقد أصبحت *الكلوسة* قضيةً تمس الدولة! فسفير روسيا في القسطنطينية كان يساند الأورثوذوكس، في حين كانت فرنسا تدعمنا. أما السلطان الذي حار بين القوتين العظميين، فلم يكن يتوقف عن إصدار الفرمانات المتناقضة. فتارةً، كان على رجال الدين الروم الكاثوليك أن يغيروا غطاء رأسهم، وتارةً أخرى يطلب منهم ببساطة أن يتبنّوا اللون البنفسجي، أو *كلوسةً* بأربع زوايا...

ويمرّ الأب أندريه عَرَضاً على تفاصيل تلك المعركة الدبلوماسية المعقدة جداً بالنسبة لنا، فلا يقف إلاّ عند بعض الصور البارزة:

- ذات يوم، اقترح الأورثوذوكس الذين كانوا يريدون إذلالنا بأيّ ثمن أن يرتدي رهباننا عمرةً جديدة على شكل مخروطٍ أو هرم.

- هرم!

- بلى! تخيلوا قليلاً: هرمٌ على رؤوس أساقفتنا... لكن البطرك مظلوم لم يكن ممن يستسلمون بسهولة. فبعد أن فاض به الكيل، سافر إلى القسطنطينية لكي ينال ما يريده. ولكن مقابلة السلطان لم تكن سهلة، إذ كان يحول دونها الوزير الأول، المقرّب من الأورثوذوكس. فاستخدم مظلوم حينذاك أشدّ الوسائل تأثيراً، حيث وقف في يوم جمعة على طريق مرور السلطان بصحبة اثنين من رهبانه يضعون مثله *الكلوسة* على رؤوسهم، حاملين لافتةً مثبتةً على عصا. أوقف العاهل الموكب مستفهماً، فأعطاه مظلوم رسالةً يشرح فيها مطالبه. ولدى عودته إلى القصر، أمر السلطان الوزيرَ الأول باستقبال بطركنا. وحين ذهب مظلوم إلى القصر، أشار الوزير الأول بإصبعه إلى طاولةٍ صغيرة سداسية الشكل مطعّمة بالصدَف وقال: «هل توافق على عمرةٍ بهذا الشكل؟»، فوافق مظلوم. وهكذا أصبح لرجال الدين في كنيستنا، ولفترةٍ طويلة، *كلوسة* بنفسجية اللون ذات ستة أضلاع، بدلاً من الدائرية التي يضعها الأورثوذوكس...

هنا تنتهي القصة، ونبدأ بطرح أسئلةٍ مختلفة لتأخير إطفاء النور. ويتظاهر الأب أندريه بالنظر إلى ساعته لكنه يعود للجلوس مرةً أخرى.

ـ في العام 1848، احفظوا جيداً هذا التاريخ، منحنا السلطان أخيراً، نحن الروم الكاثوليك، الميزات الممنوحة للأورثوذوكس نفسها، فأصبح بإمكان بطركنا أن يحكم طائفته في كافة أرجاء الإمبراطورية العثمانية، وأن ينشئ المحاكم، ويحصّل الضرائب... لقد ربح. عاد مظلوم إلى حلب عودة المنتصر. إلاّ أنّ ذلك لم يرُق لأهل المدينة. وذات ليلة، نُهبت بيوتنا في حيٍّ بأكمله. واضطر بطركنا للتنكر بزي امرأة كيلا يعرفه أحد، واضعاً على رأسه حجاباً.

ـ حجاباً! مثل الخادمة؟

ـ نعم! لكنه اضطر للتنكر ثانيةً بزيّ جنرال أوروبي بقبّعةٍ مقرّنة للذهاب إلى أنطاكية.

ـ كان الأمر يستحق النضال كل تلك السنوات من أجل *الكلوسة* ياخالي أندريه...

في بعض الأحيان، كنا نتمكن من انتزاع فقرةٍ أخيرة من الراوي، تلك التي تتعلق بموت ماكسيموس في الإسكندرية. كان موتاً ملحمياً، تلا عذاباتٍ رهيبة، لم يستطع العلق الذي وضعه الحلاّق له أن يخففها...

ـ صلّى بطركنا بشجاعة إلى أن ناداه المولى إلى جواره. عُطّر جسده وأُلبس حلّته الكهنوتية كاملةً ثم وُضع على عرش. وهكذا، استطاع الناس، رغم الحرارة الشديدة، أن يمرّوا أمامه طوال أربعة أيام ليلقوا عليه نظرة الوداع. وبما أنّ كنيسة الروم الكاثوليك كانت صغيرة، فقد تمّت مراسم الدفن المهيبة في كنيسة اللاتين. لكن الجثمان نُقل بعد ذلك إلى القاهرة عبر سكة الحديد التي كانت قد دُشنت لتوها، حيث أُقيمت له مراسم جنّازٍ من جديد، ثمّ دُفن خلف مذبح كنيسة درب الجنينة، وهي إحدى الكنائس الأربع والعشرين

التي عمل على بنائها هذا الرجل العظيم، هذا العملاق، أول «بطرك للإسكندرية وإنطاكية والقدس وسائر المشرق».

فكنا نردد معاً بصوتٍ خفيض: «للإسكندرية وإنطاكية والقدس وسائر المشرق». ثم يقبّلنا الأب أندريه على جباهنا، فنشعر بوخز لحيته؛ وبعد ذلك يطفئ النور ويغلق الباب بهدوء. ونسمع صرير حذائه المصنوع من الكريب في الممر أثناء عودته إلى الصالون...

5

- أرجوك أن تقبلي مني هذا المصباح هديةً. إنه مصباحٌ قديمٌ لمسجد...

أصرّ إدوار ديلليم بلطفٍ شديد دفع ميما يارد أخيراً إلى الموافقة.

لقد بعثت تلك الزيارة إلى المتجر الكائن في شارع سليمان باشا الدوار في رأسها. فقد ترك إدوار أحد الموظفين يهتمّ بالزبائن، وكرّس لها ساعتين كاملتين، وبشغفٍ، قدّم لها شروحاتٍ مفصلة عن كل الأشياء المعروضة. كان المتجر متحفاً حقيقياً صغيراً مقسّماً إلى أجنحة: مصر القديمة، الحقبة الإسلامية، الفنّ القبطي... حصل الفرنسي على كنوزه واحداً واحداً من متاجر القاهرة القديمة، أو خلال طوافه المتكرر في الصعيد وفي أديرة وادي النطرون.

- سوف أصطحبك لشرب الشاي في غروبّي، قال لها بعد ساعتين. لا ترفضي. لا بدّ أنني قد أتعبتك...

طلب إدوار جبلاً من قطع الحلوى، وبدت جدّتي، رغم بلوغها السادسة والأربعين من العمر، كفتاةٍ تخرج للمرة الأولى. تكلما عن فيفيان وسليم، وعن روجيه بالطبع، وكذلك عن آل بطركاني.

- تصوري أن جورج قد وضع في رأسه فكرة تعليمي اللغة العربية...

تملّكتها نوبةٌ من الضحك حين حكى لها ديلليم كيف كان إدمون

توتة يذهب إلى السينما بمفرده ويحجز دائماً أربعة أماكن إضافية ـ مكاناً من كلّ جانب ومكاناً أمامه وآخر وراءه ـ كيلا يخنقه الحشد.

وفي الأسبوع التالي، تناولا طعام الغداء سويةً في غروبّي.

ـ أنا أفكر بك منذ عشر سنوات، همس إدوار قائلاً لها.

ـ لا تتفوه بكلامٍ فارغ!

ـ خلال عشر سنوات، أتيح لي الوقت الكافي للتفكير. ليس لديّ سوى حلمٍ واحد يا ميما: أن تصبحي زوجتي.

بدت في عينيها نظرةٌ هلعة.

ـ قد تجدينني عجوزاً... صحيح، فلي من العمر ثلاثة وخمسون عاماً.

ـ لا تتفوه بحماقات! أنا لست عازبة ولديّ أولاد.

ـ أنا أيضاً كنت متزوجاً. لا أحد يرتدي الحداد طوال العمر.

فتقوقعت على نفسها متوسّلةً إليه أن يغير الموضوع.

التقيا غير مرة في وجبات غداء يوم الأحد عند آل بطركاني، أو لتناول الشاي عند غروبّي. لكنها لم توافق أبداً على الذهاب إلى شقته في الزمالك.

ـ هذا لا يجوز...

لم يعد إدوار يجرؤ على مفاتحتها بحديث الزواج. وكان يحرّم على نفسه أدنى حركةٍ عاطفية، خشية إفساد كل شيء. لقد اكتفى بلعب دور الصديق، ذلك الدور الذي كان يشعره بأقصى أشكال الحرمان.

6

كنت في الثانية من عمري عندما انتشر وباء الكوليرا عام 1947. وقد تحصّن جميع أفراد العائلة، وكانت جميع الخضار والفواكه تعقّم. بل إنّ يولاند أمرت الطبّاخ بغسل اللحم بالماء والصابون...

جعلت الكوليرا إدمون توتة في حالة غليان. هاهو أخيراً نبأٌ حسنٌ على الجبهة الديموغرافية! ألم يتضاعف عدد سكان مصر خلال خمسين عاماً وأصبح يناهز تسعة عشر مليوناً؟ إلاّ أنّ مصر غير الواعية تلك كانت مصرةً على تجنب الحروب العالمية كافة. ولم يكن يكفيها للخروج من ذلك المأزق بعض كوارث القطارات أو بعض حوادث الغرق في النيل. وحده وباءٌ جيد قادرٌ على إحداث النزف الضروري.

ـ هل تعلمون بأنّ ثلث سكان القاهرة قضوا بالكوليرا عام 1834؟ قال إدمون توتة بلهجة النهم لمثل تلك الأخبار.

كان جورج بيه يستمع بشرودٍ إلى تخريفات شقيق زوجته. فقد كان يحدّث نفسه بأنّ السماء أرادت أن تعاقبه على أنّه أخذ ابنتين من آل توتة، فألصقت به كذلك الصبيين: إدمون المخبول هذا وهنري الخامل الذي أصبح مساهماً في المعمل بعد انسحاب إدوار ديلليم. لقد انتهى تمثيل هنري لدولة بيرو وأصبح قنصلاً لكوستاريكا، ودائماً في العنوان نفسه...

ـ تجتاح الكوليرا مصر كل حوالى ثلاثين عاماً، لاحظ ميشيل. فهناك وباء 1834، ثم وباء 1865، ثم وباء 1883...

ـ لقد عرفت ذاك الوباء، قال جورج بيه بشرود. أو بالأحرى، سمعت عنه الكثير. لكن أخي فرديدنان كان يتذكره جيداً...

في تلك الحقبة، كان ناندو البدين طالباً في إعدادية خرنفش. وكان لديه كافة الأسباب التي تجعله يكره يوم الجمعة، إذ إنّ الطعام فيه يخلو من اللحم والدسم، وحصة الصلوات مضاعفة: فبالإضافة إلى القداس الصباحي، كان هناك أيضاً تحية القربان المقدس التي تقام في كنيسة المدرسة بعد الظهر. وبهذه الصورة، كان رهبان المدارس المسيحية يحيون ذكرى وباء الكوليرا عام 1865 الذي أبدوا خلاله همّةً لافتة، باذلين في الإسعاف والتعميد كلّ ما أوتوا من قدرة. تجلّت المعجزة في أنّ أياً من الرهبان لم يصب بالعدوى في ذلك العام، وعُزيت تلك الحماية الرائعة إلى قلب يسوع الأقدس. أرسل نابليون الثالث ميدالية شرف وضعت كنذرٍ في الكنيسة، وأصبحت صلاة تحية القربان المقدس تقام هناك منذ ذلك الحين كلّ يوم جمعة.

انتهى الأمر بناندو بطركاني إلى اكتشاف طَعم في رحلات التقوى تلك، إذ إنها كانت تسمح له بأن يحلم بمآثر أولئك الأخوة الأعزاء جداً وبأن يتماهى مع أولئك الأبطال ذوي الأسماء الغريبة: إيدوفونسوس، سيبريان ـ بيير، باتيستان ـ أونوراه...

حين انتشرت الكوليرا في دمياط في حزيران 1883، قفز ناندو الذي كان في الثالثة عشرة من عمره فرحاً، إذ بدا له بأنّ موعده مع التاريخ قد تحدد؛ بدأ يتخيّل نفسه مسعِفاً يتحدى الموت، يجترح المعجزات، ثمّ يقلَّد بالأوسمة. إلاّ أنّ والده كان يقلقه بتأكيداته الجازمة:

ـ لن تصل الكوليرا إلى القاهرة، كان الياس يصرّ. ففي العام 1865، اختفى الذباب والبعوض وصمتت البلابل لإحساسها بقدوم الخطر، وامتلأت السماء بضباب رمادي. حتّى أنّ الناس كانوا يجدون أحياناً صعوبةً في التنفس. أمّا الآن، فانظروا، لم يكن هناك يوماً مثل هذا العدد من الذباب والبعوض، كما أنّ البلابل تصدح، والسماء لازوردية...

تمّ تأكيد هذا التكهّن ثانيةً في الرابع عشر من تموز. وفي الخامس عشر منه، سجّلت أول ثلاث حالات كوليرا مميتة في القاهرة، وثلاثٌ أخرى في اليوم التالي، وستٌ وأربعون في اليوم الذي تلاه، ثم تسعٌ وستون، واستمرّ منحنى الحالات في التصاعد... إلاّ أنّ السماء كانت ماتزال لازوردية ولم تكفّ البلابل عن الغناء.

أعلن الياس النفير العام، ففرح ابنه وعاد إليه التفاؤل. بدأ الوباء من الجيزة وبولاق، وانتشر إلى الأحياء الأخرى. بل بدا وكأنّه وصل إلى عمارة آل بطركاني الصغيرة: فقد سرت فيها إشاعةٌ مفادها أنّ المستأجر الأرمني الذي يحتل الطابق الأسفل يعاني من إسهالات.

ـ إذا اقتصر الأمر على الإسهال وحده، فلا بأس، قال الياس برزانة. لكن إذا ترافق مع التقيؤ، فهي الكوليرا.

أضحوا يراقبون الأصوات المشبوهة، وكُلّف الخادم الصغير بالتنصت على بيت الأرمني الذي لم يكن لديه إسهال أو إقياء، إلاّ أنّ صوته انطفأ وامتقع لونه. وأودت به كوليرا جافة بعد ثمانٍ وأربعين ساعة، دون أن تترك لناندو فرصة التدخل.

في اليوم نفسه، حضر شخصان كئيبا الوجه يحملان سطولاً من الماء المطهّر ورشّا به الميت، ثم أخذاه في تابوتٍ أُحكم إغلاقه بالقطران. ومن خلف النافذة، رأى ناندو عربة الموتى التي يجرها حصانٌ أسود اللون تختفي بسرعةٍ عند زاوية الطريق. كان ذلك أول ميت بالنسبة له، وقد أفلت منه.

أمر الإنكليز بإغلاق المدبغة الكبيرة وبتطهير المراحيض العامة في المساجد، وأُشعلت النيران ليلاً لتنقية الجو. ولتجنب بثّ الذعر بين السكان، تمّ تحديد مساراتٍ خاصة للجنازات العديدة. وبلغ من حماس بعض الموظفين المصريين أن أضرموا، مساء أحد الأيام، النار في مئاتٍ من أكواخ بولاق بعد أن طردوا سكانها منها. واقتيد الرجال والنساء والأطفال والحمير والماعز والدواجن خارج

المدينة في منتصف الليل تحت حراسةٍ مشددة. إلاّ أنّ العديد منهم هربوا ولم يُعثر لهم على أثر...

أما في الدلتا، فعمّت الفوضى. وصلت إلى آل بطركاني أخبارٌ مقلقة من دمياط التي كان يقطنها في ذلك الحين أكثر من ألف سوري من أصل مجموع سكانها البالغ خمسةً وثلاثين ألفاً. وتمكن أحد أبناء عم الياس من عبور الطوق الصحي المضروب حول المدينة، حيث استقلّ القطار إلى القاهرة، وفاجأهم بدعوة نفسه إلى منزلهم في أول يوم أحدٍ من شهر آب.

ـ لا أريده أن يدخل! زعقت ليندا بطركاني من المطبخ الذي انزوت فيه.

عبر باب البيت، أخذ الياس يتحدث مع ابن عمه الذي أقسم بحياة زوجته بأنّ طبيباً قد فحصه في اليوم نفسه وأكد له بأنه غير مصاب. لكنهم كانوا يعرفون زوجته، فارتابوا بالأمر.

ـ احلف بأولادك.

فتح الباب أخيراً وانهالت على الضيف كل عبارات الترحيب التقليدية.

ـ *أهلاً وسهلاً*! اشتقنا لك. أين أنت *يا أخي*؟ لم نعد نراك...

وحين انتقلوا إلى مائدة الطعام، تطرق الحديث بالطبع إلى الكوليرا.

ـ مرحى للإنكليز! هتف ابن العم. لقد أدخلوا الكوليرا إلى مصر بإلغائهم الحجر الصحي على مراكبهم القادمة من الهند.

ـ إنه اتهامٌ لم يثبته أحد، أجاب الياس الذي كان يدافع بشكلٍ دائم عن ألبيون المخادعة؛ لقد كانت البلد مصابةً منذ بضعة أشهر، وانتشرت الكوليرا ببطءٍ دون أن يعرف ذلك أحد.

ـ على أي حال، فإنّ كل الظروف في دمياط مواتية لتسهيل تفشّي الوباء. فبالقرب من الحي اليهودي، هناك بئر كبيرة مليئة بالمواد البرازية تنظّف بوساطة آلةٍ رافعة، ويسيل البراز في أقنيةٍ

مكشوفة، ومنها إلى مجارير الحمامات العامة التي تصب بدورها في النهر. ومن أين يحصل السكان على الماء من فضلكم؟

ـ حسناً، قالت ليندا لتغيّر هذا الحديث المثير للاشمئزاز، سأسكب لكم *الملوخية*.

تابع ابن العم وفمه ملآن، والفوطة معقودةٌ حول عنقه:

ـ عدا الماء الملوث، ينبغي الحديث كذلك عن اللحوم الملوثة. ففي قريةٍ مجاورة لدمياط، يأكل الناس الثيران التي ماتت بالتيفوس منذ فترةٍ من الزمن. يباع هذا اللحم بقرشين *للأوقية* عوضاً عن اثني عشر قرشاً... هل تعرفين يا ليندا بأنّ *ملوخيتك* رائعة؟ أحلف بحياة زوجتي أنني لم أذق في حياتي ألذّ منها.

اختنق الياس.

ـ في دمياط، تابع الضيف، مايزال المسلمون يدفنون أقاربهم وسط الأحياء السكنية، ولا أحد يتجرأ على سكب ماء الكلس المطهّر عليهم خشية أن يفقدوا شعر رأسهم، ويتعذر بالتالي رفعهم إلى الجنة. ويفضّل الموظفون المكلفون بختم القبور بالجصّ أن يبيعوه، متسائلين عن جدوى ذلك الإجراء طالما أنّ القبور سوف تفتح من جديد في النهار ذاته لوضع جثثٍ أخرى فيها. وقد مُنع الدخول إلى مقبرة العرب، إلاّ أنّ الجنود يسمحون للناس الراغبين بالصلاة على أمواتهم بالدخول مقابل قرش واحد، بل نصف قرش أحياناً، أو مجرّد رغيف خبز بالسمسم.

كان ابن العم يسكب ثانيةً في صحنه الرز والمرق والبصل والدجاج وهو يتجرع العرق المكثف. شعر ناندو بالغثيان، فترك الطاولة مسرعاً وخرج ليتقيأ كل ما أكله... في ذلك اليوم من شهر آب 1883، تخلّى نهائياً عن الكوليرا: سوف يدخل التاريخ بطريقةٍ أخرى.

7

أُعلن بأنّ الطائرة سوف تتأخر لمدة ساعة، فعاد رئيسا المجلس اللبناني والسوري إلى قاعة الشرف، في حين تابع أعيان جالية الروم كاثوليك الثرثرة على شرفة مطار ألماظة الصغير، بمواجهة الصحراء.

كان جورج بطركاني يغلي من الداخل، إذ تذكّر موعد العمل الذي توجب عليه إلغاؤه ليشارك في هذا الاستقبال. إلاّ أنّ وصول بطركٍ جديد إلى مصر سمح له على الأقل بالمرور على أندريه في المدرسة واصطحابه معه ومرافقته على الطريق لثلاثة أرباع الساعة - الأمر الذي كان نادراً ما يحصل، كي يتمكّن ابنه البكر من تقدير مزايا سيارته السيتروين الجديدة ذات الخمسة عشر حصاناً والتي تعمل بدفعٍ أمامي - إنها تحفةٌ حقيقية.

على الشرفة، كان رجل دينٍ من الإسكندرية ثرثار ومرح يساعد أولئك السادة على تزجية الوقت.

- هل تعلمون بأنّ بطركنا الأكبر ماكسيموس مظلوم - السلام على روحه! - هو الذي دخل مصر قبل قرن؟ تصوروا، لقد وصل على صهوة حصان، بعد توقّفٍ في عكا ويافا. وبما أنّه جاء في شهر رمضان، فلم يتمكن من دخول القاهرة إلاّ عند حلول الليل. ينبغي القول بأنّ ذلك كان عام 1836، حين لم يكن لكنيستنا وجودٌ مدني...

أحضرت بعض الكراسي وأتى نادلٌ ليسجّل طلباتهم من

المشروبات. لم يجد جورج بيه بداً من الجلوس قرب رجل الدين.

ـ أمضى مظلوم ثلاث سنوات في القاهرة لينظّم أحوال الجالية الموجودة في مصر، ولبناء عددٍ من الكنائس. كان يتهيأ للعودة إلى سوريا حين اندلعت فيها الثورة ضد الجيش المصري، فأصبح في موقفٍ حرج. ضع نفسك مكانه يا سيد بطركاني: فمن جهة، لم يكن بإمكانه أن يتخلى عن محمد علي الذي قدّم الكثير للروم الكاثوليك، والذي تقع الجالية الموجودة في مصر تحت رحمته على أي حال. ومن جهةٍ أخرى، لم يكن بإمكانه أن ينحاز إلى محمد علي ضد السلطان، إذ أنّ ذلك يعني تعريض كافة الرعايا *الملكيين* الآخرين في الإمبراطورية لأخطارٍ جسيمة.

ـ بالفعل...

ـ اختار بطركنا بحكمةٍ أن يبتعد عن ساحة المعركة: فقد ذهب ليعيش بصورةٍ مؤقتة في روما وباريس ومارسيليا.

قال نقيبٌ سابق للمحامين في المحاكم المختلطة:

ـ نسيتَ أن تقول يا أبتِ إنه قام في تلك الأثناء بحلّ مسألة لباس الرأس.

ـ لا! لم يربح معركة *الكلوسة* إلاّ بعد ذلك بعدة أعوام. هذه حكايةٌ أخرى... وبالمناسبة، ألا تصنّع *كلوساتٍ* أيضاً يا سيد بطركاني؟

ـ لا، *أبونا*، قال جدي وهو يضحك. ليس *للكلوسة* علاقة بالطربوش رغم شكلها الاسطواني. ثم إننا لن نجد ما يكفي من الزبائن...

ـ للأسف، يا سيد بطركاني، للأسف! لا يمكن القول بأنّ العائلات الروم كاثوليك تتنازع لتقديم الرهبان إلى كنيستنا. أنا لا أتكلم عنك بالطبع...

بدأ جورج بطركاني يجد هذا الإكليروسي مزعجاً نوعاً ما. لم يبق سوى أن يربّت على ظهره من أجل أعمال الخير التي يقوم بها

أو أن يقحم نفسه في سيارته لرحلة العودة... فاعتذر متذرّعاً بحاجةٍ طارئة.

ـ اذهب إلى حيث يناديك الواجب! قال الخوري، الذي يهوى التعابير المفخمة، بصوتٍ رنان.

ذهب جدي ليسلّم على بعض الناس في قاعة الشرف. وحين عاد إلى الشرفة، كان المتجمعون مهتاجين، وبعض الأصابع تشير إلى نقطةٍ بالغة الصغر في السماء. ظهرت الطائرة أخيراً، وحيّتها الصيحات...

في الحقيقة، لم يكن البطرك الجديد شاباً تماماً: فقد احتفل ماكسيموس صائغ بعيد ميلاده السبعين قبل مجيئه إلى مصر بوقتٍ قصير. وفي السيارة، ذكر أندريه لأبيه كلّ ما يعرفه عن حسنات ذلك الوافد الجديد:

ـ إنه رجلٌ استثنائي، من طينة «مظلوم». وقد برهن على ذلك أثناء توليه منصب رئيس أساقفة صور، ثم بيروت. تتمثّل مأثرته الكبرى في أنّه عاش حياته فقيراً.

ـ الفقر، الفقر! هتف جورج بيه. ليس لديك كلمة سواها!

ـ نعم، يا بابا، يجب أن تكون الكنيسة فقيرة، على صورة المسيح.

ـ ليس كثيراً، *يا ابني*، ليس كثيراً.

ـ لم أستطع أن أفهم أبداً لماذا توجد كل تلك الكميات من الذهب والمرمر في كنائسنا، تابع أندريه، خاصةً وأننا لسنا سوى جاليةٍ صغيرة.

ـ أنت لم تفهم شيئاً، *يا ابني*. فلأننا صغار، يجب أن نبدو كباراً.

وذكر له بالعربية أحد أمثاله المفضلة:

ـ حين يكون كلبٌ ما ثرياً، فإنه يُدعى «السيد الكلب».

رفع أندريه عينيه نحو السماء.

بعد أن حيّا ماكسيموس الرابع الشخصيات الموجودة وسمح للأعيان من الروم الكاثوليك أن يقبّلوا خاتمه البطريركي، اتخذ طريق القاهرة، متبوعاً بموكبٍ مؤلّفٍ من عدة عشراتٍ من السيارات. أقلّت سيارة جدي السيتروين أندريه والخوري القادم من الإسكندرية.

ـ هل تريد أن أوصلك إلى مكانٍ ما، *أبونا* ؟

ـ لا أريد أن أزعجكما! سوف أذهب معكما إلى الكاتدرائية.

ـ لكن البطرك سوف يقوم أولاً بزيارةٍ إلى القصر...

ـ لا بأس! سأرافقكما إلى القصر.

استقبل عبد اللطيف طلعت باشا، كبير أمناء القصر الذي خلَف ذا الفقار، البطرك ماكسيموس الرابع، وسلّمه مرسومين بتوقيع الملك فاروق: الأول يسميه بطركاً للروم الكاثوليك في مصر، ويمنحه الثاني الجنسية المصرية.

حين وصلت سيارة ماكسيموس الرابع إلى الكاتدرائية، كانت أجراسها تقرع بشدة، وكان بانتظار البطرك محافظ القاهرة والعديد من أعضاء السلك الدبلوماسي. ومن أعالي المنصات، أطلقت فتيات مدرسة القديسة تقلا الحمائم البيضاء، في حين كانت الجوقة تنشد *Theos Kyrios* .

ـ المادية الملحدة تهدد الشرق، قال البطرك الجديد، وتتمثّل مهمتنا الأساسية في التصدي لهذا الخطر. علينا أن نتحرك، لا بروح الحرب والقتال كما يفعل عدوّنا، بل بروح السلام والوحدة والمحبة.

ـ ألم أقل لك بأنه رجلٌ صالح؟ همس أندريه لأبيه.

تابع البطرك خطابه، موجهاً التحية إلى: «محبوبنا الملك فاروق الأول الذي تدلّنا نصائحه القويمة على الطريق الواجب اتباعه».

ـ أيّة نصائح؟ قال جورج بيه لابنه هامساً، نصائح في قيادة السيارات أم في لعبة البوكر؟

8

يبدو لي عام 1949 نهاية عالم. وتتخلل دفتر ميشيل الثامن الذي يغطي هذه الفترة ملاحظاتٌ مريرة وأحداثٌ صغيرة مقلقة. إلاّ أنني أحتفظ على الأقل بصورةٍ جميلة بتاريخ آذار 1949، حين كان عمري أربع سنواتٍ ونصف، وأبدو فيها جالساً على غطاء أول سيارةٍ امتلكها أبي، وهي سيارة توبولينو، ويقف رشيد قرب باب السيارة، بشعره الأبيض الذي يبرز سواد بشرته، وبابتسامةٍ متعَبة تخفي الندبة في وجهه. إنها إحدى الصور النادرة التي يبدو فيها سفرجي أهل أمي، وربما كانت الأخيرة. وقد وضعتها بين صفحتين من دفتر مذكرات ميشيل:

10 نيسان 1949

مات رشيد ليلة الجمعة ـ السبت بهدوء، مثلما عاش بهدوء. لقد تأثرنا جميعاً.

ماأزال أراه حتى الآن في ساحة الأوبرا عام 1917، يوم جنازة السلطان. كانت إحدى عينيه عليّ، والأخرى على زكي الذي أقلقه هيجانه. ولم يقل رشيد شيئاً في اليوم التالي حين طرد أبي السائس. أعتقد بأنه ارتاح لهذا التصرف.

هل كان سيتصرف بالطريقة ذاتها لو أنّ الأمر حصل بعد عامين؟ لقد جعله موت أخيه يكره الإنكليز، رغم أنّ أحداً لم يستطع

أن يعرف كيف مات ذلك الشاب الذي كان أبي يعتبره محرّضاً خطيراً.

بعد ظهر يوم الأحد، كنا جميعاً في الصالون حين رنّ جرس الباب. ولأنّ السفرجي الجديد لم يكن يعرف تقاليد البيت، فقد أدخل الزائر إلينا مباشرة. ربما كان قد تأثر ببدلته العسكرية. وهكذا، وجد ابن أخ رشيد نفسه وجهاً لوجه مع كل الأسرة. كان وجهه عابساً، كما لو أنه يؤاخذنا على أننا نثرثر أثناء المأتم.

وبينما كان أبي ينهض ليأخذه إلى المكتب، استدار حسن ذاك نحو فيفيان ونظر إليها نظرةً غريبة؛ لا بدّ أنّ سليماً انزعج بمقدار ما انزعجت أنا.

بعد حوالى عشر دقائق، عاد أبي إلى الصالون معكّر المزاج. «لقد بدأ قليل الأدب هذا بمطالبتي بكافة أغراض عمه، كما لو كنت سأحتفظ بجلابيات رشيد! إنه يكرهنا على ما يبدو. هاهو شخصٌ آخر لم يستطع أن يهضم حرب فلسطين! حين أتذكر بأنني تدخلت لصالحه بطلبٍ من رشيد منذ حوالى عشر سنوات لتسهيل دخوله إلى الكلية العسكريّة؟...»

شيئاً فشيئاً، استرخى والدي. وحكى لنا كيف وظّف رشيداً عام 1906 في قصةٍ تتعلّق بالشموع، بعد أن ضُرب بالسوط على وجهه، وكيف ظلّ الجرح ينزّ أسبوعاً كاملاً والخادمة تضع له ورق العنب على خده... لا يملّ أولاد بول أبداً من سماع هذه القصة المكررة مئة مرة. مسكين رشيد!

23 نيسان 1949

لقد كان لحرب فلسطين تلك آثار مدمرة. إذ لم يعد التجار اليهود في القاهرة ينامون منذ الانفجارات الدامية في محلاّت غاتّينو وبنزيون ودافيد عدس.

قال لي فكتور ليفي إنّ بعض العائلات من حوله تفكر في ترك البلاد. إلاّ أنّ الضيق يتجاوز الجالية اليهودية. فذات نهار، حضر نينو إلى المنزل وهو يرتجف من الغيظ ـ وربما أيضاً من الخوف ـ

فقد نُعت في الشارع «بالصهيوني» لأنّ شعره كستنائي اللون. كان نينو جدياً تماماً عندما تحدث عن الاستقرار في أوروبا! الجميع ينعتونه بالخبل، ووحده بول يقف إلى جانبه.

ليس نينو الذي يتحدث عنه ميشيل سوى أنطوان توتة، «ابن الخال الذي يعيش في أمريكا». ويشاع بأنّ النمش الذي يغطي وجهه أثار الأقاويل عند ولادته...ربما كان نينو يفكر في الرحيل إلى أوروبا عندما كتب ميشيل هذه السطور، إلاّ أنه استقرّ في نهاية المطاف في البرازيل اعتباراً من حزيران 1950، حيث انتخب حاكماً لمدينة ماتو غروسّو بعد ذلك بعشرين عاماً.

ـ هاهو ذا شخصٌ يمتلك حاسة شمٍّ قوية(*)!

حين كنت طفلاً، كنت أتخيل أنطوان توتة ذاك بأنفٍ عملاقٍ مغطّى بالنمش...

(*) المقصود هنا أنه كان بعيد النظر. م.

9

في مطلع الخمسينات، لم يعد مكتب ساحة الأوبرا يشبه في شيءٍ ذاك الذي عرفه إدوار ديلليم أثناء الحرب العالمية الأولى. فقد توسّع جورج بطركاني تدريجياً وأصبح الآن يشغل المبنى بأكمله، عدا فرع الإسكندرية ومصنع الطرابيش في شبرا.

وإذا ظلّت المستحضرات الصيدلانية دعامة عمل جدي التجاري، إلاّ أنّه أصبح كذلك ممثلاً لعدة ماركاتٍ أجنبية تشمل الآلات والساعات، وكذلك العطور والبياضات والدانتيل. وكان يستقبل في القاهرة أرباب هذه الشركات الأوروبية استقبالاً ملكياً، وينظم على شرفهم حفلات عشاءٍ ضخمة وزيارات إلى الأهرامات. وقد كان هناك مقصورةٌ محجوزة باسمه باستمرارٍ في الأوبرا.

أصبح لديه حوالى ستين موظفاً، بينهم أربعة مدراء مبيعات: سوريان ويهوديٌ وأرمني. أما المحاسبون الذين يعملون بإشرافٍ خارجي من مكرم، فكلهم من الأقباط، باستثناء أبي.

احتفظ بول في المبنى بمكتب المحاماة، لكنه كان يعمل بصورةٍ شبه كاملة لصالح أبيه بعد إلغاء المحاكم المختلطة، حيث أخذ يهتمّ بالشؤون القانونية وبالعلاقات مع الشركات الأجنبية، وأصبح يسافر بمعدل مرتين سنوياً إلى أوروبا بعد أن توقف جورج بيه عن ذلك. غدا أكثر أناقةً منه في أيّ وقتٍ مضى، فقد كان يشتري ملابسه وأحذيته من أفضل مخازن لندن أو ميلانو.

أما ألكس، فقد عينّ في مصنع الطرابيش حيث لم يكن أحدٌ، باستثناء والده، يعرف طبيعة عمله؛ وهو لم يكن ـ على ما يبدو ـ يفعل شيئاً يُذكر. إلاّ أنّ ذلك الوضع كان يسمح لأبيه بمنحه راتباً فلا يبقى عالةً عليه. وأمام دهشة الجميع، تزوج هذا النكرة زواجاً رائعاً في العام 1948 من إحدى فتيات آل كرم، وكانت العروس جميلةً علاوةً على ذلك.

كان مصنع شبرا يعمل بصورةٍ ممتازة، إذ لم يعد هناك منافسةٌ خارجية منذ نهاية الحرب، وكانت كل الطرابيش التي بلغ عددها 750.000 عام 1950 من صنعٍ محليّ، ثلثاها من إنتاج مصنع جورج بيه. وفي العديد من المخازن، لم يعد الزبائن يطلبون طربوشاً، بل «بطركانياً».

منذ أعوام، أصبح الجيش والشرطة يتزودان بالطرابيش من مصنع شبرا. لم يكن جدي يفوّت عرضاً عسكرياً واحداً: فمن برج كلّ دبابة يبرز طربوشٌ مِن صنعه. فيما بعد، رفضت قيادة أركان الجيش أن يكون على رؤوس جنودها غطاء رأسٍ بارزٌ كهذا، فأصبح من الضروري إعمال المخيّلة: وسبق جورج بيه جميع منافسيه حين غطّى طرابيشه بقطعة قماشٍ كتانيّة خاكيّة اللون، وزودها بواقيةٍ للوجه وأخرى لقفا العنق...

في حزيران 1951، كرست مجلة روز *اليوسف* صفحتين لنجاح معمل شبرا، وتصدر المقالة عنوان جميل: «طربوش بيه». كان جدي في غاية السرور.

لكن مقالةً أخرى مضادة نُشرت في الأسبوع التالي في مجلةٍ أخرى تصدر باللغة العربية: فقد أعرب كاتب المقالة عن دهشته لأنّ مثل ذلك العنصر الهام في اللباس «ينتج على يد أجنبيٍ، لا بل غير مسلم». فقد جورج صوابه وأرسل إلى تلك المجلة رسالةً غاضبة من خمس صفحات، تتضمن رقم جواز سفره المصري وصورةً عن قرار الملك فؤاد بمنحه لقب بيه من الدرجة الأولى «للخدمات الاستثنائية التي قدمها للصناعة المحلية». إلاّ أنّ الرسالة لم تُنشر أبداً.

10

دعا إدوار ديلليم على الغداء في الشيبرد مسؤولاً عن الجناح المصري في متحف اللوفر كان يمر بمصر. فقد كان إدوار يخصص أيام السبت لمثل هذه اللقاءات شبه المهنية في مكانٍ يستهويه. ورغم أنه يمتلك شقةً جميلة في الزمالك تطل على النيل، إلاّ أنّ ابن مدينة ليلّ ذاك ترك قلبه في الشيبرد حيث كان يحلّ منذ العام 1916. كان العاملون في الفندق يخصّونه بالعناية، آخذين بعين الاعتبار سنوات أقدميته.

عند دخوله في حوالى الثانية عشرة والنصف، ذهب كالعادة إلى مكتب المدير ليحيّيه، فمدّ ذاك يده بسجلّين ذهبيين للفندق كان يتهيأ لوضعهما في الصندوق الحديدي وقال:

ـ انظر من كان عندنا هذا الأسبوع!

أطلق إدوار صيحة إعجاب، ثم أخذ يتصفح ذلك المجلّد الذي لاأسرار فيه بالنسبة له. إلاّ أنّه كان يفضل الجزء الأول، ذا الغلاف القديم المهترئ، المليء بتواقيع شخصياتٍ أسطورية، كتيوفيل غوتييه الذي حضر إلى مصر ليشهد افتتاح قناة السويس لكنه اضطر للمرابطة على سطيحة الشيبرد بسبب كسرٍ سخيفٍ في ساقه، أو ستانلي الذي كان في طريقه لاستكشاف أفريقيا السوداء مجدداً واستفاد من تلك الاستراحة ليخطّ كتابه الشهير «مذكرات أمين باشا»...

بعد بضع دقائق، نودي إدوار للتحدث في الهاتف مع الأمين المساعد لمتحف اللوفر الذي اعتذر عن الحضور بسبب التوتر الذي يسود المدينة.

هز إدوار كتفيه، ففرنسيو فرنسا أولئك جبناء! لا بأس. سوف يأكل بمفرده، حتّى لو أدّى ذلك إلى أن يستسلم للأفكار السوداء ويدرك مرةً أخرى مدى وحدته...

توترٌ في المدينة؟ بالفعل، كان من المتوقع أن تحصل بعض الاضطرابات بعد أحداث الأمس، فقد كان الهجوم أكثر عنفاً من المعتاد. لكنه لم يلاحظ شيئاً غريباً أثناء قدومه بسيارة أجرة من الزمالك.

ففي منطقة القناة، كانت القوات البريطانية تواجه منذ بضعة أشهر حرب عصابات ضارية. كان الهجوم هذه المرة أعنف من المعتاد. أثار موقف السلطات المحلية الملتبس غضب الإنكليز الذين هاجموا القوات الخاصة الملحقة بالشرطة؛ ونتج عشرات القتلى عن الهجوم على اثنتين من ثكناتهم في الإسماعيلية.

تذوّق الفرنسيّ بتلذّذٍ طيور الفرّي المحشوة وهو يهنئ نفسه لأنه اختار نبيذ كسارة ليشربه معها. لكن في اللحظة التي قُدّمت له فيها قطعةٌ من فخذ الخروف المشوي، انتبه لوجود هرجٍ غير معتاد في المطعم. كان بعض الزبائن يقفون ويقتربون من النوافذ الكبيرة ويطلبون إيضاحاتٍ... فوضع إدوار فوطته جانباً ليستطلع الأمر.

ـ لقد احترقت سينما ريفولي، قال له أحد رؤساء الخدم. ويبدو أنّ سينما مترو تحترق بدورها...

لم يكد إدوار يصل إلى مكتب المدير حتى علت الضجة في بهو الدخول، ورأى أناساً يتراكضون هرباً من النار التي اشتعلت فيه. وشاهد بعض المسعورين ينتزعون الستائر ويحملون قطع الأثاث ليجعلوها طعاماً للنيران.

ركض إدوار بدوره، فوجد نفسه في جهة المطابخ، مقابل سفرجي يكدّس الملاعق والشوك والسكاكين الفضية ويضعها في

فوطةٍ كبيرة. حمل الخادم غنيمته حين لاحظ أنه اكتُشف، وتوجه بسرعة نحو بابٍ للخدمة.

ـ لنتبعه! صاح بالألمانية زبونٌ تصادف وجوده في الممر نفسه.

في الخارج، كانت الجماهير تهتف بشعاراتٍ معادية للإنكليز، وكان من الممكن أن تفلت من عقالها لرؤية أولئك الأجنبيين. تردد الألماني لحظةً ثم اختار أن يتوجه نحو المتظاهرين هاتفاً:

ـ *أنا ألماني! أنا ألماني!*

إن كان *ألمانياً*، فهو بالتأكيد ضد الإنكليز... تحولت الهتافات على الفور إلى التأييد، وحُمل الألماني على الأكتاف، فاستغلّ إدوار الفرصة ليختفي بين الجموع.

كانت النيران تخرج من العديد من غرف الفندق. وتجمّع في الحديقة المطلة على شارع ألفي بعض الزبائن المذهولين الذين لم يستوعبوا جيداً ما يحصل، ومن بينهم مغنية سوبرانو في الفرقة الغنائية الإيطالية عارية القدمين، بقميص النوم، فقد انتُزعت من قيلولتها انتزاعاً.

بارتياح، شاهد إدوار رجال المطافئ يصلون ويفتحون سلّمهم الكبير ويبدأون في رش المبنى بخراطيمهم. لكنها سرعان ما توقفت: فقد قطعت من أسفلها. نزل الإطفائيون وهم يهزون رؤوسهم، وارتفعت هتافات الغوغاء. كان الشيبرد يحترق بلا هوادة.

أبعد إدوار نظره عن ذلك المنظر الفظيع وتقدّم باتجاه مركز المدينة، فرأى من بعيد المبنى المتفحم لسينما ديانا، وبعض مثيري الفتنة يرمون بالمقاعد من النوافذ فتتحطم على الطريق.

اقتحم متظاهرون آخرون مسلّحون بالفؤوس والقضبان الحديدية مخزن آفييرينو، فدخلوا إليه واحداً إثر الآخر وبأيديهم أوعية تحتوي على البنزين الذي تزودوا به من صهريج يقف بهدوء في زاوية الشارع. اندلعت النار دفعةً واحدة، فتراجع الناس، وسمع

صوت صراخٍ سرعان ما همد: إذ أنّ أحد مشعلي الحريق لم يتمكن من الخروج في الوقت المناسب، وتحول إلى كتلةٍ من اللهب.

تتالت عياراتٌ نارية، أطلقها على الأغلب رجال شرطة بالزي المدني. رأى إدوار عدداً من المتظاهرين يقعون أرضاً ودماؤهم تسيل. انفضّ التجمّع، لكن ليعود من جديد، غير بعيد، في ساحة خزندار، أمام مخازن صيدناوي.

رأى إدوار، العاجز عن التدخل والمحتمي في زاوية مدخلٍ عريض، عدة مشاهد سرقة؛ كانت أبواب المحلات الجرارة المعدنية تُرفع بوساطة قضبانٍ حديدية، ثم تُكسر النوافذ والأبواب الزجاجية ويَحشر العديد من الأشخاص أنفسهم داخل المتاجر ليخرجوا منها وأيديهم ملآى بالمسروقات المتنوعة. وفجأةً، تذكر متجره المغلق كما هي الحال في نهاية كل أسبوع...

عاد إدوار أدراجه كل شارع قصر النيل بخطى حثيثة، غير مبالٍ بالأخطار التي يتعرض لها؛ رأى محلات روبير هوغ محترقة، لكن الصالون الأخضر الموجود بجوارها كان سليماً، بفضل حنكة الموظفين الذين رفعوا العلم الوطني وهم يهتفون: «مصر للمصريين!». أما في صالون غاتينيو، فقد وُزعت الأموال بكل بساطة لإبعاد المتظاهرين.

توقف إدوار بغتةً حين وصل إلى نهاية شارع سليمان باشا. لم يعد يشعر بساقيه ولا برأسه؛ فقد كلّ إحساس. تسمّر في مكانه محدّقاً إلى الأمام غير قادرٍ على تحويل نظره: فلم يعد متجر العاديّات الذي يملكه سوى فجوةٍ ضخمةٍ سوداء، تنيرها بعض ألسنة اللهب.

مرت عشر دقائق دون أن يحرك ساكناً؛ كان يسند ظهره إلى عمود الكهرباء نفسه ويحملق في ذلك المنظر المرعب بذهول. تقدّم الفرنسيّ أخيراً ببطء نحو ما تبقّى من متجره. لم يبالِ برائحة الحريق؛ فقد كان يبحث يائساً بين تلك الجدران المتفحمة والأرضية

التي تناثرت عليها بقايا الأشياء التي جمعها بكلّ ذلك الحب طوال سنوات. لم تبق أية قطعة أثاث، لا طرابيزة، ولا حتى بارافان...

اختفت من الجدار الأيسر، المسمى «الجدار القبطي»، أيقونات القديس تيودور والقديس باسيليوس، ومعها حاملة الكتاب المقدس المطعمة بخشب الأبنوس وآثار وادي النطرون، والمباخر المصنوعة من البرونز وألف كنزٍ آخر...

في الجهة المقابلة، لابدّ أنّ القرآن المزخرف قد احترق مع أول لسانٍ من اللهب. إلاّ أنّ أشياء أخرى مقاومة اختفت أيضاً: الصواني النحاسية المطعمة بالفضة والمسدسات والطبنجات والأسلحة البيضاء وأسرجة الجمال ومصابيح المساجد...

نظر إدوار إلى السقف المثقوب بصورةٍ آلية: لا، لم تكن الثريا في مكانها. كانت ثريا رائعة سداسية الشكل، من البرونز المذاب، بثمانين شمعة... جلس الفرنسي القرفصاء وحرّك بيديه بقايا متنوعة: قائمة كرسي مقشش، جامل جرارٍ خُرم من جرته، نصف غزالةٍ من الخزف الأزرق، شمعدان مذبحٍ ملوياً بالكامل، بقايا صندوقٍ لأحشاء الموتى... لمح مروحةً من الريش لا يقل عمرها عن مئة عام نجت بأعجوبةٍ من المجزرة، فأخذها بين أصابعه، فتحها وأعاد طيّها، ثم خبأها في جيب سترته وخرج دون أن يلتفت.

سار إدوار في شوارع القاهرة على غير هدى، دون أن يعبأ بصفارات الإنذار أو بالطلقات النارية المتقطعة. لم يكن يستوقفه شيء، لا محلات غروبّي المنهوبة في شارع سليمان باشا، ولا محلات شيكوريل التي خُلعت أبوابها في شارع فؤاد، ولا نادي تورف الذي أزيل من الوجود، حيث أُحرق ستة من الإنكليز أحياءً...

بين حينٍ وآخر، كان الفرنسي يدس يده في جيب سترته ويطبق يده على المروحة. شخصٌ غيره كان سيلعن القدر لأنه لم يؤمّن محلّه ضد أعمال الشغب. لكن أي تأمينٍ كان سيعيد إليه الثريا المصنوعة من البرونز المذاب أو سجاداته التي تعود للقرن التاسع عشر أو تمثال الكاتب الجالس القرفصاء والمصنوع من الأبنوس... وكان

إدوار يردد في سره: «لقد أحببت هذه البلاد، إلاّ أنها لم ترغب في وجودي».

إنّ لديه بعض المال في فرنسا. لكن مجرد فكرة أن يعود ليعيش في شارع فوبان ملأته خوفاً.

هبط الظلام. توقفت سيارة أجرةٍ بمحاذاته، وفتح سائقها الباب وهو يكاد يأمره بالصعود إليها.

بعد عشرين دقيقة، كان إدوار يدخل إلى المبنى الذي يسكن فيه كمن يمشي في نومه، وبدلته قد سودها السخام. حتى إنه لم يجب على تحية البواب له. وفي المصعد الذي أقله إلى الطابق الخامس، بحث عن مفتاحه فوقع على المروحة، واجتاحه حزنٌ عميق.

منهكاً، باعد درفتي باب المصعد المعدنيتين وخرج إلى العتبة، دون أن يهتم بإضاءة النور.

توقف إدوار فجأةً وهو يلمح ظلّ شخصٍ جالسٍ على الدرج، وخفق قلبه بقوة.

- آه، هاأنت ذا أخيراً! قالت ميما وهي تنهض، ووجهها تضيئه ابتسامة. كنت قد بدأت أقلق...

11

الخميس، 24 نيسان 1952

يُقسم ألكس بأنّ فاروقاً بكى يوم السادس والعشرين من كانون الثاني الماضي عندما رأى القاهرة تحترق، وربما لم تكن دموعه دموع تماسيح. إلاّ أنّ أحداً لم يستطع حتّى الآن أن يفسر لي لماذا استبقى الملك في قصر عابدين قادة الشرطة على غداءٍ مطوّلٍ بمناسبة ولادة ولي العهد. كانت قوات الأمن تنتظر تعليماتٍ لن تأتي أبداً. على كل حال، لقد استغل الملك الأحداث جيداً، حيث حمّل مسؤوليتها للنحاس باشا وعزله على الفور.

وفقاً لآخر الإحصائيات، فإنّ أكثر من أربعمئة مؤسسة قد احترقت ونهبت في يوم السبت الأسود، ولم يُعرف الفاعلون حتى الآن، وانصبّت عقوبات المحاكم العسكرية على صغار الموظفين.

ذهب إدوار ديلليم يوم الاثنين إلى مبنى المحافظة حيث تُعرض الأشياء التي عثرت عليها الشرطة. كان هناك عشرات البنادق والمسدسات، وآلات خياطة، وثلاّجة، ومئة علبةٍ من السردين، وصورتان للملك... لكنه لم يجد أية أيقونة أو أي تمثال.

إدوار يأخذ الأمور بصورةٍ أفضل بكثيرٍ مما كنّا نظنّ. «يكاد يكون مرحاً»، قال أبي. سوف يدهشني هذا الصبيّ دائماً. لقد قلت له مع ذلك أن يبقى في مجال الطرابيش وألاّ ينفق أمواله على الأشياء القديمة».

الغريب أنّ إدوار يبدو متأثراً بحريق الشيبرد أكثر من تأثره بحريق متجره هو. يقال بأنّ صندوقاً حديدياً واحداً من أصل الثلاثة عشر الموجودة في الفندق قد أتت عليه النيران، وكان يحتوي على السجلين الذهبيين.

إنّ كتاب *مسار ضابط* الذي صدر باللغة العربية عن دار المعارف، وتُرجم بعد بضع سنواتٍ إلى اللغة الإنكليزية، لم يكن من الأدب الرفيع؛ وقد يكون هناك الكثير مما يمكن قوله عن بعض تأكيدات حسن، رغم أنّه، لحسن الحظ، لم يورد اسم عائلتنا في كتابه على الإطلاق. إلاّ أنّ بعض المقاطع فيه تبدو صحيحة، مثل وصف ليلة 23 تموز 1952، التي انقلبت فيها مصر إلى الثورة بسهولةٍ مدهشة.

«تقدّم الطابور المؤلل ببطءٍ وكل أضوائه مطفأة، كتب حسن. نظرت إلى ساعتي بعصبية وأنا جالسٌ قرب السائق، في الشاحنة المدرعة الرابعة: كانت الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً، ولم يكن أمر المهمة قد توضح بعد. توجّهنا نحو قيادة أركان القوات المسلحة في جسر القبة دون أن نعرف تماماً ما الذي سنفعله هناك...».

كان الكابتن حسن صبري سعيداً جداً لأنه يتحرك أخيراً، لكنه كان يشعر بالامتعاض لأنّ رؤساءه لم يبلغوه تعليماتهم بشكلٍ أفضل.

فقد اكتفى الكولونيل يوسف صدّيق، قائد الفرقة المؤللة الأولى، بالقول:

ـ حضّروا رجالكم، سننتقل هذا المساء إلى الفعل.

منذ عدة أيام، كان جوّ المؤامرة يهيمن في الثكنات، وكان اسم لجنة الضباط الأحرار على كل لسان، إلاّ أنّ أحداً لم يكن يبدو على علمٍ بتركيبة هذا التنظيم السري. المعروف فقط هو أنّه قد استطاع أن يجعل الجنرال محمد نجيب، أحد أبطال حرب فلسطين يفوز في

انتخابات نادي الضباط. إلاّ أنّ الملك ألغى على الفور عملية الانتخاب تلك، شاعراً بالإهانة لفشل مرشحه.

أوقف السائق الشاحنة فجأةً كيلا يصدم السيارة التي تسبقهم.

- ما هذا؟ قال حسن وهو يخرج رأسه من النافذة.

نزل من الشاحنة، ومسدسه بيده، فرأى سيارة *البكباشي* يوسف صدّيق الجيب تعود أدراجها على طول الموكب لاستقصاء الأخبار.

أحاط ضباط المدرعة الأولى برجلين باللباس المدني خرجا من سيارة من نوع موريس، ووجهوا إليهما الأمر برفع اليدين وعدم الحركة. لكن ما هي إلاّ لحظات حتى تعرف القائد عليهما، وبدأا، هما، بإعطاء الأوامر:

- لقد توجّب تقديم موعد العملية. ينبغي احتلال قيادة الأركان حالاً.

سارت سيارة الجيب على رأس الموكب الذي توجه بسرعةٍ هذه المرة نحو هدفه. لم يستطع حسن أن يسيطر على اضطرابه: لقد دقّت أخيراً الساعة التي انتظرها طويلاً، ساعة قلب النظام الملكي.

منذ عشر سنواتٍ وهو ينتظر هذه اللحظة، منذ ذلك اليوم الكئيب في شباط 1942، حين دخل السفير البريطاني بدباباته إلى قصر عابدين ليفرض على فاروق رئيساً آخر لمجلس الوزراء.

ثم جاءت حرب فلسطين، تلك الحرب التي التحق بها حسن بحماسٍ مع العديد من رفاقه ليدركوا بسرعةٍ كبيرة أنها كانت حرباً خاسرةً: جيوشٌ عربية سيئة التنسيق في ما بينها، وعملياتٌ تتم دون إعداد، وأسلحةٌ فاسدة تبيّن فيما بعد أنها خضعت لعمليات تهريبٍ فضائحية تورط فيها مسؤولون كبار، إن لم يكن الملك نفسه...

عاد حسن إلى القاهرة والدم يغلي في عروقه، جاهزاً للعراك؛ وكاد ينتسب إلى حركة الأخوان المسلمين، لكنّ طابعها الديني وميلها للانتظار والتسويف أثنياه عن عزمه. أضحوا يمضون السهرات في الثكنة في نقاشٍ محمومٍ يستمر حتى الصباح. وكان

حسن من أنصار الوسائل الجذرية: كتفجير السفارة البريطانية أو قتل اثني عشر شخصاً من مناصري النظام مثلاً... كان رفاقه يجدونه متطرفاً، فيحتج بعصبيةٍ مسمّياً ذاك الذي يدعو إلى الحذر (مَرَة). فمنذ أيام الأكاديمية العسكرية، كانت النار تستعر في جسده، بفراغ صبر، حين يرى طلاّب، الصف الأدنى من حوله يمضون ساعاتٍ بأكملها في المكتبة يقرأون كلوزفيتز أو إلغوود، عوضاً عن التدرب على الرماية. وكان يلاحظ بمرارة أنّ أولئك المثقفين أخذوا يسبقونه في التراتبية العسكرية.

منذ عام، لم يكن حسن يتردد في مساعدة الفدائيين الذين ينهكون القوات البريطانية بهجماتهم في منطقة القنال. كان بعض الضباط يزودونهم بالذخيرة؛ أما هو، فكان يدرّب مجموعاتٍ صغيرة على القتال.

فاجأه حريق القاهرة، إلاّ أنّه في الحقيقة لم يصدمه. فقد وجد فيه للوهلة الأولى وسيلةً جيدة لمحو كل ما كان يستفزه أو يهينه منذ وقتٍ طويل، كآل بطركاني هؤلاء مثلاً، الذين كان عمه رشيد يبدي تجاههم تسامحاً شديداً طوال حياته... لم يكن حسن يطيق سماعه وهو يقول: «فعل البيه كذا»، أو «فكّر البيه بذلك». بيه لا يساوي شيئاً: فهو مجرد مستغلٍ قذر، بل إنه ليس مصرياً حقيقياً، ويسمح لنفسه بأن يكون ملك الطربوش...

عند وفاة رشيد، شعر حسن بأنه أهين أكثر عندما قال له جورج بطركاني:

ـ كان رشيد سخيّ اليد، يوزع ما يكسبه على من حوله. ولكنني كنت أدّخر له بعض المال كل شهر، لأعطيه إياه يوماً ما... تفضّل، هاهو المبلغ.

طوال فترة بعد الظهر، في مطعم الضباط، كان حسن ورفاقه يتلقون نتفاً من الأخبار مصدرها الإسكندرية حيث يصطاف الملك وكل الطبقة السياسية. كان فاروق قد شكل لتوه حكومةً على طريقته، ورتّب مقلباً ليسخر من رئيس الوزراء المعيَّن الذي لم يستطع أن

يفرض الجنرال محمد نجيب كوزيرٍ للحربية لتهدئة الجيش، فأذعن لإسناد حقيبة تلك الوزارة إلى وزير الداخلية. لكن، في الوقت الذي كان فيه أعضاء الحكومة يستعدون للقسم، دخل الكولونيل إسماعيل شيرين، شقيق زوجة الملك، إلى القاعة.

ـ أقدّم لكم وزير الحربية. قال فاروق للحاضرين المصعوقين وهو ينفجر بضحكةٍ مدوّية.

يروي حسن في كتابه: «اتخذت مصفحات اللواء المؤلل الأول مواقعها ببطءٍ حول قيادة الأركان، ومرّ أحد كبار الضباط من عربةٍ إلى أخرى ليعطينا التعليمات. مع أول طلقة، شعرت بأنّه قد أصبح لي جناحان: «اتبعوني!» قال يوسف صدّيق. حين دخلنا إلى حجرة رئيس الأركان، وجدناه مختبئاً خلف بارافان. أطلق ثلاث رصاصاتٍ من مسدسه، من أجل الشرف فقط، ثم استسلم. وهكذا سقطت قيادة الأركان...»

بعد قليل، وبينما كان حسن، مهتاجاً، يغيّر مواقع بعض الآليات أمام المبنى الرئيسي ، أسرع نحوه أحد الضباط وهو يصرخ فرحاً:

ـ دبابات حسين الشافعي تسيطر على محطة القطارات وعلى الإذاعة!

تبادلا القبل، وكذلك فعل الجميع.

أضيء مبنى القيادة العامة بأكمله حتّى غدا شعلةً من نور، وعمّه الابتهاج. أخذت سيارات الجيب تذهب وتعود محمّلةً بضباطٍ شبان ناحلين مشوربين، تشعّ وجوههم بالفرح. كان الجميع بانتظار وصول الجنرال محمد نجيب الذي عُينّ قائداً لانقلابٍ لم يكن حتّى على علمٍ مسبقٍ به...

«في الثالثة صباحاً، خرجت لأتمشى قليلاً. تذكرت أبي، صبري، الذي توفي في العام الذي وُلدت فيه، خلال ثورة عام 1919، والذي لم أرَ وجهه أبداً، ولا حتى في صورة. لم أعرفه، حين كنت طفلاً، إلاّ من خلال ما حكاه لي عمي رشيد الذي قدّمه لي كرجلٍ متحمس، مسكونٍ بهاجس العدالة الاجتماعية. فيما بعد، روى لي عاملٌ سابق

في مصنع سجائر من السيدة زينب بالتفصيل معارك ذلك الشهيد الذي قُتل في وسط الشارع مثل كلب لأنه أحب وطنه كثيراً...» (*مسار ضابط*، الصفحة 135).

نظر الكابتن حسن بشرودٍ إلى مبنى الأركان المضاء. داعب قبضة مسدسه وحيّا ذكرى شهيد 1919، الذي أصيب بطلقةٍ حقيرة خرقت جلابيته.

القسم التاسع

جنرال جذاب جدا

1

كان جدي مايزال غاضباً:

- إنهم شيوعيون. شيوعيون وجهلة. سوف يجرون البلد إلى الجحيم.

سارع العسكريون الذين أطاحوا بفاروق في الثالث والعشرين من تموز 1952 إلى إلغاء كافة الألقاب الفخرية المحلية: لم يعد في مصر بهوات أو باشاوات، ولن يغفر لهم جورج بيه تلك الجريمة أبداً.

- في حين بقي شقيق زوجتي الأحمق كونتاً! كونت مؤخرتي هو...

بعد ثلاثة أشهر، استفحلت حالة الجهلة في نظره بإصدار قانونٍ زراعيٍّ جديد، لم يعد من حقّ أحدٍ بموجبه أن يمتلك أكثر من مئتي فدانٍ من الأرض المزروعة.

انفجر جورج بطركاني الذي كان يمتلك حوالى أربعمئة فدانٍ قائلاً:

- وهذه، أليست شيوعية؟

- في البلدان الشيوعية، تتم مصادرة الأملاك دون أي تعويض، أجاب مكرم بهدوء. أما أنت، فسيقومون بالتعويض عليك.

- كفى، أرجوك! سوف يدفعون لنا التعويضات على أقساطٍ لمدة

ثلاثين سنة بموجب سنداتٍ على الخزينة. لن ترى أعيننا تلك الأموال أبداً.

ـ أقول لك إنك ستأخذ تعويضك. على كلّ حال، وبانتظار المصادرة، فإنّ القانون يسمح لك أن تبيع مئة فدانٍ لأولادك، والباقي لصغار المزارعين.

ـ لا تدّعِ السذاجة! أنت تعلم تمام العلم أن ليس لدى الفلاح مايشتري به الأرض. سيفضّل الانتظار، ويداه في جيوبه، أن تقدّم له الدولة كل ما سرقته منا. وكما كان أخي فردينان يقول...

لم يتمكن مكرم، وقد بدأ نظره يضعف، من لفّ سيجارته في تلك العتمة الخفيفة، فاقترب من النافذة للإفادة من نور إعلان الكوكا كولا الوامض.

ـ أنت تعلم جيداً يا جورج بأنّ الأراضي موزعة بطريقةٍ مزعجة. فحوالى ستين ملاّكاً يمتلكون خمس الأراضي الزراعية في البلاد...

ـ أنا لست من أولئك الستين.

ـ مع ذلك، فأنت من الخمسمئة الذين يمتلكون معاً أكثر من عُشر الأراضي. والحال أنّه يوجد مليونان وسبعمئة ألف ملاّك للأراضي.

ـ وماذا في ذلك؟! هل أنت أيضاً شيوعي؟

حين يأخذ النقاش ذلك المنحى، كان الرجل المتّشح بالسواد يفضل الصمت. تذكّر المحادثة التي جرت بينهما في الخامس والعشرين من تموز في المكتب نفسه.

ـ هل لاحظت التبدل الأساسي الذي حصل؟ قد قال جورج حينذاك.

ـ نعم، وأنا سعيدٌ به، فلأول مرة، منذ قرون، يحكم مصر مصريون.

ـ نعم، نعم، ولكنني أحدثك عن شيءٍ أكثر عمقاً، أكثر خطورةً. هذا النجيب، هل رأيت رأسه؟

ـ ما به؟

ـ إنه لا يلبس طربوشاً! لأول مرة، يظهر حاكمٌ جديدٌ لمصر أمام الشعب دون طربوش.

ـ نجيب جنرال، ومن الطبيعي أن يرتدي الكاسكيت.

ـ لا، أنت لم تفهم. فلا هو ولا أحد من الضباط الذين يحيطون به يملك رأساً جديراً بحمل الطربوش. الأمر خطير يا مكرم، خطيرٌ جداً. فمع مثل هؤلاء الناس، لا يعرف المرء إلى أين هو ذاهب.

ـ المرء يعرف على كل حال من أين هو آتٍ، وهذا سببٌ كافٍ للسير بتصميم، أجاب القبطي باسماً. أما ما لاحظته أنا، فهو أنّ أولئك *البكباشيين* نحيلون ورياضيون. لقد انتهى عهد البدينين.

ـ لا تقلق، سوف يسمنون، مثلما حصل لوفدك الذي أصبح بديناً بتماسه مع السلطة. واليوم، يطالب الضباط «بتطهيره».

حين عزل الملك النحاس باشا بعد حريق القاهرة، ذهب للاستجمام في فيشي مع زوجته الشهيرة زوزو، المتّهمة بتلقي مختلف أنواع الرشاوى، وبالمضاربة في أسواق القطن. وفاجأهما الانقلاب العسكري وهما هناك، فهرع النحاس إلى أول طائرة، ووصل القاهرة في الواحدة صباحاً، وذهب من فوره إلى بيت الجنرال نجيب وكلّه ثقة في أنّ الضباط سوف يعهدون إليه بالسلطة. قيل له باختصارٍ أنّ على الوفد أن «يطهّر» نفسه بالعمق كالأحزاب الأخرى، وأنّ عليه، هو نفسه، الامتناع عن ممارسة أي نشاطٍ سياسي اعتباراً من تلك اللحظة.

ـ لم تأخذ وقتها مخاوفي حول الطربوش على محمل الجد، قال جورج. أصبح من المؤكد الآن أن هؤلاء الشيوعيين يريدون جعل البلاد حاسرة الرأس.

بالفعل، كان هناك سجالٌ قد بدأ حول الطربوش. «إنه من مخلفات الماضي»، قال بعض أعضاء النظام الجديد. ولإرضائهم، نبش علماء الدين *فتاوى* قديمة تفيد بأنّه يمكن للمسلمين أن يلبسوا القبعة الغربية أو الكاسكيت، بما أنّه ليس فيها ما يوحي باحتقار الدين أو الوطن.

ـ لقد بلغ السيل الزبى! علّق جدي. حين أتذكر بأنّ الطربوش كان يعتبر رمزاً للوطنية وللإسلام! البارحة، كانوا ينتقدونني على صنعه بحجة أنني *خواجة*، واليوم يقولون لنا إنّ العرب القدامى كانوا يرتدون القبعة ذات الرفرف وأنّ الطربوش غربيّ المنشأ، وهو أبو القبعة الفريجينية!

كل صباح، كان جورج يفتح بخوف جريدته المزدحمة بالعناوين الكبيرة الحمراء. لم يكن بإمكان أحدٍ أبداً التكهّن بما ستعلنه تلك الخطوط الدموية. فيوماً، خفض الإيجارات بنسبة 15%، وبعده، إلغاء *الأوقاف* الدينية الخاصة، ثمّ اعتقالات... وقد أرسل جلاّد الإسكندرية، وهو وطني، برقيةً إلى الحكام الجدد يقول فيها: «أنا جاهزٌ للقبض على الخونة دون مقابل».

لعن جدي نفسه لأنه نشر تهنئةً علنيةً للملك في الحادي عشر من شباط الماضي بمناسبة عيد ميلاده. فقد اشترت مؤسسة بطركاني وأبناؤه»، وكذلك حوالى ثلاثين شركةً أخرى (غاتينو، مصر للطيران، هانو، معامل كحلا للصابون...) صفحةً كاملة في جريدة النهضة المصرية «واضعةً تحت أقدام العرش أسمى ما تكنّ من آيات التبجيل والعرفان».

ـ العرفان؟ لماذا؟ سأل مكرم حينذاك بسخرية. ألأنّ العرش ترك أربعمئة مؤسسة تحترق وتُنهب في القاهرة يوم السبت الأسود؟

كانت لوحة دعاية الكوكا كولا تغرق المكتب بالأنوار الحمراء والبيضاء.

ـ لاحظ بأنها ثورةٌ متحضّرة، تابع القبطي، فلم تُرَق فيها قطرة دم واحدة. وقد تُرك فاروق يذهب إلى كابري على متن يخته، ومعه عائلته وثروته...

ـ هذا لا يجديني نفعاً، بشرفي! كان لدى فاروق الأحمق ذاك كل مقومات النجاح. عندما وصل عام 1936، كان الناس معجبين به، بل مولعين. وحتى أثناء الحرب، ورغم تجاوزاته، كان الناس يصفقون له. لكنه كان مريضاً. قضية غدد...

ـ لقد أفسدته حاشيته...

ـ ليست هي الحاشية فقط، يا مكرم أفندي! لن أنسى أبداً نحّاسك وهو ينحني نصفين ليحيّي ذلك الفتى ذا السبعة عشر عاماً: «أريد أن أطلب منكم امتيازاً، يا صاحب الجلالة: هل أستطيع أن أقبّل يدكم؟» آه، كان رائعاً، وفدك ذاك!

ـ لقد بدأ عهدٌ جديد يا جورج.

ـ نعم، ولم يعد هناك وفد. لم يعد هناك سوى بعض الجهلة بالزي العسكري يأكلون سندويشات الفول في القصور التي استقروا فيها وسوف يرسلوننا جميعاً إلى الجحيم. إلى الجحيم، أتسمع؟

2

- عزيزتي، حقيبتك رائعة. أراهن على أنكِ اشتريتِها من عند شيكوريل.

- أي شيكوريل! من عند أوروزدي، بكل بساطة.

- احلفي لي.

- *Christos Anesti!*(*)

- أوه، ألكس! لم أكن أعلم بأنك سوف تحضر للغداء. قيل لي بأنك تشارك بسباقٍ على طريق الإسكندرية.

- لا، فيوم أحد الفصح مقدّس بالنسبة لي، وأنا لا أفوّت أبداً *كعك* ماما.

- شكراً، *يا* حبيبي. ستقولون لي كلكم بعد قليل رأيكم *بالكبيبة*. أخشى أن يكون الأسطة علي قد وضع فيها من الملح أكثر مما ينبغي.

- ألا تجد، يا جورج، الجنرال نجيب جذاباً؟

- ليس سليم من سيعارضك في هذا الرأي، فهو يعبده.

- *De gustibus et coloribus...*(**)

(*) أي: المسيح قام. م.
(**) أي: مذاقات وألوان. م.

ـ لنجيب هيئةٌ بريطانيٌ صرف، بالغليون في فمه والعصا تحت ذراعه.

ـ أيّ بريطانيّ! إنّه، على العكس، يبدو كفلاّحٍ صميم، بأنفه الأفطس وبشرته الصعيدية السوداء.

ـ أنا أجد منظر نجيب في سيارته الشيفروليه المفتوحة غريباً ومضحكاً.

ـ هذا تغييرٌ بالنسبة لنا عن سيارات الملك الحمراء.

ـ يقال بأنهم قد وجدوا أربعمئة سيارة في كاراجات القصور المختلفة.

ـ لديّ فضولٌ لمعرفة ما حلّ بالمرسيدس التي قدمها له هتلر عام 38.

ـ ميما، مروحتك تحفة. أراهن على أنها مصنوعةٌ من ريش النعام.

ـ بالمناسبة، أندريه، هل تعرف المونسينيور زغبي؟ أسمعتَ نداء الحب ذاك الذي وجّهه لنجيب؟ «نحن نحبّك كما لم نحب أحداً من قبل... إننا مستعدون لبذل الغالي والرخيص لإرضائك...» هل هو مجنون أم ماذا؟

ـ مجنون؟ لماذا؟ هذا ما يفكر به العديد من المسيحيين.

ـ أندريه على حق. فنجيب الطيب يكثر من مبادراته الحسنة تجاه المسيحيين. يبدو وكأنه يمضي أيامه في الكنائس. فهو يشارك تارةً في قداسٍ ليلي عند الأقباط الأورثوذوكس بمناسبة عيد الميلاد، وأخرى في قداسٍ آخر بمناسبة عيد الفصح، وثالثة في احتفالٍ عند الموارنة...

ـ هل رأيت، يا بابا، كيف استقبل الطالب المسيحي الذي جُرح قبل أيام في الجامعة وأهداه إنجيلاً مذهّب الحواشي؟

ـ لقد فاتني كونه مذهّباً. أنتم شباب، يا أبنائي، والحماس

يغلبكم. أما أنا، فقد حكمت على الفور على هؤلاء القادة الذين لا يرتدون الطرابيش، الحاسري الرؤوس. زيارات نجيب للكنائس جميلةٌ جداً. كما أنه من الرائع سماعه وهو يشبّه الأقليات بالحجارة الكريمة... لكن كل هذا مجرد كلام. ينبغي الحكم على الأفعال، كما كان يقول أخي فرديناn.

ـ والدك على حق. هل سيحافظ العسكريون على الإسلام كدينٍ للدولة؟ ألن يأمروا بإلغاء محاكمنا المذهبية؟ هذه هي الأسئلةُ الحقيقية. وليس هناك حتى الآن سوى أخبار سيئة.

ـ تماماً. لقد حصلنا على قانونٍ زراعي أحمق يُظهر مساوئه منذ الآن، وقانونٍ آخر أكثر حماقةً يتعلق بنزاعات العمل، هدفه الوحيد إزعاج أرباب العمل...

ـ أما أنا، فقد أرسلت رسالةً هامة إلى نجيب.

ـ وهل ردّ عليك، يا خالي إدمون؟

ـ لا بدّ أنّه مازال تحت تأثير الصدمة. فمع الأرقام التي صدعت بها رأسه، المسكين...

ـ خالي إدمون، هل قرأت في جريدة مصر قصة أولئك الأخوات الثلاث في المنصورة اللواتي وضعت كلٌّ منهنّ خمسة مواليد، وفي اليوم نفسه؟ أي خمسة عشر طفلاً في المجموع.

ـ خمسة عشر طفلاً! يا إلهي! هذا مخيف، أليس كذلك؟

ـ ألا تريدون الجلوس إلى مائدة الطعام؟ *الكبيبة* لا تنتظر. أندريه، اجلس بمواجهة أبيك. أما العروسان، فيجلسان معاً. نعم، نعم، ميما بجانب إدوار. هذه هي التقاليد.

ـ هل تعلمون بأنّ أحدهم في القصر كان يمتلك سجلاً لكل «دجاجات» فاروق؟ مع الأسماء والعناوين وأرقام الهواتف والصور والسير الشخصية، إذا أحببتم!

ـ ألكس، أرجوك! الأطفال هنا.

ـ انتبهوا، أنا لا أقول إنّ فاروقاً كان بطلاً في هذا الميدان، فقد كان يحتاج للمنشطات. منذ بضعة أيام، دُعي بعض الصحافيين الأجانب لمشاهدة المجموعات السريّة في قصر القبة. وقد خرجوا، إن تجرأت على القول، بيض الرؤوس من هول ما رأوه...

ـ ألكس، أرجوك!

ـ بغض النظر عمّا يتحدث عنه ألكس، فإنّ قصري القبة وعابدين يحتويان على روائع. هل تعرفون بأنّ كل شيءٍ سوف يعرض بالمزاد العلني؟ يتحدثون عن أكبر عملية بيعٍ في القرن.

ـ *Beati possidentes!*(*)

ـ يبدو بأنّ فاروقاً لم يكن يجمع الطوابع البريدية وقطع النقود المعدنية والأحجار الكريمة وحسب، بل أيضاً ربطات العنق والغلايين والمناظير الصغيرة، بل وحتى الطرابيش.

ـ لماذا وحتى؟

ـ عفواً، جورج... على كلّ حال، فإنّ صديقنا إدوار ديلليم سوف يجد بوفرة ما يزود به دكانه في المستقبل.

ـ نعم، سوف أذهب أنا وميما إلى المزاد العلني، بعد أن نكون قد ربحنا في اليانصيب.

ـ سيد ديلليم، هل تعرف ما إذا كانوا قد عثروا في قصر القبة على سلسلةٍ من الشمعدانات تمثّل حكايات لافونتين؟

ـ لا أعرف، يا ميشيل، لكن مع كل ما اختلسه فاروق... لقد ضحكت كثيراً منذ أيام حين علمت بأنّه قد عُثر على سيف شاه إيران في خزانةٍ حديدية في القصر.

ـ أما تشرشل، فقد استرجع ما سُرق منه على الفور. هل تعرفون قصة ساعة تشرشل؟

ـ لا، احكِها لنا.

(*) أي: سعداء هم من يملكون. م.

ـ ماما، الكبيبة إلهية. ليست خادمتي سامية بقادرةٍ على أن تطبخ مثلها!

كنا نتكلم ونتكلم... نتكلم إلى ما لا نهاية، وبكلّ المواضيع.

وكنا، أطفالاً، نتشاجر من أجل رواية أبسط سقوطٍ عن الدراجة أو أسخف حادثٍ عرضيّ. فكان من يصادف أمراً فيه بعض الغرابة أو الطرافة يهتف: «هذا شيءٌ يروى!» وأظنّ بأننا لم نكن نعيش مواقف بعينها إلاّ لمتعة الحديث عنها.

كنا نختلق قليلاً، ونعيد ترتيب الوقائع. فتأخذ الأحداث التافهة على ألسنتنا شكل الملحمة. كانت الأحداث ذاتها تروى خمس، عشر، عشرين مرة ـ لكنها لا تبقى كما هي تماماً. وهكذا، طُعِّم تاريخ عائلاتنا بالنوادر شبه الكاذبة التي أصبحت مستنداتٍ مرجعية من فرط تكرارها و تشذيبها.

ربما كان هذا الهذر انعكاساً لعجزنا. ألم تكن الثرثرة والتباهي متناسبين تماماً مع عدم قدرتنا على الإمساك بزمام الأحداث؟ كان الكلام يعوّض عن عدم الفعل، ويصبح أسهل باستخدام لغتين أو ثلاث معاً. ففي منعطف جملة، كان بإمكاننا دائماً أن نطلق عبارة تعجّب بالإنكليزية، أو أن نصرّف فعلاً عربياً بطريقةٍ لا تمتّ إلى قواعد النحو بصلة. لقد كانت تلك اللغات ضروريةً بالنسبة لنا، إذ لم نكن نملك ناصية أيٍّ منها. كنا ننقر من صحنين أو ثلاثة، وفق مقتضى الحال. وعوضاً عن أن نكلّف أنفسنا عناء البحث عن الكلمة المناسبة في لغةٍ ما، كنا نلجأ إلى أخرى تقدمها لنا على طبقٍ جاهز. كانت تلك التلقائية تتيح لنا بأن نتكلّم ونتكلّم، دون أن نصادف أيّ عائقٍ سوى الجار الذي يتحرّق رغبةً لأن يفضي هو الأخر بما لديه.

3

كنت في الثامنة من عمري، وأشعر بأنني في الجنة. فمنذ بدايات الحر، ذهبنا لنستقر في دخيلة، وكان من المفروض أن نبقى هناك حتى أيلول على الأقل. كنا عشر عائلات أو اثنتي عشرة، دون حساب أصدقاء الأصدقاء...

البحر أمامنا، ومن خلفنا الصحراء. وقد استأجر سليم وفيفيان بيتاً أصفر الجدران، منعزلاً قليلاً في طرف القرية. أما غالبية العائلات الأخرى، فقد احتلّت العمارة المجاورة. كنا، نحن الأطفال، نقيم عند بعضنا البعض، دون كلفةٍ ولا رسميات، كهمجٍ حقيقيين، ونقضي عدة شهورٍ من السباحة والصيد بين الصخور وتسلق أشجار التين ولعب عسكر ـ وحرامية.

لم يكن على الشاطئ كبائن ولا معلمو سباحة. لم يكن هناك سوى طحالب، وصفائح رقيقةٌ من الزفت أو بعض الزجاجات التي أرسلتها برفقٍ مراكب بعيدة، إلاّ أنّها لم تكن تحتوي على أية رسائل. لم يكن هناك أحد للتنظيف أو المراقبة. ويا ويل جنود الثكنة المجاورة في الجو العاصف، أولئك الفلاحين الذين لا يعرفون السباحة! لكن في اليوم التالي، كان كل شيءٍ ينتهي ببحرٍ هادئٍ كالزيت يقدّم نفسه للحَسَكات ويملأ قلوبنا بالبهجة.

في الرابعة من بعد الظهر، وبعد القيلولة الإجبارية، يصل بائع المثلجات *«آيس كريم جيلاتي»* الذي يتكلم عدة لغات عند الضرورة

على دراجته ذات العجلات الثلاث. كان ثمن كنوزه قرشاً واحداً للقطعة، الحاوية بالتأكيد على الملونات. وسوف يرافقه عشرون طفلاً في بقية جولته وهم يلحسون البوظة ويلحسون أصابعهم.

فيما تبقّى من الوقت، كنا نلعب لعبة الحرب. ليس هناك ما هو أفضل من غصن نخيلٍ نزعت عنه أوراقه لصنع قوسٍ وسهام. أما الحصان، فيكفي أن تتخيله. كان حصاني أبيض خالصاً، واسمه طربوش.

كانت أطراف دخيلة ماتزال تحمل آثار الأعمال «الودية» المتبادلة خلال الحرب بين رومل ومونتغمري، والتي أصبحت هبةً من السماء بالنسبة للاعبي عسكر ـ وحرامية ورعاة البقر ـ والهنود الحمر الذين غدا بإمكانهم أن يعيدوا إصلاح القلاع البيتونية. وكنا نتوقّف عن اللعب في نهاية بعد الظهر لنضع على سكة الحديد علب كونسروة قديمة فارغة. كم ستصبح مسطحة بعد مرور القطار الصغير! قطارٌ صغيرٌ جداً، دون ركاب، لم يعلم أحدٌ أبداً وجهته ولا وظيفته...

من الاثنين إلى الجمعة، كانت فيفيان ولولا وصديقاتهما يبقين وحيداتٍ مع الأطفال. وعلى الشاطئ، قبل السباحة، يلعبن بالمضارب كالمجنونات للحفاظ على رشاقتهن.

ويوم السبت، كنا ننتظر وصول الآباء والضيوف، واقفين على الطريق الصحراوي، ذلك الشريط الإسفلتي الرديء الذي يجعله الحر رخواً، حيث تمرّ من وقتٍ لآخر، ببطءٍ شديد، شاحنات شفروليه هرمة، تثير الشفقة بتعرّقها وعطاسها.

نال ألكس، القادم لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في دخيلة، حظوةً هائلةً لدى الأطفال الذين أحاطوا بسيارته الجيب يتشممونها ويداعبونها. كنا نصعد إليها كلّ عشرةٍ معاً لنقوم بجولة ونحن نهتزّ بشدّة كشجرات الخوخ، مطلقين صرخات الفرح. كان ألكس، الذي بلغ الثانية والأربعين من عمره، يبدو كمغامرٍ حقيقيٍّ، بسياراته

المدهشة وقمصانه الخاكية اللون المفكوكة الأزرار وشاربيه البريطانيين.

ـ هل هو خالك؟

ـ نعم، خالي. ولعلمك، فقد اشترك في سباق القاهرة ـ الإسكندرية أربع مرات...

ميما أيضاً كانت تأتي أحياناً، بأثوابها المزهّرة التي تجلب لها الكثير من الإطراء، فكنا نقفز إلى عنقها، وأعيننا على إدوار الذي يتبعها، باسماً، وذراعاه مثقلتان بالكنوز التي ابتاعها من عند باستروديس: كقطع الحلوى المحشوة بالشوكولا أو الكريمة، أو تلك المغطسة بشراب الروم...

بوجود إدوار ديلليم، أصبح لديّ جدٌ فرنسي، مما كان يملأني بالفخر. كنا ندعوه بابا الطيب، فلم يكن من الممكن للتسميات العادية مثل نونّو أو جدّو أن تنطبق على جدٍ عيناه بتلك الزرقة وبشرته بذلك البياض ولا يعرف من العربية سوى بضع كلمات.

أما ميما، فوفقاً للتقاليد، كان من المفروض أن ندعوها تِتا Teta . لكنها أصبحت، بشيءٍ من التلاعب، تيتا Tita بالنسبة لكل الأحفاد.

دائماً كان بابا الطيب حامل الحلوى وتيتا ذات الزهور ينويان العودة في مساء اليوم نفسه إلى الإسكندرية. إلاّ أننا، بتوسلاتنا، كنا ننجح في استبقائهما لقضاء الليلة عندنا، وأحياناً إلى تمديد إقامتهما لفترةٍ أطول. وكنت أذكّر رفاقي في اللعب بفخرٍ بأنّ لديّ جدٌ فرنسي، وأزوّر الوقائع قليلاً فأنسب إليه ارتداء منامةٍ مخططة بالأزرق والأبيض والأحمر(*) تزيد من تأكيد جنسيته المهيبة...

ولا حاجة للقول بأنّ بول والسويسرية لم يفكرا لحظةً واحدة في قضاء الصيف في دخيلة، تلك البقعة الضائعة التي لا شهرة لها ولا دمغة تميّز. لقد استقرا في دارةٍ فسيحةٍ في العجمي، على ذلك

(*) ألوان العلم الفرنسي. م.

الشاطئ الأبيض الراقي الذي تلامسه الأمواج الفيروزية. كنا نزورهم مرةً في الشهر تقريباً، وتلك كانت رحلةً حقيقية، حيث لا بدّ أن تغرز إطارات سيارة سليم في رمال الطرقات كل مرة، وأرتجف أنا من الخوف، مقتنعاً بأنها لن تُقلع ثانيةً.

كل يوم أحد، كان رجل دينٍ فرنسيسكاني إيطالي يأتي من الإسكندرية ليفتح كنيسة دخيلة الصغيرة القابعة على حافة الطريق؛ حينها فقط تكون قمصاننا بيضاء وشعورنا ممشطة.

في منتصف الصيف، كانت العائلة كلها تلتقي في دارة جورج ويولاند بطركاني في سيدي بشر. وكان الطريق يستغرق حوالى ساعة. بعد ميكس، نمر أمام المدابغ، فتسد فيفيان أنفها. أما نحن، في الخلف، فنصفّق، ونفتح نوافذ السيارة، مستنشقين بملء رئاتنا تلك الرائحة الكريهة التي تشكل جزءاً من العطلة، مثلها في ذلك مثل رائحة الطحالب والياسمين؛ وكان سليم يطلق بوق سيارته مراراً تحيّةً لذلك الحدث.

في سيدي بشر، كنا نمر أمام المنزل ـ المركِب لسيزوستريس بيه الذي كان قاب قوسين من التسعين، ومازال يسير بثباتٍ على مركبه، إلاّ أنه لم يعد يستقبل فيه أحداً. كانوا يصوّرونه، وحيداً على كوثله، يتفحّص البحر بمنظار العريف البحريّ المقرّب، وتأتيه المؤن مرتين في الأسبوع.

في حديقة آل بطركاني، كنا نلعب مع أولاد العم لعبة السلطان: وصوله إلى الثانوية، القصيدة التي ألقاها ميشيل، التهاني... ويدب الشجار ويحتدم الجدال بسبب أشكال التحوير المتتالية التي تعرّضت لها هذه القصة عبر الزمن.

في أواخر العشرينات، كانت جدتي تحكي لابنتها لولا قائلةً:

ـ كان إلقاء ميشو للقصيدة من الجودة بحيث أنّ السلطان اقترب منه وقبّله، فأخذ كل طلاّب الصفّ يصفّقون.

بعد حوالى عشرين عاماً، كانت لولا بدورها تفصّل المشهد لابنيْ بول:

ـ نُصبت خيمةٌ كبيرة في باحة المدرسة، وكان إلقاء عمّكما ميشيل للقصيدة من الإتقان بحيث صفّق له طلاّب الثانوية كافة. حينذاك، نهض السلطان من مقعده وأمر فرقة الحرس الموسيقية بعزف *المارسيلليز*...

في العام 1953 أو 1954، كنا نستلهم في ألعابنا رواية أحد ابنيْ بول الذي يكبرنا سناً:

ـ كان إلقاء عمي ميشو لقصيدة *الفلاّح وأبناؤه* من الروعة بحيث بات حديث المدينة بأكملها. وأراد السلطان حسين، الذي كان يحب لافونتين، أن يستمع إلى ذلك الولد المعجزة، فنُظّمت له زيارةٌ لثانوية اليسوعيين. وبعد أن ألقى ميشيل القصيدة، قبّله السلطان ودعاه إلى القصر، في حين كان موسيقيو الحرس السلطاني يصطفون على الجانبين، رافعين أقواس كمنجاتهم لتحيته.

في بعض الأحيان، كنا نحتكم إلى صاحب الشأن:

ـ أليس صحيحاً، يا خالي ميشو، بأنّ السلطان قد حضر إلى الثانوية على صهوة حصانٍ كبيرٍ أبيض ثمّ أركبك خلفه ليأخذك معه إلى القصر؟

فينظر عرّابي إلينا حائراً، قبل أن يصحّح بعض الأشياء، فهو لم يكن يريد أن يخيّب أملنا كثيراً. إلاّ أنني أعتقد بأنه كان يشعر بأنّ قصته قد صودرت منه، فتلك الحكايات المختلقة التي تتلون مرةً بعد مرة أخذت تخفي الرواية الرسمية، بانتظار أن تلغيها ربما.

ذات يوم، وفي أتون مجادلةٍ حامية، ناديت ميشيل باسم «خالي سلطان». بدرت عني العبارة بعفويةٍ جعلت ضحكات الكبار الحاضرين تنفجر. وسرعان ما تبنى بقية أطفال العائلة هذا اللقب.

4

كلما لمح جورج بطركاني جنازةً من بعيدٍ، كان يأمر السائق بالتوقف إلى جانب الرصيف والانتظار، إذ كان مرأى الطربوش الموضوع على النعش للدلالة على أنّ الميت ذكر يلامس شغاف قلبه. إلاّ أنّ ذلك التقليد بدأ يندثر، وبدأت الحملات على الطرابيش تؤتي ثمارها العفنة.

ألغى جدّي اشتراكه في «*جريدة مصر*» التي كان صاحبها، وهو سوري، يبذل قصارى جهده كي ينسى الناس صِلاتِه السابقة مع القصر. ومنذ صيف عام 1952، بدأت هذه الجريدة بعزف لحن المطيحين بالتقاليد، مندّدةً «بالتعصب المبني على ارتداء الطربوش»، ومطالبةً بإلغاء «غطاء الرأس ذاك الذي يصرّون على وصفه بالمصري»، ومؤكّدةً على أنّه «يجب أن يستبدل بالقبعة المكسيكية أو بالقبعة الأوروبية المصنوعة من القش... المهم أن يُتخذ القرار بإلغائه».

ـ القبعة المكسيكية! هل سمعتِ، يا يولا؟ هؤلاء الأنذال يريدون قبّعةً مكسيكية!

لم تكن جريدة مصر تفعل سوى النقل عن النشرات العربية، الثائرة ضد الطربوش. «هذه العمرة، كتبت *الأخبار*، تمثّل عقليةً بالية، رجعية، متخلفة: عقلية العبودية... سوف تختفي كلّ المشاكل

التي نعاني منها، سواءً في إداراتنا الحكومية أم في حياتنا اليومية بمجرد أن ينزل الطربوش، رمز العهد البائد، عن عرشه».

أخذ الوضع يتردّى أسبوعاً بعد أسبوع. واعتباراً من أيلول، أجاز وزير المالية لموظفيه العمل دون لبس الطربوش. ثمّ أعلن بأنّ الشرطة سوف تتبنى القبعة *الفؤادية*. في تلك الأثناء، نشرت اللجنة المكلفة بدراسة زيٍّ وطنيٍّ جديد مشروع قانون يهدف إلى استبدال الجلابية والطربوش بالبزّة والقبعة الأوروبيتين. وكان بعض صانعي الطرابيش قد أوقفوا إنتاجهم وأوصوا على آلاتٍ جديدة للتحوّل إلى صناعاتٍ أخرى.

رفض جورج بيه ـ الذي واصل الجميع مناداته هكذا رغم إلغاء الألقاب ـ ركوب الموجة. وتعلّقت آخر آماله بموقف شيخ الأزهر، المعارض بحزم للقبعة الأوروبية. إلاّ أنّه تلقّى مفاجأةً سارّة حين نشرت الصحافة، بعد ستة أشهرٍ من قيام الثورة، أولى صور الجنرال نجيب بالزي المدني: كان ذلك العسكري يضع طربوشاً!

حصل جدي على الصورة وكبّرها ووضعها داخل إطار، ثمّ علّقها في مكانٍ بارزٍ من مكتبه.

ـ ألا تجدون أن نجيباً يبدو أقل غباءً بالطربوش؟ قال لأبنائه الذين لم يكن أيٌّ منهم يسانده في معركته تلك. فمنذ زمنٍ طويل، كان بول يناضل ضدّ «أصص الزهور تلك». وكعادته، لم ينظر ميشيل للمشكلة إلاّ من زاويتها العاطفية والشاعرية: فالطربوش، بالنسبة له، يذكّره بالسلطان حسين الذي كان يضعه بأناقةٍ فائقة، مائلاً إلى الجانب... أما أندريه، فإنه لم يكن يحب أن يرى أباه يستشيط غضباً ويقيم الدنيا ويقعدها، شاتماً العالم كله، من أجل قضيةٍ بهذه التفاهة.

ـ بطربوشٍ أم بغير طربوش، كان اليسوعي يقول، مصر بحاجةٍ للإصلاح وللتغلّب على المشاكل التي أضنتها. الأهميّة لا تكمن في البدلات ولا في الأزياء العسكرية الموحدة، بل في الصحة الروحية والأخلاقية لمن يرتدونها.

أما ألكس، الذي مازال صاحب أفكارٍ خلاّقةٍ وبنّاءة، فقد اقترح على أبيه أن يستبق الأمور:

ـ الشعب المصري معجبٌ بضباطه، وهو لا يطلب سوى التشبه بهم. لِمَ لا تُطلق يا أبي موضة القبعة العسكرية المصنوعة من الكتان أو حتّى من اللباد الخفيف؟

في ذلك اليوم، كاد ألكس يتلقّى ضربةً بمنفضة السجائر على رأسه.

كانت يولاند ترتجف خوفاً على زوجها، ولم تكن الوحيدة التي تخشى ضربةً غادرة يقوم بها أعداء الطربوش: صحيحٌ أنّ المصنع كان يُحرس ليلاً، إلاّ أنّ إحداث حريقٍ فيه لم يكن أمراً صعباً.

وفي السادس والعشرين من كانون الثاني 1953، بمناسبة مرور ستة أشهرٍ على قيام الثورة، أرادت الحكومة تنظيم عرضٍ عسكري في شوارع القاهرة، بمشاركة المؤسسات الصناعية والتجارية الكبرى. وأمام دهشة الجميع، قرر جورج بيه المشاركة.

في اليومِ المحدد، حضرنا عرضاً لم تشهد له مصر في تاريخها مثيلاً. فقد شاركت مؤسسات غاتّينو وبنزيون وصيدناوي ومئة وعشرون شركةً أخرى بعرباتٍ مزينة بالورود مرّت أمام المنصّة الرئيسية. جمعت مخابر دوتشه أربعمئة ألف زنبقة، وصنع غروبّي فطيرةً عملاقة، وعرض شيكوريل مجسّماً لمبناه الجديد الذي تمّ تدشينه قبل ذلك بشهرين بدلاً عن ذاك الذي احترق يوم «السبت الأسود».

عندما وصلت عربة بطركاني التي كانت بين آخر العربات، علت همهماتٌ من المنصة الرئيسية وصيحاتٌ من الجمهور. فعلى شاحنةٍ غطّتها الورود بالكامل، وضع جورج بيه طربوشاً عملاقاً بلغ ارتفاعه أكثر من عشرة أمتار. وأثناء مرور الشاحنة أمام المنصة، ارتفع الجزء العلوي من الطربوش طائراً برفقٍ إلى السماء، تسحبه بالوناتٌ من كلّ الألوان، في حين أُطلقت مئة وخمسون حمامةً. صفّقت جميع الشخصيات، ورفع الجنرال نجيب قبعته عن رأسه

ولوّح بها عدة مرات، محيّياً العمال الجالسين في العربة والذين كانوا يتظاهرون بقولبة الطرابيش...

في اليوم التالي، نشرت بعض الصحف المتحمسة صوراً للحدث، مؤكّدةً بأنّ كل حمامةٍ كانت تحمل في إحدى رجليها قسيمة شراء بمبلغ جنيه مصري. اتصل إدوار ديلليم منذ الصباح الباكر، مبدياً إعجابه الشديد.

ـ هذا رائع، يا جورج! يا لها من مفاجأة! لقد أنقذت الطربوش.

ـ لم أُنقذ أي شيءٍ، يا إدوار؛ أردت فقط أن أزعج الآخرين وأن أنهي ذلك العمل بشكلٍ أنيقٍ ولائق. لقد قررت إغلاق المصنع.

ابتسم جدي لصمت محادثه، وتابع بصوتٍ هادئ، يكاد يكون مرحاً:

ـ على المرء أن يكون واقعياً يا إدوار، فمصر لن ترتدي الطربوش بعد الآن. هذا لا يعني أنها سوف تعتمد القبعة المكسيكية كما يقول هؤلاء الأوغاد. سوف تصبح حاسرة الرأس، حاسرة الرأس لأول مرةٍ منذ قرون. فلتتحمل النتائج.

5

ذهب بول والسويسرية إلى ثانوية العائلة المقدسة بعد ظهر أحد أيام شباط 1954 لحضورٍ عرضٍ لمسرحية *السيد* Le Cid التي كان أحد أبنائهما يلعب فيها دوراً ثانوياً. كان الدخول إلى المسرح يتم عبر بهوٍ كبيرٍ تصدّرته في الماضي لوحةٌ تمثل الملك استبدلها اليسوعيون منذ قيام الثورة بصورةٍ للجنرال نجيب. إلاّ أنهم قاموا باستبدالٍ جديد مؤخراً، بعد أن عزل مجلس الثورة اللواء قبل بضعة أيام، متهماً إياه «بالحكم الفردي والاضطراب النفسي»: فأصبح الوجهُ الجارح للبكباشي جمال عبد الناصر، رجل النظام القوي، هو الذي يهيمن على البهو منذ ذلك الحين.

بانتظار رفع الستارة، أخذ خالي بول يفكّر بالملاحظة القاسية التي أبداها مدرّس الأدب الفرنسي الذي صادفه في مدخل المسرح حيث قال:

ـ أترى، يا أستاذ بطركاني، لدينا هنا صنفان من الطلاّب. فهؤلاء الذين يحضّرون للشهادة الثانوية الفرنسية قد يكونون مثقفين، إلاّ أنهم ليسوا مصريين. وأولئك الذين يحضّرون للشهادة المصرية قد يكونون مصريين، غير انهم ليسوا مثقفين.

انتاب بولس مللٌ فظيعٌ أثناء عرض المسرحية، ولم يمنعه من الإغفاء تماماً سوى المشهد القصير الذي ظهر فيه ابنه والمقاعد الخشبية غير المريحة. وحين خرج في السابعة مساءً، كاد يقع على

قفاه: فقد اختفت صورة عبد الناصر وتصدر نجيب الطيب، بهيئته الوديعة وحاجبيه الكثيفين، البهو ثانيةً.

ـ انتظريني لحظة! هتف للسويسرية التي لم تلاحظ شيئاً.

اتصل بول من غرفة الحارس بأخيه أندريه الذي كان في غرفة الآباء بصحبة يسوعيين آخرين.

ـ نحن الآن نستمع للراديو، قال أندريه بمرح. نعم، لقد عاد نجيب قبل قليل، وسوف يستأنف ممارسة مهامه.

في طريق العودة، أعاقت مجموعاتٌ صغيرةٌ من المتظاهرين الفرحين، الهاتفين بحياة اللواء، سيارة بول عدة مرات. تضخّمت الجمهرة بغمضة عين، والظاهر أنّ الذئاب الشبّان في مجلس الثورة لم يقدّروا شعبية نجيب حقّ قدرها.

في اليوم التالي، وتحت ضغط الجماهير، فُتحت بوابات قصر عابدين السابق الذي أصبح مقراً لرئاسة الجمهورية. كان الجميع في نشوة. ولأول مرة في حياتهم، نزل والدي ورنيه عبد المسيح وسوريون آخرون من جيلهما من شرفاتهم واختلطوا بالمتظاهرين.

في الشهور التالية، ساد شعورٌ بالابتهاج. فقد أُلغيت الرقابة والأحكام العرفية، وشُكّل مجلسٌ تأسيسيّ هدفه إقامة جمهوريةٍ برلمانيةٍ حقيقية. كما عُقدت اتفاقيةٌ بين لندن والقاهرة تنصّ على انسحاب القوات البريطانية من منطقة قناة السويس خلال عشرين شهراً، ووُضع حجر الأساس لبناء فندق شيبرد الجديد على ضفة النيل وفقاً لمخططات مهندسٍ معماريٍّ سوري، وأقامت جدتي حفلةً جميلةً في غاردن سيتي على شرف ألكس الذي فاز بالمركز الثالث في سباق القاهرة ـ الأقصر...

ظهرت الغيوم الأولى في تشرين الأول مع الإعلان عن مؤامرةٍ للأخوان المسلمين، تبعه اعتقالاتٌ عديدة. وبعد بضعة أسابيع، عُزل نجيب ووضع تحت الإقامة الجبرية. رُفعت صورته مجدداً من بهو الثانوية، وحلّت محلها صورة عبد الناصر، بشكلٍ نهائيٍّ هذه المرّة.

6

كان ذلك خريفَ الوشوشات، فكلّ الراشدين أصبحوا يتكلمون من بين أسنانهم، وما أن يقترب أحدنا حتى يتوقفوا عن الكلام عابسين. كما لو أنّ ابنيْ بول لم يبوحا لنا بكلّ شيء! أقصد بكلّ ما يعرفانه أو يتخيلانه...

ـ كان رولان ثملاً، واتصل يهددها من أوبرج الأهرام...

ـ ... خافت حينذاك، فجمعت أغراضها في ثلاث حقائب كبيرة وطلبت سيارة أجرة.

كانت خالتي لولا تقسم بأنها «لن تضع قدمها في منزل ذلك الوغد ثانيةً» مهما كلّف الأمر، وبريق الغضب في عينيها يزيدها جمالاً.

كم أثار زواجها من رولان عام 1940 من الحسد! فهو زير نساء، وهي حسناء مغوية، وكلاهما من عائلةٍ ثرية. بديا تحفتين فاخرتين صممتا حسب الطلب، متناسبين وكأنهما خُلقا لبعضهما...

ظهرت صدوعٌ في الحب الكبير منذ أول مولودٍ لهما، وكانت بنتاً. فقد كان رولان مولعاً بلعب القمار، وأصبح يقضي أوقاتاً أطول فأطول حول الموائد التي يتكاثف فوقها دخان السجائر، ويبدد مبالغ طائلة في البوكر. ولم يبدّل مجيء الصبي الذي كان يطالب به من الأمر شيئاً، فأخذ يتعاطى الكحول، وأصبح سريع الغضب، بل عنيفاً أحياناً. كان موعد رجوعه إلى البيت يتأخر يوماً

بعد يوم. ومشبعاً بالكحول، كان يرغم زوجته على أن تمارس معه الجنس، فتمتثل والدموع في عينيها أو توصد عليها باب غرفتها، فتندلع حينذاك مشاحناتٌ لا يمكن احتمالاها.

كان بوسع جورج أن يفرك أذن صهره الذي كان يهابه كثيراً، إلاّ أنه كان ينبغي أن يكون على علمٍ تماماً بما يجري، وألاّ يصطدم بلولا المعتدّة بنفسها والغيورة على استقلالها، والتي كانت تمنع أياً كان من التدخل في شؤونها، حتّى ذلك اليوم الذي طلبت فيه، وقد فاض بها الكيل، سيارة أجرة في منتصف الليل...

تجاهلت لولا اعتراضات زوجها وتقدّمت بطلب للانفصال أمام المجلس الملّي للروم الكاثوليك. أصدرت المحكمة قرارها بسرعةٍ نسبياً، وأوكلت أمر الطفلين للأم، وفرضت على الأب أن يقدم لها نفقةً شهريةً مقدارها أربعون جنيهاً.

- أبلغكِ، قال لها، بأنني قد أصبحت مسلماً وأنني سوف ألجأ للمحكمة الشرعية.

- الجأ لمن تريد واذهب إلى الجحيم! أجابت لولا، وأقفلت السماعة في وجهه.

سأل ميشيل الذي كان قريباً إن كان رولان سكران.

- لا، أبداً، قالت خالتي. بل إنّ هدوءه هو ما أثار أعصابي.

امتقع وجه ميشيل وقال:

- ينبغي أن نُخبر أبي بالأمر.

وبعد الاستعلام، تأكّد بأنّ رولان قد اعتنق الإسلام بالفعل، وأصبح بإمكانه أن يلجأ إلى المحكمة الشرعية التي سوف يرضيه حكمها بالتأكيد. فقبل بضعة أشهر، وفي قضيةٍ مماثلة في الإسكندرية، أوكل القضاة الشرعيون حق حضانة طفلةٍ في الثامنة من عمرها إلى والدها، إذ أعلنوا «بأنّ الطفلة ينبغي أن تبقى مع أبيها لأنه يتبع الدين الأفضل؛ إذ قد تنشأ على //الكفر إن بقيت مع أمها».

ـ ما هو //الكفر؟ سألت لولا التي كانت تستشيط غضباً منذ الأمس.

ـ إنه عدم الورع، عدم الإيمان، شرح لها جورج بيه.

ـ أنا أجد هذا الأمر مشيناً!

ـ أنت على حق، يا بنتي. إلاّ أنّ الوقت لن يتسع لنا بعد ظهر هذا اليوم لإصلاح النظام القضائي المصري. انتظرينا هنا. سنقوم بزيارة صغيرة.

عند المغيب، ذهب جدي إلى بيت رولان، يصحبه سائقه ومحامي المؤسسة وبول، وقال له مباشرةً، دون لفٍ ولا دوران:

ـ كم تريد؟

تظاهر الصهر بأنه أُهين. إلاّ أنّ رجل الطربوش ألحّ وهو يشير بعينيه إلى الحقيبة الصغيرة التي يحملها محاميه:

ـ كم؟ أنا أدفع كاش(*).

قدّم رولان حينذاك مرافعةً باكية حول خساراته الأخيرة، وحول وضع أسهمه السيئ في البورصة... وحين رأى بأنّ أحداً لايأخذه على محمل الجد، بقّ البحصة أخيراً:

ـ عشرة آلاف جنيه، بما أنك تصرّ...

ـ أعطيك ستة آلاف وأعفيك من النفقة، قال جورج بلهجةٍ لا تقبل النقاش. يمكنك بالطبع أن ترى الأولاد بانتظام، وفق الإجراءات التي يحددها المجلس الملّي. كلّ شيءٍ مكتوبٌ بوضوح في هذه الورقة، وهناك ورقتان أخريان ستتفضّل بالتوقيع عليهما أيضاً.

انتهى الموضوع بعد عشر دقائق. بقي أمام لولا البدء بإجراءاتٍ طويلة لإلغاء الزواج في الفاتيكان، بمساندة الأب أندريه.

ـ هل تعتقدين بأنّ هذا الوغد كان يستحق فعلاً ستة آلاف جنيه؟ سألت فيفيان أختها.

(*) كاش: كلمة إنكليزية تعني: نقداً؛ وقد وردت هكذا في النص. م.

ـ إن كنت تظنّين يا حبيبتي بأنّ بابا قد استشارني...

كانتا شبه عاريتين، في غرفة نوم أهلي، في هليوبوليس، وكلٌ منهما تنزع الشعر الزائد عن ساقها المرفوعة على السرير بعجينة الحلاوة، مطلقةً آهات ألمٍ صغيرة. لقد أخفقت الخادمة سامية في صنع العجينة مرتين، إذ حرقت ذلك المزيج المصنوع من السكر والماء والليمون. لكنّ قوام تلك العجينة في المحاولة الثالثة كان ممتازاً.

ـ أتساءل كيف تمكّنت من العيش مع هذا النذل أحد عشر عاماً.

ـ لم يكن كلّ شيءٍ أسود، فلرولان محاسن أيضاً، إذ أنّه عشيقٌ رائعٌ حين لا يكون ثملاً... وبالمناسبة، ماذا عن سليم؟

ـ لا بأس.

ـ هل يسعدك؟

ـ بما أنني أقول لك لا بأس...

ـ أجيبي، هذا الأمر هام.

ـ لنقل... إنه يستعجل قليلاً.

ـ لكن هذا الأمر يمكن تعلمه يا عزيزتي.

ـ لقد اشتريت كتاب «الزواج المثالي»، لكنه لم يكلف نفسه عناء فتحه، فسليم لا يقرأ سوى الصحف وتقارير المكتب.

ـ حبيبتي، هذه الأمور لا يمكن تعلّمها من الكتب. سوف أقول لك أنا...

بعد ربع ساعة، كانتا تقهقهان وهما تدهنان ساقيهما المحمرّتين بكريم ملطّفٍ ناعمٍ جداً، معطر برائحة الورد.

7

لم يكن الأب أندريه من النوع الذي يكتب مذكراتٍ شخصية، إلاّ أنّه كان يحتفظ بعنايةٍ بنصوص محاضراته، كما أنه كان بين حينٍ وآخر يطبع على آلته الكاتبة القديمة من نوع ريمنغتون، ذات المفاتيح الأنغلوساكسونية، محاضر كاملة مفصلة للاجتماعات الهامة التي شارك فيها. معظم هذه الوثائق موجودٌ اليوم في ثلاثة ملفات من الأرشيف بعنوان «أندريه بطركاني، س.ج. ـ نصوصٌ وملاحظات». هي منجمٌ لمن يريد أن يعمل كمؤرخ...

ـ إذن؟ سأل الأب لاريفيير الذي أحاط به معظم يسوعيي الثانوية.

لكنه كان قد قرأ الجواب في نظرة خالي الكدرة الذي جلس، وقبل أن يحشو غليونه، أفصح بجملةٍ واحدة عن فداحة الخطب:

ـ لم يرغبوا في سماع أية كلمة؛ إنهم مصممون حقاً هذه المرّة على تطبيق القانون.

اصطدم الوفد الكاثوليكي بحائط. فنائب أمين سر الدولة، الذي بدا فظّاً ومزعجاً، قرأ عليهم منذ البداية المادة 17 من القانون الجديد. وكأنهم لا يعرفون كل حرف فيه! «تقدّم المدارس الخاصة لتلاميذها من المصريين التعليم الديني، كلٌّ حسب دينه، وفقاً للبرامج

التي تعدّها الوزارة..» وبصورةٍ أوضح، أصبحت المدارس الكاثوليكية ملزمةً بتدريس القرآن لطلاّبها المسلمين.

ـ أرجوكم أن تتفهموا استحالة هذا الأمر، قال الخوري الذي يترأس الوفد، فنحن مدارس دينية...

ـ أنتم لستم مدارس دينية مادمتم تدرّسون مواد أخرى لا علاقة لها بالدين، أجاب نائب أمين سر الدولة.

أمام ذهول محادثيه، وربما أيضاً حيرة مساعديه، صحح قائلاً:

ـ هل يمكنكم أن تشرحوا لي لماذا لا تستطيع المدارس الدينية تعليم الديانة لطلاّبها؟

وهنا، تدخل الأب أندريه قائلاً بأقصى ما استطاع من الكياسة:

ـ نحن بالطبع ندرّس الديانة، لكن للمسيحيين من طلاّبنا فقط. هذا ما نطبّقه في مدارسنا منذ أكثر من مئة عام.

للمسيحيين فقط... كان خالي يتذكر مع ذلك أنّ الطلاّب اليهود والمسلمين كانوا يحضرون صلاة الصباح والمساء حين كان مايزال على مقاعد الدراسة. وكان الأمر ينتهي بهم إلى تعلّم الصلاة عن ظهر قلب، لا بل إلى ترتيلها مع باقي الطلاّب. بل إنّ البعض كانوا يشاركون في دروس الديانة بموافقة أهلهم. كان ذلك عصراً آخر...

ردّ نائب أمين سر الدولة بلهجةٍ هازئة:

ـ لست أفهم لماذا يكون للطلاّب المسيحيين الحق في التعليم الديني، في حين يُحرم منه الطلاّب المسلمون.

ـ لكنك تعلم جيداً، أجاب أندريه بطركاني، بأنّ مدارسنا تخضع لقواعد الفاتيكان التي تمنعها من تعليم ديانةٍ أخرى غير الديانة الكاثوليكية.

فقاطعه الآخر وهو يشدّد على كلماته:

ـ أنتم في مصر، وعليكم أن تطبّقوا القانون المصري. وإذا كان

رؤساؤكم البعيدون لا يفهمون ذلك، فعليكم أنتم أن تشرحوا لهم الأمر.

استمع الأب لاريفيير بصمتٍ إلى فحوى المقابلة، وهو يفكّر في إمكانية التهرب. فقد فرضت الحكومة التعليم الديني على المدارس الخاصة مرتين قبل ذلك: الأولى عام 1948 والثانية عام 1953، إلاّ أنّ ذلك لم يُطبّق. لكن الأمر جدّيٌّ هذه المرة. بقي أن يعرفوا إن كان هناك مجالٌ لحلٍ وسط، مثلما حصل في سوريا. فقد حصلت المدارس الكاثوليكية هناك على *modus vivendi*(*) : لقد صرّحت رسمياً بأنها لا تستطيع تدريس الديانة الإسلامية، وزوّدت الوزارة بأسماء طلاّبها المسلمين، وبجدول ساعات فراغهم خلال الأسبوع؛ فتولّت الحكومة تعليمهم الديانة الإسلامية في مبانيها.

ـ هل ذكرتَ مثال سوريا؟ سأل الأب لاريفيير.

ـ نعم، بالطبع، إلاّ أنّ محادثتنا لم يعره أي اهتمام.

ـ والخلاصة؟

أفرغ الأب بطركاني غليونه ببطءٍ في منفضةٍ بسيطة ثم غمغم قائلاً:

ـ أعتقد بأنه لم يعد أمامنا خيار. إن لم نذعن، فإنّنا معرّضون إما للإغلاق أو للمصادرة.

انتفض يسوعيّ سويسريّ.

ـ أنا لا أفهم انهزاميتك! قال لأندريه، هل قدّرت عواقب الموافقة؟ إنها تعني الأسلمة التدريجية للثانوية. إن وافقنا، فسوف نبدأ بتعليم الديانة للمسلمين. ثم سيتوجب علينا أن نوفّر لهم مكاناً للصلاة! نعم، لا تهزّ رأسك، مكاناً للصلاة! فكيف تريد أن نعلّمهم بأنّ النبيّ يفرض عليهم خمس صلوات دون أن نتيح لهم إمكانية القيام بذلك الفرض؟ كما أنّ الثانوية سوف تضطر للالتزام بالأعياد

(*) أي: حل مؤقت. م.

الإسلامية: لن يعود هناك عطلة بمناسبة عيد الميلاد ولا بمناسبة عيد الفصح...

ـ لقد ذهبتَ بعيداً، قال أندريه باسماً.

ـ أبداً، أبتاه، أبداً. فكّر أيضاً بالعواقب الوخيمة لكلّ ذلك على طلاّبنا المسيحيين. سوف يقولون لأنفسهم: إذا كانت كل الديانات تدرّس في الثانوية، ألا يعني ذلك أنها متساوية؟

ـ ألفت نظرك إلى أنّ بعض المدارس القبطية تقدّم دروساً في الديانة الإسلامية...

ـ لنترك الأقباط جانباً، أرجوك: لا تجبرني على التعصب. لمَ لا نتكلم عن المدارس البروتستانتية التي تُظهر صرامةً مثالية في هذا الشأن؟ أنتم تعلمون مثلي بأنّ البعثة الأمريكية تهدد بإغلاق أبوابها... لكننا لسنا بحاجةٍ إلى أمثلة ولا إلى أمثلة مضادة لنتأكد من أمرٍ واقع: إنهم يطالبوننا بأن ندرّس ديانةً نعتبرها خاطئة، أي بأن نشارك في شر.

ـ ستكون تلك مشاركةً قسرية، تحصل بضغطٍ من القانون وتحت تهديد شرٍ أعظم، فطلاّبنا المسيحيون قد يحرمون من أيّ تعليم.

ـ مساهمةٌ قسرية إذا شئت، لكنها فاعلة وليست منفعلة وحسب. إذ سيكون علينا تنظيم ساعات التدريس واختيار الأماكن وحتى الأساتذة.

ـ نعم، لكننا سنكون قد عبّرنا عن رأينا. سيكون هناك شرٌ شكليّ، لا ماديّ...

وضع الأب لاريفيير حداً لتلك الفتاوى بسؤالٍ مفاجئ لم يكن هو نفسه يملك إجابةً عليه:

ـ في نظامنا الحالي، يكبر المسلمون دون تأهيلٍ ديني. أليس ذلك شراً أيضاً؟ هل من الأفضل أن يكون طلاّبنا مؤمنين مسلمين أم مسلمين غير مؤمنين؟

ساد صمتٌ طويل.

ـ على كلّ حال، أنا أشارك الأب بطركاني اعتقاده بأنّه لا خيار لدينا. ينبغي أن نعدّ أنفسنا لفكرة تدريس الإسلام في الثانوية.

ذات أحد، وعلى مائدة الغداء، قصّ علينا الأب أندريه واقعةً حدثت غداة الحرب العالمية الثانية، أثناء زيارة الموفد البابوي إلى مصر. فقد أقيم قدّاس مهيب بتلك المناسبة في كنيسة الثانوية. لكنه كان سيئ التنظيم، فلم يتوقف مقيموه عن تقريع أطفال الجوقة وعن إلقاء نظراتٍ تقدح شرراً على المرتّلين الذين لم يكونوا يبدأون أبداً في الوقت المناسب. كان خالي يجلس في الصف الثاني، خلف مجموعةٍ من الشخصيات. وخلال المناولة، التفت باشا مسلم لعب دوراً أساسياً أثناء حكم فؤاد نحو جاره، الكاهن القانوني دريوتون، مدير الآثار المصرية، وقال له بصوتٍ خفيض:

ـ أظن، يا أبي، بأنه قد لا يكون بمقدور أحدٍ سوانا، أنا أو أنت، أن يدخل بعض النظام إلى هذا الاحتفال.

ابتسم الكاهن. وفيما بعد، أثناء حفل الاستقبال الصغير الذي تلا القدّاس، أبدى استغرابه من الثقافة الدينية الممتازة لذلك المسلم. فعرض الباشا ضاحكاً بيان خدماته: ففي التسعينات من القرن الماضي، حين كان طالباً في الثانوية، لم يكن طفل جوقةٍ وحسب، بل إنه كان رئيساً للاحتفالات الدينية...

8

21 أيلول 1955

أُعلن اليوم، وعلى حين غفلة، عن إلغاء المحاكم المذهبية، فأثار ذلك اضطراباً شديداً لدى أندريه الذي قال: «هاهم مسيحيو مصر يرون الدعامة التي يرتكز عليها وضعهم منذ قرون تنهار بين عشيةٍ وضحاها».

إن كنت قد فهمت جيداً، فإنّه سيمكن إبطال زواجٍ عُقد في الكنيسة بدعوى مدنية يحكم فيها قضاةٌ سابقون في المحاكم الشرعية الإسلامية التي لم تُلغ بدورها إلاّ شكلياً. كما أنّه يمكن أن يتم في بعض الحالات تطبيق الشرع الإسلامي على أزواجٍ مسيحيين: كما في حالة كون الزوجين من مذهبين مختلفين أو إذا اعتنق أحدهما الدين الإسلامي بعد الزواج. «بهذه الطريقة، قال أندريه، يتم تشريع وتشجيع اعتناق الإسلام بدافع المصلحة، كما فعل رولان».

لقد نجت لولا بجلدها!

28 أيلول 1955

كم يبدو بعيداً الزمن الذي كان يُنعت فيه الأورثوذوكس بالمنشقين، ويدعوهم آباؤنا الطيبون إلى إنكار عقيدتهم علناً! فقد اجتمع رؤساء كافة المذاهب المسيحية المتواجدة في مصر في بطريركية الأقباط الأورثوذوكس ليصوغوا معاً برقيةً موجهة لعبد الناصر يؤكدون فيها معارضتهم المطلقة للقانون الجديد ويطلبون

تحديد موعدٍ معه. لكن البرقية ظلّت دون جواب، حسبما قال أندريه.

18 كانون الأول 1955

كان للاحتجاج الرسمي الذي وزّعه الرهبان الكاثوليك على كنائس المذاهب كافة وتمت قراءته يوم الأحد نتائج لا سابقة لها: فقد اعتقل المونسينيور زغبي والنائب الرسولي في المساء وأودعوا سجن القلعة. كان الانفعال عارماً.

19 كانون الأول 1955

سوف يطلق سراح الأسقفين بالتأكيد، إلاّ أنّ هذا الاعتقال حثّ المجمع الكنسي للأقباط الأورثوذوكس على أن يعلن على الملأ إجراءاتٍ خطيرة كان قد قررها قبل اثني عشر يوماً وظلّت سريةً حتى الآن: إعلان الحداد العام مع قرع الأجراس، الصوم وإقفال الكنائس كافة ليلة الميلاد الأورثوذوكسي، في السادس من كانون الثاني... وإذا بقي القانون الجديد على حاله رغم كلّ شيء، فإنّ الأساقفة الأقباط سوف يتركون مراكزهم ويلجأون إلى الأديرة.

7 كانون الثاني 1956

«إضراب الميلاد» لم يحصل، فقد خارت عزيمة الأقباط الأورثوذوكس في اللحظة الأخيرة، أمام وعودٍ حكوميةٍ ضبابية. آهٍ من هؤلاء الأقباط!

17 كانون الثاني 1956

أندريه منشغل البال جداً بالدستور الجديد الذي نُشر البارحة والذي ينصّ على أنّ الإسلام هو دين الدولة. وبرأيه، فإنّ هذا الأمر يجعل التأكيدات القوية التي وردت في نصّه في ما يتعلّق بالمساواة بين المواطنين غيرَ ذات قيمة.

9

دعا جورج بطركاني سليماً إلى مكتبه.

ـ اجلس. هل تريد قهوة؟

لم تكن تلك من عادات رب العمل... ودون أن ينتظر الجواب، رفع جدّي سماعة الهاتف وطلب من سكرتيرته أن ترسل إليه فنجاني قهوة «مضبوط» وألاّ تحوّل إليه أية مكالمة.

ـ أريد أن أطلب منك شيئاً يا سليم.

ـ تفضّل يا بابا...

ـ أحب مناداتك لي بابا.

تضايق سليم. لقد أفلتت منه كلمة «بابا» هذه، وربما كان ذلك بسبب اللهجة غيرِ المألوفة التي خاطبه بها حموه الذي كان في العمل ينسى إجمالاً كلّ رابطٍ عائلي ، حتّى مع أبنائه: كان ببساطة ربّ العمل.

كانت نشاطات جورج بيه كافة تدار في هذا المكتب الفسيح، المؤثث كأنه صالون، والذي تزيّن أحد جدرانه لوحةٌ لمانيه. كان الزوار يغوصون في مقاعد جلدية وثيرة وهم يتساءلون عن سبب وجود جهاز تصويرٍ قديم على قاعدةٍ ثلاثية القوائم، ومعه الإجاصة والمنفاخ، في إحدى زوايا الحجرة... وقد اضطرّ جدّي آسفاً إلى رفع صورة الجنرال نجيب بالطربوش منذ كانون الأول 1952 من وسط الغرفة ليضع مكانها صورةً صغيرةً لجمال عبد الناصر حاسر الرأس.

أدى إيقاف عمل المصنع إلى إخلاء طابقين، بما فيهما الطابق الأرضي الذي عرض جورج بيه على إدوار ديلليم أن يستضيف فيه، دون مقابل، صالة عرض العاديّات الجديدة التي تخصه عوضاً عن أن يؤجره. تأثر الفرنسي كثيراً بهذه اللفتة ووافق بسرورٍ على الاستقرار في ساحة الأوبرا، على الرغم من قربها من فندق شيبرد القديم الذي كان غيابه يشجيه.

بدّلت الثورة من فعالية المجتمع نوعاً ما. فحتى العام 1952، كانت رخص الاستيراد حرة. أما الآن، فأصبحت تنتزع انتزاعاً، مما ضاعف الميزانية المخصصة للرشاوى. وتابعت المصارف منح القروض، لكنها أصبحت أصعب منالاً. وكان جدّي يحب أن يعرف على الدوام رأيها في مؤسسته: فكان يقدّم *البخشيش* في مكانه المناسب ويتمكن بذلك من الوصول إلى ملفّه والتصرف على ضوء ذلك.

ـ لست حزيناً لتصفية مصنع الطرابيش يا سليم، قال كمن يطلعه على سر، فقد أصبحت العلاقة مع العمال لا تحتمل منذ تلك الثورة الملعونة. فهم يلجأون إلى المحاكم لأتفه الأمور، كما لو أنّ قوانين العمل الجديدة لا تكفيهم، رغم كونها منافيةً تماماً للعقل. أنا سعيد لاقتصار عملي على التجارة. إنها عودةٌ إلى الحالة الطبيعية: فنحن السوريون تجارٌ في صميمنا. قد نلعب أحياناً دور الصناعيين أو الأطباء أو الصحافيين، لكن هذا مخالفٌ لطبيعتنا.

طُرِق الباب، ووضع صبيٌّ في حوالى العاشرة صينيةً عليها فنجانان من القهوة التركية الساخنة وكوبان من الماء. نقده سليم قرشاً ثم نهض ليخفي اضطرابه، وقرّب الصينية من حميه.

ـ ربما تعلم، تابع جورج بيه، بأنّني سأبلغ الخامسة والسبعين بعد بضعة أشهر. آن الأوان كي أغيّر الإيقاع وأفكّر بخلافتي.

بعصبية، أشعل أبي لفافةً من التبغ وقد تصاعد اضطرابه.

ـ لقد ذهب أندريه إلى الرهبان. هل كان بإمكاني أن أمنعه؟ إنه يشعّ فرحاً منذ أن ارتدى الجبة، والشاطر من يفهم السبب! أما

ميشيل، ففيه كلّ الصفات الحسنة، لكنه يحبّ العزلة. ربما يفتقد وجود امرأة... على كلّ حال، فأنا لا أراه قادراً على أن يزجر مندوباً تجارياً أو يفاوض موظفي الجمارك الأجلاف دون أن يتنازل لهم.

كان سليم «يشرق» قهوته برشفاتٍ صغيرة، مما كان يجنّبه النظر إلى حميه وإظهار أية ردة فعل.

ـ قد يكون لبول نفسية رب عمل، إلاّ أنّه لا يحب هذه البلاد. لقد أقنع نفسه على كل حال بأنه يكرهها، وقد غادر مصر ـ في ذهنه ـ منذ بعض الوقت. لا يمكن للمرء إدارة أعماله عن بعد. أما ألكس، فالأفضل ألاّ نتكلم عنه... من بقي؟

ـ لولا، فيفيان...

ـ هذا كلام فارغ! أنا وأنت يا سليم لدينا نقطة مشتركة: لقد نشأنا عند الأخوة. ربما تكون هذه النشأة أقل تميزاً منها عند اليسوعيين، إلاّ أنها أكثر تلاؤماً مع هذه البلاد. ألست من رأيي؟

ثمّ غيّر لهجته فجأةً، وقال وهو يسحق سيجاره في المنفضة التي أمامه:

ـ سوف تدير العمل يا سليم.

ـ لكن يا بابا... أنا لست سوى محاسب...

ـ وبعد! ماذا كنت أنا في العام 1902 حين استأجرت غرفةً صغيرة في هذا المبنى لأبيع الأدوية؟ ماذا كنت عام 1919 حين اندفعت لصنع الطرابيش؟ هذه المهنة، *يا ابني*، لا تحتاج لشهاداتٍ بل للتفكير السليم. ينبغي على من يمارسها أن يكون واقعياً، وأنت واقعي. كما أنني سأكون موجوداً لأنصحك، إذا مدّ الله في عمري.

ـ وماذا عن بول؟ وميشيل...

ـ هذا ليس من شأنك. سأتحدث إليهما.

10

منذ عدة سنوات وماغي توتة تعيش منعزلةً عن الناس، على طريقة نجمة سينما تقدّم بها العمر، حريصةً على إخفاء تجاعيدها. فقد أغلقت شقتها في شارع قصر النيل واستقرت في هذا النُزل في حلوان الذي سبق أن تكلمتُ عنه. واقتصرت زياراتها إلى المدينة على المناسبات العائلية، كالعمادة أو الزواج أو الدفن...

أوقف جورج بطركاني سيارته الكرايسلر عند بوابة الحديقة الكبيرة لكي يذهب ماشياً إلى شرفة النُزل، فقد أوصاه الدكتور يارد بالمزيد من الحركة.

كانت ماغي جالسةً في ظلّ شجرة أوكاليبتوس، مستسلمةً لغناء الزيزان يهدهدها، وهي ترتدي بنطالاً، وتخفي وجهها بنظاراتٍ كبيرة سوداء، وعلى ركبتيها تتكوّر قطةٌ من نوع أنغورا.

ـ جورج! يا لها من مفاجأة!

قبّلته على الخدين ثم طلبت شاياً.

ـ ماذا لديكَ من أخبار؟

ـ لقد فعلت مثلكِ، وتقاعدت. سليم هو من سيدير العمل.

ـ أحسنت! سوف ترتاح، وأنت تستحق ذلك. كما أنك سوف تملّ، أنا أعرفك...

أشار بيده كمن يريد تجنّب هذا الحديث.

ـ كيف حال يولا؟ لقد انشغل بالي عليها ذاك اليوم بسبب نوبات انخفاض الضغط لديها. وأنا أكره الاتصال بالهاتف كما تعلم...

ـ لا، لا، لم يكن الأمر خطيراً. لقد طمأنها الدكتور يارد. أنت تعلمين بأنه طبيبٌ ممتاز.

اعتمد جميع آل بطركاني لعلاج أمراضهم شقيقَ سليم الذي غدا إحدى الشخصيات الهامة في مشفى «دار الشفاء».

قاطعهما سفرجي النُزل واضعاً على الطاولة إبريق شايٍ تحيط به قطعةٌ من القماش الصوفيّ. أخرج جدّي من جيبه علبةً تُحتوي على محافظ دوائية صفراء وزرقاء وصفها له روجيه يارد.

ـ بمناسبة الحديث عن يولا، غمغم قائلاً، كنت أريد أن أقول لك... لقد كانت تعلم كل شيء.

ـ كل شيء عن ماذا؟

ـ كل شيءٍ عنا.

كاد الفنجان يفلت من يدها:

ـ أنت تمزح!

ـ لا، أؤكد لك. لقد صدمتني بضع ملاحظاتٍ أبدتها مؤخراً فأردت أن أتأكد، وسألتها...

ـ أنت مجنون!

ـ أكرر لكِ بأنها كانت تعرف كلّ شيء، ومنذ زمنٍ بعيد.

ـ ولم تقل شيئاً!

ـ لقد احتفظت بالأمر لنفسها، بكثيرٍ من الحكمة...

بعد بضع لحظاتٍ من الصمت، نزعت ماغي نظاراتها ومسحت عينيها اللتين ملأتهما الدموع.

ـ مسكينة يولا! كم تألمت! وكم حقدت عليّ!

ـ أنت مخطئة. لا بد أنها حقدت عليكِ بادئ الأمر، وعليّ أيضاً. لكنها لم تعد تفكّر على هذا النحو منذ سنواتٍ طويلة. قالت لي: «لقد

استدركتُ نفسي بعد مولد بول، وفكّرتُ بأنّ تلك هي إرادة الله، وأنني، من بين الأختين، حصلتُ على النصيب الأفضل».

كانت ماغي تبكي بصمت ورأسها مدفونٌ في فراء قطتها. مدّ جورج يده ـ يداً راجفة تغطيها البقع ـ ومسح على شعرها برقة. كان المساء يهبط وهبّ نسيمٌ عليل. ومن أعماق الحديقة، كان يُسمع صوت مضخة تئز.

20 حزيران 1956

إنّ تأثّر بابا بموت مكرم أشدّ بكثيرٍ مما يريد أن يُظهر. أتساءل في نهاية المطاف إن لم يكن أعزّ أصدقائه.

تمّ آخر لقاءٍ لهما في البيت، في الثامن عشر من حزيران، بعد بضع ساعاتٍ من رحيل آخر وحدةٍ بريطانية. جاء مكرم فرحاً ببذلةٍ بيضاء رائعة، في عروتها قرنفلة. لم يستطع بابا أن يمنع نفسه من فتح زجاجة شمبانيا. لم يكن ذلك بالطبع بمناسبة رحيل الإنكليز، بل لأنّ مكرماً خلع الحداد بعد اثنين وأربعين عاماً... ولو أنّه قال له بعد ذلك: «الأبيض سريع الاتساخ. لو كنت مكانك لاعتمدت اللون الخاكي، فهو أنيقٌ أيضاً، كما أنّه يتماشى مع العصر». إنه اليوم يؤاخذ نفسه على تلك الفظاظة.

22 حزيران 1956

بابا يزمجر: فقد قام الجيش البارحة باستعراضٍ مع معداته الجديدة وبذلاته الجديدة. ما من طربوشٍ واحد!

أما هو، فإنه يحرص بالطبع على ارتداء طربوشه في كل المناسبات. وبعد الظهر، على سطيحة غروبي، يتحدّى بنظره بعض المتقاعدين من عمره الذين تبنّوا لبس البيريه ويدعوهم «بالخواجات» بصوتٍ مرتفع.

لقد احتفظ المسكين مكرم بالطربوش حتى آخر أيامه. ربما كان ذلك بفعل العادة، أو ببساطة، ليدخل السرور إلى قلب أبي...

11

في العاشرة ليلاً، رنّ جرسَ الباب ضابط شرطة له وجه بومة.

- *إدوار ديلام؟ فرنساوي؟*

لم تكن ميما الواقفة خلف زوجها بحاجةٍ لأن تقوم بالترجمة. كان صوت الرجل ذي الزي الرسمي شديد الفظاظة:

- أنت ممنوعٌ من مغادرة بيتك حتى إشعارٍ آخر. هل لديك مذياع؟

كان السؤال غير ضروري والجواب بلا جدوى: فعبر باب الصالون الموارب، كان يسمع صوت مذيع الإذاعة البريطانية مفصّلاً بنبرةٍ رتيبة آخر أخبار معركة القنال؛ فلا ميما ولا إدوار خطر ببالهما أن يغلقا الجهاز. من حسن الحظ أنها لم تكن إذاعة إسرائيل!

في حين كان إدوار ينزع مقبس الجهاز من مأخذه ويسلّمه إلى البومة، حاولت جدتي أن تتحاور معه: لمَ هذه المصادرة؟ ولماذا يمنعان من الخروج؟

- اذهبا واسألا بن غوريون! أجاب رجل الشرطة بلهجةٍ وقحة.

كان إدوار قد استشعر قدوم الخطر منذ بداية الصيف. وقال لميما في اليوم الذي امتنعت فيه الولايات المتحدة بفظاظة عن تمويل بناء السد العالي:

- الأمريكيون مجانين. سوف يرمون عبد الناصر في أحضان الروس.

والرئيس الذي شعر بالإهانة ردّ بضربةٍ فيها مخاطرة: ففي الثالث والعشرين من تموز، العيد الرابع للثورة، أعلن عن تأميم الشركة العالمية لقنال السويس. وقال للجماهير المنتشية بأنّ مصر لن تعود بحاجةٍ إلى استجداء المال من واشنطن أو موسكو: فهي ستموّل سدّها بنفسها عن طريق عائدات القنال.

كانت منطقة دخيلة بعيدةً عن كل هذا الاضطراب بعد السماء عن الأرض. لا بل بدا صيف 1956، بالنسبة لنا، أجمل وأروع من أيّ صيفٍ مضى. كانت أخبار القاهرة تصل مع سليم، مساء يوم السبت، وكأنها آتيةٌ من عالمٍ آخر، وهي أصلاً موجهة للكبار: فقد دعا إمام الأزهر إلى الجهادُ المقدس، واتبع العديد من الوزراء تدريباً عسكرياً، ووجه مئتان وأربعون ألف عاملٍ إلى عبد الناصر وثيقة تأييدٍ كتبت بالدم...

في التاسع والعشرين من تشرين الأول، كنا قد عدنا إلى مقاعد الدراسة عندما أرسلت إسرائيل دباباتها إلى سيناء. في اليوم التالي، تدخلت فرنسا وبريطانيا العظمى بدورهما «لفصل المتنازعين». إنها الحرب.

أُلصق الورق الأزرق على النوافذ، وطُليت مصابيح سيارة سليم الفيات الجديدة بالصباغ. بدأت من جديد العطلة الكبيرة، هذه المرة بجنودٍ حقيقيين وطائراتٍ إنكليزية حلّقت في سماء القاهرة بعنجهيةٍ تامة، دون أيّ رادع، وكان بإمكان القوات الأجنبية التي نزلت في بور سعيد أن تصل إلى العاصمة بين ليلةٍ وضحاها.

كانت سلوى، صديقة فيفيان المسلمة، ترغب في الذهاب إلى القنال للمشاركة في القتال، وكانت ثائرةً ضد الفرنسيين.

ـ ماذا دهاك؟ سألتها أمي بدهشة. أنت، الطالبة السابقة في مدرسة أم الرب، المشبعة بالثقافة الفرنسية... أنت لا تتحدثين إلاّ عن الفرنسيين. على حدّ علمي، هناك أيضاً الإنكليز.

ـ إنكلترا كانت دائماً عدوّةً لنا. أما فرنسا، فقد خانتنا!

أمام ذهول الجميع، انتهى «العدوان الثلاثي الغاشم» بأمرٍ من

الولايات المتحدة، ولم يعد أمام الجنود الإنكليز والفرنسيين والإسرائيليين سوى شدّ الرحال.

ـ يا للأنذال! يا لهم من أنذال! كررّ خالي بول خارجاً عن طوره.

ـ ربما تكون الولايات المتحدة قد حالت دون بقائنا في وضعٍ مقلقل، للمرة الثالثة، أجاب ميشيل بتفكّر.

ـ ما هذا الذي تقوله؟

ـ لا، لاشيء، إنها مجرد فكرة خطرت ببالي...

كان ميشيل يقول في نفسه بأنّ السوريين قد ارتموا في أحضان القوات الفرنسية عندما وصل بونابرت إلى مصر عام 1798؛ وأنهم استقبلوا المحتلّ البريطاني وكأنه المنقذ بعد ثورة عرابي عام 1882. ربما كانوا سيتحفظون أكثر هذه المرة، لكن هل كان بإمكانهم فعلاً أن يخفوا ارتياحهم لو أنّ الأمريكيين...

ـ الأمريكيون أنذال! ردد بول.

كانت مصر تحتفل بصخبٍ «بانتصارها». وفي غمرة شعور الفرح والانتقام السائدين، نُسفَ تمثال فردينان دو ليسيبس في مدخل القنال.

قال جورج بيه

ـ حين أفكّر بأنّ أبي حضر حفل تدشين هذا التمثال عام 1899...

قالت يولاند بعينين مغرورقتين:

ـ لا زلت أسمع أباك المسكين، يحكي بصوته الجميل عن ذلك الاحتفال أثناء عشاء حفل زواجنا.

ـ نظّمت حفلةٌ راقصة على متن العبّارة *إندوس Indus* التي وصل إليها الخديوي إسماعيل متأبطاً ذراع السيدة دو ليسيبس.

ـ لم تكن تلك زوجة فردينان، بل زوجة ابنه، وكانت تضع الوشاح الأكبر لجمعية ماري لويز بشكلٍ متصالب...

قالت يولاند للحضور:

ـ بمناسبة الحديث عن القنال، هل تعلمون بأنّ والد جورج كاد يصنع ثروةً في أمرٍ يتعلّق بالجرذان؟

ضابطٌ آخر كالبومة، أوقح من الأول، رنّ في الثالث والعشرين من تشرين الثاني 1956 جرس باب إدوار وميما:

ـ أمامك عشرة أيامٍ لتجمع أغراضك وتذهب لتنضمّ إلى جنودك السفلة في فرنسا.

سمُح لهما ببيع أثاث البيت. ومنذ اليوم التالي، قدّم زميلٌ للبومة نفسَه كمشترٍ لكلّ الشقة. ورأت جدّتي، والدموع تنهمر من عينيها، كنوز إدوار تختفي واحداً تلو الآخر. وحين آن أوان دفع الثمن، أعطاهما الضابط عشر المبلغ الموعود وصعد إلى الشاحنة التي انطلقت على الفور، دون أن يترك لهما المجال للاحتجاج.

يوم الرحيل، أراد إدوار أن يمنح بواب العمارة بخشيشاً سخياً، إلاّ أنّ الأخير رفض بأدب. ألحّ عليه إدوار معتقداً أنه التمنّع المعتاد، لكنّ *البواب* الذي أصمّ أذنيه قال لميما أخيراً برقة:

ـ لا، هذا اليوم حزينٌ جداً. سوف تقدّمان لي المبلغ يوم تعودان.

القسم العاشر

لا كلام ولا ظهور

1

خلق رحيل الإنكليز والفرنسيين والعديد من اليهود فراغاً كبيراً.

ـ نشعر أننا وحدنا، لاحظت فيفيان التي خسرت كثيراً من الأصدقاء.

أما سليم الذي أصبح رجل أعمال، فقد اندفع بكل قواه في التسابق على الماركات الأجنبية. كان هناك أماكن شاغرة في القطاعات التجارية كافة، إذ أنّ الشركات الغربية كانت تعمل على استبدال ممثليها المبعدين بغيرهم.

في المكتب، وقبل سنةٍ ونصف السنة، كان انتقال السلطات دراماتيكياً. فبعد أن انسحب جورج بطركاني من العمل من تلقاء ذاته، بدا وكأنه يتشبّث به. لم يبقَ إلاّ أن يتّهم سليماً بطرده منه.

زلزل هذا الوضع كيان فيفيان، وكانت تجري لاهثةً بين الاثنين، محاولةً رأب الصدع. لكن أباها لم يعد كما كان، فقد شاخ فجأةً، وأصبح كثير الدمدمة؛ ولأول مرة في حياته، أهمل هندامه؛ لم يعد باستطاعة أحدٍ أن يكلّمه.

أُسقط في يدها، فوقعت صريعة المرض. ارتفعت حرارتها، ورافق ذلك دوار ضلّل الطبيب. لم يبق أمام سليم الذي تملكه الذعر، سوى الاستنجاد بحماته.

عرفت يولاند بطركاني ما ينبغي عليها قوله؛ فلم تمضِ أربعُ

وعشرون ساعة، حتى عاد جورج بيه كما كان، فارتدى أبهى ملابسه وركض إلى سرير ابنته آمراً الطبيب بشفائها، مثلما فعل عام 1927. وبعد أسبوع، كانت فيفيان تقف على قدميها وقد فقدت خمسة كيلوغراماتٍ من وزنها، لكنها كانت متألقة.

استغل جدي قضية تركه للشركة لكي يسوّي موضوع إرثه. فوزّع حصصها بالتساوي بين أبنائه، وأهدى الأب أندريه حصته إلى الهيئة الخيرية لمدارس الصعيد. إلاّ أنّ المسألة الشائكة تمثّلت في تعيين سليم على رأس المؤسسة.

كان الرجل ذو الطربوش قد وضع أبناءه أمام الأمر الواقع. فلم يتجرأ بول أو ألكس على إبداء معارضةٍ صريحة لتعيين صهرهما، لكنه كان واضحاً أنهما يجدان صعوبةً في تقبّل تلك الترقية السريعة. لم يكن بإمكان سليم الاعتماد سوى على المساندة المتحفظة لكن القليلة الفعالية لميشيل، وعلى حياد لولا التي كانت على وشك الزواج من طبيبٍ ينتمي إلى المجتمع القبطي الراقي.

كان ألكس يستفزّ والدي باقتراحه أفكاراً جديدة عجيبة: كالحصول على امتيازٍ من صانع أسلحة جنوب ـ أفريقي، أو استبدال الممثلين التجاريين بممثّلاتٍ تجاريات مغناجات... وذات مساء، أطلق سليم، الذي أصبح على حافة الانهيار العصبي، لغضبه العنان بعد أن تلقّى اتصالاً هاتفياً من ألكس في الثانية عشرة إلا ربعاً ليلاً، يقترح فيه عليه إقامة صالة رياضية في المكتب.

ـ لمَ لا تعطيه مركزاً في المؤسسة؟ قالت فيفيان.

ـ ماذا! أعطي مركزاً لهذا *البهلوان*!

ـ بالضبط...

بعد ليلةٍ من التفكير، عرض أبي على ألكس لقباً مبهماً يوفّر له راتباً محترماً جداً ولا يتضمّن أية التزامات: مدير تطوير المبيعات. إنما اتُّفق على أنّ حامل اللقب لا علاقة له بالقطاعات التي تغطيها المؤسسة أصلاً، أي المنتجات الصيدلانية والعطور والدانتيل والآلات المكَنية: فدوره يتمثّل تحديداً في فتح آفاقٍ جديدة.

طرب ألكس لهذا العرض. إلاّ أنه بدأ بمنح نفسه إجازةً لمدة ستة أسابيع للمشاركة في رحلة سفاري بالسيارات في أفريقيا. ولدى عودته، كرّس ستة أسابيع أخرى للحديث عن الأدغال والقرود والفيَلة. كان مدير تطوير المبيعات يمرّ على المكتب مروراً سريعاً قبيل مغيب الشمس، ويعطي السكرتيرة تعليماتٍ فوضوية لا يلبث سليم أن يلغيها...

لكنّ الوضع مع بول بطركاني كان شيئاً مختلفاً وأصعب بكثير. فقد كان يعتبر نفسه منذ وقتٍ طويل وريث أبيه الطبيعي في المؤسسة، ولم يفهم لماذا فضّل عليه شخصاً غريباً. وباعتباره محامي المؤسسة، فقد كان يعرف كلّ دقائقها، ويستطيع بالتالي أن يعارض قرارات سليم بحججٍ ليس لها دائماً ما يبررها. واضطر أبي إلى خوض حرب خنادقٍ، بانتظار أيامٍ أفضل.

أدّت وفاة مكرم في حزيران 1956إلى أوّل تغييرٍ في المحيط. فلم يكن سليم يشعر بالارتياح للعمل مع خبير المحاسبة المتشبّث بطرقه التقليدية، والذي استمر في اعتباره مبتدئاً. كان من الصعوبة بمكانٍ أن يعانده بسبب أقدميته وصداقته القديمة مع جدّي.

ولإشغال هذا المنصب، فكّر سليم على الفور برنيه عبد المسيح، الذي يدير مكتباً كخبيرٍ في المحاسبة، متواضعاً نوعاً ما، إلاّ أنه يتمتع بسمعةٍ جيدة. إنه رنيه، الصديق المبارك الذي قابل بفضله فيفيان، بعد ظهر أحد أيام تموز 1942، في سينما مترو؛ رنيه، الذي قابلها عنده من جديد بعد عامين ونصف في ليلة رأس السنة...

عارض بول بالطبع هذا الخيار. إلاّ أنّه لم يكن لديه بديلٌ فوري، في حين كانت المراقبة الضريبية الجارية تتطلّب إيجاد خبيرٍ بأقصى سرعة. وهكذا، استلم رنيه مهامه.

منذ ذلك الحين، أصبحت معظم القرارات المتعلقة بالعمل تُتّخذ على انفراد بينهما. وإذا كان جورج ومكرم يتناقشان في السابق في شبه عتمة، فإنّ سليماً ورنيه كانا يثرثران معاً تحت نورٍ ساطع،

وسط ضجيج أجهزة التكييف، مثلما كانا يفعلان أثناء الاستراحات في سينما مترو...

في آذار 1957، علم أبي بالمصادفة بأنّ مصنّعاً ألمانياً كبيراً للأثاث المكتبي يحاول أن يجد له موطئ قدم في مصر. كانت تلك صفقةً كبيرة، فتحرّر من كافة أعبائه الأخرى، وعمل بكدٍ، بل إنّه نام في المكتب عدة مرات رغم احتجاجات فيفيان؛ وقد أغرق سليم إدوار ديلليم بالبرقيات، وأقنعه بالذهاب مرتين إلى ميونيخ ليزكّيه. ثمّ تمكّن، بفضل زبونٍ مصريٍّ من ذوي النفوذ، من الحصول على سمة خروج، فقام برحلة سريعةٍ إلى بافاريا، توّجها بانتزاع العقد.

في ساحة الأوبرا، فُتحت زجاجات الشمبانيا بوجود جورج بطركاني الذي حضر خصيصاً لهذه المناسبة. وحتّى بول نفسه اضطر للإقرار بأنّها ضربةٌ جدّ موفّقة. وبالفعل، فقد أعانت سليماً على توطيد مركزه.

بعد فترةٍ وجيزة، أصدرت الحكومة تشريعاً أصبح بموجبه استخدام اللغة العربية إلزامياً في كافة العمليات التجارية والمالية. امتعض بولس، الفرانكوفوني بحكم المبدأ والعادة، من ذلك الإجراء، في حين اتخذه سليم ذريعةً لتغيير أسلوب عمل المكتب ومجلس الإدارة... لقد انفرد أخيراً بالسلطة.

شيئاً فشيئاً، تقمّص ربّ العمل شخصية جورج بيه، فأصبح يدخّن سيجار الهافانا، ويخيط ملابسه عند الخياط القاهريّ نفسه، ويغيّر سيارته كلّ عام، وازداد وزنه قليلاً. وذات سبتٍ من أيلول 1957، انتزعت فيفيان من رأسه وهي تضحك أول شعرةٍ بيضاء، وكان يستعدّ للذهاب إلى نادي سبورتنغ هليوبوليس للعب البريدج.

أصبح بإمكان سليم، الذي تضاعف دخله عشر مراتٍ، أن يحقق حلماً قديماً: أن يبني في هليوبوليس الدارة التي حلم أبوه بها قبيل وفاته عام 1924. كانت ميما قد احتفظت في خزانة بالمخططات التي لم تتطلّب سوى بعض التعديلات.

أصبح عدد سكان المدينة التي أنشأها البارون أمبان بحدود مئة ألف نسمة، وأُشغلت الأراضي المحيطة بالكاتدرائية كافة منذ وقتٍ طويل، إلاّ أنّه كان ما يزال هناك بعض المواقع الجميلة في حيّ القصور.

على بُعد ثلاثمئة مترٍ من ثانوية اليسوعيين الصغيرة، وعلى طرف الصحراء، بدأ في تشرين الأول 1957 بناء دارةٍ أنيقة، ذات سطيحةٍ حجريةٍ على الطراز القديم. ومن بين غرف النوم السبعة، خصصت واحدة لميما، عندما ستعود إلى مصر مع إدوار ديلليم...

2

ساد في القاهرة جو خوفٍ حقيقيٌ من التجسس، وأصبح الناس يعتقدون بأنّهم يرون الميكروفونات في كل مكان، وباتوا يرتابون حتى في خدمهم. وأثناء غداء الأحد في بيت جدّي، كانت الأحاديث تتوقف فجأةً بمجرد دخول *السفرجي* إلى غرفة الطعام. كلّ شخصٍ كان يشعر بأنه مراقب ويظنّ بأنّ لديه ما يلام عليه: تصريح ناقصٌ للضرائب، أموالٌ منقولةٌ إلى أوروبا، ملاحظةٌ متهورة...

طلب فكتور ليفي، الذي اضطر، وقلبه يتمزق، إلى مغادرة مصر بعد «العدوان الثلاثي الغاشم»، طلب من ميشيل ألاّ يرافقه إلى المطار:

ـ لا أسهل من أن يتهموك بأنك صهيوني... سألوم نفسي كثيراً لو تسببت لك بالمتاعب!

وللاتصال بشخصٍ في الخارج، كان ينبغي اللجوء إلى حيلٍ خفيةٍ دقيقة. في بداية 1957، كتب جورج بطركاني رسالةً بارعةً إلى إدوار ديلليم يعلمه فيها ببيع بعض الأشياء التي أودعها عنده سراً قبل طرده، ولم يفهم منها مراقبو القاهرة شيئاً. إلاّ أن البريد الفرنسي أعاد الرسالة إلى مرسلها لأنّ الطابع الملصق عليها يمجّد «الانتصار» المصري في السويس.

في ذلك اليوم، تجاهل جورج بيه غاضباً الميكروفونات والجواسيس، وجعل الجدران التي لها آذان ترتجف وهو يرعد ضد «أولئك الفرنسيين الأوغاد».

22 كانون الثاني 1957

...يا للتوتر الذي سببته رسالة عادت إلى مرسلها! بعد أن أرغى وأزبد، انغلق بابا على نفسه في نوع من الحرد الصامت الذي لم يكن من طباعه. ربما كان ذلك بفعل الشيخوخة... البارحة، أفلتت منه عبارةٌ مريرة: «أما الماضي، فقد كان له مستقبل»!

15 شباط 1957

يوماً بعد يوم، يزداد عدد اليونانيين الذين يصفّون أعمالهم ويتركون مصر. إنها هجرةٌ حقيقية؛ ويقال بأنّ إسكندريةً جديدة آخذة بالنشوء في ضواحي أثينا. من أصل مئة وعشرين ألف يونانيٍّ كانوا في مصر قبل الحرب، هل بقي نصفهم فقط؟

13 آذار 1957

أحدث طرد الأب شدياق صدمةً لدينا. كان من المتّفق عليه أن يأتي للغداء عندنا يوم الأحد القادم... لم تتقبّل السلطات أبداً المقالة التي نشرها في صحيفة «شعاع مصر» والتي دان فيها تسريح الموظفين والمستخدمين المسيحيين.

30 نيسان 1957

رحيل الإنكليز والفرنسيين أبرز الأمريكيين الذين يحارون كيف يتقرّبون من الناس. بعضهم اعتقد بأنّ عليه لبس الطربوش! بابا نفسه يجد الأمر سخيفاً...

31 تموز 1957

تمّ إصدار طابعٍ بعشرة ميلليمات بمناسبة افتتاح فندق شيبرد الجديد قرب جسر قصر النيل. تسعة طوابق مجهّزة كلّها بالهواء المكيّف. «سوف أغيّر طريقي كلّ مرة كيلا أرى هذه الفظاعة»، قال بابا. سوف يؤيده بالتأكيد إدوار ديلليم الذي مايزال يأمل في الحصول على سمة دخول ليستطيع العودة إلى مصر مع زوجته.

في الشهر الماضي، ذهب إدوار إلى ميونيخ خصّيصاً ليتصفّح... الكتاب الذهبي الثالث للشيبرد القديم الذي يقال بأنه كان ملكاً شخصياً لفريدّي إلورت، مدير الفندق في الثلاثينات، وأنه أخذه معه حين ترك مصر عشية الحرب.

22 شباط 1958

لم يعد هناك لا مصر ولا سوريا، فقد وُلدت الجمهورية العربية المتحدة، وبموجب المرسوم، كلّنا عرب. «مبروك»! قال لي بائع السجاد في ميدان الإسماعيلية. «لا بدّ أن هذه الوحدة تسعدكم كثيراً، أنتم سوريو مصر». لو أنه يعلم... لقد لاحظت على أي حال بأنّه استبدل بصورة عبد الناصر صورة السلطان حسين.

«لو أنه يعلم...». إنّ حكام دمشق، الذين لم يكونوا يتمتعون بالسحر المقلق الذي يتمتع به عبد الناصر، لم يوحوا لنا بأي اطمئنان. وقد عنى لنا اتحاد سوريا ومصر خوفاً مضاعفاً.

على كلّ حال، فإنني ألاحظ بأنّ ميشيل لم يكن حذراً، إذ لو أنّ المخابرات كانت تضع الميكروفونات وتفتح الرسائل، فما الذي كان سيمنعها من قراءة دفتر مذكرات؟ لابدّ أنّ عرّابي كان شارداً أكثر مما ينبغي، فلم يحسب حساب مثل ذلك الخطر. أو ربما شعر بأنه بعيدٌ عن الخطر لأنه يكتب بالفرنسية، وكأنه لم يكن بإمكان أشخاصٍ غير قادرين على سرد لافونتين انتهاك حرمة حديقته السرية... وفي نهاية المطاف، يبدو بأنّ مخابرات عبد الناصر لم تكن تخيفه بمقدار ما أخافته في الماضي الآنسة غيومار، التي كانت، بفضولها، قادرةً على اكتشاف الدفتر المخبأ تحت الفراش في أية لحظة.

3

دُفن جورج بطركاني في مقبرة الروم الكاثوليك في القاهرة القديمة بعد ظهر يوم جميل من أيام نيسان 1958. كان الجوّ لطيفاً جداً، والهواء الذي يعبق برائحة الربيع كان يوحي بحفلة عرس، وقد امتدّت شجيرات «الجهنّمية» على طول تلك الحديقة المنخفضة والتي يتوسطها مدفن آل صيدناوي، الكبير والمسيج.

بقامتيهما اللتين تتجاوزان بكثيرٍ قامتها، أحاط ألكس وميشيل بجدّتي وأسنداها، بل كادا يحملانها. كانت تبكي بحرقةٍ حتّى بدا فيض دموعها المنسكب أكبر من طاقة عينيها الاثنتين. تجنب ابناها النظر إليها خجلاً، أو ربما خوفاً من أن تتنقل إليهما عدوى البكاء... بدا ميشيل، النحيل كما هو دوماً، شاحب الوجه. أما ألكس، فكان رصيناً هذه المرة، الأمر الذي لم يكن يلائمه ويجعله يبدو أكبر سناً.

بقيتُ بعيداً نوعاً ما، على طرف المدفن، أتأمل أولئك الأشخاص في ملابس الحِداد. تلك كانت أول مرةٍ أدخل فيها إلى المقبرة.

وقفت فيفيان ولولا جنباً إلى جنب، رائعتين في فستانيهما الأسودين؛ كانتا تقدّمان للحضور صورةً جديدةً ومثيرةً لفتيات آل بطركاني. وزاد من جمالهما نظاراتٌ سوداء كبيرة حجبت وجهيهما الخاليين من كلّ زينة.

بدا بول وكأنه ينظر إلى البعيد، كما لو أنّ مستقبله لم يعد هنا؛

فمنذ عدة شهورٍ وهو يخطط بجديةٍ لترك مصر. لقد أجاز له موت والده بطريقةٍ ما أن يقلب الصفحة. «وأرجو منك ألاّ تحضر أبداً بعد الآن إلى المصنع وعلى رأسك قبعة. هذا غير معقول! لا أحد يتخيل ابن هنري فورد يقود سيارة بونتياك أو كرايسلر...» خلال رحلةٍ له إلى برلين عام 1933، سقطت صورةٌ من محفظة بول: كانت صورةً لجورج بيه بالطربوش. «من هذا؟» سأله الألماني الذي كان بصحبته. «لا، لاشيء، إنها صورة البواب»، أجاب بولس الذي كان يرى تلك العمرة مضحكةً.

أقام الأب أندريه القدّاس بصوتٍ راجف، وهو ساهٍ نوعاً ما. ربما كان يفكر بذلك اليوم المشهود من عام 1921 حين أعلن رغبته في أن يصبح يسوعياً، وتلقّى إجابةً مدهشة: «عائلةٌ مثل عائلتنا لم تخلق لتقدّم الرهبان، بل لتدير الكنيسة». كما لم يكن في مقدوره أن ينسى تلك الصرخة النابعة من القلب الصادرة فيما بعد عن جورج بيه والتي اختصرت تاريخ أجيالٍ من السوريين: «أنت لم تفهم شيئاً، *يا ابني*. فلأننا صغارٌ، علينا أن نبدو كباراً». كانت أول رسالةٍ كتبها له أبوه وتلقاها في ليون عام 1926 مكتوبةً بالحبر الأخضر. وقتها، كاد يغمى عليه من السعادة...

كان ميشيل يأسف لأنّ جورج لم يستدعِ أبناءه الستة عشية رحيله ليتحدّث إليهم، على طريقة فلاّح لافونتين. لكن لسوء الحظ، فإنّ أمور الحياة لا تسير مثلما يحصل في الحكايات...

أمضت فيفيان طوال بعد ظهر يوم الأربعاء قرب سرير والدها الذي لم يكفّ عن الابتسام لها وهو يتفوه بين حينٍ وآخر بجملٍ مسموعةٍ بالكاد. فقد ذكر للمرة المئة مولدها عام 1922، لائماً ماغي لأنها لم تعلن له الحدث السعيد كما ينبغي.

كانت فيفيان تتذكر باضطرابٍ اندفاعه إلى غرفتها في قسم التوليد بالمشفى الفرنسي في العباسية، يوم ولادتي، والسائق يتبعه، حاملاً سلّةً ضخمةً من الورود. «*مبروك، ألف مبروك...*» غضب سليم وقتها كثيراً لأنّهم أطلقوا عليّ اسم شارل، لكنه هدأ قليلاً حين هنّأه البروفسور مارتان بيرار على ذلك الاختيار.

أربعة أسماءٍ حفرت على المدفن، على رأسها اسم ليندا، جدة أمي (1847 ـ 1894)، أول أفراد عائلة بطركاني من سلالتنا يدفن في مصر؛ ثم اسم الياس (1841 ـ 1920) الذي بنى تلك الشاهدة الكبيرة المصنوعة من رخام إيطاليٍّ والتي تعلوها يمامة؛ وأخيراً اسما شارل (1909) الذي توفّي بعد ولادته مباشرةً والذي أدين له باسمي، ونـاندو (1870 ـ 1934) الذي ذُبح كالنعجة...

كان إدوار ديلليم، ممسكاً بيد ميما، ينظر إلى التابوت الذي وُضع فوقه طربوش. خُيّل إليه أنّه يسمع صوت جورج بيه: «ماذا نفعل، عزيزي إدوار، هذا بلدٌ عاش فيه الناس دوماً بأقدام حافية ورؤوسٍ مغطاة، فهم ينطلقون من مبدأ أنّ البرد يصيب المرء من رأسه، وهذا يجيز لهم بأن يفكروا كالحمقى(*)...» باختفاء جدّي، كانت مصر بأكملها تختفي، مصر عذبةٌ وتراجيدية، بملامح مصطنعة.

عاد إدوار إلى مصر مع ميما منذ إعادة فتح البلاد أمام المواطنين الفرنسيين، ووجدا شقةً في الزمالك، في عمارتهما القديمة نفسها. كان البواب ينتظرهما أمام الباب، والدموع تملأ عينيه. وبفضل أبي، كان الفرنسي قد افتتح قبل فترةٍ وجيزة معرضاً للعاديّات في ساحة الأوبرا، أصغر من سابقه.

«إدوار، يا عزيزي، هناك كلمتان لابدّ لك من تعلّمهما: الأولى هي كلمة *معليش* التي تعني «لا بأس»، والثانية هي بكره التي تعني «غداً»... لكن، أمام هذا التابوت الذي ترسم عليه الشمس خطوطاً من ضياء، من كان قادراً على أن يقول *معليش*؟ من كان بوسعه أن يفكّر بِ بكره؟

أخذ سليم ينظر إلى شجيرات «الجهنمية» ليخفي اضطرابه. لقد تيتّم أول مرة في الرابعة من عمره، وهاهو اليوم يصبح يتيماً مرةً أخرى. «ما رأيك بهذه الحلوى؟» سأله جورج بيه خلال أول لقاءٍ

(*) هنا لعبةٌ لفظية من المؤلف، حيث يستعمل كلمة pied مرتين: في المرة الأولى بالمعنى المعتاد للكلمة أي *قدم*، والثانية بمعنى مجازي هو *أحمق*. م.

لهما في محلّ غروبّي عام 1944. في ذلك المساء، قالت له فيفيان بالهاتف: «لقد وجدك بابا ساحراً...».

خلال عبور موكب الجنازة للقاهرة القديمة، اصطدم بكومةٍ من الحجارة، مثلما حصل في جنازة أحد الأقارب في الشتاء السابق. هذه المرة، أصيبت سيارة أبي الأولدزموبيل البرّاقة في جانبها. هل سيعمل على استبدال الجناح في اليوم التالي؟ أم سيتّخذها ذريعةً لتبديل السيارة وشراء سيارة البويك الجديدة التي وصلت لتوها إلى وكيل جنرال موتورز؟ فكّر سليم بأنّ حماه كان سيعتمد الحلّ الثاني. سيشتري البويك حمراء، فلم يعد ذلك اللون ممنوعاً منذ الثورة. «هاكم خبراً جيداً يا أولادي: فجنرالكم نجيب الذي أخذ منا كل شيء قد أعاد لنا إحدى الحريّات الأساسية...».

بعينين نصف مغمضتين، وظلّ ابتسامةٍ يطوف على شفتيها، استعادت ماغي توتة لازمة أغنية *فالنتين*. كانت تحسّ على وجهها أنفاس ذلك الرجل الذي يعيش في خلاياها منذ نصف قرن. وللمرة الأولى، بدت ماغي امرأةً عجوزاً، لكنها عجوزٌ مهيبة جداً. لقد عاهدت نفسها ألاّ تذرف دمعةً واحدة في المقبرة: فليولاند وحدها الحق في أن تبكي جورج بطركاني أمام كلّ هؤلاء الناس. في الصباح، تعانقت الأختان دون كلمةٍ واحدة. وهل هناك ما يقال؟

اشتدّ بكاء جدّتي حين رفعوا الطربوش لينزلوا التابوت في المدفن، فسحبها أبناؤها باتجاه المخرج. وقفت لولا وفيفيان قرب أمهما وأحاطتاها بعباراتٍ عاقلة، لكن غير مجدية.

هبّت نسمةٌ مشاكسة عكّرت هدوء شجيرات «الجهنمية»، وتظاهر حارس المقبرة برفض الإكراميات التي منحوه إياها وهم يمرون. وقفتُ بجانبه أراقب ذلك المشهد. كانت الحياة تعود إلى مجراها، أما بالنسبة لي، فكانت ماتزال تبدأ.

4

في تلك السنوات، كان أكثر ما أخشاه في الثانوية هو أن أصادف الأب أندريه في الممرات، إذ لم أكن أعرف كيف أتصرّف في مثل تلك الحالة. لم يكن هذا الأمر يسبب أية مشكلةٍ في البيت: فقد كان خالي يأخذ بنفسه مبادرة تقبيلنا واحداً تلو الآخر، ولحيته الرمادية تخز خدودنا. لكن في هذه الممرات؟ كنت أختبئ لمجرد سماعي صوت صرير حذاءٍ من الكريب، هارباً من نظرات زملائي. أما الأب أندريه، فلم يكن يبدو مرتبكاً: إذ كان يوجّه لي إشارةً لطيفةً بيده، ابتسامةً خفيفة، ثم يتابع طريقه.

لكن في يوم الأربعاء ذلك، ولأول مرة، لم يكن أندريه بطركاني يبتسم، ولم يكن أيّ أستاذٍ آخر يفعل ذلك. فبعد أن صودرت بفظاظةٍ في السادس والعشرين من كانون الثاني 1959، كانت ثانوية العائلة المقدسة تفتح أبوابها من جديد، بإدارة مديرٍ مصري عيّنته الحكومة. هذا الرجل الطيب الذي استقرّ في مكتب الأب المدير لم يطمئِن اليسوعيين حين أعلن لهم:

ـ أنا أحبّ الثقافة الفرنسية، وقد درست في *السوربُن*(*) *Sorbon*.

فقد اتُهمت الثانوية بأنها تقدّم «تعليماً لا يتلاءم مع المشاعر الوطنية للعرب». وتجسّد الجرم بوجود عدة كتبٍ مدرسية مطبوعةٍ في فرنسا، «تمجّد إسرائيل وتنشر حبّ فرنسا». ويبدو أنّ الواشي

(*) الكلمة الصحيحة هي السوربون Sorbonne . م.

قد اتهم الآباء بأنّهم جواسيس إسرائيليون، فقد نزل رجال شرطةٍ باللباس المدني إلى الأقبية بحثاً عن أجهزة بثّ، ولم يجدوا شيئاً بالطبع.

بعد ختم المدرسة بالشمع الأحمر، قام اليسوعيون بجرد كل شيء، إلى درجة عدّ الملاعق الصغيرة. وجّهت إلى الأب المدير، وكان فرنسياً، مذكّرة طردٍ من البلاد. وقد تمكّن سفير الفاتيكان في نهاية المطاف من إبطال هذا الإجراء وإلغاء المصادرة، لكن اندمال الجرح سوف يستغرق وقتاً طويلاً.

وصل الرئيس عبد الناصر إلى الثانوية في سيارة كاديلاك سوداء، يتقدّمها ستةٌ من رجال الشرطة على دراجاتهم النارية. كان في انتظاره أمام درج المدخل سفير فرنسا والأب المدير، وكذلك قسمٌ كبيرٌ من أعضاء الهيئة التعليمية.

عندما دخل *الرئيس* غرفة الصفّ التاسع، محاطاً بالشخصيات المرافقة له، اندفعنا نحن الطلاب للوقوف بشبه استعداد، نكاد لا نجرؤ على النظر إلى هذا الرجل المهيب ذي الوجه الأليف الذي كان خالياً هذا الصباح من ابتسامته الشهيرة.

نزل الأب كورنر عن منبره ليحيّي الرئيس ويعلمه بأنّ درس اللغة الفرنسية يدور حول لافونتين، وكان مجهولٌ ببدلةٍ قاتمة يترجم أقوال اليسوعي *للرئيس* بصوتٍ منخفض. ثمّ انحنى الأب كورنر انحناءةً خفيفة، واستدار نحو الطلاّب وقال وهو يميّز كلماته:

- ميشيل بطركاني، هل يمكنك...

لكنه استدرك قائلاً بنفس النبرة:

- شارل يارد، هل تستطيع أن تسرد أمام سيادة رئيس الجمهورية *الفلاّح وأولاده*؟

وقفتُ جاهزاً للإلقاء، إلاّ أنّ عبد الناصر استدار نحو المترجم قائلاً بلهجةٍ جافة:

ـ أريد أن أسمع شعراً بالعربية.

واقفاً، بذراعين متدلّيين، أطلقتُ نظراتٍ مرتاعة نحو الأب كورنر، نحو الرئيس، نحو السفير... وانتهى بي الأمر إلى الاعتراف بصوتٍ خجولٍ بأنني لا أعرف أية قصيدةٍ بالعربية.

قذفني عبد الناصر بنظرةٍ يتطاير منها الشرر قبل أن يستدير على عقبيه ويخرج من الصف، متبوعاً باليسوعيين المذعورين.

استيقظت راجفاً، ووجهي سابحٌ بالعرق...

ـ يا لها من قصةٍ غريبة! قال لي ميشيل بابتسامة حين رويت له حلمي.

كنت، في الحقيقة، أحفظ قصيدتين أو ثلاثاً بالعربية درسناها خلال السنة الدراسية، الأمر الذي زاد في اضطرابي.

ـ أنت لا تعرف تلك القصائد جيداً، أكّد عرّابي. أنت تعرف كيف تلقيها، وهذا مختلف. لكن هناك ما هو أسوأ: فحين كانت خالتك لولا في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها، كانت تجعل أحداً ما يكتب لها بالأحرف الفرنسية سطرين من العربية يتوجب عليها حفظهما.

ميشيل نفسه كان عاجزاً، وأنا متأكّدٌ من ذلك، عن سرد قصيدةٍ كاملة بالعربية. إلاّ أنني كثيراً ما سمعته يلقي مقاطع بأكملها لشعراء مصريين يكتبون بالفرنسية، كمحمد خيري الذي قابله في الماضي في صالون آمي خير أو صالون كيتي ليمونجيللي الأدبيين:

قلبك المرتعش، أيتها النرجيلة

حين أعبّ بخور روحك

أخاله قلباً، قلب امرأة

أقلقته نسمةٌ شاردة

أو:

في الضوء الساطع، مشهدٌ رحب

لنخلاتٍ، لغيضاتٍ، في بقاعٍ ساحرة
تنتصب في السماء، حيث تحوّم
أسرابٌ كبيرة من طيورٍ ضخمة

كان ميشيل يعرف من العربية ما يكفي لقراءة *الأهرام* كلّ صباح وللتفاوض مع موظّفٍ أو مع تاجر. لكنه لم يكن يجيدها مثل أبي الذي تكلّمها في البيت طوال فترة طفولته، أو مثل أندريه الذي عاد للتبحّر، خلال دراساته اليسوعية الطويلة، في دقائق *الهمزة، والمدّة والتنوين*.

ـ سوريو مصر لا يُغفر لهم، كان اليسوعي يقول، فالطريقة التي أهمل بها العديد منهم اللغة العربية إجرامية. أنا أخجل حين أسمع شقيقتيّ ترطنان بهذه الطريقة مع الخدم. حين أفكّر بأنّ السوريين كانوا على قمة النهضة الثقافية في مصر في نهاية القرن الماضي! فقد اعتُبر خليل مطران سيد الشعر العربي المعاصر دون منازع! والأخوان تقلا أسسا *الأهرام*؛ كما أنشأ جورج أبيض المسرح المحلي. وحتى اليوم، كيف سيكون المسرح الشعبي دون سوريٍّ مثل نجيب الريحاني؟ وهل هناك سينما مصرية لولا يوسف شاهين؟

كان تعليم اللغة العربية في الثانوية قد تحسّن منذ بعض الوقت بطلبٍ من العائلات السورية التي أدركت بأنّ أولادها لن يكون لهم غنىً عن تلك اللغة بعد الآن. لم يكن لدى الأقباط والمسلمين مشكلة: فأولادهم يتقنون العربية أصلاً؛ لذلك، فقد كانوا يناضلون من أجل تحسين تعليم الإنكليزية. أما اليسوعيون، فكانوا حماة الفرنسية.

ـ نحن لا ندافع عنها لذاتها، شرح الأب أندريه، بل لأنها أداةٌ للتأهيل الثقافي ومدخلٌ للغاتٍ أخرى. أتذكّر دعابة مفتّش اللغة العربية الذي ذهب إلى مفتّش اللغة الفرنسية يشتكي: «لكن يا أبي، ماذا يفعل أساتذتك الذين يدرّسون الفرنسية بطلاّبنا؟ إنهم لم يعودوا يعرفون العربية!».

5

في آذار 1959، ذهبت السويسرية إلى سان موريتز، ولحق بها بول والصبيّان في الشهر التالي بفضل سمة خروجٍ سياحية دُفع ثمنها غالياً. سافر ومعه حقيبتان، ولم يكن معه من مالٍ سوى الجنيهات المصرية القليلة التي يسمح القانون بإخراجها. إلاّ أنّ بولس كان قد كوّن لنفسه خلال أعوام رأسمالاً في سويسرا، واستطاع أن يرسل إلى جنيف ملء خزّانةٍ كاملة من الملابس، والعديد من قطع الأثاث الثمينة، بفضل رخصة تصديرٍ اشتراها من وسيطٍ جمركيٍّ، كان بدوره قد اشتراها من مقيمٍ إيطاليٍّ على وشك السفر...

إذا كان رحيل بول بطركاني لم يدهش أحداً، فإنّ رحيل جان يارد، شقيق أبي، أثار ضجةً كبيرة.

ـ إلى أين يرحل، أرجوك؟

ـ إلى كندا، يا حبيبتي.

ـ إلى كندا؟ إنه مجنون! سوف يصاب بالبرد.

تمكّن جان، مسلّحاً بشهادته التقنية، من الحصول على فيزا هجرة: إذ أنّ الكنديين كانوا يفتحون أبوابهم بسهولةٍ أمام الأشخاص المؤهلين. كان سليم ينعت أخاه بالأهبل.

ـ ماذا ستفعل في بلدٍ صقيعيٍّ في نهاية العالم؟ لن تتمكن من

الصمود شهرين. أرجو على الأقل أن تكون قد حجزت البطاقة ذهاباً - إياباً: فهي أرخص ثمناً...

لم يكن والدي يفهم كل تلك الهجرات، فقد كان يشعر وكأنه ملكٌ في مصر، إذ أنه كان عضواً في نادي هليوبوليس الروتاري، وكان يلعب البريدج مرّةً كل ثلاثة أسابيع في نادي السبورتنغ. صحيحٌ أنّ العديد من الوجوه التي يعرفها قد اختفت، وأنّ المنتجات الأجنبية لم تعد متوافرةً في المحلاّت، بل إنّ بعض المواد الغذائية خضعت للتقنين. إلاّ أنّ الحياة ظلّت شديدة العذوبة لمن يملك المال، وهو لم يملك منه يوماً مثلما يملك الآن. كان عمله مزدهراً، رغم مضايقاتٍ من كلّ الأشكال، لم تكن تسوّى إلاّ بالرشاوى.

سمحت الوحدة المصرية - السورية على الأقل بالعبور دون حواجز إلى «الإقليم الشمالي». وهكذا، رحل ألكس مع عائلته إلى دمشق، ولم يجد صعوبةً تذكر في الذهاب منها إلى بيروت ليستقرّ فيها نهائياً.

- إنها هجرة الأدمغة، علّق سليم بمرح.

لم يعد ألكس يحلف إلاّ بلبنان - «بلد آبائنا» - الذي كان جوّ الحرية وصوت آلات النقود فيه يملآنه بالحماس. وبعد ستة أشهر، أصبح يجيد التكلّم بالعربية، باللهجة المحلية، مطعّماً جمله بكلماتٍ مثل *«شو»؟* و*«ولوّ»!*. على الأقل، لم تكن لهجته تفضحه على بعد مئة متر، مثل كثيرٍ من المصريين الآخرين...

كان الأب أندريه على صلةٍ بعائلاتٍ قاهريةٍ كثيرة عبر الثانوية والمجموعات الأسرية، ولم يكن يؤيّد هذه الموجة من الرحيل، معبّراً عن رأيه بصراحة، متهماً من يرحلون بالتخلّي، لا بل بالهروب. وأصبح وجوده أثناء غداء أيام الأحد يخلق توتراً كبيراً.

- لكن يا أندريه، تقول لولا، ألا ترى بأنّ المسيحيين يجدون صعوبةً متزايدة في العمل هنا؟ الأقباط أنفسهم استنفدت قواهم! ففي عائلة زوجي...

- يشعر المرء بأنه مراقب، ولم يعد من حقّه أن يتكلّم بحريّة،

يتابع أحد أبناء هنري توتة. وعلاوةً على ذلك، لم يعد أحدٌ منّا يجرؤ على إظهار ثرائه.

علّق ميشيل مبتسماً:

ـ لا كلام ولا ظهور. لقد حُرِمَ السوريون من أكبر لذّتين في الوجود...

إلاّ أنّ اليسوعيّ لم يكن في مزاجٍ يسمح بالمزاح.

ـ المسيحية، قال، لا تكون أبداً في خطر عندما تتناقص امتيازات المسيحيين. بل على العكس، تكون الكنيسة قويةً عندما تكون محرومة.

ـ لكن يا أندريه...

ـ هناك في بلدانٍ أخرى مسيحيون تفوق آلامهم آلامنا مراتٍ. لمَ لا نأخذ نصيبنا من عذاب العالَم؟ الحقيقة أنّ قرناً من الحياة السهلة قد أفسدنا. لقد عانى أسلافنا ما هو أسوأ بكثير. حين أفكّر بجدّتنا، ليندا، وهي تهرب من الموت عام 1860 في شوارع دمشق التي تناثرت عليها الدماء... أما اليوم، فإنّ أبسط قدرٍ من الضيق يجعل حياتنا غير محتملة، فنستسلم ونسعى للرحيل بدلاً من الكفاح.

ـ عليك الإقرار مع ذلك بأنّه ليس من السهل...

ـ الحياة مواسم. لقد عرفنا صيفاً طويلاً، واليوم جاء دور الشتاء. وماذا في ذلك؟ إنّ الربيع قادم...

هزّ سليم رأسه، مؤيداً موقف اليسوعي، رغم أنّه في وادٍ آخر، بعيداً ألف ميلٍ عن تلك القصص المتعلقة بالكنيسة والحرمان والفصول... كان يفتقد حَماه.

6

أخذ كلبا الحراسة المقيدان ينبحان بشدة. اقتربت فيفيان من الباب ـ النافذة في غرفة نومها وأبعدت الستارة الحريرية، فلم ترَ سوى سيارة رمسيس سوداء متوقفةً أمام الباب، وسائقاً جالساً خلف مقودها.

ـ إنّه ضابطٌ يطلب *الخواجة*، همس لها الخادم الذي راعته على ما يبدو رؤية البدلة العسكرية، بعد أن دعا الزائر للانتظار في بهو الدخول.

كان الضابط قد احتفظ بالنظارات الداكنة، لكن حتى بعد أن خلعها، تطلّب الأمر من أمي بضع لحظاتٍ قبل أن تتعرف إلى حسن.

هو! كم تغير! أيّ فارقٍ بينه وبين *اليوزباشي* العصبي، المهيض الجناح بسبب حرب فلسطين، الذي حضر إلى بيت غاردن سيتي قبل اثني عشر عاماً! لقد اكتنزت قسماته، وامتلأ صدره بالأوسمة. ولاحت على محيّا ابن شقيق رشيد ثقة بارونٍ من العهد الجديد، وابتسامته المزهوة.

ـ يا له من بيتٍ جميل! قال بعذوبة. أعتقد أنّه حديث البناء.

ـ ما سبب تشريفك؟

ـ جئت لمقابلة *الخواجة* في شأنٍ يتعلّق بعمله.

ـ زوجي ليس هنا، فهو يكون في مكتبه في مثل هذه الساعة.

ثمّ أدركت بديهيةّ ملاحظتها: فلكي يقابل المرء مدير شركة، هل يذهب إلى بيته، يوم أربعاء، في العاشرة والنصف صباحاً؟

ـ يا خسارة! قال العقيد حسن صبري. وأنا الذي أتيت من العباسية...

لم تجد أمي بداً من دعوته للجلوس، وأمرت *السفرجي* بإحضار المرطبات، وهي تنوي بحزم ألاّ تفوّت موعد تمرين التنس في الساعة الحادية عشرة في نادي هليوبوليس الرياضي.

تضايقت فيفيان من النظارات السوداء التي احتمى حسن خلفها من جديد ـ هؤلاء الناس لا يعرفون كيف يتصرّفون ـ كان نقص طلاقتها في اللغة العربية يكبّلها، فجهدت في الحديث عن أمورٍ عادية:

ـ لقد توفي أبي منذ عامين.

ـ رحمه الله!

ـ كان في الثامنة والسبعين من عمره...

حررتها مكالمةٌ هاتفية في الوقت المناسب.

كم تغيّر! ومع ذلك... فإنّها تعرفت من جديدٍ على النظرة المعادية والهيئة المقاتلة لذلك الطفل ذي *الجلابية* الزرقاء، الذي حضر لمقابلة عمه في بيت شبرا. أبو سمسم، وصندوقه السحري.

يا سلام، يا سلام

شوف الفرجة دي كمان...

وتذكرت عام 1936، والشاب ذا الوجه الطويل المستدق البالغ النحول. حينها، رنّ جرس الباب، وفتحت له. كان يرتدي قميصاً أبيض بياقةٍ مهترئة. لقد حلمت به صيفاً كاملاً...

ـ حقاً، يا له من بيتٍ جميل! كرّر حسن حين عادت إلى الحجرة.

اعتقدت فيفيان بأنها اكتشفت في عباراته نبرة سخرية. فسألته عما آل إليه حاله كي تغيّر الموضوع.

أشار حسن بيده إلى أوسمته، فقد أصبح بكباشياً، «مكلّفاً بالمهمات الخاصة».

أثار هذا التوضيح الدقيق البلبلة في ذهن أمي، فقد فكّرت بمتاعب سليم الأخيرة مع مصلحة الضرائب. ألم يتم استدعاؤه في الشهر الماضي إلى وزارة الداخلية للتحقيق معه، بشكلٍ غير ودّي، عن تهريبٍ مزعومٍ لبعض أمواله إلى الخارج؟

ـ حسناً، أنا ذاهب، قال الضابط وهو يقدّم لفيفيان بطاقةً أخرجها من محفظةٍ مصنوعةٍ من جلد السحلية. فليتّصل بي *الخواجة* على هذا الرقم.

ثمّ شدّ على يدها بطريقةٍ أزعجتها طوال ما تبقّى من النهار.

7

كان صيف عام 1960 هذا صيف التلفزيون. وبمناسبة العيد الثامن للثورة، وضعت شاشاتٌ ضخمة في الأماكن العامة. وبالطبع، فقد سارع أبي إلى شراء أحد أول الأجهزة المطروحة للبيع في القاهرة، أكبرها حجماً وأغلاها ثمناً، والمزوّد بأكبر عددٍ من الأزرار ـ التي، والحقّ يقال، لا لزوم لها، لأنّنا لم نكن نلتقط سوى أزيزٍ، تقطعه بين حينٍ وآخر بعض خطابات عبد الناصر. كان *السفرجي* والخادمة مذهولين بصندوق الصور ذاك، تسمّرهما نظرة الرئيس الذي يبدو وكأنه يخاطبهما شخصياً. فكانا يقرفصان أمام الجهاز ساعاتٍ بأكملها، وهما يتمتمان بالأدعية.

ثمّ بدأ بثّ برنامجٍ هزيلٍ باللغة الفرنسية، لمدّة ساعةٍ أو ساعتين يومياً، وفيه أغنيةٌ رائجة نصفها عربيّ ونصفها فرنسي هي أغنية *يا مصطفى*، يتنازع عليها كلٌ من بوب عزّام وأورلاندو، شقيق داليدا، ويرددها دون كللٍ طلاّب الأخوة، واليسوعيين، والقلب الأقدس، وأم الرب كافة.

منذ بداية العام، أصبح يوم الجمعة يوم عطلةٍ إلزاميّ، حتّى في المدارس الخاصة. كنّا نصطفّ كل صباحٍ في الباحة ونغنّي «*الله أكبر*» بعد تحية العلم، تحت أنظار اليسوعيين الواجمة. وكان أكبر الطلاّب سناً يتبعون تدريباً عسكرياً مرّتين في الأسبوع تحت إشراف ضابط، مرتدين زياً موحداً ذا لونٍ أزرق رمادي، مع واقيات ساقٍ بيضاء. فكنّا نلقّم ونفرّغ بنادق إيطالية قديمة، مشحّمة، تعود

للحرب العالمية، ونتعلّم رمي الرمّانات اليدوية بعد نزع صمامها في آخر الباحة، قرب المباول.

كان الأب أندريه يستند بمرفقيه إلى شباك حجرته في الطابق الثالث، يراقبنا، غارقاً في أفكاره وهو يمصمص غليونه المطفأ. قبل بضعة أسابيع، شدّ إدمون توتة وهو على فراش الموت ابن أخته من كمّه، في انتفاضة احتضارٍ أخيرة، فكاد يقتلع أزرار جبّته، ثم قال له بصوتٍ مخنوق:

ـ لقد تجاوز عدد سكان مصر ثلاثةً وعشرين مليوناً. هذا مخيف، أليس كذلك؟

كانت ربطة العنق العريضة الخبّازية اللون تتدلّى على ذراع مقعد... مسكينٌ هو الخال إدمون. كان مغالياً ربما، وغريب الأطوار، لكنه في النهاية، لم يكن مجنوناً تماماً. ألم يبدأ كبار مسؤولي الدولة يشاطرونه قلقه؟ أما عائلاتنا، فقد ضاعف من شدة إحساسها بالضغط السكاني شعورها هي بتناقص عدد أفرادها بسبب الهجرة المتزايدة.

كنا نهرب من الشواطئ المزدحمة، فلم يعد وارداً الذهاب إلى الإسكندرية صيفاً: باعت يولاند دارة سيدي بشر، في حين أحاطت عماراتٌ قيد الإنشاء بسفينة سيزوستريس بيه التي أخذت تتداعى بعد وفاة صاحبها. حتى شاطئ العجمي بدأ يفقد طابعه الفردوسي المخصص لمن يطلق عليهم *Happy few* (النخبة السعيدة). الهدوء؟ أصبح ينبغي البحث عنه في مناطق أبعد بكثير: مرسى مطروح مثلاً، حيث استأجر سليم وفيفيان غرفاً في فندق ليدو.

في جنة عدن تلك، عدنا نشعر من جديد بأننا بين بعضنا؛ كان لليسوعيين فيها مخيّمٌ للعطلة، وهناك تخيّم أيضاً، في غابة نخيلٍ قريبة، فرقة الكشافة الكاثوليك «وادي النيل» التي كنت منتسباً إليها. كنا نرفع الأعلام كلّ صباحٍ بحماسٍ أكبر بكثير مما كنا نفعل في الثانوية.

كان البحر اللازوردي المحتجز في ذلك الخليج الخلاّب الذي

استراح فيه رومل أثناء الحرب منيعاً أمام أية موجةٍ. كان يغمى على أخواتنا وبنات عمنا لرؤية الشبّانِ ذوي الأجسام الرياضية من الاسكاندينافيين التابعين للقبعات الزرق في قوات الأمم المتحدة، المرابطة في مصر منذ «العدوان الثلاثي الغاشم»، والذين كانوا قد قطعوا خمسمئة كيلومتر في الصحراء، كلّ اثنين على دراجةٍ نارية، كي يغمروا أجسادهم المرمرية في المياه الدافئة.

وكلّ صباح، يجلس سليم إلى مائدة الفطور على سطيحة الليدو مثل باشا، ويتحسّر على أخيه جان بصوتٍ ضاجٍّ:

ـ حين أتذكر بأنّ هذا الأحمق ذهب ليسجن نفسه في برّادٍ في آخر الدنيا! كندا تلك، ليحتفظ بها لنفسه، بشرفي! أتركها له هدية.

8

صباح يوم اثنين، استجمعت فيفيان شجاعتها وذهبت إلى ثانوية اليسوعيين. كانت عصبيةً ومتوترة. وفي سيارتها، كررت لنفسها، للمرة العاشرة، الجملة الطويلة التي حضّرتها مسبقاً.

كانت أمي تخشى اللحظة التي سوف تعلن فيها الخبر لأندريه، فلقد أثار شقيقها الأكبر الرهبة في نفسها على الدوام، إذ إنه لاينتمي إلى عالمٍ آخر وحسب، بل إلى جيلٍ آخر أيضاً، «جيل السلطان حسين»، كما كان ألكس يقول ساخراً.

طُلب منها الانتظار في البهو. وبعد عشر دقائق، وصل الأب أندريه وجبّته تصدر حفيفاً خفيفاً. وخزت وجنتيها لحيته التي تفوح منها كالعادة رائحة التبغ، وسار بها إلى مكتبٍ صغيرٍ مجاور.

ـ أندريه، جئت لأقول لك...

أعفاها من بقية الجملة، معلّقاً بصوتٍ متعَب:

ـ إذن، أنتم راحلون؟ أنتم أيضاً.

ـ سليم مقتنعٌ بأنّ لبنان...

قطعت حديثها، واستدركت:

ـ أنت تعرف، يا أندريه...

ـ أعرف.

كانت أمي تتوقع اللوم، لكنها لم تسمع سوى بعض الاحتجاج المبطّن:

ـ أترين، يا فيفيان، لقد أخطأ سوريو مصر حين اعتقدوا بأنّ النجاح الاجتماعي يعفيهم من الاندماج. لا ترتكبوا نفس الخطأ ثانيةً في لبنان: كونوا لبنانيين بالكامل.

في الشهر السابق، كان الأب أندريه قد قال نفس الكلام لرنيه عبد المسيح وزوجته اللذين أتيا يعلنان له خبر رحيلهما إلى كندا:

ـ كونا كنديين بالكامل. وابذلا جهدكما في العناية بالأولاد؛ فالجذور هنا، لكن الشجرة ستتفرع هناك. حذارِ، فمثل هذه الأشجار قد تنمو بطريقةٍ غريبة، وثمارها أحياناً محيِّرة ...

قرّر سليم الرحيل منذ ثلاثة أشهر، فزيارةٌ أخرى لحسن إلى الفيلا في غيابه جعلته يتيقّن من أنّ هذا الرجل لن يتركه بخير. كان تحقيقه حول قضية رشوةٍ مبهمة يخفي شيئاً آخر.

كما أنّ عمليات التأميم الأولى قد أقلقت أبي كثيراً، رغم أنه شخصياً لم يكن ضحيةً لها. «في مجتمعنا العربي الاشتراكي، لم يعد هناك مكانٌ لأصحاب الملايين والإقطاعيين»، أعلن عبد الناصر. فلو لم يوزّع جورج بطركاني ثروته بحذق بين أبنائه، ولو لم يدّخر بعض المال في سويسرا، إلامَ كانوا سينتهون اليوم ؟ كانت الصحافة ـ المؤممة هي الأخرى ـ تنشر قوائم «لأصحاب الملايين والإقطاعيين»، مثل الكونت هنري توتة الذي وجد الشرطة تداهم بيته فور إعلان الإجراءات الحكومية.

كانت تروى قصصٌ مخيفة عن الطريقة التي يعامل بها السجناء السياسيون. ففي معتقل طرة، كان محكومٌ بالأشغال الشاقة، كسرت الضربات ساقيه، يُجبر على الزحف كلّ صباح إلى منطقة عمله. وقضى آخر تحت التعذيب بعد أن تعرّض لاعتداءاتٍ جنسية. وقيل عن طبيب نعرفه، اعتقل بتهمة الشيوعية:

ـ كانوا يضعون له أنبوباً في دبره، ويملأون بطنه بالماء، ثم يسيرون على جسده...

أعار والدي كل تلك القصص أذناً صماء حتى خريف 1960، إلاّ أنّ نظرته للأمور ما لبثت أن تغيرت. فأصبح يشتري *مجلة لبنان La revue du Liban* كل أسبوعٍ ولا يملّ من استعراض الأخبار الاجتماعية المصورة فيها: «الرئيس شمعون» هنا، «الشيخ بيير» هناك... فالمسيحيون اللبنانيون لا يتمتعون بكامل الحرية الاقتصادية والسياسية فحسب، بل إنهم يحكمون أيضاً. كان العمل متوافراً في بيروت، ومنها، يمكن المتاجرة مع إمارات الخليج. بدا جميع المصريين الذين استقروا في لبنان في غاية الارتياح. حتى ألكس، الذي لا يرجى منه نفع، توصل إلى افتتاح مرآب في ضاحية بيروت، وأمه التي ذهبت لتزوره لم تعد ثانيةً إلى القاهرة... شيئاً فشيئاً، أخذ لبنان يبدو لسليم أرضاً موعودة.

أما فيفيان، فقد زعزعها رحيل شخصين: ميشيل إلى فرنسا، وسلوى إلى بون، حيث ذهبت لتلتحق بزوجها الذي يعمل في السفارة.

لقد فقد ميشيل كلّ نقاط ارتكازه منذ بعض الوقت، إذ أنّه توقّف عند الأيام الجميلة لحفلات الشاي في الثانوية، والمحاضرات التي تليها النقاشات عند الكتّاب، والأمسيات الثقافية عند آمي خير وكيتي ليمونجيللي. وفي خريف عام 1961، حين علم بأنّ تمثال سليمان باشا سوف يزال من الساحة التي كانت تحمل اسمه، تأكّد عرّابي أنّه لم يبق لديه ما يفعله في هذه البلاد.

أمّا سلوى، فلن تعود قريباً. فهي، كزوجها، كانت تكره البرجوازية العسكرية الجديدة التي استولت على كافة المراكز. وبمواجهة الوصوليين الذين جعلها اختلاطها بهم عن قرب غير قادرةٍ على احتمالهم، برز جانب «العائلة التركية الأصيلة» لديها. حتى عبد الناصر لم يعد يروق لعينيّ تلك المسلمة المناصرة لحقوق المرأة. لقد بقي حسّها الوطني لم يمس، إلاّ أنّها فضّلت أن تمارسه مؤقتاً بعيداً عن بلدها.

عرف أبي بأنّه لن يحصل أبداً على سمة خروج دون ضوءٍ أخضر من حسن الخطير ذاك، وأخذت هذه القضية تقضّ مضجعه أكثر فأكثر، مسببةً له أرقاً مصحوباً بآلام في المعدة. أما فيفيان، فأخذت تعاني من نوبات بكاء، مما زاد الأمر تأزماً. وذات مساء، حوالى منتصف الليل، قالت له بعد أن فقدت القدرة على احتمال المزيد:

ـ سأذهب غداً لمقابلة حسن. سوف أطلب منه سمة خروج.

ـ هل جننتِ؟ تريدين أن تودي بنا في داهية؟ هذا رجلٌ فاسق.

في العاشرة من صباح اليوم التالي، دخلت أمي، وهي ترتعد من الخوف، إلى ثكنةٍ عسكرية في العباسية. نظروا إليها من رأسها إلى أخمص قدميها، ثم أدخلوها إلى مكتب *البكباشي*.

فاجأته الزيارة، وأراد أن يبرز أهميته أمامها، فهاج وماج ربع ساعةٍ بأكملها، معنّفاً مرؤوسيه، صارخاً بالأوامر على الهاتف... ثمّ أشعل لفافة تبغٍ وتنازل بالاستماع إلى أمي.

ـ أتيت لأطلب منك خدمة...

اضطربت وهي تسمع صوتها؛ أحسّت بأنها تبيع نفسها.

ـ نودّ الذهاب لزيارة أقاربنا في لبنان هذا الصيف...

ـ لست أنا من يمنح سمات الخروج، أجاف بجفاء.

ـ أنا أعلم، لكنني ظننت...

شعرت بأنها عاريةٌ تماماً.

ترك حسن مقعده ببطء ودار حول المكتب متجهاً نحوها. مذعورةً، نهضت فيفيان بعنفٍ وفي نيتها الركض نحو الباب، ثمّ تمالكت نفسها في اللحظة الأخيرة.

كانا متقابليْن تماماً، العينان في العينين. ارتسمت ابتسامة خفيّة على شفتيْ الضابط، وفي تلك اللحظة قالت له بما يشبه الصراخ:

ـ عمّك رشيد كان جزءاً من عائلتنا. كان يعتبرني ابنته.

ارتبك حسن ولم يعرف بماذا يجيب. واستغلّت فيفيان الفرصة كي تدفع بالأمور لصالحها، وسألته بصوتٍ حازم، يكاد يكون متبرماً:

ـ إذن، هل أستطيع الاعتماد عليك بالنسبة لسمة الخروج تلك؟

فيما بعد، لم تفهم فيفيان أبداً كيف انبثق رشيد بينهما، ولا لماذا انصاع *البكباشي* حسن صبري بتلك السهولة.

9

في بهو المطار، كانت بعض الأوراق القذرة مرميةً على الأرض.

إنه العالَم مقلوباً، قال إدوار ديلليم بصوتٍ حاول قدر استطاعته إضفاء المرح عليه. أنتم ترحلون عن مصر، وأنا أبقى...

بالقرب منه، كانت ميما شاحبةً كالموتى، فقد كان رحيل سليم، بعد رحيل جان، يهزّها هزاً. كان ابنها يغادر مثل لص، تاركاً أعماله لمدير مبيعاتٍ لن ينتظر مرور بضع ساعات ليستولي على الخزنة أو ليبلّغ الشرطة. لكن مشاريع ابنها البكر، روجيه، هي أكثر ما كان يؤلم جدّتي: ألم يكن يخطّط للاستقرار في الولايات المتحدة، حتّى لو اضطر للعودة إلى الدراسة من أجل تعديل شهادة الطب التي يحملها؟ في السادسة والأربعين من العمر!

لم تكن الرِقة إحدى صفات رجال الجمارك في المطار. فقد كانوا يفتّشون كل المسافرين المغادرين بدقة، ولا يتوانون عن إفراغ حقائبهم بكاملها، وإرسال المهرّبين إلى السجن. أمضى والديّ، وقد استبد بهما القلق من عبور الجمارك، ليلةً لم يعرفا فيها طعم النوم.

كان الأب أندريه قد حضر ليودّعنا، يصحبه سائقٌ من الثانوية، وعبّرت فيفيان، وهي تنقر بعصبيةٍ على نظاراتها السوداء، عن قلقها عليه:

ـ لن يعود هناك أحدٌ تقريباً من عائلة بطركاني في مصر. كما أنّ معظم معارفنا قد رحلوا. سوف تبقى وحدك...

ـ نعم، وحدي، مع ثمانيةٍ وعشرين مليوناً من السكان، أجاب اليسوعيّ بصوتٍ مرح.

ـ ثمانية وعشرون مليوناً! صاح إدوار ديلليم وهو يجفف جبينه بمنديل. هذا مخيف، أليس كذلك؟

انفجر أندريه وسليم بضحكةٍ مغتصبةٍ قليلاً، وانخرطت أمي في البكاء.

خاتمة

مذكرات ميشيل

شاتيل غويون، 6 أيار 1964

تطيب لي الإقامة هنا يوماً بعد يوم، ويسعدني أن أتذكّر بأنّ السلطان حسين كان يأتي إلى هنا لدورةٍ علاجية كل عام، قبل الحرب الأولى. في شاتيل غويون، أشعر بأنني في بيتي. ألم يبنِ كلّ منا عشّاً من جديدٍ بطريقته؟ يا له من مسارٍ غريبٍ لأولئك الذين كانوا يدعون في مصر بالسوريين ، الذين أصبحوا يعاملون اليوم في لبنان على أنهم مصريون، ويقدّمون أنفسهم في أوروبا بصفتهم لبنانيين.

لولا نفسها يبدو بأنها قد استقرّت في بيروت، إن استطعنا القول... أتساءل كيف استقبل أندريه خبر زواجها الثالث. في الماضي، كان يقال لها: «سوف تنتهين كخالتك ماغي». لكن ماغي كانت تجمع العشاق، في حين تجتهد لولا كي تتزوج المعجبين بها.

غداء في بيت بول والسويسرية في جنيف، يوم الأحد الماضي. دون ملوخية، بالطبع. لقد شطب بولس على مصر بصورةٍ نهائية، بل إنّه يرفض الحديث عنها. وحين يوجّه إليه أحدٌ سؤالاً بالعربية، فإنّه يجيب بالفرنسية، بتلك اللكنة الخفيفة المحلية التي لم أتمكن من الاعتياد عليها. وبالمقابل، فإنّ السويسرية لا تملّ من الحديث عن القاهرة، ولا يتوقف الأطفال عن توجيه الأسئلة لي.

«في الحقيقة، عمو سلطان، قال لي أصغرهم سناً، إنّ أحداً لم يجبرنا على ترك مصر».

نظرت إليه، وقد باغتني قليلاً، ثم أجبته: «هذا صحيحٌ ياحبيبي، فنحن لم يجبرنا أحدٌ على ترك مصر، في حين طُرِد منها آخرون. لقد تصرفوا فقط بحيث ندفع أنفسنا بأنفسنا خارجاً. أترى، هذا الأمر أشدّ إيلاماً بكثيرٍ من ركلةٍ على المؤخرة!»

لست متأكداً من أنّه قد فهم جيداً. وهل كنت أنا نفسي راضياً عن إجابتي؟ إنّ الصيغ المقتضبة لا تتوافق مع قصةٍ لا لون محدداً لها كقصتنا. نحن لم نطرد ولم ندفع أنفسنا خارجاً. الحقيقة هي بين هذا وذاك. لقد كنّا دائماً بين أمرين: بين لغتين، بين ثقافتين، بين كنيستين، بين كرسيين... كان بابا يقول: «إنها ليست وضعيةً مريحةً دوماً، إلاّ أنّ إليتينا صُنعتا على هذا النحو». وحين يكون المرء، مثلي، هامشياً في جاليته بالذات...

ولأننا بين اثنين، كان علينا أن نكون صلة وصل. إلاّ أنّ الحقيقة تلزمني بأن أقول إننا لم نلعب غالباً هذا الدور؛ لقد فضّلنا الوقوف جانباً، والبقاء فوق المعمعة.

في جنازة السلطان، كنّا على الشرفة. «من هنا، الرؤية أفضل»، قال لي أبي حين صعدت لأنضمّ إليهم في المكتب. لقد أمضينا، في نهاية المطاف، معظم حياتنا على الشرفة: ننظر إلى الآخرين وهم يمرون... إنّ الشرفة تؤمّن للمرء الارتفاع، والأهم من ذلك أنها تؤمّن له البعد؛ كانت الشرفة تجنّبنا تلقي الضربات أو تلويث أيدينا، كانت شهادة إقامة، دلالةً على التجذّر: إننا في بيتنا، في حين كان الآخرون، في الأسفل، القادمون من أمكنةٍ أخرى، يغامرون في أرضٍ مجهولةٍ لهم. وأظنّ بأنّ الشرفة مثّلت أيضاً ميزة كونها ملتبسةً تماماً: فمن أعلاها، يمكن أن نُعتبر معجَبين بمقدارِ ما يمكن أن نبدو مستنكِرين، أو مجرد مشاهدين. وهل شعرنا يوماً بالارتياح إلاّ في الالتباس؟

لا، يا حبيبي، لم يجبرنا أحدٌ على ترك مصر، لكنّ الهواء فيها

بات خانقاً، لم تعد مصر التي عرفناها. لقد رحلنا بمحض إرادتنا، بهدوءٍ، على رؤوس أصابعنا، دون «طربوشٍ» أو زمور.

من كان يتخيل نهايةً كهذه؟ لم يكن ليحدث لنا شيءٌ. لم يكن ليحدث لنا أي شيء طالما أنّ السلطان يحبّ لافونتين...

«نحن لا شيء»، كان الكونت هنري يردّد في الماضي بين عبارتيْ تعجّبٍ باللاتينية. لم نكن نعلم بالضبط إن كان إدراكه هذا يقلقه، أم أنه، على العكس، يريحه. أما بابا، فقد كان يلخّص الوضع بطريقةٍ أدق: «لسنا سوريين، ولا مصريين: نحن روم كاثوليك».

أندريه مقتنعٌ بأنّ السوريين لم يبذلوا جهداً للاندماج في مصر. لكن هذا ليس إلاّ جزءاً من الحقيقة. فلكي نندمج، كان يلزمنا إذنٌ بذلك. والحال أنّنا لم نعتبر يوماً مصريين حقيقيين، بل فقط متمصّرين ...

يبقى أندريه حالةً خاصة، نسيج وحده. لقد كان على الدوام منسجماً مع ذاته، ونغّص بابا الذي لم يتمكن، رغم إعجابه به، من الاعتراف به تماماً ابناً له.

أتصوّر أنّ ابني بالمعمودية يحضّر لسليم مفاجأةً من نفس النوع، وإن كانت دنيويةً أكثر... قيل لي إنّ سليماً، في لبنان، يعيش سيّداً أكثر منه في أي وقتٍ مضى، فأعماله مزدهرة. وهو على وشك انتزاع وكالةٍ لماركة سيارات ألمانية شهيرة. إنّ شبَهَه بأبي يدهش الجميع، وفي الأوساط المصرية في بيروت، لم يعد أحد يدعوه إلاّ «سليم بيه». لكنّ ابنه البكر يخيب آماله: فشارل يريد أن يدرس الفلسفة ولا يحلم سوى بفرنسا. لم يبق إلاّ أن يتهموني بأنني صرفته عن عالم الأعمال...

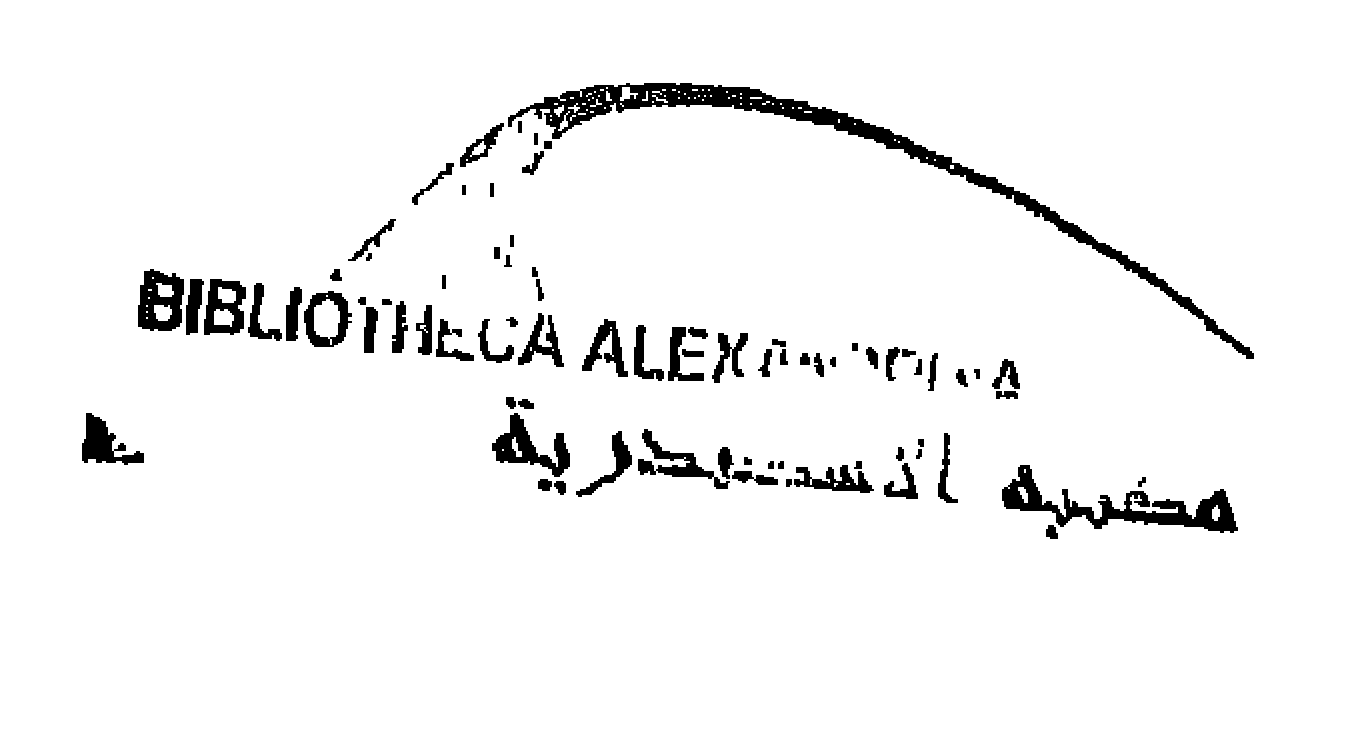
أثناء خروجنا من المقبرة، يوم وفاة بابا، كان شارل يقف قرب الحارس. لم يكن يبكي، بل كان يتفرّس في وجوهنا، واحداً واحداً. وضعت يدي على كتفه دون أن أدنى كلمة، وتوجهنا نحو السيارات.

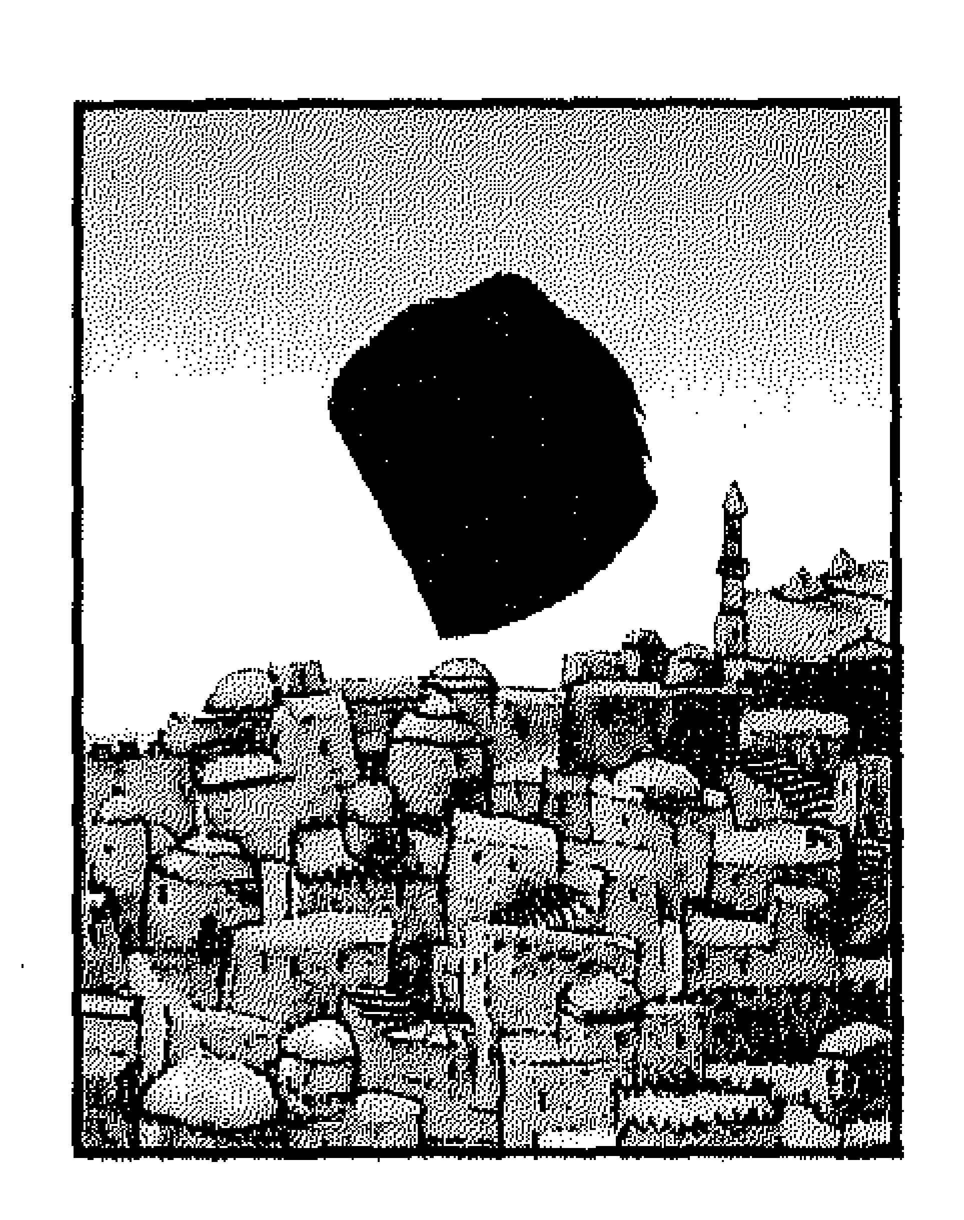
«لماذا هذه اليمامة فوق مدفن العائلة؟» سألني ونحن نمشي. لم أكن قد طرحت السؤال على نفسي أبداً؛ ومازلت حتى اليوم أجهل

ماالذي عنّ لجدّي حين أوصى على تلك الشاهدة المصنوعة من رخام إيطالي. إنها، على كلّ حال، أكبر بكثيرٍ من شاهدات العائلات المجاورة. لقد كانت تطلعات الياس بطركاني أبعد مما ينبغي: ربما كان يضع في حسبانه توفير مكانٍ كافٍ لأجيالٍ عدّة، ناسياً صفتنا كبدوٍ رحّل.

لعلّها لم تكن يمامةً، يا حبيبي، بل حمامةً زاجلة...

الفهرس





الطربوش

في ربيع عام 1916، زار سلطان مصر، مصحوباً بكامل حاشيته، ثانوية اليسوعيين في القاهرة، وسرد أمامه فتىً سوري إحدى حكايات لافونتين وهو يرتجف من الانفعال؛ وبقيت الذكرى المبهرة لذلك اليوم ترافق الفتى طيلة حياته.

ينتمي ميشيل بطركاني إلى عائلةٍ شاميةٍ مسيحيةٍ مشبعة بحب الثقافة الفرنسية؛ وفي مصر الرائعة المتعددة الثقافات والخاضعة للانتداب البريطاني في ذلك الحين، كان هؤلاء المسيحيون المشرقيون أقليةً تتأرجح بين عالمين.

لماذا غامر جورج بطركاني، والد ميشيل، بصنع الطرابيش؟ إن هذه العمرة الذكرية التي يشبّهها أعداؤها بأصيص الزهور كانت آنذاك شعاراً وطنياً، كما كانت رمزاً لمجتمعٍ سعيد سوف تؤدّي الاضطرابات التي ستحصل خلال ذلك العصر إلى اختفائه.

إنها ساغا عائلية، روايةٌ عن الزمن الماضي في شرقٍ قريبٍ جداً. تستعيد لنا «الطربوش» عالماً من العذوبة والرقّة وهو يتنقّل ما بين سطيحات فندق هليوبوليس، وشواطئ الإسكندرية، ومروج نادي الخديوي الرياضي، عالماً تعبره شخصياتٌ غريبة الأطوار، مثل ناندو المرابي الشبيه بالفيل، وماغي المثيرة بزمرة عشاقها، ومكرم القبطي الذي أقسم أن يرتدي ثياب الحداد حتى رحيل آخر جنديٍ إنكليزي...

بعد فترةٍ قصيرةٍ، سوف يستولي ضباطٌ يرتدون القبعة العسكرية على السلطة، وترحل موضة الطربوش؛ سيكون هذا إيذاناً بنهاية عالمٍ، وبداية منافٍ أخرى بالنسبة لسوريي مصر.